تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

« ت ٧١٠ هـ »

حققه وخرّج أحاديثه

يوسف علي بديوي

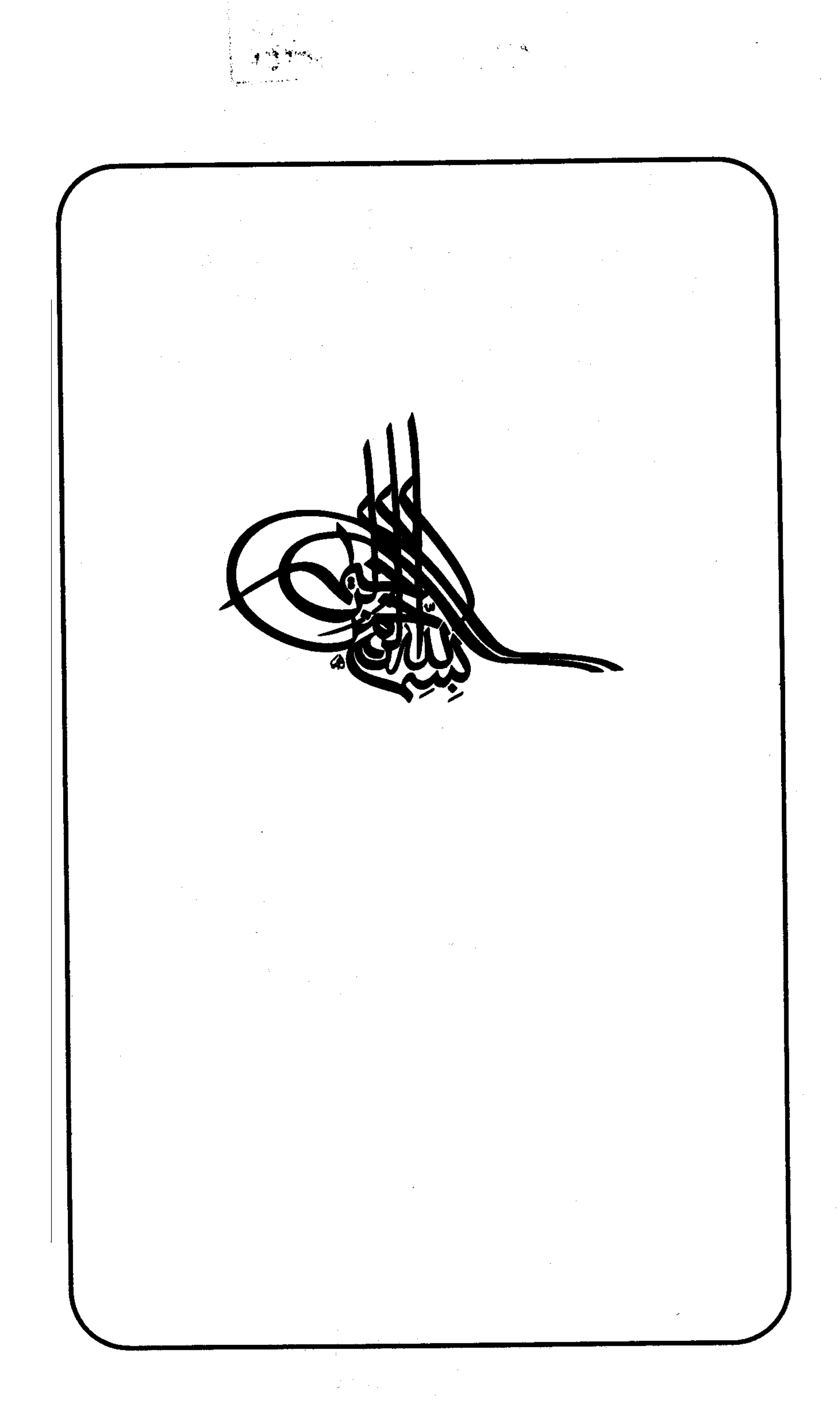
راجعه وقدّم له

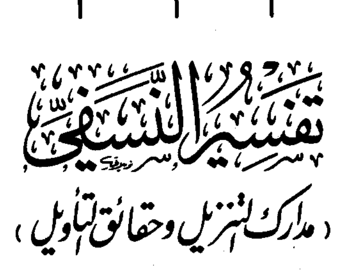
محيي الدين ديب مستو

الجزء الأوّل

دار الكلم الطيّب

بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير النسفي
(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقُوقُ ٱلطَّبعِ وَٱلتَّصْوِيْرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ

الطّبعَة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢

بيروت. ص.ب : ١١٣/٦٢١٨

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمد الشاكرين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من اتبع هدي كتاب الله المبين، وعمل بسنة رسول الله ﷺ الأمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، وهو الدستور الخالد للأمة الإسلامية، منه تستمد عقيدتها وتنبع تشريعاتها، وبنور مبادئه وآدابه تهتدي إلى الحق، وتستقيم على الصراط، وتعتصم من كل ضلال أو زيغ.

وقد أنزله الله قرآناً عربياً، بلغة العرب ووفق أساليب بلاغتهم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وكان الصحابة يفهمونه ويعلمون معاني مفرداته وتراكيبه، ولكنهم يتفاوتون في معرفة تأويله وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، وكان أكثرهم كلاماً في التفسير عبد الله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

كما اشتهر من التابعين مفسرون، ثم جاء دور المؤلفين في التفسير على اختلاف مدارسهم، وأساليبهم، وتنوع مناهجهم واتجاهم في شرحهم لكتاب الله تعالى بما يتناسب مع كل عصر.

ومن المفسرين الذين حفظت لنا الأجيال تصنيفه أبو البركات عبد الله بن محمود النسفي المتوفىٰ سنة (٧١٠هـ). وتفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» حظي باهتمام العلماء قديماً وحاضراً قراءة وتدريساً في حلقات العلم، وهو من مقررات المعاهد والكليات الشرعية، وقد قرأت منه جزءاً كبيراً على شيخنا العلامة عبد الرحمن الزعبي (الطيبي) ـ رحمه الله تعالى ـ في

معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء بدمشق ما بين سنة ١٩٥٦ و١٩٥٨م.

وقد حاولتُ التعرُّف على المميزات الجوهرية لهذا التفسير فوجدتُها لا تتعدَّى خمسة أمور:

١ ـ جمعه بين محاسن تفسيري الكشاف والبيضاوي، وابتعاده عما في «الكشاف» من الاعتزال، وعما في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة بشكل عامّ.

٢ ـ التوسط بين القصر والطول، والبعد عن الاختصار المُخلّ، والشرح المُملّ.

٣ ـ اعتناؤه بالقراءات ووجوه الإعراب من غير استطراد.

٤ ـ اهتمامه بالأحكام الفقهية من خلال المذاهب الاجتهادية، وهو حنفي ينتصرُ لمذهبه، ويردُّ على من خالفه من غير غلوّ ولا تعصب مذموم.

٥ ـ لم يحفل بكثير من الإسرائيليات، وردَّ كثيراً منها، ولكنه لم ينج من إيراد بعضها.

وقد وفقنا الله تعالى لإخراج هذا التفسير في طبعة جديدة محققة، تبرز هذه الجوانب العلمية المتقدمة، وقد تمت مقابلة المطبوع منه على نسخة خطية موثقة، وانصبَّ جهد الأستاذ يوسف علي بديوي على تصحيح نصوصه وتخريج أحاديثه، كما تفضل الأستاذ أحمد محمد السيد بقراءة التجربة الثالثة من تجارب تصحيحه، وكان من نصيبي مراجعة التجربة الثانية من تجارب تنضيده على أحدث وأجمل برامج الحاسوب (الكمبيوتر).

فأسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل في خدمة كتابه العزيز، وأن يكتب له القبول التام عند الأساتذة الأجلَّاء والطلاب الأعزاء، وأن يجعل أجر ذلك في صحائف أعمالنا، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

محيي الدين ديب مستو

(أبو أديب)

دمشق في ٣ رجب ١٤١٦هـ

٢٥/١١/١٩٩٥ م

□ □ □

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل الكتاب للعالمين نذيراً؛ فيذكِّر المؤمنَ ليكون صبّاراً شكوراً، ويُنْذِر الكافرَ ناراً وسعيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أرسله ربُّه شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً رسول الله لا نبيَّ بعده.

أمّا بعد: فإنَّ اللهَ تعالى أنزل كتابه الكريم يهدي به إلى الصِّراط المستقيم مَن اتَّبع رضوانه سُبُل السلام، ويُخْرِج الناسَ من ظلمات الجهل والعماية إلى نور العلم والإيمان والحجّة الساطعة.

ووقف الصَّحابةُ أمام القرآن يفهمون نصوصَه، ويسألون رسولَهم ﷺ عمَّا خفي من معانيه، وعمَّا دقَّتْ مراميه، فيكشف لهم الرسولُ ذلك، ويُجلِّي لهم ببيانه وبلاغته النبوية. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وخَلَف خلفٌ أوَّلوا القرآن على غير تأويله، وسلكوا في شرح نصوصه طرقاً ملتوية، فيها التعسُّف والتكلُّف، فكان في ذلك فتنة كبرى وفساد عريض. وتصدَّى لهؤلاء جمهرةُ العلماء البارعين، فوضَّحوا المعاني، وكشفوها، وأفهموا الناسَ المرادَ بأدقِّ لفظ، وأعذب بيان.

ونشأت مدارس في التفسير كثيرة، كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي الجائز والمذموم، إضافةً إلى تفسير الفلاسفة، والفقهاء، والتفسير العلمي، والمذهبي، والأدبي الاجتماعي. . .

ولكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها.

ويأتي الإمام النسفي عَلَماً بارزاً في دنيا المفسِّرين، فيدوِّن مُصنَّفه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ليكون موجز العبارة، سهل المأخذ، وسطاً، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، مُحلًّى بأقوال أهل السُّنَّة والجماعة، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة... إلى ما هنالك من محاسن كثيرة.

وممَّا يُلْحَظُ على هذا التفسير أنَّه مُقِلٌّ جداً في ذكره للإسرائيليات، وهذه محمدةٌ له، فإن ذَكَر شيئاً من ذلك تعقَّبه في الغالب، وأحياناً يترك ذلك لفطنة القارىء.

وهو تفسيرٌ متداول بين أهل العلم، وقد رغبت دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، أن تُقدِّما لقرائهما الأعزاء، طبعةً محققة، ونشرة علمية، فأحضرتا له نسخة مخطوطة، فخرج في أصدق مخبر، وحلَّتاه بأرقى أنواع التنضيد الضوئي، والورق الفاخر، والحلة القشيبة، فبدا بأبهى منظر، فهو يجمع بين الحسنيين.

ومن الله تعالى نسأل حُسْنَ الثواب، وكمال الرضا، وتمام المغفرة، وأن يكتب ثوابَ ذلك في صحائفنا، وصحائف والدينا، إنه على ما يشاء قدير.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

يوسف بديوي

دمشق في ١ / ٧ / ١٤١٦هـ
١ / ١٢/ ١٩٩٦م

□ □ □

ترجمة المؤلف

● **اسمه ونشأته:**

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي، أبو البركات. لُقِّب: حافظ الدين، ونُسِب إلى مدينة نَسَف[١]، فغلبت نسبتُه إليها.

وُلِد في مدينة إِيْذَج[٢]، إلا أننا لا نعرف سنة ولادته بالتحديد.

كان مشهوراً بالزهد، والصلاح، والتقوى. وقد تفرَّغ للعلم، والدراسة، والبحث، وعرف اللغة العربية والفارسية، ورحل إلى بغداد في نهاية حياته، وذاع صيتُه في الآفاق.

قال اللكنوي: «كان إماماً كاملاً، عديم النظر في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه»[٣].

ونَعَته ابنُ حجر العسقلاني بـ «علامة الدنيا»[٤].

وعلى هذا نرى أنَّ النسفي ذو مكانةٍ مرموقةٍ بين فقهاء عصره ومتكلِّميه، وقد عدَّه ابن كمال باشا من طبقات المقلِّدين القادرين على التمييز بين القويِّ والضَّعيف؛ الذين شأنهم ألَّا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة، وهي أدنى طبقات المتفقهين[٥]. وقال: «وبه اختتم الاجتهاد، ولم يوجد بعده مجتهد في المذاهب»[٦].

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٢٨٥) والروض المعطار (٥٧٩).
(٢) معجم البلدان (٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٣) الفوائد البهية (١٠١).
(٤) الدرر الكامنة (٢/ ٢٤٧).
(٥) النسفي ومنهجه في التفسير، لأميمة بدر الدين، رسالة ماجستير عام ١٩٩٠م، غير منشورة.
(٦) الفوائد البهية (١٠١ ـ ١٠٢).

وقد نشأ النسفي في بيئةٍ علمية دينيّة، كان لها أهميّة كبيرة في حياته، وفي نشأته العلمية، فمال إلى اعتزال الحياة السياسية، والتفرُّغ للعلم.

● **شيوخه:**

لم تذكر المصادر أكثر من ثلاثة شيوخ للإمام النسفي؛ مما يحملنا على الظن أنَّ ثمَّة شيوخاً آخرين أغفلت الكتبُ ذِكْرهم، فلم يصلْ إلينا شيءٌ عنهم.

أمَّا الثلاثةُ فهم:

(١) شمس الأئمة الكردري، محمد بن عبد الستار بن محمد العمادي(١)، توفي سنة (٦٤٢هـ).

(٢) بدر الدين خواهر زادة، محمد بن محمود بن عبد الكريم(٢)، توفي سنة (٦٥١هـ).

(٣) حميد الدين الضرير، علي بن محمد بن علي الرامشي(٣)، توفي سنة (٦٦٦هـ).

● **تلامذته:**

ذكر المؤرِّخون تلميذَيْن له، هما:

١ ـ السفناقي، الحسين بن علي بن حجاج، حسام الدين(٤)، توفي سنة (٧١٤هـ).

٢ ـ الجيلي، محمد بن محمد(٥).

● **مذهبه الفقهي والكلامي:**

تابع النسفي أستاذَه الكردري في موافقة أبي حنيفة في الفقه، كما أكَّدتْ ذلك

---

(١) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٢٥).
(٣) انظر ترجمته في الفوائد البهية (٢٠٠).
(٤) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٠٢).
(٥) ذكره طاشكبري زادة في مفتاح السعادة (٥٧/٢).

كُتُبه الفقهية، وبشكل خاص «كنز الدقائق» الذي جعله خالصاً في الفقه الحنفي، كما أنَّ آراءه الفقهيّة المبثوثة في تفسيره تدلُّ على ذلك.

أمَّا نزعته الكلامية فتبدو واضحة في تفسيره، حيث يُؤيِّد مذهب أبي منصور الماتُريدي ـ رحمه الله ـ.

● **مُؤلَّفـاته:**

أمَّا المطبوعة فهي:

(١) بحر الكلام: كتاب في أصول الكلام.

(٢) عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة: مطبوع بعناية الأستاذ كيورتن.

(٣) كشف الأسرار شرح المصنف على المنار: لخَّص فيه أصول الفقه لشمس الأئمة السرخسي، وهو مطبوع في جزأين.

(٤) كنز الدقائق: متن مشهور في الفقه.

(٥) منار الأنوار: في أصول الفقه.

(٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: وهو كتابنا هذا[١].

وأمَّا كتبه المخطوطة فهي:

(١) الاعتماد في الاعتقاد.

(٢) عمدة العقائد.

(٣) الكافي في شرح الوافي.

(٤) المستصفى في شرح الفقه النافع.

(٥) المصفّى في شرح المنظومة.

وهذه المؤلفات الكثيرة تشهد بمكانة النسفي العلميّة، وأستاذيته.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى في وزارة المعارف بالقاهرة سنة (١٩٤٢م) في (٣) مجلدات، ثم صدر في دمشق عن المكتبة الأموية (مجلدان)، ثم صدر مع تفسير الخازن، عن دار الفكر ببيروت (٤ أجزاء) وغير ذلك.

● **وفـــاته:**

اختلف المؤرِّخون في تحديد سنة وفاة النسفي، فذهب اللكنوي[١] والبغدادي[٢] وصاحب كشف الظنون[٣] إلى أنَّ وفاته كانت عام (٧١٠هـ). أمَّا ابنُ حجر العسقلاني[٤] فرأى أنَّ وفاته كانت عام (٧٠١هـ)، وذهب القاسم بن قطلوبغا[٥] إلى أنه توفي بعد عام (٧١٠هـ).

□ □ □

(١) الفوائد البهية (١٠١).
(٢) هدية العارفين (١/ ٤٦٤).
(٣) كشف الظنون (٢/ ١٩٢٢ ـ ١٢٧٤ ـ ١٨٢٣ ـ ١٨٦٧).
(٤) الدرر الكامنة (٢/ ٢٤٧).
(٥) الفوائد البهية (١٠١).

تفسير النسفي

استعان النسفيُّ في تفسيره بعددٍ من تفاسير السابقين له، وهي:

☆ الكشاف، للزمخشري: وهو مصدر أساس في تفسيره، حيث لخَّص النّكات البلاغية، والإشارات اللغوية، والاستطرادات الأدبيّة.

☆ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: ويبدو تأثُّر النسفي به في تتبُّع الكثير من نظرات البيضاوي اللغوية، ونَقّل عبارات حرفية.

☆ تفسير قتادة: حيث نَقَل عنه في كثير من المواضع.

☆ تفسير مجاهد: حيث استعان به، وأخذ عنه أقواله.

☆ التأويلات، لأبي منصور الماتُريدي: ولا غرابة في ذلك؛ حيث أنَّ النسفي ماتُريدي، وأحبَّ أن تكون آراء شيخه أبي منصور مُؤيِّدة لآرائه في كتبه ومُؤلَّفاته.

☆ شرح التأويلات.

☆ اللباب.

والكتابان الأخيران لم يذكر النسفي اسمَيْ مؤلِّفيهما.

كما استعان النسفي بمصادر كثيرة من كُتُب الحديث، ومنها:

صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحاح المصابيح للبغوي، وبعض المسانيد.

أمَّا مصادره في الفقه فقد أشار إلى:

ـ المبسوط، للبزدوي (ت ٤٨٢هـ).

ـ الكافي (له).

- شرح المنار (له).

ومن مصادره اللغوية:

● كتاب سيبويه.

● التبيان في إعراب القرآن.

● الصحاح، للجوهري.

● كشف المعضلات وإيضاح المشكلات، للباقولي الضرير.

ومن مصادره في القراءات:

○ مصحف عبد الله بن مسعود.

○ مصاحف أهل الكوفة، وأهل الحرمين، والبصرة، والشام.

○ مصحف نافع.

○ مصحف حفصة.

○ الإشارة والبشارة.

○ الوقوف.

وقد كان للعلماء آراء في تفسير النسفي، نذكر منها ما قاله عطية الجبوري[١]:

«القارىء في تفسير النسفي يلاحظ أنه ملخّص لتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي. ولمّا كان النسفي من أهل السنة والجماعة، وهو حنفي المذهب؛ لذا لم يذكر كلّ ما يُصادفه من قضايا الاعتزال في الكشاف، ويستخلص منه النكت البلاغية، والمعاني العقلية الدقيقة. أضفْ إلى ذلك المحسنات اللفظية، فجاء كتابه هذا وسطاً بين الطول والقصر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل زاد عليها كثيراً من أقوال النحاة والإعراب ووجوه القراءات، وإسناد القراءات إلى أصحابها. وكان مقتصراً في ذلك على القراءات السبع. وهو يسيرُ في تفسيره على طريقة الأسئلة والأجوبة؛ إلا أنه لم يجعلها ظاهرة».

---

(١) دراسات في التفسير ورجاله (١٠٧).

وقال الدكتور الذهبي في «التفسير والمفسرون» (١/ ٣٠٥): «لم يقع فيما وقع فيه صاحبُ الكشاف من ذِكْره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور»[١].

وقال الدكتور منيع محمود:

«تبنّى النسفي كلَّ ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية»[٢].

ويتابع فيقول:

«والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً، وخبرة دقيقة، واطّلاعاً واسعاً، وحسن استفادة من هذا الاطلاع... ويمتاز تفسيره بإقلاله من الإسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها. كما يمتاز بتحرِّيه في اختيار الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذِكْر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور. كما أنه لم يتوسَّع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعيّة تُشتِّتُ الذهن، وتبتعد بالقارىء عن الجوِّ القرآني، ولم يخلُ تفسيرُه من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي»[٣].

إلا أنَّ النسفي رغم احتياطه وتحفُّظه لم يسلمْ من الإسرائيليات، ولم يشرْ إلى خطئها، أو ضعف رواياتها، كما في: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] قال: «روي: أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تُدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله...» دون أن يتعقّب ما ذكره من ذلك كله!

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان، وما كان من امتحانها له. وهو خبرٌ أشبه ما يكون بقصّة نسجها خيالُ شخصٍ مسرف في

(١) التفسير والمفسرون؛ للذهبي (١/ ٣٠٥).
(٢) مناهج المفسرين (٢٢٠).
(٣) المصدر السابق (٢١٧).

تخيّله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة!

وقال قاسم القيسي[١]:

«هو تفسيرٌ وسطٌ في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، مُتضمِّن لدقائق البديع والإشارات، مُوشَّح بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة والشناعة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وقال الدكتور صبحي الصالح[٢]:

«وأمَّا النسفي فيعنيه بالدرجة الأولى: الدفاع عن وجهة نظر أهل السُّنَّة والجماعة، والردّ على أهل البدع والأهواء، وتفسيره جامع لوجوه الإعراب والقراءات، وفيه إشارات دائمة إلى روائع البلاغة القرآنية في عبارة موجزة».

□ □ □

(١) تاريخ القرآن (١٤١).

(٢) مباحث في علوم القرآن (٢٩٣).

وصف المخطوطة

تقعُ المخطوطة في مجلدين، وهي من وقف المدرسة الأحمدية بحلب.

● **المجلدة الأولى:**

تحمل رقم (١٣٢٣٠)، عدد الأوراق (٢٨٦)، قياس (١٤ × ٢١سم)، في الصفحة (٢٣) سطراً، في السطر (١٣ ـ ١٥) كلمة.

● **المجلدة الثانية:**

تحمل رقم (١٣٢٣١)، عدد الأوراق (٣٠٢)، قياس (١٥ × ٢٢سم)، في الصفحة (٢٥) سطراً، في السطر (١٢ ـ ١٨) كلمة.

والخط في المجلدتين واضح، مقروء، وبعضه مشكول، والآيات مكتوبة بحرف أكبر لتوضيحها وإبرازها.

وقد نسخ هذه المخطوطة: ميكائيل بن حاجي محمد بن حاجي، وفرغ منها في يوم الجمعة وقت الضحوة الكبرى من شهر ربيع الآخر سنة (٧٢٧هـ) أي: بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاماً.

□ □ □

منهج التحقيق

بعد حصولنا على نسخةٍ مخطوطةٍ من مكتبة الأسد العامرة، كانت هذه الخطوات:

(١) مقابلة المخطوط على المطبوع، وإثبات الفروق ذات الأهمية.

(٢) تخريج الآيات الشواهد من أماكنها من سور القرآن، مع ذكر أرقامها، وقد أُخِذت من المصحف؛ نأياً بها عن أخطاء الطباعة.

(٣) تخريج الأحاديث قدر المستطاع من مظانّها الحديثية.

(٤) توزيع فقرات النص، مع وَضْع علامات الترقيم.

(٥) جَعْل المصحف في أعلى الصفحة، ثم يأتي شرح الآيات مرقّمة.

(٦) ضبط الشعر؛ منعاً للّبس في قراءته.

(٧) التعليق على بعض المواضع بما يُفيد ويُغني.

(٨) صُنْع «ترويسة» في كلِّ صفحة؛ لتسهيل الدلالة، والظفر بالبغية بأيسر سبيل، وأسرع وقت.

(٩) كتابة مقدِّمة عن حياة الإمام النسفي، ولمحة عن مصادر كتابه.

(١٠) إعداد فهرس للسور والآيات في نهاية كل جزء، وفهرس عام للأحاديث في نهاية الكتاب.

نسألُ اللهَ تعالى التوفيق، والنفع بهذا العمل، إنه على ما يشاء قدير.

والحمد لله ربِّ العالمين.

□ □ □

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي لا إله إلا هو عليه توكلت وصلى الله على
سيدنا محمد وسلم الحمد لله المتنزه بذاته عن إشارة الأوهام المتقدس بصفاته عن إدراك
العقول والأفهام المتفرد بلا توحيد قبل كل موجود الباقي بنعت السرمدية بعد كل
محدود الملك الذي طمست سبحات جلاله الأبصار المتكبر الذي أزاحت سطوات كبريائه
الأفكار القديم الذي تعالى عن مماثلة الحدثان العظيم الذي تنزه عن مماسة المكان
المتعالي عن مضاهاة الأجسام ومشابهة الأيام القادر الذي لا يشار إليه
بالتكييف القاهر الذي لا ينسب إلى التجهيل والتكييف العليم الذي خلق الإنسان وعلمه
البيان الحكيم الذي نزل القرآن شفاء للأرواح والأبدان والصلاة والسلام على المستل
من أرومة البلاغة والبراعة المحتل في بحبوحة الفصاحة والفصاحة محمد المبعوث إلى الخليقة
الداعي إلى الحق وطريقته صلى الله عليه وعلى آله وشيعته وعلى الآخذين بعهوده وشريعته
وبعد فإن مولانا الشيخ الإمام المعظم والحبر الهمام المقدم أستاذ أهل الأرض محيي السنة
والفرض كشاف حقائق أسرار التنزيل مفتاح دقائق أسرار التأويل ترجمان كلام
الرحمن صاحب علمي المعاني والبيان الجامع بين الأصول والفروع المرجوع إليه
في المعقول والمسموع حافظ الملة والدين شيخ الإسلام والمسلمين وارث علوم
الأنبياء والمرسلين أكمل فحول المجتهدين قدوة قدوة المحققين ذو السعادات
والكرامات أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي متع الله الإسلام بطول
بقائه والمسلمين بيمن لقائه قد سألني من تتعين إجابته كتابا وسطا في التأويلات
جامعا لوجوه الإعراب والقراءات متضمنا لدقائق علمي البديع والإشارات
حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة ليس
بالطويل الممل ولا بالقصير المخل وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى استقصارا
لقوة البشر عن درك هذا الوطر وأخذا بسبيل الحذر عن ركوب الخطر حتى
شرعت فيه بتوفيق الله تعالى والعوائق كثيرة وأتممته في مدة يسيرة
وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل وهو الميسر لكل عسير وهو على ما يشاء قدير

وبالإجابة

صورة الصفحة الأولى من المجلدة الأولى

صورة الصفحة الأخيرة من المجلدة الثانية

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

«ت ٧١٠ هـ»

حققه وخرج أحاديثه

يوسف علي بديوي

راجعه وقدم له

محيي الدين ديب مستو

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

هو حسبي، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم.

الحمد لله المنزَّه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدَّس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتَّصف بالألوهية قبل كلِّ موجود، الباقي بنعت السَّرمدية[١] بعد كلِّ محدود، الملك الذي طمست سُبُحات[٢] جلاله الأبصار، المتكبِّر الذي أزاحتْ سطواتُ كبريائه الأفكار، القديم الذي تعالى عن مُماثلة الحُدْثان[٣]، العظيم الذي تنزَّه عن مماسَّة المكان؛ المتعالي عن مُضاهاة الأجسام، ومشابهة الأنام، القادر الذي لا يُشارُ إليه بالتكييف، القاهر الذي لايُسأل عن التَّحميل والتكليف[٤]، العليم الذي خَلَق الإنسانَ، وعلَّمه البيان، الحكيم الذي نزَّل القرآن شفاءً للأرواح والأبدان.

والصَّلاة والسَّلام على المستلِّ من أرومة[٥] البلاغة والبراعة، المحتل في بحبوحة النصاحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعي إلى الحقِّ وطريقته. صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته.

---

(١) «السرمدية»: الدائمة.
(٢) «سُبُحات »: أنوار.
(٣) «الحُدْثان»: جمع أحاديث، وهي جمع حديث، وهو: الجديد من الأشياء.
(٤) في الأصل المخطوط: التكيف، والمثبت من المطبوع.
(٥) «الأرومة»: الأصل.

قال مولانا الشيخ الإمام المعظَّم، والحَبْر الهمام المقدّم، أستاذ أهل الأرض، محيي السُّنَّة والفرض، كشَّاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح دقائق أسرار التأويل، ترجمان كلام الرَّحمن، صاحب علم المعاني والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه في المعقول والمسموع، حافظ الملَّة والدِّين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قَدُوم[١] المحققين، ذو السَّعادات والكرامات، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ـ نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمن لقائهِ[٢]ـ:

قد سألني مَن تتعيَّن إجابتُه كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمِّناً لدقائق علمي البديعِ والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البِدَع والضَّلالة، ليس بالطويل المملّ، ولا بالقصير المخلّ.

وكنتُ أُقدّم فيه رِجْلاً وأؤخِّر أخرى استقصاراً لقوَّة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً بسبيل الحذر، عن ركوب الخطر، حتى شرعتُ فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدَّةٍ يسيرة، وسمَّيته بـ: «**مدارك التنزيل، وحقائق التأويل**» وهو الميسِّر لكلِّ عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

□ □ □

---

(١) «القَدُوم»: جمع قُدُم: الجريء الكثير الإقدام.

(٢) هذا الكلام إما من الناسخ أو من أحد تلاميذ المؤلف ـ رحمه الله ـ.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾

مكية، وقيل : مدنية. والأصح أنَّها مكية ومدنية. نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلتْ بالمدينة حين حُوِّلت القبلة إلى الكعبة. وتسمَّى أم القرآن للحديث[١]، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورة الوافية والكافية لذلك، وسورة الكنز، لقوله ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «فاتحةُ الكتاب كنزٌ من كنوز عرشي»[٢]. وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاءٌ من كلِّ داء إلا السَّام»[٣]. وسورة المثاني؛ لأنها تُثنَّى في كلِّ صلاة. وسورة الصلاة لما يُروى، ولأنها تكون واجبة أو فريضة. وسورة الحمد والأساس، فإنها أساس القرآن. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا اعتللتَ أو اشتكيتَ فعليك بالأساس. وآيُها سبعٌ بالاتفاق، والله أعلم.

١ـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قُرَّاء المدينة والبصرة والشام على أنَّ التسمية ليست بآيةٍ من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كُتبت للفصل والتبرُّك بالابتداء بها، وهو مذهبُ أبي حنيفة ومَن تابعه ـ رحمهم

(١) قال ﷺ: «لاصلاة لمن لم يقرأ بأمِّ القرآن» رواه مسلم (٣٩٤) (٣٦).
(٢) رواه ابن راهويه. (فيض القدير ٤/ ٤٢٠).
(٣) رواه سعيد بن منصور، وأبو الشيخ في «الثواب». (فيض القدير ٤/ ٤١٨) والديلمي في مسند الفردوس (٤٣٨٥) بلفظ: «فاتحة الكتاب شفاء من السم».

. . . .

الله ـ ولذا لا يُجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة على أنها آيةٌ من الفاتحة ومن كلِّ سورة، وعليه الشافعي وأصحابه ـ رحمهم الله ـ ولذا يجهرون بها، وقالوا: قد أثبتها السلفُ في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن [عما ليس منه][١]. وعن ابن عباس ـرضي الله عنهماـ: من تركها فقد ترك مئة وأربع عشرة آية من كتاب الله. ولنا حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ: يقول: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة» أي: الفاتحة «بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجّدني عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٢].

فالابتداء بقوله: «الحمد لله رب العالمين» دليلٌ على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعاً. والحديث مذكورٌ في «صحاح المصابيح». وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسميةَ آية من القرآن أنزلت للفصل وللتبرك في الابتداء بها بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في «المبسوط»، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلْها آية من القرآن، وتمام تقريره في «الكافي». وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ، أو أتلو، لأنَّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حلَّ وارتحل فقال: باسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلُّ، وبسم الله أرتحل، وكذا الذابح. وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له. وإنما قدر المحذوف

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٤١) ومسلم (٣٩٥) (٣٨) وأبو داود(٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤).

. . . .

متأخراً لأنَّ الأهم من الفعل والمتعلِّق به [هو المتعلَّق به](١). وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى، فوجب أن يقصدَ الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزوجل بالابتداء، وذا بتقديمه وتأخير الفعل. وإنما قدّم الفعل في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنها أول سورة نزلت في قول، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم(٢) الفعل أوقع. ويجوز أن يحمل ﴿اقرأ﴾ على معنى: افعل القراءة وحقّقها، كقولهم: فلان يعطي ويمنع، غير متعدّ إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعده. واسم الله يتعلق بالقراءة تعلق الدّهن بالإنبات في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبركاً باسم الله اقرأ، ففيه تعليم عباده كيف يتبرَّكون باسمه تعالى، وكيف يعظمونه. وبنيت الباءُ على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر، فكسرت لتشابه حركتها عملها. والاسم من الأسماء التي بنوا أوائلها على السُّكون كالابن والابنة وغيرهما، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفادياً عن الابتداء بالساكن تعذراً، وإذا وقعت في الدّرج لم يفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزدها، واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سِمٌ وسُمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز، كيد، ودم، وأصله: سمو بدليل تصريفه كأسماء، وسمى، وسميت. واشتقاقه من السمو، وهو: الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره. وحذفت الألف في الخط هنا، وأثبتت في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنه اجتمع فيها(٣) مع أنها تسقط في اللفظ لكثرة الاستعمال، وطولت الباء عوضاً من حذفها. وقال عمر بن عبد العزيز لكاتبه: طوِّل الباء وأظهر السينات، ودوِّر الميم.

والله: أصله الإله، ونظيره الناس، أصله: الأناس، حُذفت الهمزة، وعُوِّض عنها حرف التعريف. والإله من أسماء الأجناس، يقع على كل معبود

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٢) من المطبوع.
(٣) أي: في التسمية.

. . . .

بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه، ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل، وتقول: إله واحد صمد، ولأن صفاته تعالى لا بُدَّ لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وذا لا يجوز. ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضل. وقيل: معنى الاشتقاق: أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد. وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم أَلِهَ: إذا تحير، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحيَّر في معرفة المعبود، وتدهش الفطِن، ولذا كثر الضَّلال، وفشا الباطل، وقلَّ النظر الصحيح. وقيل: هو من قولهم أَلَه يأْلَه إلاهاً: إذا عبد، فهو مصدر بمعنى مألوه، أي: معبود، كقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. وتفخم لامه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة، وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرقّقها بكل حال، ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول.

والرحمن: فعلان من رحم، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء، كغضبان من غضب، وهو الممتلىء غضباً. وكذا الرحيم: فعيل منه، كمريض من مرض. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ لأن في الرحيم زيادة واحدة، وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدلُّ على زيادة المعنى؛ ولذا جاء في الدعاء: «يا رحمن الدنيا» لأنه يعمّ المؤمن والكافر «ورحيم الآخرة» لأنه يخصُّ المؤمن. وقالوا: الرحمن خاصّ تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه لأنه يوصف به غيره، ويخصّ المؤمنين، ولذا قدّم الرحمن ـ وإن كان أبلغ ـ والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان عالم نحرير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله. ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها: العطف. وأما قول الشاعر في مسيلمة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

. . . . وأنت غيثُ الورى لا زلت رحمانا[١]

فباب من تعنتهم في كفرهم.

ورحمن غير منصرف عند مَن زعم أنَّ الشرطَ انتفاء فعلانة، إذ ليس له فعلانة، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

٢ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الوصف بالجميل على جهة التفضيل. وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرىء بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً. والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. والخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف، أي: واجب أو ثابت. وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال:

أفادتكُم النَّعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضَّمير المحجَّبا

والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شُعَب الشكر، ومنه الحديث: «الحمدُ رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لم يحمده»[٢]. وجعله رأس الشكر؛ لأن ذكر النِّعمة باللسان أشيعُ لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح: ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً، قادراً، عالماً، أبدياً، أزلياً. والشكر: ثناء على ما هو منه من أصناف الإفضال، والحمد يشملهما. والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة؛ ولذا قرن باسم

(١) عجز بيت، وصدره: سموت بالمجد يا بن الأكرمين أباً.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٩٥) والديلمي في مسند الفردوس (٢٧٨٤).

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

الله؛ لأنه اسم ذات، فيستجمع صفات الكمال. وهو بناءٌ على مسألة خلق الأفعال، وقد حقَّقته في مواضع.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الرب: المالك، ومنه: قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربّني رجلٌ من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجلٌ من هوازن. تقول: ربَّه يربُّه، فهو ربّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كما وصف بالعدل. ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في العبيد مع التقييد: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. وقال الواسطي: هو الخالقُ ابتداء، والمربّي غذاء، والغافر انتهاء، وهو اسم الله الأعظم. والعالم: هو ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى، سُمِّي به لأنه عَلَم على وجوده، وإنما جمع بالواو والنون مع أنه يختص بصفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، لما فيه معنى الوصفية، وهي: الدلالة على معنى العلم.

٣ ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذِكْرُهما قد مرَّ، وهو دليل على أن التسميةَ ليست من الفاتحة، إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلو الإعادة عن الإفادة.

٤ ـ ﴿مَٰلِكِ﴾ عاصم وعلي، (مَلِكِ): غيرهما. وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن الإضافة، ولقوله ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] ولأنَّ كلَّ ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً. وقرأ أبو حنيفة والحسن ـ رحمهما الله ـ: مَلَكَ.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، ويقال: كما تدين تُدان، أي: كما تفعل تُجازى. وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرفَ على طريق الاتساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، أي: مالك الأمر كله في يوم الدين. والتخصيص بيوم الدين لأن الأمرَ فيه لله وحده. وإنما ساغ وقوعُه صفةً للمعرفة مع أنَّ إضافةَ اسم الفاعل إضافةٌ غير حقيقية؛ لأنه أُريد به الاستمرار، فكانت الإضافةُ حقيقيةً، فساغ أن يكونَ صفةً للمعرفة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

وهذه الأوصافُ التي أجريتْ على الله سبحانه وتعالى من كونه رباً، أي: مالكاً للعالمين، ومنعماً بالنعم كلها، ومالكاً للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أنَّ مَن هذه صفاته لم يكن أحدٌ أحقّ منه بالحمد والثناء عليه.

٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمر. والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدُّمه على الفعل والفاعل. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم. وتقديمُ المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخصُّك بالعبادة، وهي: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخصُّك بطلب المعونة. وعَدَل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩] وقول امرىء القيس:

تطَاولَ لَيْلُكَ بالأَثْمُدِ ونامَ الخليُّ ولم تَرْقُدِ[(١)]
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ كليلةِ ذي العائرِ الأَرْمَدِ[(٢)]
وذلكَ مِنْ نبأٍ جاءني وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسودِ

فالتفت في الأبيات الثلاثة حيث لم يقل: ليلي، وبت، وجاءك، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلامَ إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطريةً لنشاطه، وأملأ[(٣)] باستدراب إصغائه. وقد تختصُّ مواقعه بفوائد ولطائف قلَّما تصح إلا للحذَّاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم. ومما اختصَّ به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء،

(١) «الأثمد»: اسم موضع. «الخلي»: هو الرجلُ الخِلْو من الهموم.
(٢) «العائر»: الذي يجد وَجَعاً في عينه.
(٣) في حاشية الأصل: في نسخة: وأميل.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾

وأجرى عليه تلك الصِّفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لاغيرك. وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانة؛ لأن تقديمَ الوسيلة قبل طلب الحاجة أقربُ إلى الإجابة، أو لنظم الآي كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كلَّ مستعان فيه. ويجوز أن يرادَ الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله« اهدنا» بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

٦ ـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: ثبتنا على المنهاج الواضح، كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: اثبت على ما أنت عليه. أو: اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال. وهدى يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كما في هذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وإلى، كقوله تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١]. والسراط: الجادة، من سرط الشيء: إذا ابتلعه، كأنه يسرط السَّابلة[١] إذا سلكوه. والصراط من قلب السين صاداً؛ لتجانس الطاء في الإطباق؛ لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق. وقد تشمّ الصاد صوت الزاي؛ لأن الزاي إلى الطاء أقربُ؛ لأنهما مجهورتان. وهي قراءة حمزة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، وهو الأصل في الكلمة. الباقون بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش، وهي الثابتةُ في الإمام[٢]. ويذكّر ويؤنّث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملّة الإسلام.

---

(١) «السابلة»: الطريق المسلوكة، والمارُّون عليها.

(٢) أي: المصحف الإمام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

٧ ـ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من الصراط، وهو في حكم تكرير العامل. وفائدته: التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه، وآكده. وهم المؤمنون، أو الأنبياء عليهم السلام، أو قوم موسى قبل أن يُغَيِّروا.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعني: أنَّ المنعمَ عليهم هم الذين سلموا من غضب الله تعالى والضَّلال، أو صفة للذين، يعني: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال. وإنما ساغ وقوعُه صفةً للذين، وهو معرفة، وغير لا يتعرف بالإضافة؛ لأنه إذا وقع بين متضادين، وكانا معرفتين، تعرف بالإضافة، نحو: عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان، ولأن الذين قريبٌ من النكرة؛ لأنه لم يُرَدْ به قومٌ بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة؛ للتخصيص الحاصل له بإضافته، فكل واحد منهما فيه إبهامٌ من وجه، واختصاص من وجه، فاستويا. وعليهم ـ الأولى ـ محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملكُ إذا غضب على من تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]. و«لا» زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى غير.

آمين: صوتٌ سُمِّي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد اسم لأمهل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سألتُ رسول الله ﷺ عن معنى آمين، فقال: «افعل»[١]. وهو مبنيٌّ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها، وهو الأصل، والمد بإشباع الهمزة، قال:

(١) رواه الكلبي. تفسير القرطبي (١/ ١٢٨).

. . . .

. . . .   ويـرحـمُ اللهُ عبـداً قـال آمينـا[١]

وقال:

. . . .   أميـنَ، فـزاد الله مـا بيننـا بُعْـدا[٢]

قال ﷺ: «لقَّنني جبريلُ آمين عند قراءة فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالختم على الكتاب»[٣]. وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبتْ في المصاحف.

* * *

(١) وصدره: يا رب لا تسلبني حبّها أبداً.

(٢) عجز بيت، وصدره: تباعد فيّ فُطْحُلٌ إذ سألتُه.

(٣) قال ابنُ حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ١/١٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ 

١ - ﴿الٓمٓ﴾ ونظائرها: أسماء مسمّياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكَلِم، فالألف تدلُّ على أوسط حروف قال، واللام تدلّ على الحرف الأخير منه وكذلك ما أشبهها. والدليلُ على أنها أسماء أن كلاّ منها يدلُّ على معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير.

وهي معربة، وإنما سكنتْ سكون زيد وغيره من الأسماء، حيث لايمسّها إعراب لفقد مقتضيه. وقيل: مبنية لأنها كالأصوات نحو: غاق، في حكاية صوت الغراب. ثم الجمهور على أنها أسماء السور. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أقسم اللهُ بهذه الحروف. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إنها اسمُ الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللهُ، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها. وقيل : ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تُحدِّي بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أنَّ هذا المتلو عليهم، وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤديهم النَّظرُ إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن

. . . .

يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولات، وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلامُ خالق القوى والقدر. وهذا القولُ من الخلاقة[1] بالقبول بمنزل.

وقيل: إنما وردت السورُ مصدرةً بذلك ليكون أول ما يقرعُ الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أنَّ النطقَ بالحروف أنفسها كانت العربُ فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف، فإنه كان مختصّاً بمن خطّ، وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأُمِّيِّ التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن؛ التي لم تكن قريش ومَن يضاهيهم في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته ﷺ.

واعلمْ أنَّ المذكورة في الفواتح نصفُ أسامي حروف المعجم، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. فمن المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن المطبِقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن

---

(١) «الخلاق»: الحظ والنصيب من الخير.

. . . .

المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف، والطاء. وغير المذكورة من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظمَ الشيء ينزلُ منزلة كله، فكأن الله تعالى عدَّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما مرَّ من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقةً على السور؛ لأن إعادة التنبيه على المتحدَّى به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كلُّ تكرير وَرَدَ في القرآن، فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

ولم تجيءْ على وتيرةٍ واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ص، وق، ون، وطه، وطس، ويس، وحم، والم، والر، وطسم، والمص، والمر، وكهيعص، وحم عسق، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة، كعادة افتنانهم في الكلام. وكما أنَّ أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، سلك في الفواتح هذا المسلك. والم آية حيث وقعت، وكذا آلمص آية، والمر لم تعد آية، وكذلك الر لم تعد آية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتيها، وطه ويّس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص. ون وق ثلاثتها لم تعدّ آية. وهذا عند الكوفيين، ومَن عداهم لم يعدّ شيئاً منها آية.

وهذا علمٌ توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويُوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعلْ أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: ١] أي: هذه الم، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ولهذه الفواتح محلٌّ من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو الرفع على الابتداء، أو النصب والجر لصحة القسم بها، وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾

لم يتصوَّر أن يكونَ لها محلٌّ في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة وللمفردات المعدودة.

٢ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ذلك إشارة إلى الم. وإنما ذكَّر اسمَ الإشارة، والمشار إليه مؤنث، وهو السورة؛ لأنَّ الكتابَ إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير، وإن كان صفة فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسمَ الإشارة مشارٌ به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا. ووجهُ تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسماً للسورة أن يكون الٓم مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه: أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأنَّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وأن يكون الٓم خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الٓم جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الٓم بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ لا شك، وهو مصدر رابني: إذا حصل فيه الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ: «دعْ ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الشكَّ ريبةٌ، وإن الصدقَ طمأنينة»[1] أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلقُ له النفسُ ولا تستقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو: ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه. وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثير؛ لأن المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان، بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقعَ فيه، لا أن أحداً لا يرتاب. وإنما لم يقل: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ [الصافات: ٤٧]

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٠) والترمذي (٢٥١٨).

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

لأن المرادَ في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق لا باطل كما يزعم الكفار. ولو أولى الظرف لبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على لا ريب، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، والتقدير: لا ريب فيه ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء، مكي. ووافقه حفص في ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾[الفرقان: ٦٩] وهو الأصل، كقولك: مررت به، ومن عنده، وفي داره، فكما لا يقال: في داره، ومن عنده، وجب ألا يقال: فيه. قال سيبويه: ما قاله مؤدّ إلى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الياء قبل الهاء والهاء، إذ الهاء المتحركة في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية فالخفي قريب من الساكن، والياء بعدها. والهدى مصدر على فعل كالبكى، وهو الدلالةُ الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]. وإنما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون؛ لأنه كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ولأنه سمّاهم عند مشارفتهم لا كتساء لباس التقوى متقين، كقوله ﷺ: «مَن قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبه»[1] وقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا أراد أحدكم الحجَّ فليعجل فإنه يمرضُ المريض. فسمَّى المشارف للقتل والمرض قتيلاً ومريضاً. ولم يقل: هدى للضالين؛ لأنهم فريقان: فريق علم بقاءهم على الضلالة، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، فقيل: هدى للمتقين مع أن فيه تصديراً للسورة؛ التي هي أولى

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

. . . .

الزهراوين، وسنام القرآن؛ بذكر أوليائه تعالى.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، فإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء، وأدغمتها في التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية: فرط الصيانة؛ وفي الشريعة: مَن يقي نفسه تعاطي ما يستحقُّ به العقوبةَ من فِعْل أو ترك. ومحل هدى الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع لا ريب فيه لـ: ذلك، أو النصب على الحال من الهاء في: فيه. والذي هو أرسخُ عرقاً في البلاغة أن يقال قوله: ﴿الم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة.

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضُها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نبَّه أولاً على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتابُ المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرفٌ من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمالَ أكملُ مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لعالم: فيم لذَّتك؟ قال: في حجّة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً.

ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى للمتقين﴾ فقرَّر بذلك كونه يقيناً لا يحومُ الشك حوله وحقاً ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ثم لم تخلُ كلُّ واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب بألطف وجه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة الحذف، ووضع المصدر، الذي هو هدى، موضع الوصف، الذي هو هاد، كأن نفسه هداية، وإيراده منكَّراً، ففيه إشعارٌ بأنه هدى لايكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين كما مرَّ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع رفع أو نصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يؤمنون﴾ أو: أعني ﴿الذين يؤمنون﴾ أو هو مبتدأ، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾ أو جر على أنه صفة للمتقين. وهي صفة واردة بياناً وكشفاً للمتقين، كقولك: زيد الفقيه المحقق؛ لا شتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان؛ الذي هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة: فهما أُمَّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار[1] على غيرهما. ألا ترى أن النبي ﷺ سمَّى الصلاةَ عمادَ الدين، وجعل الفاصلَ بين الإسلام والكفر ترك الصلاة، وسمَّى الزكاة قنطرة الإسلام، فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات؛ ولذا اختصر الكلام بأن استغنى عن عدِّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. أو صفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطبيب، ويكون المراد بالمتقين: الذين يجتنبون السيئات ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمنه، أي: صدقه، وحقيقته: آمنه التكذيب والمخالفة. وتعديته بالباء لتضمُّنه معنى أقرَّ واعترف ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم؛ مما أنبأهم به النبي ﷺ من أمر البعث، والنشور، والحساب وغير ذلك. فهو بمعنى الغائب، تسمية بالمصدر، من قولك: غاب الشيء غيباً. هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمَن به، وحقيقته: متلبسين بالغيب. والإيمان الصحيح أن يقرَّ باللسان، ويصدِّق بالجنان، والعمل ليس بداخل في الإيمان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها، فعبَّر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيامَ بعض أركانها، كما عبَّر عنه بالقنوت، وهو: القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها. أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها، من أقام العود: إذا قومه؛ أو الدوام عليها والمحافظة، من قامت السوق: إذا نفقت؛ لأنه إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النَّافق الذي تتوجَّه إليه الرغباتُ،

---

(١) «العيار»: ما اتُّخِذ أساساً للمقارنة والتقدير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

وإذا ضُيِّعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. والصلاة فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرك الصّلوين، أي: الأليتين؛ لأن المصلي يفعلُ ذلك في ركوعه وسجوده. وقيل للداعي: مصل، تشبيهاً له في تخشُّعه بالراكع والساجد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذي ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدَّقون. أدخل من التبعيضية صيانةً لهم عن التبذير المنهي عنه، وقدّم المفعول دلالةً على كونه أهمّ. والمراد به: الزكاة؛ لاقترانه بالصَّلاة التي هي أختها، أو هي وغيرها من النفقات في سُبُل الخير لمجيئه مطلقاً. وأنفق الشيء وأنفده أخوان، كنفق الشيء ونفد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فدالٌّ على معنى الخروج والذهاب. ودلَّت الآيةُ على أن الأعمال ليست من الإيمان، حيث عَطف الصلاة والزكاة على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه؛ من الذين آمنوا بكل وحي أُنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودات. ثم إن عَطَفْتَهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا في جملة المتقين. وإن عَطَفْتَهم على المتقين لم يدخلوا، فكأنه قال: هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أُنزل إليك. أو المراد به وصف الأولين، ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد. وقوله:

إلى الملك القَرْم وابن الهُمام ... وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَم

والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن. والمراد جميع القرآن لا القدر الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ لأنَّ الإيمانَ بالجميع واجب. وإنما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضُه مترقباً، تغليباً للموجود على ما لم يوجد، ولأنه إذا كان بعضُه نازلاً، وبعضه منتظر النزول،

وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

جعل كأن كلّه قد نزل ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة على النّبيين عليهم الصلاة والسلام ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هي تأنيث الآخر الذي هو ضد الأول، وهي صفةٌ، والموصوف محذوف، وهو الدار؛ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على اللام ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

٥ ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ الجملة في موضع الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ويجوز أن يجري الموصولُ الأول على المتقين، وأن يرتفعَ الثاني على الابتداء، وأولئك خبره، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب؛ الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله ﷺ، وهم ظانّون أنّهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ مَثَلٌ لتمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسُّكهم به بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرَّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أوتوه من عنده. ونكّر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أيّ هدى. ونحوه: لقد وقعت على لحم، أي: على لحم عظيم ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاح: درك البغية، والمفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحتْ له وجوهُ الظفر. والتركيبُ دالٌّ على معنى الشق والفتح، وكذا أخواته في الفاء والعين نحو: فلق، وفلذ، وفلى. وجاء بالعطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا، واتحاد الغفلة، والتشبيه بالبهائم ثَمّ، فكانت الثانية مقرِّرة للأولى، وهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائدته الدلالةُ على أنَّ الواردَ بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ،

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾

والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك. فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيهَ على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، ففيه تنبيهٌ على أنهم كما ثبت لهم الأَثَرَة بالهدى، فهي ثابتةٌ لهم بالفلاح. وتعريف ﴿المفلحون﴾ ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو، فقيل: زيد التائب، أي: هو الذي أُخْبِرْتَ بتوبته. وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصِّرك مراتبهم، ويرغِّبك في طلب ما طلبوا، وينشِّطك لتقديم ما قدموا. اللهم زيِّنا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة مَن صدِّرت بذكرهم سورة البقرة.

٦ ـ لما قدَّم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة إليه، وبيَّن أنَّ الكتاب هدى لهم، قفَّى على أثره بذكر أضدادهم، وهم العتاةُ المردة الذين لا ينفعُ فيهم الهدى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. الكفر: ستر الحق بالجحود. والتركيبُ دالٌّ على الستر، ولذا سمّي الزارع كافراً، وكذا الليل. ولم يأتِ بالعاطف هنا كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] لأنَّ الجملة[1] هنا مسوقة لذكر الكتاب بياناً، لا خبراً عن المؤمنين، وسيقت الثانيةُ للإخبار عن الكفار بكذا. فبين الجملتين تفاوتٌ في المراد، وهما على حدٍّ لا مجال للعطف فيه. وإن كان مبتدأ على تقديرٍ فهو كالجاري عليه. والمراد بالذين كفروا: أناس بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون، كأبي جهل، وأبي لهب، وأضرابهما﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزتين، كوفي. وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: مستوية. وارتفاعه على أنه خبر لإن و﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ مرتفعٌ به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه. أو يكون سواء خبراً مقدماً و﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ في

---

(١) أي: الجملة الأولى.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾

موضع الابتداء، أي: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإن. وإنما جاز الإخبار عن الفعل، مع أنه خبر أبداً؛ لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى. والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني: إن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزَّجر عن المعاصي ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبر لإن، والجملة قبلها اعتراض، أو خبر بعد خبر. والحكمة بالإنذار مع العلم بالإصرار إقامة للحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول ﷺ.

٧ ـ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ قال الزجاج: الختم: التغطية؛ لأنَّ في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه. وقال ابنُ عباس: طبع اللهُ على قلوبهم فلا يعقلون الخير. يعني: إنَّ اللهَ طبع عليها، فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان. وحاصل الختم والطبع: خَلْق الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه؛ وعند المعتزلة إعلامٌ محضٌ على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار، فيلعنونهم، ولا يدعون لهم بخير. وقال بعضهم: إنَّ إسنادَ الختم إلى الله تعالى مجاز، والخاتم في الحقيقة الكافر، إلا أنه تعالى لما كان هو الذي أقدره وأمكنه أسند إليه الختم، كما يسند الفعل إلى السبب، فيقال: بنى الأمير المدينة؛ لأن للفعل ملابسات شتى، يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء مجازاً؛ لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته، فيستعار له اسمه. وهذا فرع مسألة خَلْق الأفعال ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ وحّد السمع كما وحَّد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا؛ لأمن اللبس، ولأن السمع مصدر في أصله، يقال: سمعت الشيء سمعاً وسماعاً، والمصدر

﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

لا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل والكثير، فلا يحتاجُ فيه إلى التثنية والجمع، فلمح الأصل. وقيل: المضاف محذوف، أي: وعلى مواضع سمعهم. وقرىء ﴿وعلى أسماعهم﴾ ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ بالرفع خبر ومبتدأ. والبصر: نور العين، وهو: ما يبصر به الرائي، كما أن البصيرة: نور القلب، وهي: ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله تعالى، فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. والغشاوة: الغطاء، فعالة، من غشاه: إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتملُ على الشيء، كالعصابة، والعمامة، والقلادة. والأسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغشية؛ لقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم. ونصب المفضل وحده غشاوة بإضمار جعل. وتكرير الجار في قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ دليلٌ على شدَّة الختم في الموضعين. قال: الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: الكافر لما لم يسمع قولَ الحق، ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقين ليرى آثار الحدث، فيعلم أن لا بدَّ له من صانع، جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة، وإن لم يكن ذلك حقيقة. وهذا دليلٌ على أنَّ الأسماعَ عنده داخلةٌ في حكم التغشية. والآية حُجَّةٌ لنا على المعتزلة في الأصلح، فإنه تعالى أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أنَّ تَرْكَ الختم أصلحُ لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء: إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه. والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم يقابل الحقير، والكبير يقابل الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أنَّ الحقير دون الصَّغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد: جثته، أو خطره. ومعنى التنكير أنَّ على أبصارهم نوعاً من التغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاءُ التَّعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيم من العذاب، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ افتتح سبحانه وتعالى بذكر

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وعناداً، ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقال مجاهد: أربع آيات من أول السورة في نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين، نعى عليهم فيها مكرهم، وخبثهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمههم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة. وأصل ناس: أناس حذفت همزته تخفيفاً. وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس. ويشهد لأصله: إنسان، وأناسي، وإنس. وسُمُّوا بذلك لظهورهم، وأنهم يؤنسون، أي: يبصرون، كما سُمِّي الجن لاجتنانهم. ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، فإنك تقول وزن قِ افعل، وليس معك إلا العين. وهو من أسماء الجمع، ولام التعريف فيه للجنس. ومن موصوفة، ويقول: صفة لها، كأنه قيل: ومن الناس ناسٍ يقولون كذا، وإنما خصّوا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الوقت الذي لا حدّ له، وهو الأبدُ الدائم الذي لا ينقطع. وإنما سمّي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنهم أوهموا في هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبي الإيمان أوله وآخره. وهذا لأنَّ حاصل المسائل الاعتقادية يرجعُ إلى مسائل المبدأ، وهي: العلم بالصانع وصفاته وأسمائه، ومسائل المعاد، وهي: العلم بالنشور، والبعث من القبور، والصراط، والميزان، وسائر أحوال الآخرة. وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كلّ واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام. وإنما طابق قوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ـ وهو في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ـ قولهم ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ وهو في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، لأنَّ المرادَ إنكارُ ما ادَّعوه

يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ

ونفيه على أبلغ وجه وآكده، وهو: إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول؛ لأنه يحتملُ أن يرادَ التقييد، ويترك لدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يُراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولاً. والآية تنفي قول الكرامية: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللسان لا غير؛ لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم. وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. ودخلت الباء في خبر ما مؤكدة للنفي؛ لأنه يستدلُّ به السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام. ومَن موحد اللفظ، فلذا قيل: يقول. وجمع ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نظراً إلى معناه.

٩ ـ ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: رسول الله، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] كذا قاله أبو علي ـ رحمه الله ـ وغيره، أي: يظهرون غيرما في أنفسهم، فالخداعُ: إظهارُ غير ما في النفس. وقد رفع الله منزلة النبيِّ ﷺ حيث جعل خداعه هو خداعه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠] وقيل: معناه يخادعون الله في زعمهم؛ لأنهم يظنُّون أنَّ الله ممن يصحُّ خداعه. وهذا المثال يقع كثيراً لغير اثنين، نحو قولك: عاقبت اللص. وقد قرىء: يخدعون الله. وهو بيانٌ ليقول، أو مستأنف، كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين؟ وما منفعتهم في ذلك؟ فقيل: ﴿يخادعون الله﴾ ومنفعتهم في ذلك: متاركتهم عن المحاربة التي كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراء أحكام المؤمنين عليهم، ونيلهم من الغنائم، وغير ذلك. قال صاحب «الوقوف»: الوقف لازم على ﴿بمؤمنين﴾ لأنه لو وصل لصار التقدير: وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفي الوصف، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمراد: نفي الإيمان عنهم، وإثبات الخداع لهم. ومَن جعل يخادعون حالاً من الضمير في: يقول، والعامل فيها: يقول، والتقدير: يقول آمنا بالله مخادعين، أو حالاً من الضمير في بمؤمنين، والعامل فيها اسم الفاعل،

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

والتقدير: وما هم بمؤمنين في حال خداعهم، لا يقف. والأول الوجه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يخادعون رسول الله والمؤمنين بإظهار الإيمان، وإضمار الكفر ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأنَّ ضررها يلحقهم، وحاصل خداعهم ـ وهو العذاب في الآخرة ـ يرجعُ إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم ﴿وما يُخَادعون﴾ أبو عمرو ونافع ومكي للمطابقة. وعذر الأولين أن خدع وخادع ـ هناَ ـ بمعنى واحد. والنفس : ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح: النفس؛ لأن النفسَ بهما، وللدم نفس؛ لأنَّ قوامها بالدم، وللماء نفسٌ لفرط حاجتها إليه. والمراد بالأنفس ـ هاهنا ـ: ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم، لا يعدوهم إلى غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصلَ خداعهم يرجعُ إليهم. والشعور: علم الشيء علم حس، من الشعار، وهو: ثوب يلي الجسد. ومشاعر الإنسان: حواسه؛ لأنها آلات الشعور. والمعنى: إن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لاحسَّ له.

١٠ ـ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق؛ لأن الشَّكَّ تردُّدٌ بين الأمرين، والمنافق متردد. في الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»[1]. والمريض متردد بين الحياة والموت. ولأن المرضَ ضدُّ الصحة، والفساد يقابل الصحة، فصار المرضُ اسماً لكل فساد، والشك والنفاق فساد في القلب ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: ضعفاً عن الانتصار، وعجزاً عن الاقتدار. وقيل: المراد به خلق النفاق في حالة البقاء بخلق أمثاله، كما عرف في زيادة الإيمان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعيل بمعنى مفعل، أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كوفي. أي: بكذبهم في قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ فما مع الفعل بمعنى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢ و ٤٧) ومسلم (٢٧٨٤) والنسائي (٨/ ١٢٤).
و «العائرة»: هي التي تفارق جماعة الغنم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

المصدر. والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ﴿يكَذِّبون﴾ غيرهم، أي: بتكذيبهم النبي ﷺ فيما جاء به. وقيل: هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدّق. ونظيرهما: بان الشيء وبيّن.

١١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على: يقول آمنا[1]، لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحاً. والفساد: خروجُ الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، وضده: الصلاح، وهو: الحصول على الحال المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن؛ لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس، والزروع، والمنافع الدينية والدنيوية. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمداراة، يعني: إن صفة المصلحين خلصت لنا، وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد؛ لأن إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب. وما: كافة ؛ لأنها تكفُّها عن العمل.

١٢ ـ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، فحذف المفعول للعلم به. ألا: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؛ لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]. ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وقد ردَّ الله ما ادَّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردٍّ، وأدلّه على سخط عظيم. والمبالغة فيه

(١) في المطبوع: معطوف على: يكذبون، ويجوز أن يعطف على: يقول آمنا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

من جهةالاستئناف، وما في ألاوإن من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، وقوله: ﴿لا يشعرون﴾.

١٣ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ نصحوهم من وجهين: أحدهما: تقبيح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجرّه إلى الفساد، وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسدّ من اتباع ذوي الأحلام. فكان من جوابهم أن سفّهوهم لتمادي جهلهم. وفيه تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة. وإنما صح إسنادُ قيل إلى لا تفسدوا وآمنوا، مع أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يصح؛ لأنه إسناد إلى لفظ الفعل، والممتنع إسناد الفعل إلى معنى الفعل، فكأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول. ومنه: زعموا مطية الكذب. وما في كما: كافة كما في ربما، أو مصدرية كما في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. واللام في الناس للعهد، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه، وهم ناس معهودون، أو عبد الله بن سلام وأشياعه، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم. أو للجنس، أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم. والكاف في ﴿كما آمن﴾ في موضع النصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف، أي: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله ﴿كما آمن السفهاء﴾. والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ للإنكار. واللام في السفهاء مشار بها إلى الناس. وإنما سفّهوهم ـ وهم العقلاء المراجيح[1] ـ لأنهم لجهلهم اعتقدوا أنَّ ما هم فيه هو الحق، وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً. والسفه: سخافة العقل، وخفَّة الحلم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السُّفهاء.

وإنما ذكر ـ هنا ـ لا يعلمون، وفيما تقدم: لا يشعرون؛ لأنه قد ذكر السفه، وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الإيمان يحتاجُ فيه إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. أما الفساد في الأرض فأمرٌ مبنيٌّ

(١) «المراجيح»: جمع مِرْجَاح، وهو الحليم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

على العادات، فهو كالمحسوس. والسفهاء: خبر إن. وهم: فصل، أو مبتدأ، والسفهاء: خبر ﴿هم﴾ والجملة: خبر إن.

١٤ ـ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ قرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿وإذا لاقَوْا﴾ يقال: لقيته ولاقيته: إذا استقبلته قريباً منه. الآية الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم، ولقائهم بوجوه المصادقين، وإيهامهم أنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ خلوت بفلان وإليه: إذا انفردت معه. وبإلى أبلغ؛ لأنَّ فيه دلالة الابتداء والانتهاء، أي: إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمرُّدهم، وهم اليهود. وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية، بدليل قولهم: تشيطن. وعنه: أنها زائدة. واشتقاقه من: شطن: إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، أو من شاط: إذا بطل، ومن أسمائه: الباطل ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محقَّقة بإن، لأنهم في خطابهم مع المؤمنين في ادِّعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادِّعاء أنهم أوحديُّون في الإيمان، إما لأنَّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومُحرِّك، وإما لأنه لا يروجُ عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة. وكيف يطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار. وأما خطابهم مع إخوانهم فقد كان[1] عن رغبة، وقد كان مُتقبّلاً منهم، رائجاً عنهم، فكان مظنة للتحقيق، ومَئِنّة[2] للتأكيد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لقوله ﴿إنا معكم﴾ لأنَّ معناه الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ردٌّ للإسلام، ودَفْع له منهم؛ لأنَّ المستهزىءَ بالشيء،

---

(١) في الأصل المخطوط: كانوا، والمثبت من المطبوع؛ لأنه أنسب للسياق.

(٢) «مئنة»: مَئِنَّةُ الشيء: موضعه ومَظِنَّتُه.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾

المستخف به: منكر له، ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته. أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم بقولهم، حين قالوا لهم: إنا معكم: إن كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب: الخفة، من الهزء، وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان.

١٥ ـ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، فسمّي جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فسمّي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء سيئة واعتداء. وهذا لأنَّ الاستهزاءَ لا يجوزُ على الله تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه من باب العبث، وتعالى عنه. قال الزجاج: وهو الوجه المختار. واستئناف قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من غير عطف، في غاية الجزالة والفخامة، وفيه: إن الله تعالى هو الذي يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، لما ينزل بهم من النكال والذُّلّ والهوان. ولما كانت نكاياتُ الله وبلاياه تنزلُ عليهم ساعة فساعة قيل: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يقلْ: الله مستهزىء بهم؛ ليكون طبقاً لقوله: إنما نحن مستهزئون ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يمهلهم. عن الزجاج ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في غلوهم في كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي: يتحيرون ويترددون. وهذه الآية حُجَّةٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

١٦ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: استبدلوها به، واختاروها عليه. وإنما قال: ﴿اشتروا الضَّلالة بالهدى﴾ ولم يكونوا على هدى؛ لأنها في قوم آمنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، فلما جاءهم كفروا به، أو جعلوا لتمكنهم منه كأن الهدى قائم فيهم، فتركوه بالضَّلالة. وفيه دليلٌ على جواز البيع تعاطياً؛ لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء، ولكن تركوا الهدى بالضَّلالة عن اختيار، وسمّى ذلك

فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا

شراء، فصار دليلاً لنا على أنَّ مَن أخذ شيئاً من غيره، وترك عليه عوضه برضاه، فقد اشتراه وإن لم يتكلم به. والضَّلالة: الجور عن القصد، وفَقْد الاهتداء. يقال: ضلَّ منزله، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ الرِّبح: الفضلُ على رأس المال، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح. وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازي، ومعناه: فما ربحوا في تجارتهم، إذ التجارة لا تربح. ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازاً أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحاً له، كقوله:

ولما رأيتُ النَّسْرَ عَزَّ ابن دَأْيَةٍ وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جاشَ له صَدْرِي

ولما شبَّه الشيبَ بالنسر والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التَّعشيش والوكر ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ لطريق التجارة، كما يكون التجار المتصرِّفون العالمون بما يربح فيه ويخسر. والمعنى: إن مطلوبَ التجار سلامةُ رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوهما، فرأس مالهم الهدى، ولم يبق لهم مع الضلالة، وإذا لم يبقَ لهم إلا الضَّلالة لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بالأغراض الدنيوية، لأنَّ الضَّال خاسر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح. وقيل: الذين: صفة أولئك، و﴿فما ربحت تجارتهم. . . ﴾ إلى آخر الآية: في محل الرفع خبر أولئك.

١٧ ـ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف، وتتميماً للبيان. ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق تأثيرٌ ظاهر. ولقد كثر ذلك في الكتب السَّماوية. ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في أصل كلامهم: هو المثل، وهو النظير. يقال: مِثْل ومَثَل ومثيل كشِبْه وشَبَه وشبيه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلاً إلا قولاً فيه غرابة، ولذا حُوفِظ عليه فلا يغير. وقد استعير المثل للحال، أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن، وفيها غرابة. كأن قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: وفيما قصصنا

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾

عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان عجائبها ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. ووضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩] فلا يكون تمثيلُ الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الفوج الذي استوقد ناراً، على أن ذوات المنافقين لم يشبّهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبّهت قصّتهم بقصّة المستوقد. ومعنى استوقد: أوقد. ووقود النار: سُطوعها. والنار: جوهر لطيف مضيء حارّ مُحرق. واشتقاقها من: نار ينور؛ إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركةً واضطراباً ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة، ومصداقه قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] وهي في الآية متعدية. [ويحتمل أن تكونَ غير متعدية][١] مسندة إلى ﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾ والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. وجواب فلما ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ وهو ظرف زمان، والعامل فيه جوابه مثل إذا. وما موصولة، وحوله نصب على الظرف، أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حوله. وجَمْعُ الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. والنُّور: ضوء النار، وضوء كل نيِّر. ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً. ومعنى ذهب به: استصحبه، ومضى به. والمعنى: أخذ اللهُ نورهم، وأمسكه ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ الله ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢] فكان أبلغ من الإذهاب. ولم يقل: ذهب الله بضوئهم لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ لأنَّ ذِكْر النور أبلغُ؛ لأن الضوءَ فيه دلالةٌ على الزيادة، والمراد: إزالة النور عنهم رأساً، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمَّى نوراً. أَلا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ والظلمة: عرض ينافي النور، وكيف جمعها، وكيف نكّرها، وكيف أتبعها ما يدلُّ على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان، وهو قوله: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾. وترك بمعنى: طرح

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

وخلّى إذا علق بواحد، فإذا علق بشيئين كان مضمّناً معنى صيّر، فيجري مجرى أفعال القلوب، ومنه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والمفعول الساقط من ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطروح، لا من قبيل المقدر المنوي، كأنَّ الفعلَ غير متعدّ أصلاً، وإنما شُبِّهت حالهم بحال المستوقد؛ لأنهم غبّ[1] الإضاءة وقعوا في ظلمةٍ وحيرة. نعم المنافقُ خابطٌ في ظلمات الكفر أبداً، ولكن المراد ما استضاؤوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمةُ النفاق، المفضية بهم إلى ظلمة العقاب السرمد. وللآية تفسيرٌ آخر وهو: أنهم لما وُصِفُوا بأنهم اشتروا الضَّلالة بالهدى عقَّب ذلك بهذا التمثيل ليمثّل هُداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم، وتركه إياهم في الظُّلمات. وتنكير النار للتعظيم.

١٨ ـ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي: هم صُمٌّ. كانت حواسُّهم سليمةً، ولكن لما سَدُّوا عن الإصاخةِ إلى الحق مسامِعَهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم[2]. وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم: هم ليوثٌ للشجعان، وبحورٌ للأسخياء، إلا أنَّ هذا في الصفات، وذلك في الأسماء. وما في الآية تشبيهٌ بليغٌ في الأصحِّ لا استعارة؛ لأنَّ المستعارَ له مذكورٌ وهم المنافقون، والاستعارة إنما تُطلق حيث يُطوى ذِكْرُ المستعار له، ويجعل الكلامُ خلواً عنه، صالحاً لأن يُرادَ به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها؛ لتنوع الرُّجوع إلى الشيء وعنه. أو أراد أنهم مُتحيِّرون، بقوا جامدين في مكاناتهم لا يرجعون ولا يدرون أيتقدَّمون أم يتأخَّرون.

---

(١) «الغِبّ»: العاقبة والآخِر.

(٢) «إيفت مشاعرهم»: دخلتْ عليها آفةٌ وعاهة.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾

١٩ ـ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ثنّى اللهُ سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبَّه المنافقين في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، وإظهارَه الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وهنا شبَّه دينَ الإسلام بالصَّيِّب؛ لأنَّ القلوبَ تحيا به حياة الأرض بالمطر؛ وما يتعلَّق به من شبه الكفار بالظلمات؛ وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق؛ وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، فحذف مثل لدلالة العطف عليه، وذوي لدلالة يجعلون عليه. والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيهُ أشياء بأشياء، إلا أنه لم يُصرِّحْ بذكر المشبهات، كما صرح في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨]. وقول امرىء القيس:

كـأنَّ قُلُـوبَ الطَّيـرِ رَطْبـاً ويـابِسـاً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالي[١]

بل جاء به مطوياً ذكره على سنن الاستعارة. والصَّحيحُ أنَّ التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفرَّقة لأنه يتكلّف لواحد واحد شيء بقدر شبهه به. بيانُه أنَّ العربَ تأخذُ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزة[٢] ذاكَ وتشبيهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس، وتشبه كيفيّة حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقتْ حتى عادتْ شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...﴾ الآية [الجمعة: ٥] فالمرادُ تشبيهُ حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة،

---

(١) «العناب»: ثمر أحمر رطب. «الحشف»: الجاف الرديء من التمر.

(٢) «الحُجْزة»: موضع شدِّ الإزار من الوسط. يُقال: هذا كلامٌ آخذٌ بعضُه بِحُجَز بعض: أي: متناسق متماسك.

. . . .

وحمل ما سواها من الأوقار(١)، ولا يشعر من ذلك إلا بما يمرُّ بدَفِّيه من التعب والكد. وكقوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٥] فالمراد قلةُ بقاءِ زهرة الحياة الدنيا كقلَّة بقاء الخَضِر، فهو تشبيهُ كيفيةٍ بكيفية. فأما أن يُراد تشبيهُ الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيَّرة شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدَّهشة، شبّهت حيرتهم وشدة الأمر بما يكابد من أطفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل. وكذلك مَن أخذته السَّماءُ في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. والتمثيلُ الثَّاني أبلغُ؛ لأنه أدلُّ على فرط الحيرة وشدة الأمر، ولذا أُخِّر. وهم يتدرَّجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. وعطف أحد التمثيلين على الآخر بأو؛ لأنها في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً [في الشك عند البعض، ثم استعيرتْ لمجرد التساوي](٢) كقولك: جالسِ الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيّان في استصواب أن يُجَالَسا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: الآثم والكفور سيان في وجوب العصيان. فكذا هنا معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبّة لكيفيتي هاتين القصتين، وأنَّ القصتين، سواء في استقلال كلٍّ واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثّلتها فأنت مصيب، وإن مثّلتها بهما جميعاً فكذلك. والصَّيِّب: المطر الذي يصوب، أي: ينزل ويقع. ويقال للسحاب: صيب أيضاً. وتنكير صيِّب لأنه نوعٌ من المطر شديد هائل، كما نكرت النار في التمثيل الأول. والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف. والفائدة في ذكر السماء ـ والصيب لا يكونُ إلا من السَّماء ـ أنه جاء بالسماء معرَّفة فأفاد أنه غمام أخذ بآفاق السماء، ونفى أن يكونَ من سماء، أي: من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأنَّ كلَّ أفق من آفاقها سماء. ففي التعريف مبالغةٌ كما في تنكير صيِّب

---

(١) «الأوقار»: جمع الوِقْر، وهو الحِمْل الثقيل.

(٢) مابين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾

وتركيبه وبنائه. وفيه دليلٌ على أنَّ السحابَ من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه. وقيل: إنه يأخذُ من البحر ويرتفع. ظلمات: مرفوع[1] بالجار والمجرور؛ لأنه قد قوي لكونه صفة لصيِّب، بخلاف ما لو قلت ابتداء: فيه ظلمات، ففيه خلاف بين الأخفش وسيبويه. والرعد: الصَّوت الذي يُسمع من السحاب لاصطكاك أجرام السحاب، أو مَلَك يسوقُ السحاب. والبرق: الذي يلمعُ من السحاب، من برق الشيء بريقاً: إذا لمع. والضمير في فيه يعودُ إلى الصيِّب، فقد جعل الصَّيِّب مكاناً للظلمات، فإن أريدَ به السحاب فظلماته إذا كان أسحم[2] مطبقاً، ظلمتا سُحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمةُ تكاثفه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. وجَعْل الصيِّب مكاناً للرعد والبرق على إرادة السحاب به ظاهر. وكذا إن أريدَ به المطر؛ لأنهما مُلتبسان به في الجملة. ولم يجمع الرَّعد والبرق لأنهما مصدران في الأصل، يقال: رعدت السماءُ رعداً، وبرقت برقاً، فروعي حُكْمُ الأصل بأن ترك جمعهما. ونُكِّرت هذه الأشياء لأن المرادَ أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيب وإن كان محذوفاً، كما في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه. ولا محلّ ليجعلون لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدَّة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وإنما ذكر الأصابع، ولم يذكر الأنامل، ورؤوس الأصابع هي التي تُجعل في الآذان، اتساعاً، كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] والمراد إلى الرسغ. ولأنَّ في ذِكْر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذي تُسَدُّ به الأذن؛ لأن السبابةَ فعَّالة من السب، فكان

(١) من المطبوع.
(٢) «أسحم»: أَسْوَد.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾

اجتنابها أولى بآداب القرآن، ولم يذكر المُسبِّحة لأنها مُستحدثة غير مشهورة ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. والصاعقة: قصفةُ رعد تنقضُّ معها شقَّةٌ من نار. قالوا: تنقدحُ من السحاب إذا اصطكت أجرامه. وهي نار لطيفةٌ حديدة، لا تمرُّ بشي إلا أتتْ عليه، إلا أنها مع حدَّتها سريعة الخمود. يُحكى أنها سقطت على نخلةٍ فأحرقت نحو النصف ثم طُفِئت. ويقال: صعقته الصاعقة: إذا أهلكته فصعق، أي: مات إما بشدة الصوت، أو بالإحراق ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له. والموت: فساد بنية الحيوان أو عرض لا يصحُّ معه إحساس معاقب للحياة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاطُ به المحيط به، فهو مجاز، وهذه الجملةُ اعتراضٌ لا محلَّ لها.

٢٠ ـ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة، وكاد يُستعمل لتقريب الفعل جداً، وموضع يخطف نصب؛ لأنه خبر كاد ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ كل ظرف، وما نكرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد محذوف، أي: كل وقت أضاء لهم فيه، والعامل فيه جوابها وهو ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: في ضوئه. وهو استئناف ثالث كأنَّه جوابٌ لمن يقولُ: كيف يصنعون في تارتَيْ خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيلٌ لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيِّب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون. إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطفَ أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفَتر لمعانه بقوا واقفين. وأضاء: متعدّ، أي: كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف؛ أو غير متعدّ، أي: كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره. والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتدَّ فهو سَعْي، فإذا ازداد فهو عدْوٌ ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أظلم غير متعد. وذكر مع أضاء كلما، ومع أظلم إذا؛ لأنهم حراصٌ على وجود ما همّهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف ﴿قَامُوا۟﴾ وقفوا، وثبتوا

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

في مكانهم، ومنه: قام الماء: إذا جمد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقصيف الرعد، ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بوميض البرق. ومفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه، أي: ولو شاء الله أن يذهبَ بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء، وأراد: لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب، كنحو قوله:

فلو شِئْتُ أن أبكي دَماً لَبَكَيْتُهُ عليه ولكن ساحة الصَّبرِ أوسعُ

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] و﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله قادرٌ على كل شيء.

٢١ ـ لما عدَّد اللهُ فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم، وما اختصَّت به كلُّ فرقة مما يسعدها، ويشقيها، ويحظيها[1]، ويرديها أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ . قال علقمة: ما في القرآن ﴿يا أيها الناس﴾ فهو خطابٌ لأهل مكة، وما فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة. وهذا خطابٌ لمشركي مكة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد ـ وأي والهمزة للقريب ـ ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بَعُد ونأى، فإذا نُودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه مُعتنى به جداً. وقول الداعي: يا رب ـ وهو أقربُ إليه من حبل الوريد ـ استقصارٌ منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظانّ الزلفى، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته. وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل. وهو اسمٌ مبهمٌ يفتقرُ إلى ما يزيلُ إبهامه، فلا بُدَّ أن

---

(١) أي: عند الله تعالى.

ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ

يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه يتصف به، حتى يتَّضح المقصودُ بالنداء. فالذي يعمل فيه يا: أي. والتابعُ له صفته، نحو: يا زيد الظريف. إلا أن أيّاً لا يستقلُّ بنفسه استقلال زيد، فلم ينفكَّ عن الصفة. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يستحقُّه، أي: من الإضافة. وكثر النداءُ في القرآن على هذه الطريقة؛ لأن ما نادى اللهُ به عبادَه من أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، أمور عظام، وخطوب جسام، يجبُ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت[1] أن ينادوا بالآكد الأبلغ ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وحِّدوه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلُّ عبادةٍ في القرآن فهي توحيد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ صفة موضحة مميزة؛ لأنهم كانوا يسمُّون الآلهة أرباباً. والخَلْقُ: إيجادُ المعدوم على تقدير واستواء. وعند المعتزلة: إيجادُ الشيء على تقدير واستواء. وهذا بناء على أنَّ المعدومَ شيءٌ عندهم؛ لأنَّ الشيء ما صحَّ أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسمٌ للموجود (خَلَقكُمْ): بالإدغام، أبو عمرو ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق مَن قبلهم؛ لأنهم كانوا مُقرِّين بذلك، فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا على رجاء أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب. ولعل للترجي والإطماع، ولكنه إطماعٌ من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وبه قال سيبويه. قال قطرب: هو بمعنى كي، أي: لكي تتقوا.

٢٢ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: صيَّر. ومحل الذي نصب على المدح، أو رفع بإضمار هو ﴿فِرَٰشٗا﴾ بساطاً تقعدون عليها، وتنامون، وتتقلبون، وهو مفعول ثان لجعل. وليس فيه دليلٌ على أن الأرضَ مسطَّحة أو كروية إذ الافتراشُ ممكنٌ على التَّقديرين ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ سقفاً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا

(١) أي: فاقتضت الحالُ.

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وهو مصدر سُمِّي به المبنيّ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بالماء. نعم خروجُ الثمرات بقدرته ومشيئته وإيجاده، ولكن جعل الماء سبباً في خروجها، كماء الفحل في خَلْق الولد، وهو قادرٌ على إنشاء الكلِّ بلا سبب، كما أنشأ نفوسَ الأسباب والمواد، ولكنّ له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة، حكماً وعبراً للنظار بعيون الاستبصار. ومِن في ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للتبعيض، أو للبيان. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول له إن كانت مِنْ للتبعيض، ومفعول به لأخرج إن كانت للبيان. وإنما قيل: الثمرات دون الثمر والثمار ـ وإن كان الثمرُ المخرجُ بماء السماء كثيراً ـ لأن المرادَ جماعةُ الثمرة، ولأن الجموعَ يتعاورُ بعضُها موقع بعض؛ لالتقائها في الجمعية ﴿لَّكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو متعلق بالأمر، أي: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أنداداً؛ لأنَّ أصلَ العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل له ندّ ولا شريك. ويجوز أن يكون ﴿الذي﴾ رفعاً على الابتداء، وخبره ﴿فلا تجعلوا﴾ ودخول الفاء لأن الكلام يتضمَّن الجزاء، أي: الذي حفَّكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء. والندّ: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المنافي. ومعنى قولهم ليس لله ندٌّ ولا ضدّ: نفي ما يسدُّ مسدَّه، ونفي ماينافيه ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها لا تخلقُ شيئاً، ولا ترزق، والله الخالقُ الرازق. أو مفعول تعلمون متروك، أي: وأنتم من أهل العلم، وجعل الأصنام لله أنداداً غاية الجهل. والجملة حال من الضمير في ﴿فلا تجعلوا﴾.

٢٣ ـ ولما احتجَّ عليهم بما يثبتُ الوحدانية، ويبطل الإشراك ـ لخلقهم أحياء قادرين، وخلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم، وخلق السماء التي هي

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾

كالقبة المضروبة، والخيمة المطنَّبة[١] على هذا القرار، وما سوّاه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلّة والمظلّة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقاً لبني آدم. فهذا كلُّه دليلٌ موصلٌ إلى التوحيد، مبطلٌ للإشراك؛ لأنَّ شيئاً من المخلوقات لا يقدرُ على إيجاد شيء منها ـ عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يقرر إعجاز القرآن، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ الآية. ما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، والعبد: اسم لمملوك من جنس العقلاء. والمملوك: موجودٌ قُهِر بالاستيلاء.

وقيل: نزلنا دون أنزلنا؛ لأن المرادَ النزولُ على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازّه لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزلْ هكذا نجوماً سورة بعد سورة، وآيات غبّ آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً شيئاً فشيئاً، لا يلقي الناظم ديوانَ شعره دفعة، ولا يرمي النّاثر[٢] بخطبه ضربة، فلو أنزله اللهُ لأنزله جملة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على تدريج: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي: فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلُّها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلاً؛ فإما أن تُسمَّى بسور المدينة، وهو حائطُها؛ لأنها طائفةٌ من القرآن محدودةٌ محوَّزة على حيالها، كالبلد المسوَّر، أو لأنها محتويةٌ على فنون من العلم، وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها. وإمَّا أن تسمَّى بالسُّورة التي هي الرتبة؛ لأن السُّوَرَ بمنزلة المنازل والمراتب، يترقى فيها القارىءُ، وهي أيضاً في نفسها مُرتَّبة:

---

(١) «طنَّب الخيمة»: جعل لها حبالاً طويلة وشدَّها بها.

(٢) في الأصل المخطوط: الناظر، والمثبت من المطبوع؛ لأنّ الناثر يقابل الناظم.

مِّن مِّثْلِهِۦ

طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة بنائها[١]، وجلالة محلّها في الدِّين. وإن كانت مُنقلبةً عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسؤرة التي هي: البقية من الشيء. وأما الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فهي كثيرة ـ ولذا أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه عليهم السلام مسورة مترجمة السور، وبوّب المصنِّفون في كلِّ فنٍّ كتبهم أبواباً مُوشّحة الصدور بالتراجم ـ منها: أن الجنس إذا انطوتْ تحته أنواعٌ، واشتمل على أصناف، كان أحسن من أن يكونَ بياناً واحداً. ومنها: أن القارىءَ إذا ختم سورةً، أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس، والتحصيل منه، لو استمر على الكتاب بطوله. ومن ثم جزأ القرّاءُ القرآنَ أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً. ومنها: أن الحافظَ إذا حذقَ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفةً مستقلة بنفسها، ولها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجلُّ في نفسه. ومنه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان الرجلُ إذا قرأ البقرةَ وآل عمران جلَّ فينا[٢]. ومن ثم كانت القراءةُ في الصلاة بسورةٍ تامة أفضل ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ متعلق بسورة صفة لها. والضمير لما نزلنا، أي: بسورة كائنة من مثله. يعني: فأتوا بسورةٍ ممّا هو على صفته في البيان الغريب، وعلوّ الطبقة في حُسْن النظم؛ أو لعبدنا، أي: فأتوا ممَّن هو على حاله من كونه أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذْ من العلماء، ولا قصد إلى مثلٍ ونظير هنالك. وردُّ الضمير إلى المُنزَّل أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣] ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] ولأن الكلامَ مع ردِّ الضمير إلى المُنزَّل أحسن ترتيباً، وذلك: أن الحديثَ في المُنزَّل لا في المُنزَّل عليه، وهو مسوقٌ إليه، فإنَّ المعنى: وإن ارتبتم في أنَّ القرآنَ منزلٌ من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله. وقضية الترتيب لو كان الضميرُ مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقالَ: وإن ارتبتم في أنَّ محمداً مُنزل عليه،

(١) في المطبوع: شأنها.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) وفيه: جدَّ فينا، أي: عظم.

وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ

فهاتوا قرآناً من مثله، ولأنَّ هذا التفسيرَ يلائمُ قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ جمع شهيد؛ بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله، وهو متعلق بـ﴿شهداءكم﴾ أي: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهةً من دون الله، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحقِّ، أو من يشهد لكم بأنَّه مثل القرآن ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أن ذلك مختلقٌ، وأنه من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا أنتم بمثله، واستعينوا بآلهتكم على ذلك.

٢٤ ـ ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ......﴾ لمَّا أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرَّفون صدقَ النبي ﷺ قال لهم: فإذا لم تعارضوه، وبان عجزُكم، ووَجَبَ تصديقُـه فآمنوا، وخافوا العذابَ المعدّ لمن كذَّب وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدَّى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ولما كان العجزُ عن المعارضة قبل التأمُّل كالمشكوك فيه لديهم؛ لا تكالهم على فصاحتهم، واعتمادهم على بلاغتهم، سيق الكلامُ معهـم علـى حسـب حسبـانهـم، فجيء بـإن الـذي للشـك، دون إذا الـذي للوجوب، وعبَّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعلٌ من الأفعال، والفائدة فيه: أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً، إذ لو لم يُعْدَل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله. ولا محلَّ لقوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ لأنها جملةٌ اعتراضية. وحَسَّن هذا الاعتراضَ أنَّ لفظَ الشرط للتردُّد، فقطع التردُّد بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾. ولا ولن أختان في نفي المستقبل، إلا أنَّ في لن تأكيداً، وعن الخليل: أصلها لا أن، وعند الفراء لا، أبدلت ألفها نوناً. وعند سيبويه: حرفٌ موضوعٌ لتأكيد نفي المستقبل. وإنما علم أنه إخبارٌ عن الغيب على ما هو به، حتى صار معجزةً؛ لأنهم لو عارضوه بشيءٍ لاشتهر، فكيف والطاعنون فيه أكثر من الذَّابين عنه؟! وشرط في اتقاء النار انتفاءُ إتيانهم بسورةٍ من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبيَّن عجزُهم عن المعارضة صحَّ عندهم صِدْقُ الرسول، فإذا صحَّ

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ﴾

عندهم صدقُه، ثم لزموا العنادَ، وأبوا الانقياد استوجبوا النار، فقيل لهم: إن استبنتم العجزَ فاتركوا العناد، فوضع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتقاءَ النار سببُ ترك العناد، وهو من باب الكناية، وهي من شُعَب البلاغة، وفائدته: الإيجاز الذي هو من حلية القرآن. والوقود: ما ترفعُ به النار، يعني: الحطب. وأما المصدر فمضمومٌ، وقد جاء فيه الفتح. وصلة الذي والتي يجبُ أن تكونَ معلوماً للمخاطب، فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب، أو من رسول الله، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. وإنما جاءت النارَ مُنكَّرةً ثَمَّ، ومعرَّفة هنا؛ لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً. ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أنها نارٌ ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تتَّقدُ بالناس والحجارة. وهي حجارةُ الكبريت، فهي أشدُّ توقُّداً، وأبطأ خموداً، وأنتن رائحة، وألصق بالبدن؛ أو الأصنام المعبودة، فهي أشدُّ تحسراً. وإنما قرنَ الناسَ بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث عبدوها، وجعلوها لله أنداداً، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبها، فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في إيلامهم ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ هُيِّئت لهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ، خلافاً لما يقوله جهم(١).

٢٥ ـ سُنَّةُ الله في كتابة أن يذكر الترغيبَ مع الترهيب تنشيطاً لاكتساب ما يُزلف(٢)، وتثبيطاً(٣) عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم، وأوعدهم بالعقاب قفَّاه(٤) بذكر المؤمنين وأعمالهم، وتبشيرهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ

---

(١) هو جَهْم بن صفوان: ضالّ مبتدع، قتله نصر بن سيّار سنة (١٢٨هـ).
(٢) «يزلف»: يُقرِّب ويُقدِّم.
(٣) «تثبيطاً»: تعويقاً وإشغالاً.
(٤) «قفَّاه»: أتبعه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والمأمور بقوله ﴿وبشر﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو كل أحد، وهذا أحسنُ؛ لأنه يُؤْذِنُ بأنَّ الأمرَ لعظمه، وفخامة شأنه محقُوقٌ بأن يبشّر به كلّ من قدر على البشارة به. وهو معطوف على ﴿فاتقوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كقولك: زيد يُعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق. والبشارة: الإخبارُ بما يظهرُ سرور المخبر به، ومن ثم [قال العلماء][١] إذا قال لعبيده: أيكم بشَّرني بقدوم فلان فهو حرٌّ، فبشروه فرادى عتق أولهم؛ لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين، ولو قال: أخبرني مكان بشرني عتقوا؛ لأنهم أخبروه. ومنه البشرة: لظاهر الجلد، وتباشير الصُّبح: ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فمن العكس في الكلام الذي يقصدُ به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به، كما يقول الرجلُ لعدوّه: أبشر بقتل ذريتك ونَهْب مالك. والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. والصالحاتُ: كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقل، والكتاب، والسُّنَّة. واللام للجنس. والآيةُ حُجَّةٌ على مَن جَعَل الأعمال إيماناً؛ لأنه عطف الأعمالَ الصَّالحةَ على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون: يجوزُ أن يدخلَ المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشَّر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً؛ لأن البشارةَ المطلقةَ بالجنة شَرْطُها اقترانُ الأعمال الصَّالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة، بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه، ثم يدخلُه الجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بأنَّ لهم، وموضع أن وما عملت فيه: النصب ببشر عند سيبويه، خلافاً للخليل، وهو كثيرٌ في التنزيل. والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف. والتركيب دائر على

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى﴾

معنى الستر، ومنه: الجن، والجنون، والجنين، والجنة، والجان، والجنان. وسُمِّيت دارُ الثواب جنةً لما فيها من الجنان. والجنة مخلوقة كقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] خلافاً لبعض المعتزلة. ومعنى جمع الجنة وتنكيرها: أنَّ الجنةَ اسمٌ لدار الثواب كلّها، وهي مشتملةٌ على جِنان كثيرة، ومرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّاتٌ من تلك الجنان ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الجملة في موضع النصب صفة لجنات. والمراد: من تحت أشجارها، كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية، وأنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزهُ البساتين ما كانت أشجارها مظللة، والأنهار في خلالها مطَّردة. والجري: الاطراد. والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال للنيل: نهر مصر، واللغة الغالبة: النَّهَر، ومدارُ التركيب على السّعة. وإسناد الجري إلى الأنهار مجازي. وإنما عرف الأنهار لأنه يحتملُ أن يُرادَ بها أنهارها، فعَوض التعريفَ باللام من تعريف الإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أو يُشارُ باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] الآية. والماء الجاري من النّعمة العظمى، واللذة الكبرى؛ ولذا قرن اللهُ تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية، وقدَّمه على سائر نُعوتها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ صفة ثانية لجنات، أو جملة مستأنفة، لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخلُ خلدُ السامع أن يقعَ فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس؟ فقيل: إنّ ثمارها أشباهُ ثمار جنات الدنيا، أي: أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غايةٍ لا يعلمُها إلا الله ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: كلما رُزِقوا من الجنات ـ من أيّ ثمرة كانت، مِن: تفاحها، أو رمانها، أو غير ذلك ـ رزقاً، قالوا ذلكَ. فـ(مِنْ) الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية؛ لأن الرزقَ قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدأ من ثمرة. ونظيره أن تقولَ: رزَقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من الرمان. وليس المرادُ بالثمرة التفاحة الواحدة،

رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ

أو الرمانة الفذة، وإنما المرادُ نوعٌ من أنواع الثمار ﴿رُزِقۡنَا﴾ أي: رزقناه، فحذف العائد ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل هذا، فلما قُطِع عن الإضافة بُني. والمعنى: هذا مثلُ الذي رزقنا من قبل، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾. وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد: أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. الضمير في «به» يرجعُ إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً، لأن قوله: ﴿هذا الذي رُزِقنا من قبل﴾ انطوى تحته ذِكْرُ ما رزقوه في الدارين. وإنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا، ولم تكن أجناساً أخر؛ لأنَّ الإنسانَ بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفْه نَفَر عنه طبعُه، وعافته نفسُه، لأنه إذا شاهد ما سلف له به عهدٌ، ورأى فيه مزيّة ظاهرة، وتفاوتاً بيّناً، كان استعجابُه به أكثر، واستغرابه أوفر. وتكريرهم هذا القول عند كلِّ ثمرة يرزقونها دليلٌ على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزيّة، وعلى أنَّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجُّبهم في كل أوان. أو إلى الرزق[١]، كما أنَّ هذا إشارة إليه. والمعنى: أن ما يُرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه، كما يُحكى عن الحسن: يُؤتى أحدُهم بالصّحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى، فيقول: هذا الذي أُتينا به من قبل. فيقول المَلَك: كُلْ فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده! إنَّ الرجلَ من أهل الجنة ليتناولُ الثمرةَ ليأكلها فما هي بواصلةٍ إلى فيه حتى يبدلها الله مكانها مثلها[٢]» فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. وقوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ جملة معترضة للتقرير، كقولك: فلان أحسن بفلان ـ ونعم ما فعل ـ ورأى من الرأي كذا، وكان صواباً. ومنه: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ﴾ أزواج: مبتدأ، ولهم الخبر، وفيها ظرف للاستقرار

---

(١) أي: الضمير في «به» عائد إلى الرزق.

(٢) رواه الطبراني في الكبير(١٤٤٩) والبزار كما في كشف الأستار(٣٥٣٠) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٥) بلفظ: «لا ينزعُ رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا نبت مكانها مِثْلاها».

﴿مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ من مساوىء الأخلاق، لا طمحات[1] ولا مرحات[2]؛ أو مما يختصُّ بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من البول والغائط، وسائر الأقذار والأدناس. ولم تُجمع الصفة كالموصوف لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقلْ: طاهرة لأن مطهرة أبلغ؛ لأنها تكونُ للتكثير، وفيها إشعارٌ بأن مُطَهِّراً طهَّرهُنَّ، وما ذلك إلا الله عز وجل ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الخلد: البقاء الدائم الذي لا ينقطع. وفيه بطلانُ قول الجهمية، فإنهم يقولون بفناء الجنة وأهلها؛ لأنه تعالى وصف بأنه الأول والآخر، وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع، فيجب تحقيقُ وصف الآخرية بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقَّق بعد فناء الكل، فوجب القولُ به ضرورة، ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافه باقية، فلو كانت الجنةُ باقيةً مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق، وذا محال. قلنا: الأول في حقِّه هو الذي لا ابتداءَ لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاءَ له، وفي حقنا الأول هو الفرد السابق، والآخر هو الفرد اللاحق. واتِّصافه بهما لبيان صفة الكمال، ونفي النقيصة والزوال، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه. وأنَّى يقعُ التشابهُ في البقاء، وهو تعالى باقٍ لذاته، وبقاؤه واجبُ الوجود، وبقاء الخلقِ به، وهو جائزُ الوجود؟!

٢٦ ـ لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب به مثلاً، ضحكت اليهودُ، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي: لا يترك ضَرْب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثَّل بها لحقارتها. وأصل الحياء: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسانَ من تخوُّف ما يُعاب به ويُذَمُّ. ولا يجوزُ على القديم التغير، والخوف، والذم. ولكن الترك لما كان مِن لوازمه عبَّر عنه به. ويجوز أن تقعَ هذه العبارةُ في كلام الكفرة

(١) «لا طمحات»: لا يبغضن أزواجهن، ولا ينظرن إلى غيرهم.
(٢) «لا مرحات»: المَرَح: التبختر والاختيال.

﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾

فقالوا: أما يستحيي ربُّ محمد أن يضربَ مثلاً بالذباب والعنكبوت. فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال. وهو فنٌّ من كلامهم بديع. وفيه لغتان: التعدي بنفسه وبالجار، يقال: استحييته، واستحييت منه، وهما محتملتان هنا. وضَرْب المثل: صنعه، من: ضرب اللبِن وضرب الخاتم و﴿ما﴾ هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنتْ باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد: أي كتاب كان. أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] كأنه قال: لا يستحيي أن يضربَ مثلاً البتة. وبعوضة: عطف بيان لمثلاً، أو مفعول ليضرب، ومثلاً: حال من النكرة مقدّمة عليه، أو انتصبا مفعولين على أنَّ ضرب بمعنى جعل. واشتقاقها من البعض ـ وهو القطع ـ كالبضع والعضب يقال: بَعَضَه البعوض، ومنه: بعض الشيء لأنه قطعة منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوزها، وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو: القلَّة والحقارة. أو فما زاد عليها في الحجم، كأنه أراد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة. ولا يقال: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة، وهي النهاية في الصِّغر؛ لأنَّ جناحَ البعوضة أقلُّ منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسولُ الله ﷺ مثلاً للدنيا[1] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير للمثل، أو لأن يضرب. والحقُّ: الثَّابت الذي لا يسوغُ إنكاره، يقال: حق الأمر؛ إذا ثبت ووجب ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل معنى الحق، وذو الحال الضمير المستتر فيه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ويُوقف عليه؛ إذ لو وصلِ لصار ما بعده صفة له، وليس كذلك. وفي قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استحقار، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في عبد الله

---

(١) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى منها شربَة ماء» رواه الترمذي (٢٣٢٠).

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾

ابن عمرو: ياعجباً لابن عمرو هذا! مُحقِّرةً له. ومثلاً: نصب على التمييز، أو على الحال، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]. و﴿أما﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذا يُجاب بالفاء، وفائدته في الكلام: أن يعطيَه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدتَ توكيده، وأنه لا محالة ذاهب، قلت: أما زيد فذاهب؛ ولذا قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسيرُ يفيدُ كونه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط. وفي إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إحمادٌ عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بليغ بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظّهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، وما: استفهاماً، فيكون كلمتين. وأن تكون ذا: مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً للاستفهام، فيكون كلمة واحدة. فما على الأول: رفع بالابتداء، وخبره: ذا مع صلته، أي: أراد، والعائد محذوف. وعلى الثاني منصوب المحل بأراد، والتقدير: أي شيء أراد الله. والإرادة مصدر أردت الشيء؛ إذا طلبته نفسك، ومال إليه قلبك، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص المفعولات بوجهٍ دون وجه. والله تعالى موصوفٌ بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة. وقال معتزلةُ بغداد: إنه تعالى لا يُوصَف بالإرادة على الحقيقة. فإذا قيل: أراد الله كذا، فإن كان فِعله فمعناه أنه فعل، وهو غيرُ ساهٍ ولا مكره عليه، وإن كان فِعل غيره فمعناه أنه أمر به ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدَّرتين بأما، وأنَّ فريقَ العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به، كلاهما موصوفٌ بالكثرة، وأن العلمَ بكونه حقاً من باب الهدى، وأن الجهلَ بحسن مورده من باب الضلالة، وأهلُ الهدى كثيرٌ في أنفسهم، وإنما يوصفون بالقلة بالقياس إلى أهل الضلال، ولأنَّ القليلَ من المهتدين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلّوا في الصورة.

إنَّ الكـــرامَ كثيرٌ في البـــلادِ وإنْ ... قَلُّوا كما غَيْرُهُم قَلٌّ وإن كَثُرُوا

والإضلالُ: خَلْقُ فِعْل الضلال في العبد، والهدايةُ: خَلْقُ فِعْل الاهتداء.

وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

هذا هو الحقيقة عند أهل السُّنة. وسياق الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجهلةُ من الكفار، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع الاستنكار والاستغراب؛ لأنَّ التمثيلَ إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى، وإدناء المتوهّم من المشاهد. فإن كان المتمثلُ له عظيماً كان المتمثّل به كذلك، وإن كان حقيراً كان المتمثّل به كذلك. أَلَا ترى أنَّ الحقَّ لما كان واضحاً جليّاً تمثّل له بالضياء والنور، وأن الباطلَ لما كان بضدٍّ صفته تمثّل له بالظلمة. ولما كانت حالُ الآلهة التي جعلها الكفارُ أنداداً لله لا حال أحقر منها، وأقلّ ـ ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً ـ لم يستنكر، ولم يستبدع، ولم يقل للمتمثل: استحي من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيبٌ في تمثيله، محقٌّ في قوله، سائقٌ للمثل على قضية مضربه. ولبيان أنَّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق، وأنَّ الكفارَ الذين غلبهم الجهلُ على عقولهم إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأنَّ ذلك سبَبَ هدى المؤمنين، وضلال الفاسقين. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك، وما زال الناسُ يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش[1] الأرض، فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وأضعف من البعوضة، وأعز من مخّ البعوض. ولكن ديدنُ المحجوج والمبهوت أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح، وإنكار اللائح ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هو مفعول يضل، وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأن يضلّ لم يستوفِ مفعوله.
والفسق: الخروج عن القصد. وفي الشريعة: الخروج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازلُ بين المنزلتين، أي: بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة، وسيمرُّ عليك ما يبطله إن شاء الله.

---

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: وخشاش.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

٢٧ - ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ النقضُ: الفسخُ وفكُّ التركيب. والعهد: الموثق. والمرادُ بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبارُ اليهود المتعنِّتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. وعهد الله: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمرٌ وصَّاهم به، ووثقه عليهم. أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعِثَ إليهم رسولٌ يصدِّقه الله بمعجزاته صدقوه، واتبعوه، ولم يكتموا ذكره. أو أَخَذَ الله العهدَ عليهم ألا يسفكوا دماءهم، ولا يبغي بعضُهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامَهُم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود، العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرُّوا بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ . . .﴾ الآية [الأعراف:١٧٢]، وعهد خصَّ به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويقيموا الدين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] وعهد خصّ به العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧] ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أصله من الوثاقة، وهي: إحكامُ الشيء. والضمير للعهد. وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله، وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكونَ بمعنى توثقته، كما أن الميعادَ بمعنى الوعد. أو لله تعالى، أي: من بعد توثقته عليهم. ومن: لابتداء الغاية ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هو قطعهم الأرحامَ وموالاةَ المؤمنين، أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض، وكفرهم ببعض. والأمر: طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء. وما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي. وأن يوصل: في موضع جرّ بدل من الهاء، أي: بوصله، أو في موضع رفع، أي: هو أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بقطع السبيل، والتعويق عن الإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ فصل. والخبر ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المغبونون، بحيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصَّلاح، والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

٢٨ ـ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ معنى الهمزة التي في كيف مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟! والواو في: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نطفاً في أصلاب آبائكم للحال و«قد» مضمرة. والأموات: جمع ميْت، كالأقوال جمع قَيْل. ويقال لعادم الحياة أصلاً: ميت أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون إلى الجزاء. أو: ثم يحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنشور. وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقي بثم؛ لأنَّ الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة، والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت إن أريد النشور، وإن أريدَ إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور. وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصَّة التي ذكرها؛ لأنها مشتملةٌ على آياتٍ بيِّناتٍ تصرفُهم عن الكفر، ولأنها تشتملُ على نِعَم جسامٍ حقها أن تُشْكَر ولا تُكْفَر.

٢٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدَّالَّة على صانعٍ قادرٍ حكيمٍ عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة؛ لأنَّ ملاذَّها تذكر ثوابها، ومكارهها تذكِّر عقابها. وقد استدل الكرخي وأبو بكر الرازي والمعتزلة بقوله ﴿خلق لكم﴾ على أنَّ الأشياءَ التي يصحُّ أن يُنتفعَ بها خُلِقت مباحةً في الأصل ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ما ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود، أي: قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: أقبل وعمد إلى خلق

فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ

السَّموات بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريدَ فيما بين ذلك خَلْق شيء آخر، والمرادُ بالسماء: جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. الضمير في ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ مُبهم يفسرِّه ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كقولهم: رُبَه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، ولفظها واحد، ومعناها الجمع؛ لأنَّها في معنى الجنس. ومعنى تسويتهن: تعديل خَلْقهن، وتقويمه، وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خَلْقهن. و﴿ثم﴾ هنا لبيان فَضْل خَلْق السموات على خَلْق الأرض. ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] لأنَّ جرم الأرض تقدَّم خَلْقهُ خلق السماء، وأما دحوها فمتأخر. وعن الحسن: خلق اللهُ الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر[١]، عليها دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفِهْر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقٗا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو الالتزاق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾ فمن ثَم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم. (وَهُوَ) وأخواته مدني غير ورش. (وَهْوَ): هو وأبو عمرو وعلي، جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة، فصار بمنزلة عضد، وهم يقولون في عَضُد عضْد بالسكون.

٣٠ ـ ولما خلق الله تعالى الأرض أسكنَ فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفةً من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم. فأمر نبيَّه عليه السلام أن يذكر قصَّتهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. إذ نصب بإضمار اذكر. والملائكة: جمع ملأك، كالشمائل جمع شمأل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع ﴿إِنِّي جَاعِلٞ﴾ أي: مُصيِّر، من جعل الذي له مفعولان، وهما ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗ﴾. وهو من يخلف غيره. فعيلة بمعنى فاعلة، وزيدت الهاء للمبالغة. والمعنى: خليفة منكم؛

(١) «الفِهْر»: الحَجَر.

قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا

لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، ولم يقل خلائف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد: من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم، فوحّد لذلك. أو خليفة مني؛ لأن آدم كان خليفةَ الله في أرضه، وكذلك كلّ نبي، قال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم. أو ليعلِّم عباده المشاورةَ في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ تعجُّبٌ من أن يَستخلفَ مكانَ أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يجهل. وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهة اللوح، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: يصبّ. والواو في ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحقُّ منه بالإحسان؟! ﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، كقوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي: دخلوا كافرين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونطهِّر أنفسنا لك. وقيل: التسبيح والتقديس: تبعيد الله من السوء، من سبح في الأرض، وقدس فيها: إذا ذهب فيها، وأبعد ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من الحكم في ذلك ما هو خفي عليكم. يعني: يكون فيهم الأنبياء، والأولياء، والعلماء. وما: بمعنى الذي، وهو مفعولُ أعلم، والعائد: محذوف، أي: ما لا تعلمونه. (إنِّيَ) حجازي وأبو عمرو.

٣١ ـ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ هو اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر. واشتقاقهم آدم من أديم الأرض، أو من الأدَمَة، كاشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلاس ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، إذ الاسمُ يدلُّ على المسمَّى، وعوض منه اللام، كقوله تعالى:

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ولا يصحُّ أن يقدر: وعلَّم آدم مسميات الأسماء؛ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لأن التعليمَ تعلّق بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله تعالى ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ و﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم. ومعنى تعليمه أسماء المسميات: أنه تعالى أراه الأجناسَ التي خَلَقها، وعلَّمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: علّمه اسم كلِّ شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات. وإنما ذكَّر لأنَّ في المسميات العقلاء فغلَّبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزَهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين، سفاكين للدماء. وفيه ردٌّ عليهم، وبيان أنَّ فيمن يستخلفُه من الفوائد العلمية التي هي أصولُ الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا.

٣٢ ـ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك. وأفادتنا الآيةُ أن علم الأسماء فوق التخلِّي للعبادة، فكيف بعلم الشريعة؟! وانتصابُه على المصدر تقديره: سبحت اللهَ تسبيحاً ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وليس فيه علم الأسماء. وما: بمعنى الذي. والعلم بمعنى المعلوم، أي: لا معلومَ لنا إلا الذي علَّمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ غير المعلَّم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضيتَ وقدَّرتَ. والكاف اسم إن، وأنت: مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر إن. أو ﴿أَنتَ﴾ فصل، والخبر ﴿الْعَلِيمُ﴾ والحكيم: خبر ثان.

٣٣ ـ ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ سمَّى كلَّ شيء باسمه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أعلمُ ما غاب فيهما عنكم،

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

مما كان، ومما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرُّون.

٣٤ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي: اخضعوا له، وأقرُّوا بالفَضْل له. عن أُبيّ بن كعب، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان ذلك انحناءً، ولم يكن خروراً على الذّقن. والجمهورُ على أنَّ المأمورَ به وَضْعُ الوجه على الأرض. وكان السجودُ تحيةً لآدم ـ عليه السلام ـ في الصحيح، إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس. وكان سجودُ التحية جائزاً فيما مضى، ثم نُسِخ بقوله ﷺ لسلمان حين أراد أن يسجد له: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجدَ لأحدٍ إلا لله تعالى»[(١)] ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة، كذا قاله عليّ، وابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ ولأن الأصلَ أنَّ الاستثناءَ يكون من جنس المستثنى منه. ولهذا قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] معناه صار من الجن كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقيل: الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يكنْ من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصِّ، وهو قولُ الحسن وقتادة، ولأنه خُلِق من نار، والملائكة خُلِقوا من النور، ولأنه أبىٰ، وعصىٰ، واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] ولا نَسْلَ للملائكة. وعن الجاحظ: أنَّ الجنَّ والملائكةَ جنسٌ واحد، فمن طهر منهم فهو ملك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جِنٌّ ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع مما أُمِر به ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ تكبَّر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإبائه، واستكباره، وردِّه الأمر، لا بترك العمل بالأمر؛ لأنَّ ترك السجود لا يُخرِجُ من إيمان، ولا يكون كفراً عند أهل السنة، خلافاً للمعتزلة والخوارج. أو كان من الكافرين في علم الله، أي: وكان في عِلْم الله أنه يكفر بعد إيمانه، لا لأنه كان

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة. وأحمد(٣/١٥٨) من حديث أنس و(٦/٨٦) من حديث عائشة و(٥/٢٢٧) من حديث معاذ بن جبل.

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾

كافراً أبداً في علم الله. وهي مسألة الموافاة.

٣٥ ـ ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ أمر من سكن الدار يسكنها سكنى: إذا أقام فيها. ويقال: سكن المتحرك سكوناً ﴿أَنتَ﴾ تأكيدٌ للمستكن في اسكن؛ ليصح عطف ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عليه ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ هي جنةُ الخلد التي وُعِدت للمتقين؛ للنقل المشهور، واللام للتعريف. وقالت المعتزلةُ: كانت بستاناً باليمن؛ لأن الجنة لا تكليفَ فيها، ولا خروجَ عنها. قلنا: إنما لا يَخرجُ منها من دخلها جزاء. وقد دخل النبي ﷺ ليلة المعراج، ثم خرج منها. وأهلُ الجنة يُكلَّفون المعرفة والتوحيد ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، فحذف المضاف ﴿رَغَدًا﴾ وصف بالمصدر، أي: أكلاً رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ و(شِيْتُما) وبابه بغير همز، أبو عمرو. وحيث للمكان المبهم، أي: أيّ مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: الحنطة. ولذا قيل: كيف لا يَعْصِي الإنسان، وقوته من شجرة العصيان؟ أو الكرمة؛ لأنها أصلُ كلِّ فتنة، أو: التينة ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على: تقربا، أو نصب جواب للنهي ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم، أو من الضَّارِّين أنفسهم.

٣٦ ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾ أي: عن الشجرة. أي: فحملهما الشيطان على الزلَّة بسببها. وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلَّتهما عنها. أو: فأزَلَّهما عن الجنة بمعنىٰ: أذهبهما عنها، وأبعدهما. (فأَزالَهُما): حمزة. وزلَّة آدم بالخطأ في التأويل إما بحمل النهي على التنزيه دون التحريم، أو بحمل اللام على التعريف العهد، وكأن الله تعالى أراد الجنس. وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ إطلاق اسم الزلَّة على الأنبياء عليهم السلام، كما قال مشايخُ بخارى. فإنها اسمُ الفعل يقعُ على خلاف الأمر من غير قصد إلى الخلاف، كزلة الماشي في الطين. وقال مشايخ سمرقند: لا يطلق اسمُ الزلَّة على أفعالهم كما لا تُطلق المعصية، وإنما يقال: فعلوا الفاضل، وتركوا الأفضل، فعوتبوا عليه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في ﴿عنها﴾. وقد توصَّل إلى إزلالهما بعد ما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] لأنه منع عن

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة، لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وروي أنَّه أراد الدُّخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: قام عند الباب فنادى ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ الهبوط: النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية. والصحيح لآدم وحواء. والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلاً كأنهما الإنس كلّهم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المراد به: ما عليه النَّاس من التَّباغي، والتعادي، وتضليل بعضهم لبعض. والجملة في موضع الحال من الواو في ﴿اهبطوا﴾ أي: اهبطوا متعادين ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استرار، أو استقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتُّع بالعيش ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى الموت. قال إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً.

٣٧ ـ ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي: استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وبنصب آدم ورفع[1] كلمات: مكي، على أنها استقبلته بأن بلغته، واتصلت به، وهن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وفيه موعظةٌ لذريتهما حيث عرفوا كيفيةَ السبيل إلى التنصُّل من الذنوب. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن أحبَّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يارب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب! ألم تنفخ في روحي من روحك؟ ألم تسبق رحمتك غضبك؟ ألم تسكنّي جنتك؟ وهو تعالى يقول: بلى، بلى. قال: فلم أخرجتني من الجنة؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: فلو تبت أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول، واكتفى بذكر توبة آدم؛

---

(١) أي: (فتلقَّى آدمَ من ربِّه كلماتٌ).

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ

لأن حواء كانت تبعاً له. وقد طُوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الكثير القبول للتوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على عباده.

٣٨ ـ ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ حال، أي: مجتمعين. وكرَّر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأنَّ الهبوطَ الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السَّماء إلى الأرض، أو لما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: رسول أبعثه إليكم، أو كتاب أنزله عليكم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: بالقبول والإيمان به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفوا. والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إلي. (فلا خَوْفَ) بالفتح في كلِّ القرآن: يعقوب.

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها ومستحقُّوها. والجملة في موضع الرفع خبر المبتدأ، أعني: الذين ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٤٠ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله، أو عبد الله. فإسرا هو العبد، أو الصفوة، وإيل: هو الله بالعبرية. وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذِكْرُهُم النِّعمةَ ألا يخلوا بشكرها، ويطيعوا مانحها. وأراد بها: ما أنعم به على آبائهم، مما عدَّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم؛ وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ أدُّوا وافياً تاماً. يقال: وفيت له بالعهد، فأنا واف به، وأوفيت له بالعهد، فأنا موفٍ به. والاختيار: أوفيت، وعليه نزل التنزيل ﴿بِعَهْدِىٓ﴾ بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، أو من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما

وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ

عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعاً. وعن قتادة هما: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ﴾ و﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ [المائدة: ١٢]. وقال أهلُ الإشارة: أوفوا في دار محنتي، على بساط خدمتي، بحفظ حرمتي، أوف في دار نعمتي، على بساط كرامتي، بسرور رؤيتي ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيداً رهبته. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وإياي: منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه ما بعده، وتقديره: فأرهبوا إياي فارهبون. وحذف الأول لأن الثاني يدلُّ عليه. وإنما لم ينتصب بقوله ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ لأنه أخذ مفعوله، وهو الياء المحذوفة، وكسرة النون دليل الياء، كما لا يجوز نصب زيد في: زيداً فاضربه باضرب الذي هو ظاهر.

٤١ ـ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٗا﴾ حال مؤكّدة من الهاء المحذوفة، كأنه قيل: أنزلته مصدّقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ من التوراة. يعني: في العبادة، والتوحيد، والنبوة، وأمر محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦ﴾ أي: أوّل مَن كَفَر به، أو أول حزب، أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كلٌّ واحد منكم أول كافر به. وهذا تعريضٌ بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمنُ به لمعرفتهم به وبصفته. والضمير في ﴿به﴾ يعودُ إلى القرآن ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ بتغييرها، وتحريفها ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرها. وقيل: هو الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو اتبعوا رسول الله ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ (فخافُوني، فارهبُوني، فاتّقوني) بالياء في الحالين، وكذلك كل ياء محذوفة في الخط: يعقوب.

٤٢ ـ ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لبس الحق بالباطل: خلطه. والباء، إن كانت صِلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء: خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقِّها وباطلكم. وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك:

وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾
۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ

كتبت بالقلم كان المعنى: ولا تجعلوا الحقَّ ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ هو مجزوم، داخل تحت حكم النهي بمعنى: ولا تكتموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وهما أمران متميزان؛ لأنَّ لبسَ الحق بالباطلِ ما ذكرنا من كَتْبِهِم في التوراة ما ليس منها. وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجدُ في التوراة صفة محمد، أو حكم كذا ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لابسون، كاتمون، وهو أقبحُ لهم؛ لأن الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه.

٤٣ ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ منهم؛ لأن اليهودَ لا ركوع في صلاتهم، أي: أَسْلموا وأعملوا عملَ أهل الإسلام. وجاز أن يُراد بالركوع الصلاة، كما يُعبَّر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بالصَّلاة مع المصلين، يعني: في الجماعة. أي: صلّوها مع المصلِّين لا منفردين.

٤٤ ـ ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الهمزة للتقرير، مع التوبيخ، والتعجُّب من حالهم ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ أي: سعة الخير والمعروف. ومنه: البَرُّ لسعته. ويتناول كلَّ خير، ومنه قولهم: صدقت، وبررت. وكان الأحبارُ يأمرون مَن نصحوه في السِّرِّ من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه الصلاة والسلام ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بالصدقات ليفرّقوها خانوا فيها ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ وتتركونها من البر، كالمنسيات ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تبكيت، أي: تتلون التوراةَ وفيها نعت محمدﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة، وترك البر، ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدّكم استقباحه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

٤٥ ـ ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بالجمع

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

بينهما، وأن تصلّوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب، والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبَّار السَّموات والأرض؛ أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسولُ الله ﷺ إذا حزبه أمر فَزِع إلى الصلاة[١]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه نُعي إليه أخوه قُثَمُ، وهو في سفر، فاسترجع وصلّى ركعتين، ثم قال: ﴿واستعينوا بالصَّبر والصلاة﴾. وقيل: الصَّبرُ: الصوم، لأنه حَبْسٌ عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر. وقيل: الصلاة: الدعاء، أي: استعينوا على البلايا بالصبر، والالتجاء إلى الدعاء، والابتهال إلى الله في دفعه ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة، أو للاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقَّة ثقيلة، من قولك: كبر عليَّ هذا الأمر ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ لأنهم يتوقَّعون ما ادَّخر للصابرين على متاعبها، فتهون عليهم، أَلَا ترى إلى قوله:

٤٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتوقعون لقاءَ ثوابه، ونيل ما عنده، ويطمعون فيه. وفسّر يظنُّون بيتيقنون لقراءة عبد الله[٢]: يعلمون، أي: يعلمون أنه لا بُدَّ من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. وأما مَن لم يُوقن بالجزاء، ولم يرجُ الثواب كانت عليه مشقة خالصة. والخشوع والإخبات: التطامن، وأما الخضوع: فاللين والانقياد. وفسَّر اللقاء: بالرؤية، وملاقو ربهم: بمعاينوه بلا كيف ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ لا يملكُ أمرَهم في الآخرة أحدٌ سواه.

٤٧ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ نصب عطف على نعمتي، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الجمِّ الغفير من الناس، يقال: رأيت عالماً من الناس، والمراد: الكثرة.

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ في تفسيره (١/ ٢٦٠) من حديث حذيفة.
(٢) أي: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ

٤٨ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ أي: يوم القيامة، وهو مفعول به، لا ظرف ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفۡسٖ﴾ كافرة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق التي لزمتها. وشيئاً مفعول به، أو مصدر، أي: قليلاً من الجزاء. والجملة منصوبة المحل صفة يوماً، والعائد منها إلى الموصوف محذوف تقديره: لا تجزى فيه ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ (ولا تُقْبَلُ) بالتاء، مكي وبصري. والضمير في ﴿منها﴾ يرجعُ إلى النفس المؤمنة، أي: لا تقبل منها شفاعة للكافرة. وقيل: كانت اليهود تزعم أنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فهو كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وتشبث المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة مردود لأن المنفي شفاعة الكفار وقد قال عليه الصلاة والسلام: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، من كَذَّبَ بها لم ينلها»[١] ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ أي: فدية؛ لأنها معادلة للمفدى ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يُعَاوَنون. وجمع لدلالة النفس المنكَّرة على النفوس الكثيرة. وذكّر لمعنى العباد أو الأناسي.

٤٩ ـ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أصل آل: أهل؛ ولذلك يصغّر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخصّ استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم، فلا يقال: آل الإسكاف والحجّام. وفرعون: عَلَمَ لمن ملك العمالقة، كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ حال من آل فرعون، أي: يولونكم، من: سامه خسفاً؛ إذا أولاه ظلماً. وأصله: من سام السلعة: إذا طلبها، كأنها بمعنى: يبغونكم ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه. ومساومة البيع: مزايدة، أو مطالبة. وسوء: مفعول ثان ليسومونكم،وهو مصدر سيء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخُلُق وسوء الفعل، يُراد: قبحهما. ومعنى سوء العذاب ـ والعذاب

(١) رواه أحمد (٣/٢١٣) وأبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك، دون الجملة الثانية.

يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

كله سيىء ـ: أشدّه وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾ ولذا ترك العاطف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة. وإنما فعلوا بهم ذلك؛ لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يُولد مولودٌ يزولُ ملكهُ بسببه، كما أنذروا نمرود فلم يغنِ عنهما اجتهادهما في التحفُّظ، وكان ما شاء الله ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية.

٥٠ ـ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: (فرَّقْنا)، أي: فصلنا، يقال: فرَّق بين الشيئين، وفرَّق بين الأشياء؛ لأن المسالكَ كانت اثني عشر على عدد الأسباط ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكونه، ويتفرق الماءُ عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم. أو فرقناه بسببكم. أو فرقناه ملتبساً بكم ، فيكون في موضع الحال. رُوي: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابنا؟ فنحن لا نرضى حتى نراهم! فأوحى الله إليه أن قُلْ بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كوى، فتراءوا[١]، وتسامعوا كلامهم ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه، ولا تشكُّون فيه.

٥١ ـ وإنما قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ لأن الله تعالى وعده بالوحي، ووَعْدُه: هو المجيء للميقات إلى الطور ﴿وَعَدْنَا﴾ حيث كان: بصري. لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون، ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد اللهُ تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتاً: ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وقال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهورَ غُرَرُها[٢] بالليالي. وأربعين: مفعول ثان لواعدنا

(١) في الكشاف (١/١٣٩): تراموا.

(٢) «الغُرَر»: جمع الغُرَّة، وهي من الشهر: أوّله، وليلة استهلال القمر.

ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟
أَنفُسَكُمْ

لا ظرف؛ لأنه ليس معناه: واعدناه في أربعين ليلة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً، فحذف المفعول الثاني لاتخذتم. وبابه بالإظهار[١]، مكي وحفص ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطُّور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بوضعكم العبادة غير موضعها، والجملة حال، أي: عبدتموه ظالمين.

٥٢ ـ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ محونا ذنوبكم عنكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد اتخاذكم العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا النعمةَ في العفو عنكم.

٥٣ ـ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وهو التوراة، ونظيره: رأيت الغيث والليث، تريد: الرجل الجامع بين الجود والجراءة؛ أو: التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات؛ أو: الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان: انفلاق البحر، أو: النصر الذي فرق بينه وبين عدوّه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا.

٥٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ للذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبوداً ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت. وفيه تقريعٌ لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم؛ الذي برأهم أبرياء من التفاوت إلى عبادة البقر؛ الذي هو مثلٌ في الغباوة والبلادة ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهر، وهُو البخع[٢] وقيل: معناه: قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، فقتل سبعون ألفاً

(١) وأدغم الذال (اتخَتُّمْ) الباقون، وأبو بكر عن عاصم أيضاً. انظر كتاب السبعة (ص١٥٥).

(٢) «البخع»: بَخَع نَفْسَه: قَتَلها غيظاً أو غمّاً.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ
لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم
مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من الإصرار على المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ المفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحَوْبَة وإن كبرت. والفاء الأولى للتسبيب؛ لأنَّ الظلمَ سببُ التوبة. والثانية للتعقيب؛ لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، إذ الله تعالى جَعَل توبتهم قَتْل أنفسهم. والثالثة متعلقة بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

٥٥ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، وانتصابها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال من نَرَى، أي: ذوي جهرة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. قيل: هي نارٌ جاءتْ من السماء فأحرقتهم. رُوي أنَّ السَّبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء، فأرنا الله جهرة. فقال موسى: سألته ذلك فأباه عليّ. فقالوا: إنك رأيتَ الله تعالى، فلن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً، فبعث اللهُ عليهم صاعقةً فأحرقتهم. وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية؛ لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذّبوا بسؤال ما هو جائزُ الثبوت. قلنا: إنما عُوقبوا بكفرهم؛ لأن قولهم: إنك رأيتَ الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، كفر منهم. ولأنَّهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربَّهم جهرة، والإيمانُ بالأنبياء واجبٌ بعد ظهور معجزتهم[1]، ولا يجوزُ اقتراحُ الآيات عليهم. ولأنهم لم يسألوا سؤالَ استرشادٍ، بل سؤال تعنُّتٍ وعناد ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إليها حين نزلت.

٥٦ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم، وأصله: الإثارة ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت.

---

(١) في المطبوع: معجزاتهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

٥٧ ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام يظلّكم. وذلك في التيه سخَّر اللهُ لهم السَّحابَ يسيرُ بسيرهم يظلهم من الشمس، وينزل بالليل عمودٌ من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتّسخ، ولا تبلى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ الترنجبين، وكان ينزلُ عليهم مثل الثلج من طلوع الشمس، لكلِّ إنسان صاع ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعثُ اللهُ عليهم الجنوبَ فتحشر عليهم السّلوى، وهي السُّمَانَى، فيذبح الرجلُ منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ لذيذات أو حلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم: مفعول يظلمون، وهو خبر كان.

٥٨ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ قلنا لهم بعد ما خرجوا من التِّيه ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس، أو أريحاء، والقرية: المجتمع من: قريت، لأنها تجمع الخلق. أمروا بدخولها بعد التيه ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ باب القرية، أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها. وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام، وإنما دخلوا الباب في حياته، ودخلوا بيت المقدس بعده ﴿سُجَّدًا﴾ حال، وهو جمع ساجد. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى، وتواضُعاً له ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ فِعله من الحط، كالجلسة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، أو أمرك حطة. والأصل النصب، وقد قرىء به بمعنىٰ حطّ عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات. وقيل: أمرنا حطة، أي: أن نحطّ في هذه القرية، ونستقر فيها. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: هو بسم الله الرحمن الرحيم. وعن عكرمة: هو لا إله إلا الله ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جمع خطيئة، وهي الذنب (يُغْفَرْ)، مدني. (تُغْفَرْ)، شامي ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من كان محسناً منكم

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ

كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

٥٩ ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه حذف، وتقديره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، فالذي مع الباء متروك، والذي بغير باء موجود. يعني: وضعوا مكان حطة قولاً غيرها. أي: أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة. وقيل: قالوا بالنبطية: حطا سمقاثا، أي: حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾ عذاباً. وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لرجز ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. روي أنه مات منهم في ساعةٍ بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

٦٠ ـ ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ موضع إذ نصب، كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى، أي: استدعى أن يسقى قومه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: اضرب بعصاك الحجر. واللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم. فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعاً، له أربعة أوجه، كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وكانوا ستمئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. أو: الجنس، أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أي: فضرب فانفجرت، أي: سالت بكثرة، أو فإن ضربت فقد انفجرت، وهي على هذا فاء فصيحة، لا تقع إلا في كلام بليغ ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط. وقرىء بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. وعيناً: تمييز ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التي

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ
لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا
وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي
هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ

يشربون منها ﴿كُلُوا﴾ وقلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء العيون ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الكل مما رزقكم الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها، والعيث: أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، أي: لاتتمادوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا مُتمادين فيه.

٦١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هو ما رُزقوا في التيه من المنّ والسلوى. وإنما قالوا: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدّل. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة، يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، ويراد بالوحدة: نفي التبدل والاختلاف. أو أرادوا: أنهما ضربٌ واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذُّذ والترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله، وقل له: أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُظْهِر لنا، ويُوجِد ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ هو ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به: أطايب البقول، كالنّعناع، والكَرَفس، والكراث، ونحوهما مما يأكل الناس ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ يعني: الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الحنطة، أو الثوم، لقراءة ابن مسعود: وثُومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منزلة، وأدون مقداراً، والدنو والقرب يُعبَّر بهما عن قلّة المقدار ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أرفع، وأجلّ ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار، أي: انحدروا إليه من التيه. وبلاد التيه: ما بين بيت المقدس إلى قِنّسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ؛ أو: مصر فرعون، وإنما صرفه مع وجود السببين، وهما: التأنيث والتعريف؛ لإرادة البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط، وفيهما العجمة والتعريف ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإن الذي سألتم يكون في الأمصار، لا في التّيه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الهوان والفقر، يعني: جُعلت الذلة محيطة بهم،

وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟

مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه. فاليهودُ صاغرون، أذلاء، أهل مسكنة وفقر، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. (عليهُمُ الذِّلَّةُ) حمزة وعليّ، وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة. وبكسر الهاء[1] والميم، أبو عمرو. وبكسر الهاء وضم الميم، غيرهم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من قولك: باء فلان بفلان: إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، أي: صاروا أحقاء بغضبه. وعن الكسائي: رجعوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم من ضرب الذلة، والمسكنة، والخلاقة بالغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالهمزة، نافع، وكذا بابه. أي: ذلك بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء. وقد قتلت اليهودُ شعياء، وزكريا، ويحيى صلوات الله عليهم. والنبي من النبأ؛ لأنَّه يخبر عن الله تعالى، فعيل، بمعنى مفعل، أو بمعنى مفعل. أو: من نبا، أي: ارتفع. والنبوة: المكان المرتفع ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندهم أيضاً، فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئاً يستحقون به القتل عندهم، وهو في محل النصب على الحال من الضمير في يقتلون، أي: يقتلونهم مبطلين ﴿ذَٰلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي، واعتدائهم حدود الله في كلِّ شيء، مع كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يُشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء، على أنَّ ذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما، وغَلَوْا حتى قستْ قلوبهُم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء؛ أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

٦٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ تهوَّدوا، يقال: هاد يهود وتهود: إذا دخل في اليهودية، وهو

(١) أي: (عَلَيْهِمِ).

وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

هائد، والجمع: هود ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نصران، كندمان وندامى، يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة، والياء في نصرانيّ للمبالغة، كالتي في أحمريّ. سُمُّوا نصارى لأنهم نصروا المسيح ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من: صبأ: إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. وقيل: هم يقرؤون الزبور ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومحل «من آمن» الرفع إن جعلته مبتدأ خبره: «فلهم أجرهم» والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخبر إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم، والفاء لتضمن مَن معنى الشرط.

٦٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بقبول ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: الجبل، حتى قبلتم، وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها. فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقطع[1] الطورَ من أصله، ورفعه فظلّله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا أُلقي عليكم، حتى قبلوا. وقلنا لهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب، أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمة. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب، وادرسوه، ولا تنسوه، ولا تغفلُوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين.

٦٤ ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق، والوفاء به ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد القبول ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذاب عنكم، أو

---

(١) في المطبوع: فقلع.

لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟
قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الهالكين في العذاب.

٦٥ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ هو مصدر، سبتت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. وقد اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التجرُّد للعبادة، وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوتٌ في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرَّقتْ، فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدُّون مشارعَها من البحر، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾ بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ خبر كان، أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصَّغار والطرد.

٦٦ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعني: المسخة ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرة تُنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأن مسختهم ذُكِرَتْ في كُتُب الأوّلين، فاعتبروا بها، واعتبر بها مَن بلغتهم من الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكلِّ مُتَّقٍ سمعها.

٦٧ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى. وهو معطوف على نعمتي في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كأنه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذ قال موسى. وكذلك هذا في الظروف التي مضتْ، أي: اذكروا نعمتي، واذكروا وقت إنجائنا إياكم، واذكروا وقت فرقنا، واذكروا نعمتي، واذكروا وقت استسقاء موسى ربّه لقومه، والظروف التي تأتي إلى قوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن﴾ أي: بأن

تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ

﴿تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ قال المفسرون: أول القصَّةُ مُؤخر في التلاوة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: ٧٢]. وذلك أن رجلاً مُوسِراً اسمه عاميل، قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بديته، فأمرهم اللهُ أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليحيا، فيخبرهم بقاتله ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ أتجعلنا مكان هزء، أو أهل هزء، أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء. (هُزْءًا) بسكون الزاي والهمزة، حمزة. وبضمتين والواو، حفص[1]. غيرهما بالتثقيل والهمزة ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾ العياذ واللياذ من وادٍ واحد. ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسّفه. وفيه تعريضٌ بهم، أي: أنتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء.

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ سؤالٌ عن حالها وصفتها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهيتها، لأنَّ ما وإن كانت سؤالاً عن الجنس، وكيف عن الوصف، ولكن قد تقعُ ما موقع كيف. وذلك أنهم تعجَّبوا من بقرةٍ ميتة، يُضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشّأن. وما هي: خبر ومبتدأ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾ مُسِنَّة. وسُمِّيت فارضاً لأنها فرضت سنّها، أي: قطعتها، وبلغت آخرها، وارتفع فارض لأنه صفة لبقرة ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾ فتيَّة، عطف عليه ﴿عَوَانُۢ﴾ نَصَف ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ بين الفارض والبكر. ولم يقل: بين ذينك، مع أن بين يقتضي شيئين فصاعداً؛ لأنه أراد بين هذا المذكور. وقد يجرى الضمير مجرىٰ اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة: قلت لرؤبة في قوله:

فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيْعُ الْبَهَقْ[2]

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما.

---

(١) أي: (هُزُءًا). وانظر كتاب السبعة (١٥٩).

(٢) «بلق»: بياض. «توليع»: تخطيط. «البهق»: بياض مشوب بكدرة. وهو داء يتغيَّر منه لون الجلد.

فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾

فقال: أردتُ كأن ذاك ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أي: تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به، أو أمركم بمعنى مأموركم، تسمية للمفعول بالمصدر، كضرب الأمير.

٦٩ ـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ موضع ما: رفع؛ لأن معناه الاستفهام، تقديره: ادع لنا ربّك يبين لنا أيّ شيء لونها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ الفقوع: أشدُّ ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع. وهو توكيد لصفراء، وليس خبراً عن اللون، إلا أنه ارتفع اللونُ به ارتفاع الفاعل. ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها. وفي ذكر اللون فائدة التوكيد؛ لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد الصفرة صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ لحسنها. والسُّرور: لذَّةٌ في القلب عند حصول نفع أو توقعه. عن علي ـ رضي الله عنه ـ: من لبس نعلاً صفراء قلَّ همه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

٧٠ ـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها، وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. عن النبيﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم»[١] والاستقصاء شؤم ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل. «وإن شاء الله» اعتراضٌ بين اسم إن وخبرها. وفي الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»[٢] أي: لو لم يقولوا إن شاء الله.

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٨٨) وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (١/ ١٨٩).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٤٥).

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ
قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ
فِيهَا

٧١ ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ صفة لبقرة بمعنى: بقرة غير ذلول. يعني: لم تذلل للكِراب، وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ ولا هي من النواضح التي يُسنى[١] عليها لسقي الحروث. ولا الأولى نافية، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى لاذلول تثير الأرض، أي: تقلبها للزراعة، وتسقي الحرث، على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب، وآثار العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لُمعْة في نُقْبتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشياً وشية: إذا خلط بلونه لوناً آخر ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالٌ في أمرها. (جِيْتَ) وبابه بغير همز، أبو عمرو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلّها، فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة في ظهور القاتل. رُوي أنه كان في بني اسرائيل شيخٌ صالح له عجلة، فأتى بها الغَيضَة[٢]، وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبَّت البقرةُ، وكانت من أحسن البقر وأسمنه. فساوموها اليتيم وأمّه حتى اشتروها بملء مَسْكها[٣] ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. وهذا البيانُ من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً. والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا، خلافاً للمعتزلة.

٧٢ ـ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير: واذكروا. خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ فاختلفتم، واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ

(١) «يسنى»: يُستقى.
(٢) «الغيضة»: الشجر الكثير المُلْتَفّ.
(٣) «المَسْك»: الجِلْد.

﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾

بعضُهم بعضاً، أي: يدفعه. أو تدافعتم بمعنى طَرَح قتلها بعضكم على بعض، فيدفع المطروح عليه الطارح. أو لأن الطرح في نفسه دفع. وأصله: تدارأتم، ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالاً لتصير من جنس الدال؛ التي هى فاء الكلمة، ليمكن الإدغام، ثم سكّنوا الدال، إذ شرط الإدغام أن يكونَ الأولُ ساكناً، وزيدت همزة الوصل؛ لأنه لا يمكن الابتداء بالساكن (فادّاراتم) بغير همز، أبو عمرو ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ مُظْهِرٌ لا محالة ما كتمتم من أمر القتل، لا يتركه مكتوماً. وأعمل ﴿مُخۡرِجٞ﴾ على حَكاية ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ. وهذه الجملة اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وهما (ادارأتم) و:

٧٣ ـ ﴿فَقُلۡنَا﴾ والضمير في ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾ يرجعُ إلى النفس. والتذكير بتأويل الشخص والإنسان. أو: إلى القتيل لما دلَّ عليه ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿بِبَعۡضِهَا﴾ ببعض البقرة، وهو لسانها، أو فخذها اليمنى، أو عَجبها[1]. والمعنى: فضربوه فحيي. فحذف ذلك لدلالة: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ عليه. رُوي أنهَم لما ضربوه قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان وفلان، لابني عمه، ثم سقط ميتاً، فأُخِذا، وقتِلا. ولم يورث قاتل بعد ذلك. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن النبي ﷺ، وإما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى: وقلنا لهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله على أنه قادر على كلِّ شيء ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فتعملون على قضية عقولكم، وهي أن: من قدر على إحياء نفس واحدة، قدر على إحياء جميعها؛ لعدم الاختصاص.

والحكمة في ذبح البقرة وضَرْبه ببعضها ـ وإن قدر على إحيائه بلا واسطة

(١) «عَجْبها»: العَجْب من كل شيء: مُؤخَّره.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

التقرب به ـ: الإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش، وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أُمِروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم. وكان ينبغي أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها. ولكنه تعالى إنما قصَّ قصصَ بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها. وهاتان القصتان ـ وإن كانتا متصلتين ـ فتستقل كلُّ واحدة منهما بنوع من التقريع. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما تبعه من الآية العظيمة. وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب المراد في تثنية التقريع. ولقد رُوعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصَّة برأسها، أن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة. وقيل: هذه القصة تشيرُ إلى أنَّ مَن أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمتْ نفسه بأنواع المجاهدات.

٧٤ ـ ومعنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: استبعاد القسوة ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ما ذكر مما يوجبُ لين القلوب ورقَّتها. وصفة القلوب بالقسوة مثلٌ لنبوِّها عن الاعتبار والاتِّعاظ. من بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع ما تقدَّم مِن الآيات المعدودة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها. وأشد: معطوف على الكاف، تقديره: أو مثل أشدّ قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو هي في أنفسها أشدّ قسوة. يعني: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها، وهو الحديد مثلاً. أو مَن عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟
لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وإنما لم يقل أقسى لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس، كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ «ما» بمعنى الذي، في موضع النَّصب، وهو اسمُ إن، واللام للتوكيد، والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أصله يتشقق، وبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيناً، وأدغمت ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ يعني: أنَّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير، ومنها: ما ينشقّ انشقاقاً بالطول، أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً، وقلوبهم لا تَندَى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يتردَّى مِن أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو مجاز عن انقيادها لأمرِ الله، وأنها لا تمتنعُ على ما يريدُ فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقادُ ولا تفعل ما أُمِرت به. وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى: أنه يخلق فيها الحياة والتمييز. وليس شرط خلق الحياة، والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السُّنَّة، وعلى هذا قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١]. يعني: وقلوبهم لا تخشى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء، مكي. وهو وعيد.

٧٥ - ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم، ويستجيبوا لكم، كقوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني: اليهود ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ كما حرفوا صفةَ رسول الله ﷺ، وآية الرجم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه، وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إنْ كَفَر هؤلاء وحرَّفوا، فلهم سابقةٌ في ذلك.

٧٦ - ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ أي: المنافقون، أو اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي:

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ

المخلصين من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشَّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ عاتبين عليهم. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أتخبرون أصحاب محمد ﷺ ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بيّن اللهُ لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله تعالى هكذا، وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وقيل: هذا على إضمار المضاف، أي: عند كتاب ربكم. وقيل: ليجادلوكم، ويخاصموكم به، بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة يقولون: كفرتم بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه حُجَّة عليكم حيث تعترفون به، ثم لا تتابعونه.

٧٧ ـ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

٧٨ ـ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكَتْب، فيطالعوا التوراة، ويتحقّقوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ إلا ما هم عليه من أمانيهم، وأنَّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم، ولا تمسّهم النار إلا أياماً معدودة؛ أو: إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد، ومنه قول عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ما تمنيت منذ أسلمت. أو: إلا ما يقرؤون، من قوله:

تمَنَّـــى كتـــابَ اللهِ أوّلَ ليلـــةٍ وآخرها لاقى حِمامَ المقادر[1]

---

(١) «تمنى كتاب الله»: تلاه. «الحِمام»: الموت.

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

أي: لا يعلمون هؤلاء حقيقة المنزَّل، وإنما يقرؤون أشياء أخذوها من أحبارهم. والاستثناء منقطع ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوَّتك بالظَّنِّ. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم، ثم العوام الذين قلدوهم.

٧٩ ـ ﴿فَوَيْلٌ﴾ في الحديث: «ويلٌ وادٍ في جهنم»[1] ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرَّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلاً. وذكر الأيدي للتأكيد، وهو من مجاز التأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً يسيراً ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا.

٨٠ ـ ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذَّب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: عهد إليكم أنه لا يعذّبكم إلا هذا المقدار ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلفَ اللهُ عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم: إما أن تكون معادلة، أي: أتقولون على الله ما تعلمون، أم تقولون عليه مالا تعلمون، أو منقطعة، أي: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟!.

٨١ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد النفي، وهو: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي: بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركاً، عن

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد رقم «٣٤٤» من حديث أبي سعيد الخدري.

وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا

ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وسدَّت عليه مسالك النَّجاة، بأن مات على شركه. فأما إذا مات مؤمناً فأعظم الطاعات، وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنبُ محيطاً به، فلا يتناوله النص. وبهذا التأويل يبطل تشبُّث المعتزلة والخوارج. وقيل: استولت عليه كما يحيطُ العدو، ولم يتفصَّ عنها بالتوبة[١]. (خطيَّاته) مدني ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

٨٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الميثاق: العهد المؤكَّد غاية التأكيد.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر. وهو أبلغُ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنّه سُورع إلى الامتثال والانتهاء، وهو يخبر عنه. وتنصُره قراءة أبيّ ﴿لا تعبدوا﴾، وقوله: ﴿وقولوا﴾ والقول مضمر. (لا يَعْبُدون) مكي وحمزة وعليّ؛ لأن بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة كلُّها غيب. ومعناه: ألا يعبدوا، فلما حذفت «أن» رفع. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا، ليلتئم عطف الأمر، وهو قوله: ﴿وقولوا﴾ عليه. ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القرابة. ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الذي: فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد البلوغ»[٢]. ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي: أسكنته الحاجة. ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه.

---

(١) «يتفص عنها»: يتخلص.
(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث عليّ.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن
دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ
وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ
أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

(حَسَناً) حمزة وعليّ. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض، والتّوليه عن المواثيق.

٨٤ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً، أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه؛ لأنه يقتصُّ منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق، واعترفتم على أنفسكم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها، كما تقول: فلان مقرّ على نفسه بكذا، شاهد عليها. أو: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم يامعشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

٨٥ ـ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم، وشهادتهم. أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: بمعنى الذين. ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ صلة هؤلاء، وهؤلاء مع صلته: خبر أنتم. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ غير مراقبين ميثاق الله. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بالتخفيف، كوفي. أي: تتعاونون. وبالتشديد، غيرهم. فمن خفّف فقد حذف إحدى التاءين. ثم قيل: هي الثانية؛ لأن الثقل بها، وقيل: الأولى. ومن شدّد قلب التاء الثانية ظاء، وأدغم. ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ بالمعصية والظلم. ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ أسارى تَفْدوهم: أبو عمرو. أسرى تُفادُهم: مكي وشامي. أسرى تَفْدوهم: حمزة، أسارى تفادوهم علي. فدى وفادى بمعنى. وأسارى: حال، وهو جمع أسير، وكذلك أسرى. ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الضمير للشأن، أو هو ضمير مبهم تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بفداء الأسرى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال والإجلاء. قال السدّي: أخذ اللهُ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرح، أو إلى أشدّ من عذاب الدنيا ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكي، ونافع، وأبو بكر.

٨٦ ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ اختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينصرهم أحد بالدَّفع عنهم.

٨٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، أتاه جملة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقال: قفاه: إذا اتبعه من القفا، نحو: ذَنَبَهُ من الذنب. وقفاه به: إذا أتبعه إياه: يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل. وهم يوشع، وأشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعياء، وأرمياء، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي بمعنى: الخادم. ووزن مريم عند النحويين مفعل؛ لأن فَعْيلاً لم يثبت في الأبنية. البينات: المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: الطهارة. وبالسكون[1] حيث كان: مكي. أي: بالروح المقدسة، كما

---

(١) سكون الدال (القُدْس).

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقال: حاتم الجود. ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب. أو بجبريل ـعليه السلام ـ لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب. وذلك لأنه رفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. أو بالإنجيل كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. أو باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظَّمتم عن قبوله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ولم يقل: قتلتم لوفاق الفواصل، أو لأنَّ المرادَ: وفريقاً تقتلونه بعد؛ لأنكم تحومون[1] حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه، وسَممتم له الشاة. والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم، فكلما جاءكم رسولٌ منهم بالحق استكبرتم عن الإيمان به. فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجب من شأنهم.

٨٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: هي خلقة مغشاة بأغطية لا يتوصَّل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه. مستعار من الأغلف الذي لم يُختن. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فردَّ الله أن تكونَ قلوبُهم مخلوقةً كذلك؛ لأنها خُلقت على الفطرة والتمكُّن من قبول الحق. وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «فقليلاً» صفة مصدر محذوف، أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون و«ما» مزيدة. وهو إيمانُهم ببعض الكتاب. وقيل: القلة بمعنى العد.م وقيل: غُلْفٌ تخفيف غُلُف، وقُرِىء به، جمع: غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. أو أوعية للعلوم، فلو كان ما جئتَ به حقاً لقبلنا.

---

(١) من المطبوع.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

---

٨٩ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهود. ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم، قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان؛ الذي نجد نعته في التوراة، ويقولون لأعدائهم المشركين: قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ يخرجُ بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ ما موصولة، أي: ما عرفوه، وهو: فاعل جاء ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرئاسة ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عليهم، وضعاً للظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على أنَّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد؛ أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أوّليّاً. وجواب لما الأولىٰ مضمر، وهو نحو: كذبوا به، أو أنكروه. أو «كفروا» جواب الأولى والثانية؛ لأن مقتضاهما واحد.

٩٠ ـ و«ما» في ﴿بِئْسَمَا﴾ ما نكرة موصوفة مفسّرة لفاعل بئس، أي: بئس شيئاً. ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوه. والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له، أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة ﴿اشتروا﴾ ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل، أي: حسدوه على أن ينزل الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف؛ لأنهم كفروا بنبي الحق؛ وبغوا عليه. أو كفروا بمحمد بعد عيسى عليهما الصلاة والسلام. أو بعد قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وغير ذلك. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلّ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ
ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

(بِيْسَمَا) وبابه غير مهموز: أبو عمرو، و(يُنْزِل) بالتخفيف: مكي وبصري.

٩١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء اليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن، أو هو مطلق يتناولُ كلَّ كتاب. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ غير مخالف له. وفيه ردٌّ لمقالتهم؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ومصدقاً: حال مؤكدة ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي، ويدل عليه قوله ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: من قبل محمد ﷺ. اعتراض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة. والتوراة لاتسوغ قتل الأنبياء. قيل: قتلوا في يوم واحد ثلاثمئة نبي في بيت المقدس.

٩٢ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات التسع. وأدغم الدال في الجيم حيث كان، أبو عمرو وحمزة وعليّ. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطُور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو حال، أي: عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. أو: اعتراض، أي: وأنتم قوم عادتكم الظلم.

٩٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كرَّر ذِكْر رفع الطور؛ لما نِيْطَ به من زيادة ليست مع الأولى ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ ما أُمِرْتمُ به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. وطابق قوله جوابهم من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة،

وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

فقالوا: سمعنا، ولكن لاسماعَ طاعة ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الثوبَ الصِّبغُ. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيان لمكان الإشراب. والمضاف ـ وهو الحب ـ محذوف ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، واعتقادهم التشبيه ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بالتوراة؛ لأنه ليس في التوراة عبادةُ العجل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكُّم. وكذا إضافة الإيمان إليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم، وقَدْح في صحَّة دعواهم له.

٩٤ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ﴾ أي: الجنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف. ولكم: خبر كان. ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار الآخرة، أي: سالمة لكم، ليس لأحدٍ سواكم فيها حقّ. يعني: إن صحَّ قولُكم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ هو للجنس ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون؛ لأنَّ من أيقن أنَّه من أهل الجنة اشتاقَ إليها؛ تخلُّصاً من الدار ذات الشوائب، كما نقل عن العشرة المبشَّرين بالجنة أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان يحبُّ الموت، ويحنُّ إليه.

٩٥ ـ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ هو نصب على الظرف، أي: لن يتمنوه ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما أسلفوا من الكفر بمحمد ﷺ، وتحريف كتاب الله، وغير ذلك. وهو مِن المعجزات؛ لأنه إخبارٌ بالغيب. وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]. ولو تمنّوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

٩٦ - ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعولا وجد: ﴿هم﴾ و﴿أحرص﴾ ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ التنكير يدلُّ على أن المرادَ حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أُبيّ: (على الحياة) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس. نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس، ولكنهم أفردوا بالذّكر، لأنَّ حرصَهم شديدٌ، كما أن جبريل وميكائيل خصّا بالذِّكر وإن دَخَلا تحت الملائكة. أو أريد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة «أحرص الناس» عليه. وفيه توبيخٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنّتهم. فإذا زاد في الحرص مَن له كتاب، وهو مقرٌّ بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار، لعلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. وقيل: أراد بالذين أشركوا: المجوس؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ كلام مبتدأ، أي: ومنهم ناس يودُّ أحدُهم، على حذف الموصوف. والذين أشركوا على هذا مشارٌ به إلى اليهود؛ لأنهم قالوا: عزير ابن الله ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الضمير لأحدهم، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ مبهماً و﴿أن يعمر﴾ موضّحه. والزحزحة: التبعيد، والإنحاء. قال في «جامع العلوم» وغيره: ﴿لو يعمر﴾ بمعنى: أن يعمر. فلو هنا نائبة عن أن، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، وهو مفعول يودّ، أي: يودّ أحدهم تعمير ألف سنة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعمل هؤلاء الكفار، فيجازيهم عليه. وبالتاء، يعقوب.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

٩٧ ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز[١]، مكي، وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعاً، كوفي غير حفص، وبكسر الراء والجيم بلا همز، غيرهم. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. ومعناه: عبدالله؛ لأنَّ جبر هو العبد بالسريانية، وإيل اسم الله. رُوي أنَّ ابن صوريا ـ من أحبار اليهود ـ حاجَّ النبيَّ ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي. فقال: «جبريل». فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا مَن يقتله فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً، فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم، فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أيّ ذنب تقتلونه[٢]؟! ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ فإن جبريل نزل القرآن. ونحو هذا الإضمار، أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره، فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته، كأنه يدلُّ على نفسه، ويكتفىٰ عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفظه إياك. وخصّ القلب لأنه محل الحفظ، كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] . وكان حق الكلام أن يقال: على قلبي، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به، وإنما استقام أن يقع (فإنه نزله) جزاء للشرط؛ لأنَّ تقديره: إن عادى جبريلَ أحدٌ من أهل الكتاب فلا وَجْهَ لمعاداته، حيث نزَّل كتاباً مُصَدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويُصحِّح المنزل عليهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: مَن كان عدوّاً لجبريل فليمتْ غيظاً، فإنه نزَّل الوحي على قلبك ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ردّ على اليهود حين قالوا: إنَّ جبريل ينزل بالحرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل

(١) أي (لجَبْريل) و(لجَبْرئيل).
(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨ و ١٩).

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

بالهدى والبشرى أيضاً. (بإذن الله) حال من ضمير الفاعل في نزل، أي: مأذوناً له، ومصدقاً: حال من الهاء في نزله، وكذا هدى وبشرى؛ أي: هادياً ومبشراً. وقالت الباطنية: القرآن لم ينزل على رسول الله بالأحرف التي نقرؤها، ولكنه إلهام أنزل على قلبه؛ إلا أن محمداً ﷺ عبَّره بالعربية، وبهذه الحروف التي نقرؤها، فالقرآن ذلك الباطن لا هذه الألفاظ لقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾ ولكنا نقول: هذا فاسد؛ لأن الله تعالى جعله معجزاً بنظمه العجيب حيث قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وهذا يتعلق بالنظر.

٩٨ ـ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بصري وحفص، و(ميكائِل) باختلاس الهمزة كميكاعِل، مدني، و(ميكائيل) بالمد وكسر الهمزة مشبعة، غيرهم. وخصّ الملكان بالذكر لفضلهما، كأنهما من جنس آخر، إذ التغايرُ في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم. فجاء بالظاهر ليدلَّ على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوةَ الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله.

٩٩ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة. واللام للجنس. والأحسن أن تكونَ إشارة إلى أهل الكتاب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيءٍ نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك بها، فنزلت[1].

١٠٠ ـ الواو في ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات البينات وكلما ﴿عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ﴾ نقضه، ورفضه. وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لأنَّ منهم منَ لم ينقض. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٤٤١).

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ

شيء فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً، ولايبالون به.

١٠١ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراة. والذين أوتوا الكتاب: اليهود. ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني: التوراة؛ لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ المصدق لما معهم كافرون بها، نابذون لها. أو: كتاب الله: القرآن، نبذوه بعد مالزمهم تلقّيه بالقبول ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لتركهم، وإعراضهم عنه. مُثّل بما يُرمى به وراء الظهور استغناء عنه، وقلّة التفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله.

١٠٢ ـ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ أي: نَبَذ اليهود كتاب الله، واتبعوا كتب السحر والشعوذة؛ التي كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: على عهد ملكه، وفي زمانه. وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمُّون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفّقونها، ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوَّنوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تمّ لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه سخَّر الجنَّ، والإنسَ، والرِّيحَ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ تكذيب للشياطين، ودَفع لما بَهَتَتْ به سليمان من اعتقاد السحر، والعمل به. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا۟﴾ باستعمال السحر، وتدوينه. (ولكنِ)، بالتخفيف (الشياطين) بالرفع: شامي وحمزة وعليّ ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ في موضع الحال، أي: كفروا معلّمين الناس السحر، قاصدين به إغواءهم، وإضلالهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ الجمهور على أن «ما» بمعنى: الذي. وهو نصب عطف على السحر. أي: ويعلّمونهم ما أنزل على الملكين. أو على ﴿ما تتلوا﴾ أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ

علمان لهما، وهما عطف بيان للملكين. والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلّمه منهم وعمل به كان كافراً، إن كان فيه ردّ ما لزم في شرط الإيمان. ومَن تجنّبه، أو تعلمه لا ليعمل به، ولكن ليتوقّاه، ولئلا يغتر به كان مؤمناً. قال الشيخ أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله[1] ـ: القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك ردّ ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا. ثم السحر الذي هوكفر يقتل عليه الذكور لا الإناث. وما ليس بكفر، وفيه إهلاك النفس، ففيه حكم قطاع الطريق، ويستوي فيه الذكور والإناث، وتقبل توبته إذا تاب. ومن قال: لا تقبل فقد غلط، فإن سحرة فرعون قُبلت توبتهم. وقيل: ﴿أُنْزِل﴾ أي: قذف في قلوبهما مع النَّهي عن العمل. قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركّب فيهما الشهوة حين عَيَّرَتْ بني آدم، فكانا يحكمان في الأرض، ويصعدان بالليل فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر، فزنيا، فرآهما إنسان فقتلاه فاختارا عذابَ الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذّبان منكوسين في جبّ ببابل. وسُمِّيت ببابل لتبلبل الألسن بها ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ حتى ينبهاه، وينصحاه، ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء، واختبار من الله. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلمه، والعمل به على وجهٍ يكون كفراً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الفاء عطف على قوله ﴿يعلمون الناس السحر﴾، أي: يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دلَّ عليهما قوله ﴿كفروا﴾ و﴿يعلمون الناس السحر﴾؛ أو على مضمر، والتقدير: فيأتون فيتعلّمون. والضمير لما دلّ عليه (من أحدٍ) أي: فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: علم السحر الذي يكون سبباً في

(١) هو محمد بن محمد: من أئمة علماء الكلام. له «التوحيد» و«تأويلات أهل السنة» وغير ذلك، توفي سنة (٣٣٣ هـ).

وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا

التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه. وللسحر حقيقة عند أهل السنة ـ كثَّرهم الله ـ وعند المعتزلة هو تخييلٌ، وتمويه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه، ومشيئته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآخرة. وفيه دليلٌ على أنه واجب الاجتناب، كتعلمّ الفلسفة التي تجرُّ إلى الغواية ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: استبدل ما تتلو الشياطينُ من كتاب الله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من نصيب. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ باعوها. وإنما نفى العلم عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ مع إثباته لهم بقوله: ﴿ولقد علموا﴾ على سبيل التوكيد القسمي؛ لأن معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنَّهم لا يعلمون.

١٠٣ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الله، فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله. واتِّباع كُتُب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ثوابَ اللهَ خيرٌ مما هم فيه ـ وقد علموا ـ لكنه جهَّلهم لما تركوا العمل بالعلم، والمعنى: لأثيبوا من عند الله ما هو خير. وأوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة، واستقرارها. ولم يقل لمثوبة الله خير؛ لأنَّ المعنى: لشيء من الثواب خيرٌ لهم. وقيل ﴿لو﴾ بمعنى التمني، كأنه قيل: وليتهم آمنوا. ثم ابتدأ ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

١٠٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابّون بها

وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا

عبرانية أو سريانية، وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا افترصوه[1]، وخاطبوا به الرسول، وهم يعنون به تلك المسبّة. فنهي المؤمنون عنها، وأمروا بما هو في معناها، وهو ﴿انظرنا﴾ من نظره: إذا انتظره. ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ وأحسنوا سماع ما يكلِّمكم به رسولُ الله ﷺ، ويلقي عليكم من المسائل، بآذان واعية، وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وطلب المراعاة. أو: واسمعوا سماعَ قبول وطاعة، ولا يكن سماعُكم كسماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ ولليهود الذين سبّوا رسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

١٠٥ ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ وبالتخفيف[2]، مكي وأبو عمرو ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِنْ الأولى للبيان؛ لأنَّ الذين كفروا جنس، تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون. والثانية: مزيدة لاستغراق الخير. والثالثة: لابتداء الغاية. والخير: الوحي، وكذلك: الرحمة ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يُوحى إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن ينزلَ عليكم شيء من الوحي، والله يختصُّ بالنبوة من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه إشعارٌ بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم.

١٠٦ ـ ولما طعنوا في النسخ فقالوا: ألاترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، نزل: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾. تفسيرالنسخ لغةً: التبديل. وشريعةً: بيان انتهاء الحكم الشرعي المطلق؛ الذي تقرَّر في أوهامنا استمراره، بطريق التراخي. فكان

---

(١) «افترصوه»: اغتنموه وانتهزوه.

(٢) أي: (أَنْ يُنْزَلَ).

نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

تبديلاً في حقِّنا، بياناً محضاً في حقِّ صاحب الشرع. وفيه جواب عن البداء الذي يدّعيه منكروه، أعني: اليهود. ومحلُّه: حكم يحتملُ الوجود والعدم في نفسه لم يلحق به ما ينافي النسخ من توقيت أو تأبيد ثبت نصّاً أو دلالة. وشرطُه: التمكُّن من عقد القلب عندنا دون التمكن من الفعل، خلافاً للمعتزلة. وإنما يجوزُ النسخُ بالكتاب والسنة متفقاً ومختلفاً. ويجوزُ نسخ التلاوة والحكم، والحكم دون التلاوة، والتلاوة دون الحكم، ونسخ وصف بالحكم؛ مثل الزيادة على النص. فإنه نسخ عندنا خلافاً للشافعي ـ رحمه الله ـ والإنساء: أن يذهبَ بحفظها عن القلوب. أو (نَنْسَأها) مكي وأبو عمرو، أي: نؤخرها، من نسأت، أي: أخرت ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ أي: نأتِ بآية خير منها للعباد، أي: بآية العمل بها أكثر للثواب ﴿ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ في ذلك، إذ لا فضيلةَ لبعض الآيات على البعض ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: قادر، فهو يقدرُ على الخير، وعلى مثله.

١٠٧ ـ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها، وهو أعلمُ بما يتعبَّدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يلي أمركم. ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

١٠٨ ـ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ أم منقطعة، وتقديره: أتريدون ﴿ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ روي أنَّ قريشاً قالوا: يا محمد! اجعلْ لنا الصَّفا ذَهَباً، ووسّع لنا أرض مكة. فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قومُ موسى عليه حين قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة، وشكَّ فيها، واقترح غيرها. ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قصده، ووسطه.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ

١٠٩ ـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أن يردوكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ حال من «كُمْ» أي: يردونكم عن دينكم كافرين. نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق لما هُزِمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعول له، أي: لأجل الحسد، وهو: الأسف على الخير عند الغير ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يتعلّق بودَّ، أي: ودّوا من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودّوا ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: من بعد علمهم بأنكم على الحق، أو بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فاسلكوا معهم سبيلَ العفو والصفح عما يكونُ منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بالقتال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ على الانتقام منهم.

١١٠ ـ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من حسنة صلاة، أو صدقة، أو غيرهما ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ تجدوا ثوابَه عنده ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل.

١١١ ـ والضمير في ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. أي: وقالت اليهود: لن يدخلَ الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلفَّ بين القولين ثقة بأن السامع يردّ إلى كلٍّ فريق قوله وأمناً من الإلباس لما عُلِم من التعادي بين الفريقين، وتضليل كلٍّ واحدٍ منهما صاحبه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ
أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ
عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

وهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ. وَوَحَّدَ اسم كان للفظ مَن، وجمع الخبر لمعناه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خيرٌ من ربِّهم، وأمنيتهم أن يردُّوهم كفاراً، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم. والأمنيّة: أفعولة من التمني، مثل: الأضحوكة ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ هلمُّوا حُجَّتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. وهات بمنزلة هاء، بمعنى: أحضر. وهو متصل بقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، و﴿تلك أمانيهم﴾ اعتراض ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

١١٢ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ مَن أخلص نفسه له، لا يشركُ به غيره. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُصَدِّق بالقرآن ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ جواب ﴿من أسلم﴾. وهو كلامٌ مبتدأ مُتضمِّن لمعنى الشرط. و﴿بلى﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١١٣ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: على شيء يصحُّ، ويُعتدُّ به. والواو في: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ للحال. والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحقّ مَن حمل التوراة والإنجيل، وآمن به، ألا يكفر بالباقي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الكتابين مُصدِّق للآخر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك القول الذي سمعت به ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام، والمعطّلة، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخٌ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَن لا يعلم

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: بين اليهود والنصارى بما يقسم لكلٍّ فريق منهم من العقاب اللائق به.

١١٤ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ موضع ﴿مَنْ﴾ رفع على الابتداء، وهو استفهام، و﴿أظلم﴾ خبره. والمعنى: أيّ أحدٍ أظلم. و﴿أن يذكر﴾ ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعته كذا، ومثله ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويجوز أن يحذفَ حرفُ الجر مع أن، أي: من أن يذكر، وأن تنصبه مفعولاً له، بمعنى منعها كراهة أن يذكر. وهو حُكم عامّ لجنس مساجد الله، وأن مانِعَها من ذكر الله مفرطٌ في الظلم. والسببُ فيه طرح النصارى في بيت المقدس الأذى، ومنعهم الناس أن يُصَلوا فيه، أو: منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخلَ المسجد الحرام عام الحديبية. وإنما قيل: ﴿مساجد الله﴾ وكان المنع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس، أو المسجد الحرام؛ لأن الحكم وَرَدَ عامّاً، وإن كان السبب خاصّاً، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ بانقطاع الذكر. والمراد بـ﴿مَنْ﴾: العموم، كما أريد العموم بمساجد الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلُوا مساجدَ الله ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حال من الضمير في يدخلوها، أي: على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها، ويلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وقيل: ﴿ما كان لهم﴾ في حكم الله يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. رُوي أنه لا يدخلُ بيت المقدسِ أحدٌ من النصارى إلا مُتنكِّراً خيفة أن يُقتل. وقال قتادة: لا يوجد نصرانيّ في بيت المقدس إلا بولغ ضرباً. ونادى رسولُ الله ﷺ: «ألا لا يحجَّنَّ بعد هذا العام

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

مشرك»[1]. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي للحربيّ، وذلّة بضرب الجزية للذميّ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: النار.

١١٥ ـ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب كلها له، وهو مالكها، ومتولّيها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ شرط. ﴿تُوَلُّوا﴾ مجزوم به. أي: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني: تولية وجوهكم شطر القبله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] والجواب: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم إذا مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، أو في بيت المقدس، فقد جُعِلت لكم الأرضُ مسجداً، فصلُّوا في أية بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التوليةَ ممكنةٌ في كلِّ مكان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الرحمة، يريد التوسعة على عباده، وهو عليم بمصالحهم. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فَعُذِرُوا. وهو حُجَّةٌ على الشافعي ـ رحمه الله ـ فيما إذا استدبر. وقيل: فأينما تولوا للذكر والدعاء.

١١٦ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. (قالوا) شامي. فإثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ما قبلها، وحذفه باعتبار أنه استئناف قصَّة أخرى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له عن ذلك، وتبعيد ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقه ومالكه، ومن جملته المسيح، وعزير. والولادة تنافي الملك ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون، لا يمتنع شيءٌ منهم على تكوينه وتقديره. والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: كل ما في

(١) رواه البخاري (٣٦٩) ومسلم (١٣٤٧).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾

السموات والأرض، أو كل مَن جعلوه لله ولداً ﴿له قانتون﴾ مطيعون، عابدون، مقرُّون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم. وجاء بما الذي لغير أولي العلم، مع قوله: قانتون، كقوله: سبحان ما سخر[1] لنا.

١١٧ ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق. وكلُّ من فعل ما لم يسبق إليه يقال له: أبدعت. ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة: مبتدع؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: حكم، أو: قدر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هو من كان التامة، أي: احْدُثْ فيحدث. وهذا مجازٌ عن سرعة التكوين، وتمثيل، ولا قول ثَمَّ. وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور، وأراد كونه، فإنما يتكوَّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما [أنَّ] المأمورَ المطيعَ الذي يؤمر فيمتثل [لا يتوقف، ولا يمتنع][2] ولا يكون منه إباء. وأكّد بهذا استبعاد الولادة؛ لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام، فأنَّى يتصور التوالد ثَمَّ؟! والوجهُ الرفع في ﴿فيكونُ﴾ وهو قراءةُ العامة على الاستئناف، أي: فهو يكون. أو على العطف على يقول. ونصبه ابن عامر على لفظ ﴿كن﴾ لأنه أمر، وجواب الأمر بالفاء نصب. وقلنا: إنّ ﴿كن﴾ ليس بأمر حقيقة، إذ لا فرقَ بين أن يقال: وإذا قضىٰ أمراً فإنما يكوّنه فيكون، وبين أن يقال: فإنما يقول له كن فيكون. وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب. وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطبَ به الموجود، والموجود لا يخاطب بكن، أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب.

١١٨ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب. ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم

---

(١) في المطبوع: سخركنّ.
(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ
قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا
تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ
إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

الملائكة، وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوّاً ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ومَنْ قبلهم في العمى. ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها.

١١٩ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت، وبلَغت جهدك في دعوتهم؟ وهو حال كنذيراً، وبشيراً، وبالحق، أي: وغير مسؤول، أو: مستأنف. قراءة نافع: (ولا تَسْأَلْ)، على النهي. ومعناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية. فيقال لك: لا تَسْأَلْ عنه. وقيل: نهى اللهُ نبيَّه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟»[(١)].

١٢٠ ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك ـ وإن أبلغت في طلب رضانا ـ حتى تتبع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فذكر الله عز وجل كلامهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي رضي لعباده ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الإسلام. وهو الهدى كله، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى أتباعه ما هو هدى، إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أقوالهم التي هي أهواء وبِدَع ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من العلم بأن دينَ الله هو الإسلام، أو: من الدّين المعلوم

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٣٤).

مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ

صحته بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر.

١٢١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صلته. وهم مؤمنو أهل الكتاب، وهو: التوراة والإنجيل؛ أو أصحاب النبي ﷺ، والكتاب: القرآن ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ حال مقدرة من هم؛ لأنهم لم يكونوا تالين له وقت إيتائه، ونصب على المصدر ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته في الترتيل، وأداء الحروف، والتدبُّر، والتفكُّر. أو: يعملون به ويؤمنون بما في مضمونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ والجملة خبر: الذين. ويجوز أن يكون يتلونه: خبراً، والجملة خبر آخر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

١٢٢ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنعمتها عليكم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم.

١٢٣ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هم: رفع بالابتداء، والخبر: ينصرون، والجمل الأربع وصف ليوماً. أي: واتقوا يوماً لا تجزى فيه، ولا يقبل فيه، ولا تنفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه. وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وَخَتَمَ قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

١٢٤ ـ ﴿۞ وَإِذِ﴾ أي: واذكر إذ ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ اختبره بأوامر ونواهٍ. والاختبار منا: لظهور ما لم نعلم. ومن الله: لإظهار ما قد علم. وعاقبة الابتلاء: ظهور الأمر الخفي في الشّاهد والغائب جميعاً؛ فلذا تجوزُ إضافته إلى الله

﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

تعالى. وقيل: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين[١]، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: (إبراهيمُ ربَّه) برفع إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أي: دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر، هل يجيبه إليهن أم لا[٢] ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن حقَّ القيام، وأدّاهن أحسَن التأدية من غير تفريط وتوانٍ. ونحوه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. ومعناه في قراءة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فأعطاه ما طلبه، لم ينقص منه شيئاً. والكلمات على هذا: ما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]. والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس: الفرق، وقصّ الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في الجسد: الختان، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي ثلاثون سهماً من الشرائع، عشر في براءة ﴿التَّائِبُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١٢]. وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنين والمعارج إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ والمعارج: ٣٤]. وقيل: هي مناسك الحج[٣] ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو اسم

---

(١) أي: ما يريد الله تعالى، وما يشتهيه العبد.

(٢) «الابتلاء»: الاختبار والامتحان، وابتلاء الله تعالى يرجع إلى إعلامه عباده؛ لا إلى استعلامه؛ لأنه يعلم ما يكون، فلا يحتاج إلى الابتلاء ليعلم. والمعنى: أنه عامله معاملة المختبر، وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: أنها عشر خصال من السنة؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد. (من تفسير الوسيط).

(٣) قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ياخليلي أن تطهر، فتمضمض، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فاستاك، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأخذ شاربه، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ ففرق شعره، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر فاستنجى، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر فحلق عانته، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر؛ فنتف إبطه، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن =

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾

من يؤتم به، أي: يأتمون بك في دينهم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به. ذرية الرجل: أولاده ذكورهم وإناثهم فيه سواء. فعليَّة من الذرء، أي: الخلق، فأبدلت الهمزة ياء ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسكون الياء، حمزة وحفص. أي: لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك، أي: أهل الكفر. أخبر أنَّ إمامةَ المسلمين لا تثبتُ لأهل الكفر. وأنَّ من أولاده المسلمين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]. والمحسن: المؤمن، والظالم: الكافر. قالت المعتزلة: هذا دليلٌ على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. قالوا: وكيف يجوز نصبُ الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكفّ الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المثل السائر: «من استرعى الذئب ظلم»[(١)]. ولكنا نقول: المراد بالظالم الكافر هنا، إذ هو الظالم المطلق. وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبياً كما كان هو، فأخبر أن الظَّالم لا يكون نبياً.

١٢٥ ـ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة، وهو اسم غالب لها، كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمن، فإن الجاني يأوي إليه، فلا يُتعرَّض له حتى يخرج. وهو دليلٌ لنا في الملتجيء إلى الحرم ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه أخذ بيد عمر فقال: «هذا مقامُ إبراهيم» فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال ﷺ: «لم أومر بذلك» فلم تغبِ الشمسُ حتى نزلت[(٢)]. وقيل: مصلى: مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه

= تطهر؛ فقلم أظفاره، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأقبل بوجهه على جسده ماذا يصنع؟ فاختتن بعد عشرين ومئة سنة. (من تفسير الوسيط).

(١) انظره في مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٦٠، ٢٢٦ و٢/ ٣٠٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: رواه أبو نعيم. (الكشاف ١/ ١٨٥). ورواه ابن أبي داود في المصاحف (كنز العمال ٣٨١٠٧).

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ
مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ

أثر قدميه. وقيل: الحرم كلّه مقام إبراهيم. (واتَّخَذُوا) شامي ونافع بلفظ الماضي، عطفاً على جعلنا، أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به؛ لاهتمامه به، وإسكان ذريته عنده، قبلة يصلّون إليها. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بفتح الياء، مدني وحفص. أي: بأن طَهِّرا، أو: أي: طَهِّرا. والمعنى: طهّراه من الأوثان، والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ للدائرين حوله ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي: أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين. وقيل: ﴿للطائفين﴾ للنُّزاع إليه من البلاد ﴿والعاكفين﴾: والمقيمين من أهل مكة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ والمصلين، جمعا راكع وساجد.

١٢٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا﴾ أي: اجعل هذا البلد، أو هذا المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن، كعيشة راضية، أو: آمناً مَن فيه، كقولك: ليل نائم. فهذا مفعول أول، وبلداً مفعول ثان، وآمناً صفة له ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنه لم يكنْ له ثمرة. ثم أبدل ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ من أهله، بدل البعض من الكل، أي: وارزق المؤمنين من أهله خاصّة. قاسَ الرزقَ على الإمامة فخصَّ المؤمنين به ﴿قَالَ﴾ الله تعالى جواباً له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: وأرزقُ مَن كفر ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً إلى حين أجله. فأمْتعه، شامي ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ ألجئه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع الذي يصيرُ إليه، النار. فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف.

١٢٧- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ هي جمع قاعدة، وهي: الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها: الثابتة. ورفع الأساس: البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلتْ عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولتْ بعد التقاصر ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت الله، وهو: الكعبة

وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ هو عطف على إبراهيم، وكان إبراهيمُ يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولان ربنا. وهذا الفعل في محلِّ النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ تقرُّبنا إليك ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائرنا، ونيَّاتنا. وفي إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام تفخيمٌ لشأن المبين.

١٢٨ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أو مستسلمين، يقال: أسلم له، واستسلم: إذا خضع، وأذعن. والمعنى: زِدْنا إخلاصاً، وإذعاناً لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. ومن للتبعيض، أو للتبيين. وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ. وإنما خصَّا بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة، كقوله تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ منقول من رأى؛ بمعنى: أبصر، أو عرف؛ ولذا لم يتجاوزْ إلى مفعولين، أي: وبصّرنا متعبداتنا في الحج، أو عرّفناها. وواحد المناسك: منسَك، بفتح السين وكسرها، وهو: المتعبَّد، ولهذا قيل للعابد: ناسك. (وأرْنا) مكي، قاسه على فخذ في فخذ. وأبو عمرو: يشمُّ الكسرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ ما فرط منا من التقصير، أو استتابا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٢٩ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». أي: إن آمنة رأت أنه خرج منها نور ملأ مكّة[1] ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم، ويبلّغهم ما تُوحي إليه من دلائل وحدانيتك،

(١) رواه أحمد(٤/١٢٧) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٢/٦٠٠) والبزار كما في كشف الأستار(٢٣٦٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ
عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ

وصِدْق أنبيائك ورُسُلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة، وفهْم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لايُغْلَب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت.

١٣٠ ـ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ استفهام بمعنى: الجحد، وإنكار أن يكون في العقلاء من يرغبُ عن الحق الواضح؛ الذي هو ملَّة إبراهيم. والملة: السنة والطريقة، كذا عن الزجاج ﴿إِلَّا مَن﴾ في محل الرفع على البدل من الضمير في: يرغب. وصح البدل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد؟! والمعنى: وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: جهل نفسه، أي: لم يفكّر في نفسه، فوضع «سفه» موضع «جهل»، وعدّي كما عدّي. أو معناه: سفه في نفسه، فحذف في، كما حذف من في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه، و«على» في قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: على عقدة النكاح. والوجهان عن الزجاج. وقال الفراء: هو منصوب على التمييز، وهو ضعيف لكونه معرفة ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان لخطأ رأي مَن يرغب عن ملته، لأن مَن جمع كرامة الدارين لم يكن أحدٌ أولى بالرغبة في طريقته منه.

١٣١ ـ ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه، أو انتصب بإضمار اذكر؛ كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت؛ لتعلم أنه المصطفى الصالح؛ الذي لا يُرغب عن ملَّة مثله ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أذعنْ، أو: أطعْ، أو: أخلصْ دينك لله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلصتُ، أو انقدتُ.

١٣٢ ـ ﴿وَوَصَّىٰ﴾ (وأَوْصَى)، مدني وشامي ﴿بِهَآ﴾ بالملة، أو بالكلمة، وهي ﴿أسلمتُ لرب العالمين﴾ ﴿إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو معطوف على إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً ﴿يَٰبَنِىَّ﴾

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

على إضمار القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، ووفَّقكم لِلأخْذ به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشعٌ، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوعِ في صلاته.

١٣٣ ـ ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء: جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب ـ عليه السلام ـ؛ إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب للمؤمنين، بمعنى: ما شهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلمُ به من طريق الوحي. أو متصلة، ويقدر قبلها محذوف. والخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية. كأنه قيل: أتدَّعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟! ﴿إِذۡ قَالَ﴾ بدل من إذ الأولى، والعامل فيهما شهداء، أو ظرف لحضر ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ﴾: ما: استفهام في محل النصب بتعبدون، أي: أيّ شيء تعبدون. وما: عام في كلِّ شيء. أو هو سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد تريد أفقيه أم طبيب؟ ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ من بعد موتي ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أُعيد ذكر الإله؛ لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل من جملة آبائه، وهو عمه؛ لأنَّ العم أب. قال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»[1] ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من إله آبائك، كقوله: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٦] أو نصب على الاختصاص، أي: نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١٠٩).

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

حال من فاعل نعبد، أو: جملة معطوفة على نعبد، أو: جملة اعتراضية مؤكدة.

١٣٤ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة؛ التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحِّدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره، متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك لا فتخارهم بآبائهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم.

١٣٥ ـ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جزم لأنه جوابُ الأمر ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل نتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه، نحو: رأيت وجه هند قائمة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، لأن كلاً منهم يدّعي اتباع ملّة إبراهيم، وهو على الشرك.

١٣٦ ـ ﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين، أو للكافرين، أي: قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ السبط: الحافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ. والأسباط: حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ويُعدَّى أنزل بإلى وعلى، فلذا ورد هنا بإلى، وفي آل عمران بعلى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لانؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى. و«أحد» في معنى الجماعة؛ ولذا صح دخولُ بين عليه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لله مخلصون.

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ

١٣٧ ـ ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ ظاهرُ الآية مشكلٌ، لأنه يوجبُ أن يكون لله تعالى مثل، وتعالى عن ذلك. فقيل: الباء زائدة، ومثل صفة مصدر محذوف، تقديره: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، والهاء يعود إلى الله عز وجل. وزيادة الباء غير عزيز، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧] والتقدير: جزاء سيئة مثلها، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقيل: المثل: زيادة، أي: فإن آمنوا ما آمنتم به، يؤيده قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿بما آمنتم به﴾ وما: بمعنى الذي؛ بدليل قراءة أُبيّ ﴿بالذي آمنتم به﴾. وقيل: الباء للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عما تقولون لهم، ولم ينصفوا، أو إن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي: فما هم إلا في خلاف وعداوة، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم. وقد أنجز وعده بقتل بعضهم، وإجلاء بعض، ومعنى السين: أنَّ ذلك كائنٌ لا محالة، وإن تأخَّر إلى حين ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون من الحسد والغلّ، وهو معاقبهم عليه، فهو وعيدٌ لهم، أو: وعدٌ لرسول الله ﷺ، أي: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك، وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيبٌ لك، ومُوصِلكَ إلى مرادك.

١٣٨ ـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله. وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وهي فعلة من: صبغ، كالجلسة من: جلس، وهي الحالة التي يقعُ عليها الصبغ. والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمانَ يُطهِّر النفوس. والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمّونه المعمودية، ويقولون: هو تطهيرٌ لهم، فإذا فعل الواحدُ منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقّاً. فأُمِر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله، وصبغنا الله

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ

بالإيمان صبغته، ولم نصبغ صبغتكم. وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان. تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييز، أي: لا صبغة أحسن من صبغته، يريد: الدين، أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ عطف على ﴿آمنا بالله﴾ وهذا العطف يدلُّ على أن قولَه ﴿صبغة الله﴾ داخل في مفعول ﴿قولوا آمنا﴾ أي: قولوا هذا وهذا، ونحن له عابدون، ويردّ قول مَن زعم أن صبغة الله بدل من: ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التئامه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

١٣٩ ـ ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في شأن الله، واصطفائه النبي من العرب دونكم؟ وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا؟ وترونكم أحقّ بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته مَن يشاء من عباده ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ يعني: أن العمل هو أساس الأمر، وكما أن لكم أعمالاً فلنا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن له موحِّدون، نُخْلِصُه[1] بالإيمان وأنتم به مشركون. والمخلص أحرى بالكرامة، وأولى بالنبوة من غيره.

١٤٠ ـ ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء: شامي وكوفيّ، غير أبي بكر. وأم على هذا معادلة للهمزة في: أتحاجوننا، يعني: أيّ الأمرين تأتون: المحاجة في حكم الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ أو منقطعة، أي: بل أتقولون؟ يقولون، غيرهم بالياء. وعلى هذا لا تكون الهمزةُ إلا منقطعة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن

(١) في المطبوع: نخصّه.

قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ
عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟
عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

يقول مستفهماً، رادّاً عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾. يعني: أنَّ اللهَ شهد لهم بملَّة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنّه شهد بها، وهي: شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهُم عالمون بها. أو: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحدٌ أظلم منّا فلا نكتمها. وفيه تعريضٌ بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. و«من» في قوله ﴿من الله﴾ مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان؛ إذا شهدت له، في أنها صفة لها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

١٤١ ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كررت للتأكيد، أو لأنَّ المرادَ بالأول الأنبياء عليهم السلام، وبالثاني: أسلاف اليهود والنَّصارى.

١٤٢ ـ ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الخفاف الأحلام، فأصل السفه: الخفّة. وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ؛ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء؛ أو: المشركون لقولهم: رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها، واللهِ ليرجعن إلى دينهم. وفائدةُ الإخبار بقولهم قبل وقوعه توطين النفس، إذ المفاجأةُ بالمكروه أشدّ، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يُراش السهم ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس. والقبلة: الجهة التي يستقبلها الإنسانُ في الصلاة؛ لأنَّ المصلِّي يقابلها ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها له ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق مستو. أي: يرشد من يشاء إلى قبلة الحق، وهي الكعبة التي أمرنا بالتَّوجُّه

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

إليها. أو الأماكن كلّها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، فتارة إلى الكعبة، وطوراً إلى بيت المقدس، لا اعتراض عليه؛ لأنه المالكُ وحده.

١٤٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم. فالكاف: للتشبيه، وذا: جر بالكاف، واللام: للفرق بين الإشارة إلى القريب والإشارة إلى البعيد، والكاف: للخطاب لا محلَّ لها من الإعراب ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً. وقيل للخيار: وسط؛ لأنَّ الأطراف يتسارعُ إليها الخلل، والأوساط محمية. أي: كما جعلت قبلتكم خير القبل جعلتكم خير الأمم. وعلة الجعل أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل، وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدكم. أو: عدولاً، لأن الوسطَ عدلٌ بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض. أي: كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم أمة وسطاً بين الغلو والتقصير؛ فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزِّنى، وعيسى بأنه ولد الزِّنى ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ غير منصرف لمكان ألف التأنيث ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ صلة شهداء ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ عطف على ﴿لتكونوا﴾ روي أن الأممَ يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب اللهُ الأنبياءَ بالبينة على أنهم قد بلَّغوا ـ وهو أعلم ـ فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصَّادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم، ويشهدُ بعدالتهم. والشهادة قد تكون بلا مشاهدة، كالشهادة بالتسامع في الأشياء المعروفة. ولما كان الشهيدُ كالرقيب جيء بكلمة الاستعلاء، كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقيل: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ في الدنيا فما لا يصح إلا بشهادة العدول

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾

الأخيار ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ يزكِّيكم، ويعلم بعدالتكم. واستدل الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ بالآية على أن الإجماعَ حجةٌ؛ لأن اللهَ تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة. والعدل: هو المستحقُّ للشهادة وقبولها. فإذا اجتمعوا على شيء، وشهدوا به، لزم قبوله. وأخّرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؛ لأنَّ المرادَ في الأوّل إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ الجهة ﴿التي كنتَ عليها﴾ وهي الكعبة. فالتي كنتَ عليها ليست بصفة للقبلة، بل هي ثاني مفعولي جعل. رُوي أن رسول الله ﷺ كان يصلِّي بمكة إلى الكعبة، ثم أُمِر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة، تأليفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة. [وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بخلاف ما يقوله الشافعي لأن التوجه إلى بيت المقدس ثبت بوحي غير متلوٍّ وقد نسخ بالكتاب][1] ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ التي تحبُّ أن تستقبلها، الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ أولاً بمكة، إلا امتحاناً للناس وابتلاء؛ لنعلم الثابت على الإسلام الصادق فيه ممن هو على حرف ينكص ﴿على عقبيه﴾ لقلقه يرجع فيرتدّ عن الإسلام عند تحويل القبلة. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى قوله ﴿لنعلم﴾ أي: لنعلم كائناً أو موجوداً ما قد علمناه أنه يكون ويوجد. فالله تعالى عالمٌ في الأزل بكل ما أراد وجوده، أنه يوجدُ في الوقت الذي شاء وجوده فيه. ولا يوصف بأنه عالمٌ في الأزل بأنه موجودٌ كائن؛ لأنه ليس بموجود في الأزل فكيف يعلمه موجوداً؟ فإذا صار موجوداً يدخلُ تحت علمه الأزلي فيصيرُ معلوماً له موجوداً كائناً. والتغير على المعلوم لا على العلم. أو: لنميز التابع من النَّاكص، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز؛ لأنَّ العلمَ به يقعُ التمييز. أو: ليعلم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم

---

(١) كذا في الأصل المخطوط، وهو ساقط من المطبوع.

وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

خواصّه. أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم، كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقهِ في النار لنعلم أيذوب؟ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: التحويلة، أو: الجعلة، أو القبلة. وإن هي المخففة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: ثقيلة شاقة، وهي خبر كان. واللام: فارقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداهم اللهُ، فحذف العائد. أي: إلا على الثابتين الصّادقين في اتّباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. سمَّى الصَّلاةَ إيماناً؛ لأن وجوبَها على أهل الأيمان، وقبولها من أهل الإيمان، وأداؤها في الجماعة دليل الإيمان. لما توجَّه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا؟ فنزلت، ثم علَّل ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾[1] مهموز مشبع، حجازي، وشامي، وحفص. (رؤُفٌ) غيرهم بوزن فعل، وهما للمبالغة ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يضيع أجورهم. والرأفة أشد من الرحمة. وجمع بينهما كما في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

١٤٤ ـ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تردُّد وجهك، وتصرُّف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله ﷺ يتوقَّع من ربِّه أن يُحوِّله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم، ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم، ومزارهم، ومطافهم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ فلنعطينك، ولنمكِّننك من استقبالها، من قولك: وليته كذا: إذا جعلته والياً له؛ أو: فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ تحبّها، وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها، ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: نحوه. وشطر: نصب على الظرف. أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد، أي: في جهته وسمته؛ لأن استقبال عين القبلة متعسِّر على النائي. وذِكْرُ المسجد

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٨).

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾

الحرام دون الكعبة دليلٌ على أن الواجبَ مراعاةُ الجهة دون العين. روي أنه ﷺ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجّه إلى الكعبة[1] ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض، وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يصلي إلى القبلتين ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكي، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم؛ وبالتاء غيرهم. فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

١٤٥ ـ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أراد ذوي العناد منهم ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ برهان قاطع أن التوجُّهَ إلى الكعبة هو الحقُّ ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ لأنَّ تركهم اتِّباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد. مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق، وجواب القسم المحذوف سدَّ مسدَّ جواب الشرط ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حسم لأطماعهم، إذ كانوا اضطربوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. ووحّدت القبلة وإن كان لهم قبلتان، فلليهود قبلة، وللنصارى قبلة؛ لاتحادهم في البطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في شأن القبلة، لا يرجى اتِّفاقهم، كما لا تُرجى موافقتهم لك، فاليهود تستقبلُ بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من بعد وضوح البرهان، والإحاطة بأن القبلة هي الكعبة، وأنَّ دينَ الله هو

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٢).

إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ

الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لمن المرتكبين الظُّلم الفاحش. وفي ذلك لطفٌ للسامعين، وتهييج للثبات على الحق، وتحذير لمن يترك الدَّليل بعد إنارته ويتبع الهوى. وقيل: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد أمته. ولزم الوقف على ﴿الظالمين﴾ إذ لو وصل لصار:

١٤٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صفة للظالمين، وهو مبتدأ والخبر: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: محمداً ﷺ، أو القرآن، أو تحويل القبلة، والأول أظهر؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني. فقال له عمر: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعلَّ والدته خانت. فقبَّل عمرُ رأسَه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي: الذين لم يسلموا. ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ حسداً وعناداً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله تعالى بيَّنه في كتابهم.

١٤٧ ـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ خبره: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. واللام: للجنس، أي: الحق مِنَ الله لا من غيره. يعني: أنَّ الحقَّ ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه. وما لم يثبتْ أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل. أو: للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق و﴿من ربك﴾ خبر بعد خبر، أو: حال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين في أنه من ربِّك.

١٤٨ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة. وقُرِىء[1] بها ﴿هُوَ﴾ الضمير لكل ﴿مُوَلِّيهَا﴾ الضمير للوجهة. أي: هو مولّيها وجهه، فحذف أَحَد المفعولين. أو ﴿هو﴾ لله تعالى، أي: الله مولِّيها إياه. هو (مُوَلَّاها)، شامي، أي: هو مولى تلك الجهة قد وليها. والمعنى: ولكل أمة قبلة يتوجّه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟﴾ أنتم ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فاستبقوا إليها غيركم من

---

(١) قرأ بها أُبيّ: (ولكلٍّ قبلةٌ).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ

أمر القبلة وغيره ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيفصل بين المحقّ والمبطل. أو: ﴿ولكل منكم﴾ يا أمة محمد ﴿وجهة﴾ جهة يصلي إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي: الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت ﴿أينما تكونوا﴾ من الجهات المختلفة ﴿يأتِ بكم الله جميعاً﴾ ويجمعكم، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلّون حاضري المسجد الحرام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤٩ ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء، أبو عمرو.

١٥٠ ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأنَّ النسخَ من مظانّ الفتنة والشبهة، فكرر عليهم ليثبتوا. على أنه نيط بكلٍّ واحدٍ ما لم ينط بالآخر، فاختلفتْ فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: قد عرّفكم الله جلَّ ذكره أمرَ الاحتجاج في القبلة بما قد بيّن في قوله: ﴿ولكلّ وجهة هو موليها﴾، ﴿لئلا يكون للناس﴾ لليهود ﴿عليكم حجة﴾ في خلاف ما في التوراة من تحويل القبلة. وأطلق اسم الحجّة على قول المعاندين؛ لأنهم يسوقونه سياق الحجّة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا المعاندين منهم، القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحبّاً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام. أو: معناه: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة؛ التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجعَ إلى

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا
تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

دينهم. ثم استأنف مُنبِّهاً بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم؛ فإنهم لا يضرونكم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرّفتكم لئلا يكون عليكم حجة، ولأتمّ نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى الكعبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

١٥١ ـ والكاف في: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول؛ أو بما بعده، أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب. فعلى هذا يوقف على ﴿تهتدون﴾ وعلى الأوّل لا. ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ من العرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة والفقه. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

١٥٢ ـ ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالمقدرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة. أو: بالثناء والعطاء، أو: بالسؤال والنوال، أو: بالتوبة وعفو الحَوْبة، أو: بالإخلاص والخلاص، أو: بالمناجاة والنجاة ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمتُ به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا نعمائي.

١٥٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فبه تُنال كلُّ فضيلة ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فإنها تنهى عن كلِّ رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

١٥٤ ـ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي: هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: هم أحياء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون ذلك؛ لأنَّ حياةَ الشَّهيد لا تعلم حسّاً. عن الحسن

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ﴾

ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الشهداءَ أحياء عند الله، تُعْرض أرزاقُهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْحُ والفَرَحُ، كما تُعرْض النار على أرواح آل فرعون غدوّاً وعشيّاً، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يُرْزَقون ثمر الجنة، ويجدون ريحَها، وليسوا فيها.

١٥٥ ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كلٍّ واحدة من هذه البلايا وطرف منه. وقلَّل ليؤذن أنَّ كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسانَ ـ وإن جلَّ ـ ففوقه ما يقلّ إليه[1]، ويريهم أنَّ رحمته معهم في كلِّ حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها؛ ليوطنوا نفوسهم عليها ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ خوف العدو أو الله ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: القحط، أو صوم شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بموت المواشي، أو الزكاة. وهو عطف على شيء، أو على الخوف، أي: وشيء من نقص الأموال ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ بالقتل، والموت، أو بالمرض، والشيب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثمرات الحرث، أو موت الأولاد؛ لأنَّ الولدَ ثمرةُ الفؤاد ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا؛ لأنَّ الاسترجاعَ تسليمٌ وإذعان. وفي الحديث: «مَن استرجعَ عند المصيبة جَبَرَ الله مصيبتَه، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»[2]. وطُفِىء سراجُ رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كلُّ شيءٍ يُؤْذِي المؤمنَ فهو مصيبة»[3]. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه البشارة.

١٥٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصب صفة للصابرين. ولا وقف عليها، بل يُوقف على

---

(١) في المطبوع: إليهم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد (٢/ ٣٣١). والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل(٤١٢).

إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ

﴿راجعون﴾. ومن ابتدأ بالذين، وجعل الخبر ﴿أولئك﴾ يقف على الصابرين، لا على راجعون. والأول الوجه؛ لأنَّ الذين وما بعده بيانٌ للصبر ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ مكروه. اسم فاعل من أصابته شدَّة، أي: لحقته. ولا وقف على مصيبة؛ لأن ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا، وإذا وجوابها: صلة الذين ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار له بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرارٌ على نفوسنا بالهُلْك.

١٥٧ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة، وجمع بينها وبين الرحمة؛ كقوله: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: ٢٧] ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٧] والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ لطريق الصواب، حيث استرجعوا، وأذعنوا لأمر الله. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: نِعْم العدلان، ونِعْم العلاوة، أي: الصلاة، والرحمة، والاهتداء.

١٥٨ ـ ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما علمان للجبلين ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه ومتعبَّداته، جمع: شعيرة، وهي: العلامة ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ﴾ قَصد الكعبة. ﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ زار الكعبة. فالحج: القصد، والاعتمار: الزيارة. ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين. وهما في المعاني كالنَّجم والبيت في الأعيان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يتطوف، فأدغم التاء في الطاء. وأصل الطوف: المشي حول الشيء. والمراد ـ هنا ـ: السعي بينهما. قيل: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة، فَمُسِخا حجرين، فوُضِعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عُبدا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلامُ، وكُسرت الأوثان، كَره المسلمون الطوافَ بينهما لأجل فِعْل الجاهلية، فرفع عنهم الجناح بقوله ﴿فلا جناح﴾. وهو دليلٌ على أنه

وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

ليس بركنٍ كما قال مالك والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: بالطَّواف بهما. وهو كذلك مُشْعِرٌ بأنَّه ليس بركن. (وَمَنْ يَطَّوَّعْ)، حمزة وعليّ، أي: يتطوع، فأدغم التاء في الطاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مجاز على القليل كثيراً ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء صغيراً وكبيراً.

١٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ الهداية إلى الإسلام بوصفه ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة. لم ندع فيه موضعَ إشكال، فعمدوا إلى ذلك المبين فكتموه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ الذين يتأتّى منهم اللعن، وهم الملائكة والمؤمنون من الثَّقَلَيْن.

١٦٠ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الكتمان، وترك الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ وأظهروا ما كتموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٦١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني: الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين، ولم يتوبوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر لعنتهم أحياء، ثم لعنتهم أمواتاً. والمراد بالناس: المؤمنون. أو المؤمنون والكافرون؛ إذ بعضُهم يلعن بعضاً يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٦٢ ـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من «هم» في «عليهم» ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة، أو في النار؛ إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار، أي: لا يمهلون، أو: لا ينتظرون ليعتذروا؛ أو لا ينظر

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

إليهم نظر رحمة.

١٦٣ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في ألوهيته لا شريك له فيها، ولا يصحُّ أن يُسمَّى غيره إلهاً ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته. وموضع ﴿هو﴾ رفع؛ لأنه بدلٌ من موضع ﴿لا إله﴾ ولا يجوز النصب هنا؛ لأنَّ البدلَ يدلُّ على أن الاعتمادَ على الثاني، والمعنى في الآية على ذلك، والنصب يدلُّ على أنَّ الاعتمادَ على الأول. ورفع ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُولي لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فما سواه إما نعمة، وإما منعم عليه. على أنه خبر مبتدأ، أو على البدل من «هو»، لا على الوصف؛ لأنَّ المضمرَ لا يُوصف.

١٦٤ ـ ولما عجب المشركون من إلهٍ واحدٍ، وطلبوا آيةً على ذلك نزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في اللون، والطول، والقصر، وتعاقبهما في الذهاب والمجيء ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها؛ أو بنفع الناس. ومِن في: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية ﴿مِن مَّاءٍ﴾ مطر. لبيان الجنس؛ لأن ما ينزل من السماء مطر وغيره. ثم عطف على أنزل ﴿فأحيا به﴾ ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها. ثم عطف على ﴿فأحيا﴾، ﴿وَبَثَّ﴾ وفرّق. ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ هي كلّ ما يدبّ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ الريح، حمزة وعليّ. أي: وتقليبها في مهابها قَبولاً، ودَبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقح. وقيل: تارة بالرحمة، وطوراً بالعذاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلَّل المنقاد لمشيئة الله تعالى، فيمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في الهواء ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم،

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ

ويعتبرون، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها، وحكمة مبدعها، ووحدانيّة مُنْشِئها. وفي الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها»[1] أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبر بها.

١٦٥ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ومع هذا البرهان النير من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً من الأصنام ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُعظِّمونهم، ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيم الله، والخضوع له. أي: يحبُّون الأصنام كما يحبون الله، يعني: يسوّون بينهم وبينه في محبتهم؛ لأنَّهم كانوا يقرُّون بالله، ويتقرَّبون إليه. وقيل: يحبونهم كحبِّ المؤمنين الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد، فيفزعون إليه، ويخضعون له ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ﴿ترى﴾ نافع وشامي، على خطاب الرسول، أو كلِّ مخاطب. أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إشارة إلى مُتَّخذي الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ ﴿يُرَوْنَ﴾ شامي ﴿ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ شديد عذابه. أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنَّ القدرةَ كلَّها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شدَّةَ عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخلُ تحت الوصف من الندم والحسرة. فحذف الجواب؛ لأنَّ لو إذا جاء فيما يشوقُ إليه، أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهبَ القلب فيه كلّ مذهب. ولو يليها الماضي، وكذا إذ وضعها لتدلَّ على الماضي. وإنما دخلتا على المستقبل ـ هنا ـ لأنَّ إخبارَ الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي.

١٦٦ ـ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ مدغمة الذال في التاء حيث وقعت، عراقي غير عاصم.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧١٥٨).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

وهو بدل من ﴿إذ يرون العذاب﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ أي: المتَّبعون، وهم الرؤساء. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ من الأتباع ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ الواو فيه للحال، أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ ﴿بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ الوُصَل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب.

١٦٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي: الأتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾ نصب على جواب التمني، لأن لو في معنى التمني، والمعنى: ليت لنا كرة فنتبرأ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ الآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: عبادتهم الأوثان ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي مفعول ثالث ليريهم. ومعناه: أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بل هم فيها دائمون.

١٦٨ ـ ونزل فيمن حرموا على أنفسهم البحائر ونحوها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ﴾ نزل فيمن حرَّموا على أنفسهم البحائر ونحوها. أمر إباحة ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من للتبعيض؛ لأن كلَّ ما في الأرض ليس بمأكول ﴿حَلَٰلًا﴾ مفعول كلوا، أو: حال مما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً من كلِّ شُبهة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ طرقه التي يدعوكم إليها. وبسكون الطاء: أبو عمرو[1] غير عيَّاش ونافع وحمزة وأبو بكر. والخطوة في الأصل: ما بين قدمي الخاطي. يقال: اتبع خطواته: إذا اقتدى به، واستنَّ بِسُنَّته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به. وأبان: متعد ولازم. ولا يناقض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: الشيطان؛ لأنه عدوٌّ للناس

(١) أي: هو أبو عمرو بن العلاء، لا عيَّاش بن محمد العبدري المقرىء.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾

حقيقة، ووليُّهم ظاهراً؛ فإنه يريهم في الظاهر الموالاة، ويُزيِّن لهم أعمالهم، ويريدُ بذلك هلاكَهم في الباطن.

١٦٩ ـ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه، وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط، إنما يأمركم ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقبيح، ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وما يتجاوز الحدَّ في القبح من العظائم. وقيل: السوء: ما لا حدّ فيه. والفحشاء: ما فيه حَدٌّ ﴿وَأَن تَقُولُواْ﴾ في موضع الجر بالعطف على ﴿بالسوء﴾ أي: وبأن تقولوا. ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قولكم: هذا حلال، وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه: كلُّ ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوزُ عليه.

١٧٠ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفات. قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود. لما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان، واتباع القرآن ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فإنهم كانوا خيراً منا، وأعلم. فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الواو للحال. والهمزة بمعنى الردّ والتعجّب. معناه: أيتبعونهم: ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدِّين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب.

١٧١ ـ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المضاف محذوف، أي: ﴿ومثل﴾ داعي ﴿الذين كفروا﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يصيح. والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ البهائم. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جَرْس النغمة، ودويّ الصوت، من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه؛ الذي هو تصويت بها، وزجرٌ لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء. والنعيق: التصويت. يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن.

صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ

والنداء: ما يُسْمَع. والدعاء قد يُسْمَع وقد لا يُسْمَع ﴿صُمٌّۢ﴾ خبر مبتدأ مضمر، أي: هم صم ﴿بُكۡمٌ﴾ خبر ثان ﴿عُمۡيٞ﴾ عن الحق. خبر ثالث. ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ الموعظة.

١٧٢ ـ ثم بيّن أن ما حرّمه المشركون حلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ من مُسْتَلَذّاته، أو من حلالاته ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الذي رزقكموها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ إن صحَّ أنكم تختصونه بالعبادة، وتقرُّون أنه مُعْطي النعم.

١٧٣ ـ ثم بيّن المحرم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ وهي: كلّ ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح. و﴿إنما﴾ لإثبات المذكور، ونفي ماعداه، أي: ماحرَّم عليكم إلا الميتة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ يعني: السائل، لقوله في موضع آخر ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقد حلَّت الميتتان والدمان بالحديث: «أحلتْ لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطّحال»[(١)] ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ يعني: الخنزير بجميع أجزائه. وخصَّ اللحم لأنه المقصود بالأكل ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذبح للأصنام، فذكر عليه غير اسم الله. وأصل الإهلال: رفع الصوت. أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزّى ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: ألجىء. بكسر النون، بصري وحمزة وعاصم، لالتقاء الساكنين، أعني: النون والضاد. وبضمها غيرهم، لضمة الطاء ﴿غَيۡرَ﴾ حال. أي: فأكل ﴿غير باغ﴾ ﴿بَاغٖ﴾ للذّة وشهوة ﴿وَلَا عَادٖ﴾ متعدّ مقدار الحاجة. وقول من قال غير باغ على الإمام ولا عاد في سفر حرام، ضعيف، لأن سفر الطاعة لا يبيح بلا ضرورة. والحبس بالحضر يبيح بلا سفر. ولأن بغيه لا يخرج عن الإيمان، فلا يستحق الحرمان.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٩٧) وابن ماجه (٣٢١٨).

فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام، وتبقى معه الحياة دون مافيه حصول الشبع، لأنّ الإباحة للاضطرار فتقدّر بقدر ماتندفع الضرورة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب الكبائر، فأنّى يُؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص.

١٧٤ ـ ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي ﷺ، وأخذهم على ذلك الرشا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في صفة محمد ﷺ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضاً، أو: ذا ثمن ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. تقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأنه إذا أكل مايتلبّس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار. ومنه قولهم: «أكل فلان الدم» إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

.... يَـأْكُلْـن كـلَّ ليلـةٍ إكـافـا[1]

أي: ثمن إكاف، فسمّاه إكافاً لتلبسه به بكونه ثمناً له ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلاماً يسرّهم، ولكن بنحو قوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، أو: لا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. والجمل الثلاث معطوفة على خبر «إِنَّ»، فقد صار لـ«إِنَّ» أربعة أخبار من الجمل.

١٧٥ ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ بكتمان نعت محمد ﷺ ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فأيّ شيء أصبرهم على عمل يؤدّي إلى النار. وهذا استفهامٌ معناه التّوبيخ.

---

(١) عجز بيت، وصدره: إن لنا أحمرة عجافا.
«أحمرة»: حمير. «عجاف»: مهازيل. «إكاف»: برذعة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

١٧٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أنَّ الله نزل ما نزل من الكتب بالحقّ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: أهل الكتاب ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو للجنس، أي: في كتب الله، فقالوا في بعضها حق، وفي بعضها باطل ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق. أو: كفرهم ذلك بسبب أنَّ الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد عن الهدى.

١٧٧ ـ ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟﴾ أي: ليس البر توليتكم ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب، لأن قبلة النصارى مشرق بيت المقدس، وقبلة اليهود مغربه، وكلّ واحد من الفريقين يزعم أنّ البر التوجّه إلى قبلته، فردّ عليهم بأن البرّ ليس فيما أنتم عليه، فإنه منسوخ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أو: ذا البر من آمن، والقولان على حذف المضاف، والأول أجود. والبر: اسم للخير، ولكل فعل مرضي. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البرَّ الذي يجب الاهتمام به برّ من آمن وقام بهذه الأعمال. (ليس البرّ) بالنصب على أنه خبر ليس، واسمه (أن تولوا)، حمزة وحفص. ولكن: ﴿البرُّ﴾: نافع، وشامي. وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكنَّ البرَّ. وقرىء: (ولكنَّ البَارّ) ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يوم البعث ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جنس كتب الله، أو القرآن ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حب الله، أو: حب المال، أو: حب الإيتاء، يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة. وقدَّمهم لأنهم أحقّ. قال ﷺ: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقة

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ

وصلة»[١] و﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ المراد: الفقراء من ذوي القربى واليتامى، وإنما أطلق لعدم الإلباس ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ المسكين: الدائم السكون إلى الناس؛ لأنه لا شيءَ له، كالسكِّير للدائم السّكر. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وهو جنس وإن كان مفرداً لفظاً، وجُعل ابناً للسبيل لملازمته له. أو الضيف ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المستطعمين ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكّوا رقابهم. أو في فكّ الأسارى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، قيل: هو تأكيدٌ للأول، وقيل: المراد بالأول: نوافل الصَّدقات والمبارّ ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ عطف على «من آمن» ﴿بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ الله أو الناس ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب على المدح والاختصاص إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال، على سائر الأعمال ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقر والشّدة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض والزّمانة ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقت القتال. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: أهل هذه الصفة هم الذين صدقوا في الدّين ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

١٧٨ ـ رُوي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْل[٢] على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، والاثنين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزل[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ أي: فُرِض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المساواة، وأصله: من قصّ أثره، واقتصه: إذا اتبعه، ومنه القاصّ لأنه يتبع

(١) رواه أحمد (٤/١٧) والترمذي (٦٥٨) والنسائي (٥/٩٢) وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر.
(٢) «الطّوْل»: الفضل والقدرة.
(٣) قال ابنُ حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/ ٢٢١).

﴿فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾

الآثار والأخبار ﴿فِي ٱلْقَتْلَى﴾ جمع قتيل. والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى. ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر، أي: الحر مأخوذ أو مقتول بالحر ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص. وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] كما بين الذكر والأنثى. وبقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»[1]. وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس؛ بدليل أنَّ جماعةً لو قَتَلوا واحداً قُتِلوا به. وبأن تخصيصَ الحكم بنوعٍ لا ينفيه عن نوع آخر، بل يبقي الحكم فيه موقوفاً على ورود دليل آخر، وقد ورد كما بيَّنَّا ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قالوا: العفو ضد العقوبة، يقال: عفوت عن فلان: إذا صفحت عنه، وأعرضت عن أن تعاقبه. وهو يعدى بعن إلى الجاني وإلى الجناية ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وإذا اجتمعا عدّي إلى الأول باللام، فتقول: عفوت له عن ذنبه، ومنه الحديث: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[2]. وقال الزجاج: ﴿من عفي له﴾ أي: من ترك له القتل بالدية. وقال الأزهري: العفو في اللغة: الفضل، ومنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويقال: عفوت لفلان بمال: إذا أفضلت له، وأعطيته. وعفوت له عما لي عليه: إذا تركته. ومعنى الآية عند الجمهور: فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو، على أنَّ الفعل مسندٌ إلى المصدر كما في: سير بزيد بعض السير. والأخ: وليّ المقتول. وذكر بلفظ الأخوة بعثاً له على العطف؛ لما بينهما من الجنسية والإسلام. و﴿من﴾ هو القاتل المعفو له عما جنى. وترك المفعول الآخر استغناء عنه، وقيل: أقيم له مقام عنه. والضمير في: له وأخيه: لمن، وفي: إليه: للأخ، أو للمتبع الدال عليه: ﴿فاتباع﴾ لأن المعنى: فليتبع الطالب القاتل

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٦٨٥).
(٢) رواه أحمد (١/١٨) وأبو داود (١٥٩٤) وابن ماجه (١٨١٢) و(١٨١٣).

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

بالمعروف بأن يطالبه مطالبة جميلة. وليؤدِّ إليه المطلوبُ، أي: القاتل بدلَ الدم، أداء بإحسان، بألا يمطله ولا يبخسه. وإنما قيل: شيء من العفو ليعلم أنه إذا عفا عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تمّ العفو، وسقط القصاص. ومن فسّر ﴿عفي﴾ بترك جعل «شيء» مفعولاً به. وكذا من فسّره بأعطى، يعني: أن الولي إذا أعطي له شيء من مال أخيه، يعني: القاتل، بطريق الصلح فليأخذه بمعروف من غير تعنيف، وليؤدّه القاتلُ إليه بلا تسويف. وارتفاع ﴿اتباع﴾ بأنه خبر مبتدأ مضمر، أي: فالواجبُ اتباع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو، وأخذ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فإنه كان في التوراة القتل لا غير، وفي الإنجيل العفو بغير بدل لا غير، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيراً. والآية تدلُّ على أن صاحبَ الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل، ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان، ولاستحقاق التَّخفيف والرحمة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧٩ ـ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام فصيح، لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بيِّنة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان في القصاص حياة وأي حياة! أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا همّ بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرعُ القصاص سببَ حياة نفسين ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا ذوي العقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل حذراً من القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

١٨٠ ـ ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالاً كثيراً. لما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمئة فمنعه، قال: قال الله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ والخير: هو المال الكثير، وليس لك مال[1]. وفاعل ﴿كُتب﴾: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وكانت الوصية للوارث في بدء الإسلام، فنسخت بآية المواريث كما بيناه في «شرح المنار». وقيل: هي غير منسوخة؛ لأنها نزلت في حقّ من ليس بوارث بسبب الكفر؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام؛ يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرابته، والإسلام قطع الإرث، فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندباً. وعلى هذا لا يراد بـ«كُتب»: فرض ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل، وهو: ألا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، أي: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على الذين يتّقون الشرك.

١٨١ ـ ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ فمن غيّر الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: الإيصاء ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ فما إثم التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريئان من الحيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بجور المبدّل.

١٨٢ ـ ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم. وهذا شائع في كلامهم، يقولون: أخاف أن ترسلَ السماء، ويريدون: الظن الغالب الجاري مجرى العلم ﴿مِن مُّوصٍ﴾ (مُوَصٍّ)، كوفي غير حفص ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصَى لهم، وهم: الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذٍ؛ لأن تبديله تبديل باطل إلى حقّ. ذكر من يبدل بالباطل، ثم من يبدل بالحق؛ ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

---

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة (حاشية الكشاف ١/ ٢٢٣).

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا
أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ

وقيل: هذا في حال حياة الموصي. أي: فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه عن ذلك، وحمله على الصلاح، فلا إثم على هذا الموصي بما قال أولاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٨٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ أي: فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هو مصدر صام، والمراد: صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة. والتشبيه باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ له صوم أيام، أي: أنتم متعبدون بالصيام في أيام، كما تعبّد من كان قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي بالصيام؛ لأن الصيامَ أظلف لنفسه[1]، وأردع لها من مواقعه السوء. أو: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين؛ إذ الصوم شعارهم.

١٨٤ ـ وانتصاب ﴿أَيَّامًا﴾ بالصيام، أي: ﴿كتب عليكم﴾ أن تصوموا ﴿أياماً﴾ ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ مؤقّتات بعدد معلوم، أي: قلائل، وأصله: أن المال القليل يقدّر بالعدد لا الكثير ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يخاف من الصوم زيادة المرض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فعليه عدة، أي: فأفطر، فعليه صيام عدد أيام فطره. والعدة بمعنى المعدود، أي: أمر أن يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيام مرضه وسفره. و«أخر» لا ينصرف للوصف والعدل عن الألف واللام؛ لأن الأصل في فعلى صفة أن تستعمل في الجمع بالألف واللام، كالكبرى والكبر، والصغرى والصغر ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. فطعام بدل من فدية ﴿فديةُ طعامِ مساكين﴾ مدني وابن ذكوان. وكان ذلك في بدء الإسلام، فرضَ عليهم الصوم

(١) «أظلف لنفسه»: أَمْنَع لها.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

ولم يتعوّدوه، فاشتدَّ عليهم، فرخّص لهم في الإفطار والفدية، ثم نسخ التخيير بقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ولهذا كرّر قوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ؛ ليدل على بقاء هذا الحكم. وقيل: معناه: لا يطيقونه، فأضمر لا لقراءة حفصة كذلك. وعلى هذا لا يكون منسوخاً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فالتطوع أو الخير خير له ﴿يَطَّوَّعْ﴾ بمعنى يتطوع، حمزة وعليّ ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية وتطوّع الخير. وهذا في الابتداء. وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم؛ لأنه أشقّ عليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط محذوف الجواب.

١٨٥ ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، أو أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾. وهو بدل من الصيام، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو شهر. والرمضان مصدر رمِض: إذا احترق من الرمضاء. فأضيف إليه الشهر، وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون. وسمّوه بذلك لا رتماضهم فيه من حرّ الجوع، ومقاساة شدّته، ولأنهم سموا الشهور بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمَض الحر. فإن قلت: ما وجه ما جاء في الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»[1]، مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً؟ قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس. القرآن حيث كان غير مهموز، مكي. وانتصب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ على الحال، أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آياتٌ واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحقِّ

---

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٥٩). «احتساباً»: طلباً لوجه الله وثوابه.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾

والباطل. ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن كان شاهداً، أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر. والشهر منصوب على الظرف، وكذا الهاء في «ليصمه» ولا يكون مفعولاً به؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ «فعدة»: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه عدة، أي: صوم عدة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ومَن فَرض الفطر على المريض والمسافر حتى لو صاما تجب عليهما الإعادة، فقد عدل عن موجب هذا ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ عدة ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرض والسفر. فالفعل المعلل محذوف، مدلول عليه بما سبق تقديره: لتعلموا ولتكملوا العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك. يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر. فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك. وعدى التكبير بعلى؛ لتضمنه معنى الحمد؛ كأنه قيل: لتكبروا الله، أي: لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه. (ولتُكَمّلوا) بالتشديد: أبو بكر.

١٨٦ ـ ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾(١) علماً وإجابة لتعاليه عن القرب

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/١٥٨).

أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ

مكاناً ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (الدَّاعي، دَعاني) في الحالين، سهل ويعقوب. ووافقهما أبو عمرو ونافع غير قالون في الوصل. غيرهم بغير ياء في الحالين. ثم إجابةُ الدعاء وعدٌ صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة. فإجابة الدعوة أن يقول العبدُ: يا رب! فيقول الله: لبيك عبدي. وهذا أمرٌ موعود موجودٌ لكل مؤمن. وقضاءُ الحاجة: إعطاءُ المراد، وذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخيرة له في غيره ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ واللام فيهما للأمر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد، وهو: ضدّ الغي.

١٨٧ ـ كان الرجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد، ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر ـ رضي الله عنه ـ واقعَ أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي، ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وأخبره بما فعل فقال ﷺ: «ما كنتَ جديراً بذلك» فنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾[1] أي: الجماع ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ عدّي بإلى لتضمّنه معنى الإفضاء، وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، ولم يقل الإفضاء إلى نسائكم؛ استقباحاً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم. ولّما كان الرجلُ والمرأةُ يعتنقان، ويشتمل كلٌّ واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبّه باللباس المشتمل عليه بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. وقيل: لباس، أي: ستر عن الحرام. و﴿هن لباس لكم﴾ استئناف كالبيان لسبب الإحلال. وهو: أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن؛ فلذا رخص لكم في مباشرتهن ﴿عَلِمَ

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ١٦٥).

﴿اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْئَنَ بَشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾

﴿اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بالجماع، وتنقصونها حظَّها من الخير. والاختيان: من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبتم بما ارتكبتم من المحظور ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما فعلتم قبل الرخصة ﴿فَالْئَنَ بَشِرُوهُنَّ﴾ جامعوهن في ليالي الصوم. وهو أمرُ إباحة. وسُمِّيت المجامعةُ مباشرةً لالتصاق بشرتيهما ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة. أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل. أو: ﴿وابتغوا﴾ المحلّ الذي كتبه الله لكم وحلّله دون ما لم يكتب لكم من المحلّ المحرم ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتدُّ من سواد الليل. شبّها بخيطين أبيض وأسود لامتدادهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان أنّ الخيط الأبيض من الفجر لا من غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأنَّ بيانَ أحدهما بيان للآخر. أو من للتبعيض لأنه بعض الفجر وأوله. وقوله «من الفجر» أخرجه من باب الاستعارة، وصيَّره تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: «رأيت أسداً» مجاز، فإذا زدت: من فلان، رجع تشبيهاً. وعن عدي بن حاتم قال: عمدتُ إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي، فنظرت إليهما، فلم يتبين لي الأبيض من الأسود، فأخبرتُ النبي ﷺ بذلك فقال: «إنك لعريضُ القفا» ـ أي: سليم القلب؛ لأنه مما يستدلُّ به على بلاهة الرجل وقلّة فطنته ـ «إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل»[1]. وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾ أي: الكف عن هذه الأشياء. وفيه دليلٌ على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي الوصال، وعلى وجوب الكفارة في الأكل

(١) رواه البخاري (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠).

وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والشرب، وعلى أنَّ الجنابة لا تنافي الصوم ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ معتكفون فيها. بيَّن أنَّ الجماعَ يحلُّ في ليالي رمضان لكن لغير المعتكف. والجملة في موضع الحال، وفيه دليلٌ على أنَّ الاعتكافَ لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختصُّ به مسجد دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بالمخالفة، والتغير. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

١٨٨ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: لا يأكل بعضُكم مالَ بعض ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبحه اللهُ، ولم يشرعه ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ ولا تدلوا بها، فهو مجزوم داخلٌ في حُكْم النهي، يعني: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم بأن المقضَى له ظالم. وقال ﷺ للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضَكم ألحنُ بحجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيتُ له بشيء من حقِّ أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنَّ ما أقضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كلُّ واحد منهما: حقّي لصاحبي[1]. وقيل: ﴿وتدلوا بها﴾ وتلقوا بعضَها إلى حكام السّوء على وجه الرشّوة. يقال: أدلى دلوه، أي: ألقاه في البئر للاستسقاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل. وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه بالتَّوبيخ أحق.

١٨٩ ـ قال معاذُ بن جبل: يا رسول اللهِ! ما بالُ الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيدُ حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا

(١) أحمد (٦/٣٠٨) والبخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) (٤).

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾

لا يكونُ على حالة واحدة كالشمس، فنزل: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1] جمع هلال، سُمِّي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي: معالم يوقّت بها الناس مزارعهم، ومتاجرهم، ومحالّ ديونهم، وصومهم، وفطرهم، وعِدَد نسائهم، وأيام حيضهن، ومدة حملهن، وغير ذلك، ومعالم للحجّ يعرف بها وقته. كان ناسٌ من الأنصار إذا أحرموا لم يدخلْ أحدٌ منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فنزل: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أي: ليس البرّ بتحرّجكم من دخول الباب. ولا خلافَ في رفع البر هنا؛ لأن الآية ثمَّ تحتمل الوجهين كما بيَّنّا، فجاز الرفع والنصب ثمَّ، وهذه لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو الرفع؛ إذ الباء لا تدخل إلا على خبر ليس ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ برّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرّم الله. (البِيوت) وبابه، مدني وبصري وحفص، وهو الأصل، مثل: كعب وكعوب، ومَن كسر الباء فلمكان الياء بعدها، ولكن هي توجبُ الخروج من كسر إلى ضمّ. وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها، وتمامها[2]: معلومٌ أنّ كلَّ ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة. فدعوا السؤال عنه، وانظروا في خصلة[3] واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً. فهذا وَجْهُ اتصاله بما قبله. ويحتملُ أن يكونَ ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج؛ لأنه كان من أفعالهم في الحجّ. ويحتملُ أن يكونَ هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك، وتجنّبه، ولم يجسُر على مثله

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٣٢).
(٢) من المطبوع.
(٣) من المطبوع.

وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ وباشروا الأمورَ من وجوهها؛ التي يجبُ أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو: المراد: وجوب الاعتقاد بأن جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا بالنعيم السَّرمدي.

١٩٠ ـ ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقاتلة في سبيل الله: الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقيل: هي أوَّلُ آية نزلت في القتال، فكان رسولُ الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكفّ عمن كفّ. أو: الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ، والصبيان، والرهبان، والنساء. أو: الكفرة كلّهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حُكْم المقاتلة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ في ابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمُثْلَة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩١ ـ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم. والثقف: الوجود على وَجْه الأخذ والغلبة ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وَعَدهم اللهُ تعالى فَتْح مكة بهذه الآية، وقد فعل رسولُ الله ﷺ بمن لم يسلمْ منهم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: شركهم بالله أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم. وقيل: الفتنة عذاب الآخرة. وقيل: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان، فيعذب به أشدّ عليه من القتل. وقيل لحكيم: ما أشدّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنّى فيه الموت. فقد جعل الإخراجَ من الوطن من الفتن التي يتمنّى عندها الموت ﴿وَلَا

تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩١﴾ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾
ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا. فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كله ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾: في الحرم، فعندنا يقتلون بالأشهر الحرم إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحينئذٍ نقتلهم، وإن كان ظاهر قوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يبيحُ القتلَ في الأمكنة كلّها. لكن لقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ خصّ الحرم إلا عند البداءة منهم، كذا في «شرح التأويلات» ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر. ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن (قَتَلوكُم): حمزة وعليّ.

١٩٢ ـ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك، والقتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من طغيانهم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبتهم، وإيمانهم.

١٩٣ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك. وكان تامة، وحتى بمعنى: كي، أو: إلى أن ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب، أي: لا يعبد دونه شيء ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم، فإنه لا عدوان إلا على الظالمين، ولم يبقوا ظالمين. أو: فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمى جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

١٩٤ ـ قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء، وكراهتهم القتال، وذلك في ذي القعدة: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ مبتدأ خبره: ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكه، يعني: تهتكون حرمته عليهم، كما هتكوا حرمته عليكم ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: وكلّ حرمة يجري فيها القصاص. مَن هتك حرمة، أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة. فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا، وأكّد ذلك بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من: شرطية. والباء غير زائدة، والتقرير: بعقوبة مماثلة لعدوانهم؛ أو: زائدة، وتقديره: عدواناً مثل عدوانهم ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحلّ لكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

١٩٥ ـ ﴿وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تصدّقوا في رضا الله، وهو عامّ في الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي: أنفسكم. والباء زائدة. أو: ولاتقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده؛ إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سَبَبُ الهلاك، أو: عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه، ويضيع عياله، أو: عن الإخطار بالنفس، أو: عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. والتهلكة والهلاك والهلك واحد ﴿وَأَحْسِنُوٓا﴾ الظَّنَّ بالله في الإخلاف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين.

١٩٦ ـ ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدُّوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى، بلا توان ولا نقصان. وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع. فهو دليلٌ على أنَّ من شرع فيهما لزمه إتمامهما. وبه نقول: إنَّ العمرةَ تلزمُ بالشروع. ولا تمسك للشافعي ـ رحمه الله ـ بالآية على لزوم العمرة؛ لأنه أمر بإتمامها. وقد يُؤمَر بإتمام الواجب والتطوع. أو: إتمامهما أن تحرمَ بهما من دويرة أهلك. أو: أن تفرد لكلّ واحد منهما سفراً. أو: أن تنفق فيهما حلالاً. أو: ألا تتّجر معهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال: أحصر فلان: إذا منعه أمر من خوف، أو مرض، أو عجز، وحصر: إذا حبسه عدو عن المضي. وعندنا: الإحصار يثبتُ بكلِّ منع من عدو، أو مرض، أو غيرهما لظاهر النص. وقد جاء في الحديث: «من كُسر أو عرج فقد حلّ» أي: جاز له أن يحل «وعليه الحجُّ من قابل»(١). وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: الإحصار بالعدو وحده. وظاهر النص يدلُّ على أن

(١) رواه أبو داود (١٨٦٢) والترمذي (٩٤٠) والنسائي (٥/ ١٩٩) وابن ماجه (٣٠٧٧).

فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ

الإحصارَ يتحقق في العمرة أيضاً؛ لأنه ذُكِر عقبهما ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب. والهدي: جمع هدية. يعني: فإن منعتم من المضي إلى البيت، وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة، فما: رفع بالابتداء، أي: فعليكم ما استيسر، أو نصب، أي: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ الخطاب للمحصرين.، أي: لاتحلّوا بحلق الرأس حتى تعلموا أنَّ الهدي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجبُ نحره فيه، وهو الحرم. وهو حجَّةٌ لنا ـ في أن دم الإحصار لا يذبح إلا في الحرم ـ على الشافعي ـ رحمه الله ـ إذ عنده يجوزُ في غير الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يحوجه إلى الحلق ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ وهو القمل، أو الجراحة ﴿فَفِدۡيَةٞ﴾ فعليه إذا حلَق فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين، لكلِّ مسكين نصف صاع من برّ ﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ شاة. وهو مصدر، أو جمع نسيكة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ الإحصار، أي: فإذا لم تحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ استمتع ﴿بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرّب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرّب بالحج. وقيل: إذا حلّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرّماً عليه إلى أن يحرمَ بالحج ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ هو هدي المتعة، وهو نسك يُؤكل منه، ويُذبح يوم النحر ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحجّ ـ وهو أشهره ـ ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرام الحج ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحجِّ ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ في وقوعها بدلاً عن الهدي، أو في الثواب، أو المراد: رفع الإبهام فلا يتوهّم في الواو أنها بمعنى الإباحة، كما في: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما، أو واحداً منهما، كان ممتثلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع. إذ لا تمتع

﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾

ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندنا. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى الحكم الذي هو وجوب الهدي، أو الصيام، ولم يوجبْ عليهم شيئاً ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت، فمن دونها إلى مكة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه في الحجّ وغيره ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يتّقه.

١٩٧ ـ ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: وقت الحج، كقولك: البرد شهران ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات عند الناس، لا يشكلن عليهم، وهي: شوّال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أنَّ شيئاً من أفعال الحج لا يصحّ إلا فيها، وكذا الإحرام عند الشافعي ـ رحمه الله ـ وعندنا وإن انعقد لكنه مكروه. وجمعت ـ أي الأشهر ـ لبعض الثالث، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ ألزمه نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع، أو ذِكْره عند النساء، أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب؛ لقوله ﷺ: «سبابُ المؤمن فُسُوق»(١). أو التنابز بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ ولا مراء مع الرفقاء، والخدم، والمُكَارين(٢). وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجبُ الاجتناب في كلِّ حال؛ لأنه مع الحج أسمج، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوبُ انتفائها، وأنها حقيقة بألا تكون. وقرأ أبو عمرو ومكي الأوّلين بالرفع، فحملاهما على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفثٌ ولا فسوقٌ، والثالث: بالنصب، على معنى الإخبار بانتفاء الجدال، كأنه قيل: ولا شك ولا خلافَ في الحج. ثم حثَّ على الخير

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٥) والبخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) (١١٦).

(٢) «المكارين»: جمع المكاري، وهو مُكري الدواب.

وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكانَ القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة؛ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ واعلم بأنه عالم به يجازيكم عليه. وردّ قول من نفى علمه بالجزئيات. كان أهلُ اليمن لا يتزوّدون، ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون كلاً على الناس، فنزل فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي: تزوّدوا، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس[1] والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الاتقاء عن الإبرام والتثقيل عليهم؛ أو تزوّدوا للمعاد باتقاء المحظورات؛ فإن خير الزاد اتقاؤها ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ وخافوا عقابي، وهو مثل: دعان ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يا ذوي العقول، يعني: أن قضية اللب تقوىٰ الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لبَّ له.

١٩٨ ـ ونزل في قوم زعموا: أن لا حجَّ لجمّال وتاجر، وقالوا: هؤلاء الداجّ[2] وليسوا بالحاج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟﴾ في أن تبتغوا في مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عطاء وتفضّلاً، وهو النفع والربح بالتجارة والكراء ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ دفعتم بكثرة، من إفاضة الماء، وهو: صبّه بكثرة. وأصله: أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول ﴿مِّنْ عَرَفَـٰتٍ﴾ هي عَلَم للموقف سُمِّي بجمع كأذرعات. وإنما صرفت لأنَّ التاء فيها ليست للتأنيث، بل هي مع الألف قبلها علامة جمع المؤنث. وسُمِّيت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام، فلما رآها عرفها. وقيل: الْتقى فيها آدم وحوّاء فتعارفا. وفيه دليلٌ على وجوب الوقوفِ بعرفة؛ لأن الإفاضةَ لا تكونُ إلا بعده ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية، والتهليل، والتكبير، والثناء، والدعوات، أو

---

(١) «إبرام الناس»: أبرمه: أضجره.

(٢) «الداج»: الأعوان والمكارون.

عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ

بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو قُزَح، وهو: الجبل الذي يقفُ عليه الإمام وعليه الميقدة. والمشعر: المعلم؛ لأنه مَعلم العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. وقيل: المشعر الحرام: المزدلفة. وسميت: المزدلفة، وجَمْعاً؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حوّاء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو: لأنه يجمع فيها بين الصَّلاتين، أو: لأنَّ الناس يزدلفون إلى الله تعالى، أي: يتقرَّبون بالوقوف فيها ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ ما: مصدرية، أو كافة، أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، أو: اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه. وإن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة.

١٩٩ ـ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة. قالوا: هذا أمرٌ لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جَمْع، وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات، ويقولون: نحن قُطَّان حرمه فلا نخرج منه. وقيل: الإفاضة من عرفات مذكورة، فهي الإفاضة من جمع إلى مِنى. والمراد بالناس على هذا: الحُمْسُ[1]، ويكون الخطاب للمؤمنين ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف، ونحو ذلك من جاهليتكم، أو من تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم.

٢٠٠ ـ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من عباداتكم التي أُمرتم

(١) سميت قريش حمساً لتشددهم في دينهم، والأحمس: الشديد الصلب بالدين. والتحمس: التشدد. (من حاشية المخطوط).

فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾

بها في الحج، ونفرتم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: فاذكروا الله ذكراً مثل ذكركم آباءكم. والمعنى: فأكثروا من ذِكْر الله، وبالغوا فيه، كما تفعلون في ذكر آبائكم، ومفاخرهم، وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدِّدون فضائل آبائهم، ويذكرون محاسنَ أيامهم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثر. وهو في موضع جر عطف على [ما أضيف إليه][1] الذكر في قوله: ﴿كذكركم﴾ كما تقول: كذكر قريش آباءهم، أو قوم أشدّ منهم ذكراً. وذِكْراً: تمييز ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا، أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة، يعني: الجاه والغِنى ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ نصيب؛ لأنَّ همّه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة. والمعنى: أكثروا ذكر الله ودعاءه؛ لأن الناسَ من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، ومكثر يطلبُ خير الدارين، فكونوا من المكثرين، أي: مِنَ الذين قيل فيهم:

٢٠١ ـ ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن الذين يشهدون الحج ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية، أو علماً وعبادة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ عفواً ومغفرة. أو: المال والجنة، أو: ثناء الخلق ورضا الحق، أو: الإيمان والأمان، أو: الإخلاص والخلاص، أو: السنة والجنة، أو: القناعة والشفاعة، أو: المرأة الصالحة والحور العين، أو: العيش على سعادة والبعث من القبر على بشارة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ احفظنا من عذاب جهنم، أو: عذاب النار: امرأة السوء.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

٢٠٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو: من أجل ما كسبوا. أو: سُمِّي الدُّعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب. ويجوز أن يكون ﴿أولئك﴾ للفريقين، وأن لكلٍّ فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيمَ القيامةِ ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر، وطلب الآخرة. أو: وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم، ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر من نفسه. وروي: أنه يحاسبُ الخلق في قدر حلب شاة، وروي: في مقدار لمحة.

٢٠٣ ـ ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام التَّشريق. وذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجَّل في الأمر واستعجل، ومتعديين، يقال: تعجّل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله: «ومن تأخر» ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث، واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأثمُ بهذا التعجُّل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الصيد، أو الرفث والفسوق. أي: هو مخيّر في التعجُّل والتأخُّر، وإن كان التأخُّرُ أفضل. فقد يقعُ التخييرُ بين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل. وقيل: كان أهلُ الجاهلية فريقين، منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حين يبعثكم من القبور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾

٢٠٤ ـ كان الأخنس بن شريق حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول، وادَّعى أنه يحبُّه، وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادقٌ، فنزل فيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ يروقك، ويعظم في قلبك. ومنه الشيء العجيب؛ الذي يعظم في النفس ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿في﴾ يتعلق بالقول، أي: يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا، ولا يريد به الآخرة. أو بيعجبك، أي: يعجبك حلو كلامه في الدنيا لا في الآخرة؛ لما يرهقه في الموقف من الحُبْسة واللُّكْنة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ شديد الجدال والعداوة للمسلمين. والخصام: المخاصمة. والإضافة بمعنى في؛ لأن أفعل يضاف إلى ما هو بعضه، تقول: زيد أفضل القوم، ولا يكون الشخص بعض الحدث، فتقديره: ألدّ في الخصومة. أو: الخصام: جمع خصم، كصعب وصعاب، والتقدير: وهو أشدّ الخصوم خصومة.

٢٠٥ ـ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول، وإحلاء المنطق ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ﴾ كما فعل بثقيف، فإنه كان بينه وبينهم خصومة، فبيَّتهم ليلاً، وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ أي: الزرع، والحيوان. أو إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض؛ بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر، فيهلك الحرث، والنسل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾.

٢٠٦ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ للأخنس ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في الإفساد، والإهلاك ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم؛ الذي ينهى عنه، وألزمته ارتكابه. أو: الباء للسبب، أي: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في

فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى
ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

قلبه، وهو: الكفر ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفراش جهنم.

٢٠٧ ـ ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفراً كانوا معه، فاشترى نفسه بماله منهم، وأتى المدينة، أو: فيمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر حتى يُقتل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ لابتغاء ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

٢٠٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ﴾ وبفتح السين[1]، حجازي وعليّ. وهو: الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله، وأطيعوه. أو: الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم. أو: للمنافقين؛ لأنهم آمنوا بألسنتهم ﴿كَآفَّةً﴾ لا يُخرج أحدٌ منكم يده عن طاعته. حال من الضمير في ادخلوا، أي: جميعاً، أو: من السلم لأنها تؤنث، كأنهم أمروا أن يدخلوا في الطاعات كلها، أو: في شعب الإسلام وشرائعه كلّها. وكافة: من الكف؛ كأنهم كفّوا أن يخرجَ منهم أحدٌ باجتماعهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وساوسه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

٢٠٩ ـ ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ ملتم عن الدخول في السلم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الواضحة، والشواهد اللائحة على أن ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ ﴿فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يمنعه شيء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يعذّب إلا بحقّ. وروي أن قارئاً قرأ «غفور رحيم» فسمعه

---

(١) أي: (السَّلْم).

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

أعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره، وقال: ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

٢١٠ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر الله وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] أو المأتيّ به محذوف، بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه للدلالة عليه بقوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة، وهي: ما أظلك ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب. وهو للتهويل؛ إذ الغمام مَظِنَّةُ الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة الذين وكِّلوا بتعذيبهم، أو المراد: حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: وتمَّ أمرُ إهلاكهم، وفُرغ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: بأنه ملّك العباد بعضَ الأمور فترجع إليه الأمور يوم النشور. (تَرجِعُ الأمورُ) حيث كان، شامي، وحمزة، وعليّ.

٢١١ ـ ﴿سَلْ﴾ أصله: اسأل، فنقلت فتحة الهمزة إلى السين بعد حذفها، واستغني عن همزة الوصل، فصار: سل. وهو أمرٌ للرسول، أو لكلّ أحد. وهو سؤال تقريع، كما يسأل الكفرة يوم القيامة ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ على أيدي أنبيائهم، وهي معجزاتهم، أو: من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام. وكم استفهامية، أو خبرية ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هي آياته، وهي أجلّ نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة. وتبديلهم إياها: أنَّ الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب ضلالتهم، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أو: حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها، وصحَّت عنده؛ لأنه إذا لم يعرفها فكأنها غائبة عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقه.

٢١٢ ـ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ المزين هو الشيطان، زين لهم الدنيا،

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾

وحسَّنها في أعينهم بوساوسه، وحبَّبها إليهم، فلا يريدون غيرها. أو: الله تعالى بخلق الشهوات فيهم، ولأنَّ جميعَ الكائنات منه، ويدلُّ عليه قراءة من قرأ: ﴿زَين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾[١] ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود، وعمار، وصهيب، ونحوهم. أي: لا يريدون غير الدنيا، وهم يسخرون ممن لا حظّ له فيها، أو ممن يطلب غيرها ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وهم: هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم في جنة عالية، وهم في نار هاوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقتير. يعني: أنه يوسِّعُ على مَنْ أراد التوسعة عليه، كما وسّع على قارون وغيره. وهذه التوسعةُ عليكم من الله لحكمةٍ وهي: استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحقّ بها منكم.

٢١٣ ـ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام. أو: هم نوح ومن كان معه في السفينة. فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾، ويدلُّ على حذفه قولُه تعالى: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ وقراءة عبد الله[٢] ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]. أو: كان الناس أمة واحدة كفاراً، فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم. والأول الأوجه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين، وهما حالان ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: مع كل واحد منهم كتابه ﴿بِالْحَقِّ﴾ بتبيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في دين الإسلام؛ الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف. أي: ازدادوا في الاختلاف لمّا أنزل

(١) هي قراءة مجاهد وابن محيصن وحميد بن قيس وأبي حيوة.
(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾

عليهم الكتاب ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ على صدقه ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مفعول له، أي: حسداً بينهم، وظلماً لحرصهم على الدنيا، وقلَّة إنصاف منهم ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق؛ الذي اختلفَ فيه من اختلف ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بعلمه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.

٢١٤ ـ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ أم منقطعة لا متصلة؛ لأنَّ شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام، كقولك: أعندك زيد أم عمرو؟ أي: أيّهما عندك؟ وجوابه: زيد إن كان عنده زيد، أو: عمرو إن كان عنده عمرو. وأما «أم» المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر، وتكون بمعنى بل والهمزة، والتقدير: بل أحسبتم. ومعنى الهمزة فيها للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده. لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات، والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات ـ التي هي أبلغ ـ: ﴿أم حسبتم﴾ ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم﴾ أي: ولم يأتكم. وفي لمّا معنى التوقع، يعني: أن إتيانَ ذلك مُتَوَقَّعٌ منتظر ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ مضوا. أي: حالهم التي هي مثل في الشدة ﴿مِن قَبۡلِكُم﴾ من النَّبيين والمؤمنين ﴿مَّسَّتۡهُمُ﴾ بيان للمثل، وهو استئناف، كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: ﴿مستهم﴾ ﴿ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ أي: البؤس ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ المرض، والجوع ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ وحرّكوا بأنواع البلايا، وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر، حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب النصر، وتمنّيه، واستطالة زمن

أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

الشدة ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ قيل لهم إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر (يقولُ) بالرفع، نافع، على حكاية حال ماضية، نحو: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه. وغيره بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛ لأن أنْ عَلَم له.

٢١٥ ـ ولما قال عمرو بن الجموح، وهو شيخ كبير، وله مال عظيم: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ نزل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد تضمَّن قوله: ﴿ما أنفقتم من خير﴾ بيانُ ما ينفقونه، وهو: كل خير. وبني الكلام على ما هو أهم، وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقعَ موقعها. عن الحسن: هي في التطوع ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ فيجزي عليه.

٢١٦ ـ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ فُرِض عليكم جهادُ الكفار ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ من الكراهة، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها:

.... فـإنمـا هـي إقبـالٌ وإدبـارُ[1]

كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له. أو هو: فعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز، أي: وهو مكروه لكم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فأنتم تكرهون الغزو، وفيه إحدى الحسنيين، إما: الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا﴾ وهو القعودُ عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ لما فيه من الذل، والفقر، وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما هو خيرٌ لكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك ، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ عليكم.

---

(١) عجز بيت للخنساء، وصدره: لا تسأم الدهرَ منه كلما ذكرت.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ

٢١٧ ـ ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ، فقاتلوا المشركين، وقد أهلّ هلالُ رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من الشهر. وقرىء ﴿عن قتالٍ فيه﴾ على تكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: إثم كبير. ﴿قتال﴾ مبتدأ و﴿كبير﴾ خبره. وجاز الابتداء بالنكرة لأنها قد وصفت بـ: فيه. وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منع المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت عام الحديبية. وهو مبتدأ ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله. عطف عليه ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله. أي: وصدّ[1] عن سبيل الله وعن المسجد الحرام. وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في به، أي: كفر به وبالمسجد الحرام. ولا يجوزُ عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد. ولو كان معطوفاً على الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وهو عطف على «صد» أيضاً ﴿مِنْهُ﴾ من المسجد الحرام. وخبر الأسماء الثلاثة ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على الظن ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ الإخراج، أو الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام. أو: تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين في الشهر الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر، وهو إخبار

---

(١) في المطبوع: على صد.

إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ

عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم لا ينفكّون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها التعليل، نحو: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي: يقاتلونكم كي يردوكم. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ استبعاد لاستطاعتهم، كقولك لعدوك: إن ظفرت بي فلا تبقِ عليّ، وأنت واثق بأنه لا يظفر بك ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يمت على الردة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب، وحسن المآب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وبها احتج الشافعي ـ رحمه الله ـ على أن الردةَ لا تحبط العملَ حتى يموت عليها. وقلنا: قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] والأصل عندنا: أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده يحمل عليه، فهو بناء على هذا.

٢١٨ ـ ولما قالت السرية: أيكون لنا أجر المجاهدين في سبيل الله؟ نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ تركوا مكة وعشائرهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المشركين. ولا وقف عليه؛ لأن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ خبر إن. قيل: من رجا طلب، ومن خاف هرب﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢١٩ ـ نزل في الخمر أربع آيات. نزل بمكة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمرو ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر فإنها مذهبةٌ للعقل، مسلبة للمال فنزل: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فشربها قومٌ، وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعةً فشربوا وسكروا، فأمَّ بعضهُم فقرأ: قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فنزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا﴾

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فقلَّ من يشربها. ثم دعا عتبان بن مالك جماعةً فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ٩١] فقال عمر: انتهينا يا رب! وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه. والخمر: ما غلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب. وسمِّيت بمصدر خمره خمراً: إذا ستره؛ لتغطيتها العقل. والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد من فعله، يقال: يسرته: إذا قمرته. واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كد وتعب. أو من اليسار كأنه سلب يساره. وصفة الميسر: أنه كانت لهم عشرة أقداح، سبعة منها عليها خطوط وهي: الفذ وله سهم، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبِل وله ستة، والمعلَّى وله سبعة، وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهي: المنيح، والسفيح، والوغد، فيجعلون الأقداح في خريطة، ويضعونها على يد عدل، ثم يجلجلها، ويدخل يده فيخرج باسم رجل قدْحاً قدحاً منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومَن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذْ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كلّه. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمّون من لم يدخل فيه. وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما. والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما بدليل: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصم، والتشاتم، وقول الفحش والزور. كثير: حمزة وعليّ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر، والتلذذ بشربها، وفي الميسر بارتفاق الفقراء، أو نيل المال بلا كدّ ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لأنَّ أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا

يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: الفضل، أي: أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة. وكان التصدق بالفضل في أول الإسلام فرضاً[1]، فإذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدَّق بالفضل، وإذا كان صانعاً أمسك قوت يومه وتصدَّق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة. (العَفْوُ) أبو عمرو. فمن نصبه جعل «ماذا» اسماً واحداً في موضع النصب بينفقون، والتقدير: قل: ينفقون العفو، ومن رفعه جعل ﴿ما﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ذا﴾ مع صلته، فذا بمعنى الذي، وينفقون: صلته، أي: ما الذي ينفقون؟ فجاء جواب العفو، أي: هو العفو، فإعراب الجواب كإعراب السؤال؛ ليطابق الجواب السؤال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي: تبييناً مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٢٠ ـ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في أمر الدنيا ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ وفي: يتعلق بتتفكرون، أي: تتفكرون فيما يتعلق بالدارين، فتأخذون بما هو أصلح لكم. أو: تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما، وأكثرهما منافع. ويجوز أن يتعلق بـ﴿يُبَيِّن﴾، أي: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما ﴿لعلكم تتفكرون﴾. ولما نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] اعتزلوا اليتامى، وتركوا مخالطتهم، والقيام بأموالهم، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم، ولم تجانبوهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين، ومن حقِّ الأخ أن يخالط أخاه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لها، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إعناتكم

---

(١) من المطبوع.

لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ

﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لحملكم على العنت، وهو: المشقة، وأحرجكم، فلم يطلقْ لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يقدر على أن يعنت عباده، ويحرجهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلِّف إلا وسعهم، وطاقتهم.

٢٢١ ـ لما سأل مَرْثَد النبيَّ ﷺ عن أن يتزوج عَناق ـ وكانت مشركة ـ نزل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(١) أي: لا تتزوجوهن. يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح: غيره: زوّجه ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تزوجوهم بمسلمة، كذا قاله الزجاج. وقال جامع العلوم: حذف أحد المفعولين، والتقدير: ولا تنكحوهن المشركين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم بيّن علّة ذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وهو إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الكفر الذي هو عملُ أهل النار فحقّهم ألا يوالَوا، ولا يُصاهروا. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأولياء الله ـ وهم المؤمنون ـ يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يُوصل إليهما، فهم الذين تجب موالاتهم، ومصاهرتهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بعلمه، أو بأمره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٢٢٢ ـ كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدحداح رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: يا رسول الله! كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾(٢)

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥١) والترمذي(٢١٧٦) والنسائي(٦/ ٦٦).
(٢) رواه مسلم (٣٠٢) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٨١).

قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

هو مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: المحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوهن، أي: فاجتنبوا مجامعتهن. وقيل: إنَّ النصارى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف ـ رحمهما الله ـ يجتنب ما اشتمل عليه الإزرار. ومحمد ـ رحمه الله ـ: لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ بالتشديد، كوفي غير حفص، أي: يغتسلن، وأصله: (يَتَطَهَّرْنَ)، فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم (يَطْهُرْنَ)، أي: ينقطع دمهن. والقراءتان كآيتين فعملنا بهما، وقلنا له: أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وإن لم تغتسل؛ عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت الصلاة عملاً بقراءة التشديد. والحمل على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجبُ ترك العمل بإحداهما لما عرف. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا يقربها حتى تطهر وتتطهر. دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من المأتى الذي أمركم الله به، وحلَّله لكم، وهو القبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من ارتكاب ما نهوا عنه، أو العوادين إلى الله تعالى، وإن زلّوا فزلوا. والمحبة لمعرفته بعظم عفو الله حيث لا ييأس ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء، أو المتنزهين من أدبار النساء، أو من الجماع في الحيض، أو من الفواحش.

٢٢٣ ـ كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجُل أهلَه باركةً أتى الولد أحول، فنزل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النطف؛ التي منها النسل بالبذور، والولد

فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ

بالنبات. ووقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ بياناً وتوضيحاً لقوله ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي: إن المأتى الذي أمركم اللهُ به هو مكان الحرث لا مكان الفرث، تنبيهاً على أنَّ المطلوبَ الأصلي في الإتيان هو طلبُ النسل لاقضاء الشهوة، فلا تأتونهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ جامعوهن متى شئتم، أو كيف شئتم، باركة أو مستلقية، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحداً، وهو موضع الحرث. وهو تمثيل، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم، لا يحظر عليكم جهة دون جهة. وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة. فعلى كل مسلم أن يتأدَّب بها، ويتكلَّف مثلها في المحاورات والمكاتبات ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتم عنه. أو هو طلب الولد، أو التسمية على الوطء ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ صائرون إليه فاستعدُّوا للقائه ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالثواب يا محمد.

وإنما جاء يسألونك ثلاث مرات بلا واو، ثم مع الواو ثلاثاً؛ لأن سؤالَهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك.

٢٢٤ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ العُرضة فُعلة بمعنى مفعول، كالقبضة، وهي: اسم ما تعرضه دون الشيء: من: عرض العود على الإناء، فيتعرض دونه، ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه، فقيل لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾

﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

أي: حاجزاً لما حلفتم عليه. وسُمِّي المحلوف عليه يميناً بتلبسه باليمين، كقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها [فليكفِّر عن يمينه]»(١). وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: للأمور المحلوف عليها التي هي: البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس. واللام تتعلق بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لإيمانكم برزخاً. ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبرّوا بالفعل، أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

٢٢٥ـ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولغو اليمين: الساقط الذي لا يعتدّ به في الأيمان، وهو أن يحلفَ على شيءٍ يظنُّه على ما حلف عليه والأمر بخلافه. والمعنى: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف، نحو: لا والله. وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بما اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو: أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس. وتعلَّق الشافعي بهذا النص على وجوب الكفارة في الغموس؛ لأن كسب القلب: العزم، والقصد. والمؤاخذة غير مبينة هنا، وبينت في المائدة، فكان البيان ثمة بياناً هنا. وقلنا: المؤاخذة هنا مطلقة، وهي في دار الجزاء، والمؤاخذة ثَم مقيدة بدار الابتلاء، فلا يصحُّ حَمْل البعض على البعض ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٥) والنسائي (٧/ ١٠) وابن ماجه (٢١١١). وما بين حاصرتين مستدرك من مصادر التخريج.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ

٢٢٦ ـ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يقسمون. وهي قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ يتعلق بالجار والمجرور، أي: للذين، كما تقول: لك مني نصرة، ولك مني معونة، أي: للمؤلين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر، لا بيؤلون؛ لأن آلى يعدّى بعلى، يقال: آلى فلان على امرأته. وقول القائل: آلى فلان من امرأته، وهم توهّمه من هذه الآية. ولك أن تقول: عدّي بمن لما في هذا القسم من معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿فَإِن فَآءُو﴾ في الأشهر، لقراءة عبد الله: (فإن فاؤوا فيهن) أي: رجعوا إلى الوطء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث شرع الكفارة.

٢٢٧ ـ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بترك الفيء، فتربصوا إلى مضيِّ المدة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّته. وهو وعيدٌ على إصرارهم وتركهم الفيئة.

وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ معناه: ﴿فإن فاؤوا﴾ ﴿وإن عزموا﴾ بعد مضي المدة؛ لأنَّ الفاء للتعقيب. وقلنا: قوله ﴿فإن فاؤوا﴾ ﴿وإن عزموا﴾ تفصيل لقوله ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحول.

٢٢٨ ـ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: ولتتربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه: قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها. وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدلُّ على الدوام والثبات بخلاف الفعلية. وفي ذكر الأنفس تهييج لهن

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾

على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربُّص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جمع قَرء أو قُرء. وهو الحيض لقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1]. وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعِدَّتها حيضتان»[2] ولم يقل: طهران، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]. فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار، ولأن المطلوب من العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي يستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة، ولأنه لو كان طهراً كما قال الشافعي، لانقضت العدة بقرأين وبعض الثالث، فانتقص العدد عن الثلاثة؛ لأنه إذا طلقها في آخر الطهر، فذا محسوب من العدة عنده، وإذا طلقها في آخر الحيض، فذا غير محسوب من العدة عندنا، والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لا يقع على ما دونه. ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرىء. وانتصاب ثلاثة على أنه مفعول به، أي: يتربصن مضيّ ثلاثة قروء، أو على الظرف، أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء. وجاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء لاشتراكهما في الجمعية اتساعاً. ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو من دم الحيض، أو منهما. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها، فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها؛ أو كتمت حيضها وقالت ـ وهي حائض ـ: قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ عظّم فعلهنّ؛ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على مثله من العظائم ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البعول: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: أزواجهن أولى برجعتهن.

---

(١) رواه الدارقطني (١ / ٢١٢).
(٢) رواه أبو داود (٢١٨٩) والترمذي (١١٨٢) وابن ماجه (٢٠٨٠).

﴿فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾

وفيه دليلٌ على أن الطلاقَ الرَّجعي لا يحرمُ الوطء حيث سمَّاه زوجاً بعد الطلاق ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في مدة ذلك التربُّص. والمعنى: أن الرجلَ إن أراد الرجعة، وأبتها المرأة، وجب إيثار قوله على قولها، وكان هو أحقّ منها، لا أنَّ لها حقّاً في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَٰحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدوا مُضارَّتهن. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر، والنفقة، وحسن العشرة، وترك المضارّة، مثل الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنّهي ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، فلا يكلف أحدُ الزوجين صاحبَه ما ليس له. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجبِ الواجبَ في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق، وفضيلة بالقيام بأمرها، إن اشتركا في اللذة والاستمتاع، وبالإنفاق، وملك النكاح ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن.

٢٢٩ ـ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الطلاق بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم. أي: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة. ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] أي: كرة بعد كرة، لا كرتين اثنتين. وهو دليلٌ لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة في طهر واحد؛ لأنَّ الله تعالى أمرنا بالتفريق؛ لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر، وإلا يؤدي إلى الخلف في خبر الله تعالى؛ لأن الطلاقَ على وَجْه الجمع قد يوجد. وقيل: قالت أنصارية: إن زوجي قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك، فنزلت: ﴿الطلاق مرتان﴾[1] أي: الطلاق الرجعي مرتان؛ لأنه لا رجعةَ بعد الثالث ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ برجعة.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٥٦).

﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا﴾

والمعنى: فالواجب عليكم إمساكٌ بمعروف ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بألا يراجعها حتى تبين بالعدة. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. نزل في جميلة وزوجها ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه، وهو يحبها، وقد أعطاها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام[1] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ مما أعطيتموهن من المهور ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إلا أن يعلم الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية؛ لما يحدث من نشوز المرأة، وسوء خلقها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة. وجاز أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾فيما افتدت به نفسها، واختلعت به من بدل ما أوتيت من المهر. ﴿إلا أنْ يُخافا﴾ حمزة على البناء للمفعول، وإبدال ﴿ألا يقيما﴾ من ألف الضمير. وهو من بدل الاشتمال، نحو: خيف زيد تركه إقامة حدود الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما حدّ من النكاح، واليمين، والإيلاء، والطلاق، والخلع، وغير ذلك ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الضارُّون أنفسهم.

٢٣٠ ـ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مرة ثالثة بعد المرّتين. فإن قلت: الخلع طلاق عندنا، وكذا عند الشافعي ـ رحمه الله ـ في قول. فكأن هذه تطليقة رابعة، قلت: الخلع طلاق ببدل فيكون طلقة ثالثة، وهذه بيان لتلك ، أي: فإن طلقها الثالثة ببدل فحكم التحليل كذا ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التطليقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٦١).

﴿غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

﴿غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوَّج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كالتزوّج. وفيه دليلٌ على أن النكاحَ ينعقدُ بعبارتها. والإصابة شرطت بحديث العسيلة، كما عرف في أصول الفقه. والفقه فيه: أنه لما أقدم على فراق لم يُبق للندم مخلصاً، لم تحلّ له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني بعد الوطء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ على الزوج الأوّل وعليها ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كلّ واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل: إن عَلما أنهما يقيمان؛ لأن اليقينَ مغيبٌ عنهما لا يعلمه إلا الله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ وبالنون[1]، المفصل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ما بيّن لهم.

٢٣١ - ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخر عدّتهن، وشارفن منتهاها. والأجل: يقع على المدّة كلها وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدّتها، وتبين من غير ضرار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ مفعول له، أو حال، أي: مضارّين. وكان الرجلُ يطلّق المرأةَ ويتركها حتى يقرب انقضاء عدّتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطوّل العدّة عليها، فهو الإمساك ضراراً ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ لتظلموهن، أو لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الإمساك للضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: جدّوا بالأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعوها حقّ رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً. يقال لمن لم يجدّ في الأمر: إنما أنت لاعب وهازىء ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

(١) أي: (نُبيِّنُها).

وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بالإسلام، وبنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ من القرآن والسنة. وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقّها ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم، وهو حال ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الذكر، والاتقاء، والاتعاظ، وغير ذلك، وهو أبلغ وعد ووعيد.

٢٣٢ ـ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدّتهن. فدلَّ سياقُ الكلامين على افتراق البلوغين، لأنَّ النكاحَ يعقبه هنا، وذا يكون بعد العدّة؛ وفي الأولى الرجعة، وذا يكون في العدَّة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعوهن. العضل: المنع والتَّضييق ﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ من أن ينكحن ﴿أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الذين يرغبن فيهم، ويصلحون لهن. وفيه إشارةٌ إلى انعقاد النكاح بعبارة النساء. والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدّة ظلماً، ولا يتركونهن يتزوّجن مَنْ شئن من الأزواج. سمّوا أزواجاً باسم ما يؤول إليه. أو: للأولياء في عضلهن أن يرجعنَ إلى أزواجهن؛ الذين كانوا أزواجاً لهن. سمّوا أزواجاً باعتبار ما كان. نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجعَ إلى الزوج الأول. أو: للناس، أي لا يوجدُ فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم، وهم راضون، كانوا في حكم العاضلين ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم﴾ إذا تراضى الخطّاب والنساء ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما يحسن في الدِّين والمروءة من الشرائط. أو: بمهر المثل والكفء؛ لأن عند عدم أحدهما للأولياء أن يتعرَّضوا. والخطاب في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل واحد ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فالموعظة إنما تنجح فيهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ترك العضل والضرار ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لكم، من أدناس الآثام. أو: ﴿أزكى وأطهر﴾ أفضل وأطيب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاء، والطهر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ

٢٣٣ ـ ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ خبر في معنى الأمر المؤكد، كـ«يتربصن» وهذا الأمر على وجه الندب، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمّه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأبُ عاجزاً عن الاستئجار، أو أراد الوالدات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ظرف ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تامّين، وهو تأكيدٌ، لأنه مما يتسامح فيه، فإنك تقول: إنك أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة. والحاصل: أنّ الأب يجبُ عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوّعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك، ولا تُجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ الهاء يعود إلى اللام الذي بمعنى الذي، والتقدير: وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و«له» في محل الرفع على الفاعلية كـ«عليهم» في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وإنما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر. ألَا ترى أنه ذكره باسم الوالد، حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير، و تفسيره ما يعقبه، وهو: ألّا يكلّف واحد منهما ما ليس في وسعه، ولا يتضارّا ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وُجدها، أو قدر إمكانها. والتكليف: إلزام ما يؤثر في الكُلفة. وانتصاب «وسعها» على أنه مفعول ثان لتكلف لا على الاستثناء، ودخلت «إلا» بين المفعولين ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ مكي وبصري بالرفع على الإخبار[١]. ومعناه النهي. وهو يحتملُ البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضارِر بكسر الراء، أو

(١) أي: (لا تُضارُّ والدة).

وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ

تضارَر بفتحها. الباقون (لاتضارّ) على النهي. والأصل: تضارر، أسكنت الراء الأولى، وأدغمت في الثانية بعد أن سكنت، فالتقى الساكنان، ففتحت الثانية لالتقاء الساكنين ﴿وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا تضارّ والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنُفَ به، وتطلب منه ما ليس بعدلٍ من الرزق والكسوة، وأن تشغلَ قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقولَ بعد ما ألفها الصبي: اطلبْ له ظئراً، وما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذه منها وهي تريدُ إرضاعه.

وإذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحَق بها الضرار من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد.

أو: تضار بمعنى تضر، والباء من صلته، أي: لاتضّر والدة ولدها فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضرّ الوالد به بأن ينتزعَه من يدها، أو يقصّر في حقّها، فتقصر هي في حقّ الولد. وإنما قيل بولدها وبولده، لأنه لما نهيت المرأةُ عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن﴾ وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وعلى وارث الصبي عند عدم الأب ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: مثل الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة. واختلف فيه، فعند ابن أبي ليلى: كلّ من ورثه. وعندنا من كان ذا رحم محرم منه؛ لقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وعلى الوارث ذي الرحم المحرم مثل ذلك) وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ لا نفقة فيما عدا الولاد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطاماً صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين، أو نقصا. وهذه توسعةٌ بعد التحديد. والتشاور: استخراج الرأي. من شُرت العسل: إذا استخرجته. وذكره ليكون التراضي عن تفكّر، فلا يضرّ الرضيع. فسبحان الذي

وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

أدّب الكبير، ولم يهمل الصغير. واعتبر اتفاقهما لأنَّ للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: لأولادكم، عن الزجاج. وقيل: استرضع منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأةُ الصبي، واسترضعتُها الصبي معدى إلى مفعولين أي: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أَحَدَ المفعولين. يعني: غير الأم عند إبائها، أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما أردتم إيتاءه من الأجرة. (أَتَيْتُم): مكي، من: أتى إليه إحساناً: إذا فعله، ومنه قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً. والتسليم ندب لا شرط للجواز ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسلّمتم، أي: سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، فهو يجازيكم عليها.

٢٣٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ تقول: توفيت الشيء، واستوفيته: إذا أخذته وافياً تاماً، أي: تُستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن، أي: يعتددن، أو: معناه: يتربصن بعدهم بأنفسهن. فحذف بعدهم للعلم به. وإنما احتيج إلى تقديره، لأنه لابدَّ من عائد يرجعُ إلى المبتدأ في الجملة التي وقعت خبراً. (يَتَوَفَّوْن)؛ المفضَّل، أي: يستوفون آجالهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال، والأيام داخلة معها. ولا يستعمل التذكير فيه ذهاباً إلى الأيام، تقول: صمت عشراً. ولو ذكّرت لخرجت من كلامهم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإن انقضت عدَّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرُّض للخطَّاب ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ

٢٣٥ - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخطبة: الاستنكاح. والتعريض: أن تقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريدُ نكاحها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبتْ فيه. ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريدُ أن أتزوجّك. والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية: أن تذكر الشيءَ بغير لفظه الموضوع له، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلِّم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

.... وحَسْبُك بالتَّسليم مني تَقَاضِيا

فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدلّ على الغرض ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بألسنتكم لا معرّضين ولا مصرّحين ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن، فاذكروهن ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جماعاً، لأنه مما يسرّ، أي: لا تقولوا في العدة: إني قادرٌ على هذا العمل ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرّضوا ولا تصرّحوا. وإلا متعلق بلا تواعدوهن، أي: لا تواعدوهن مواعدة قطّ، إلا مواعدة معروفة غير منكرة ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ من عزم الأمر، وعزم عليه. وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح؛ لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى. ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، أو: ولا تقطعوا عقدة النكاح، لأن حقيقةَ العزم القطع، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروي: «لمن لم يبيّت الصيام»[1]. أي: ولا تعزموا على عقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ حتى

(١) رواه النسائي (٤/١٩٦).

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

تنقضي عدّتها. وسمّيت العدة كتاباً لأنها فرضت بالكتاب، يعني: حتى يبلغ التربُّص المكتوب عليها أجله، أي: غايته ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

٢٣٦ ـ ونزل فيمن طلّق امرأته ولم يكن سمّى لها مهراً، ولا جامعها ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تبعةَ عليكم من إيجاب مهر ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ شرط. ويدلُّ على جوابه ﴿لاجناح عليكم﴾ والتقدير: إن طلقتم النساء فلا جناحَ عليكم ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تجامعوهن. وما شرطية، أي: إن لم تمسوهن. (تُماسُّوهُنَّ): حمزة، وعليّ، حيث وقع؛ لأنَّ الفعل واقع بين اثنين ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو: حتى تفرضوا. وفرض الفريضة: تسمية المهر. وذلك أن المطلّقة غير الموطوءة لها نصف المسمّى إن سمي لها مهر. وإن لم يسمّ لها مهر فليس لها نصف مهر المثل، بل تجبُ المتعة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معطوف على فعل محذوف، تقديره: فطلقوهن ومتعوهن. والمتعة: درع وملحفة وخمار ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الذي له سعة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ مقداره الذي يطيقه. (قَدْرُهُ) فيهما: كوفي غير أبي بكر، وهما لغتان ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الضيّق الحال. والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ فقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ إثبات للجناح المنفي ثمة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ ولا تجب المتعة عندنا إلا لهذه، وتستحبّ لسائر المطلّقات ﴿مَتَٰعًا﴾ تأكيد لمتعوهن، أي: تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسنُ في الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو: حقّ ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على المسلمين، أو على الذين يحسنون إلى المطلّقات بالتمتيع. وسمّاهم قبل الفعل محسنين، كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]. وليس هذا

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

الإحسان هو التبرع بما ليس عليه، إذ هذه المتعة واجبة.

٢٣٧ ـ ثم بيّن حُكْم التي سمَّى لها مهراً في الطلاق قبل المس، فقال: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر. أي: من قبل مسّكم إياهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ في موضع الحال ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهراً ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ يريد المطلقات. وأن مع الفعل في موضع النصب على الاستثناء؛ كأنه قيل: فعليكم نصف ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقت عفوهن عنكم من المهر. والفرق بين الرجال يعفون والنساء يعفون؛ أن الواو في الأول ضميرهم والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟﴾ عطف على محلّه ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو الزوج، كذا فسَّره عليّ ـ رضي الله عنه ـ: وهو قول سعيد بن جبير، وشريح، ومجاهد، وأبي حنيفة، والشافعي على الجديد ـ رضي الله عنهم ـ. وهذا لأن الطلاقَ بيده، فكان بقاء العقد بيده. والمعنى: أن الواجبَ شرعاً هو النصف إلا أن تسقطَ هي الكل، أو يعطي هو الكلّ تفضّلاً. وعند مالك والشافعي في القديم: هو الولي. قلنا: هو لا يملكُ التبرع بحق الصغيرة، فكيف يجوز حمله عليه؟! ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾. والخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب، ذكره الزجاج. أي: عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير له، وعفو المرأة بإسقاط كلّه خير لها. أو: للأزواج ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ﴾ التفضل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضّل بعضكم على بعض ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على تفضّلكم.

٢٣٨ ـ ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، من قولهم

وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا

للأفضل: الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لا نفرادها بالفضل. وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وعليه الجمهور، لقوله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً»(١). وقال ﷺ: «إنها الصلاة التي شُغِل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب»(٢). وفي مصحف حفصة (والصلاة الوسطى صلاة العصر) ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار. وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم، ومعايشهم. وقيل: صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار. أو صلاة الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. أو صلاة المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى، ولأنها بين صلاتي مخافتة وصلاتي جهر. أو صلاة العشاء، لأنها بين وترين. أو هي غير معينة، كليلة القدر؛ ليحفظوا الكل ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ﴾ حال، أي: مطيعين خاشعين، أو ذاكرين الله في قيامكم. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. أو مطيلين القيام.

٢٣٩ ـ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بكم خوف من عدو، أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ حال، أي: فصلّوا راجلين، وهو جمع راجل، كقائم وقيام ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ وُحداناً بإيماء. ويسقط عنه التوجُّه إلى القبلة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فصلُّوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: ذكراً مثلما علّمكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن.

٢٤٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ بالنصب، شامي، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص، أي: فليوصوا وصية، عن الزجاج. غيرهم بالرفع، أي: فعليهم وَصِيَّةٌ ﴿مَّتَٰعًا﴾ نصب بالوصية، لأنها مصدر. أو

(١) رواه أحمد (١/ ١٥٠) والبخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٥).

إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ
أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾
۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ

تقديره: متعوهن متاعاً ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ صفة لمتاعاً ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول. أو: بدل من متاعاً. والمعنى: أنَّ حقَّ الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن. وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام، ثم نُسِخ بقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ إلى قوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ والناسخ متقدم عليه تلاوة، ومتأخّر نزولاً، كقوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزيُّن، والتعرُّض للخطَّاب ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم.

٢٤١ ـ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ﴾ أي: نفقة العدة. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا﴾ نصب على المصدر ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٢٤٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو في موضع الرفع؛ لأنه خبر لعل. وإن أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة، وهي: على سبيل الندب.

٢٤٣ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجب من شأنهم. ويجوز أن يخاطَبَ به من لم ير ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ من قرية، قيل: واسط، وقع فيهم الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماتهم الله، ثم أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام. وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا حذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم

وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ في موضع النصب على الحال، وفيه دليلٌ على الألوف الكثيرة؛ لأنها جمع كثرة. وهي جمع: ألف، لا آلف ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: فأماتهم الله. وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة. وفيه تشجيعٌ للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفرّ، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفرَّ من حُكْم الله وقضائه. وهو معطوف على فعل محذوف تقديره: فماتوا ثم أحياهم، أو لما كان معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ فأماتهم، كان عطفاً عليه معنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث يبصّرهم ما يعتبرون به، كما بصّر أولئك، وكما بصّركم باقتصاص خبرهم. أو: لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم النشور ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

٢٤٤ ـ والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغني. هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ، أو لمن أحياهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٢٤٥ ـ ﴿مَّن﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء ﴿ذَا﴾ خبره ﴿ٱلَّذِى﴾ نعت لذا، أو بدل منه ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ صلة الذي. سمَّى ما ينفق في سبيل الله قرضاً؛ لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعدُ. سمَّى به لأن المقرض يقطعه من ماله فيدفعه إليه. والقرض: القطع، ومنه: المقراض، وقرض الفأر، والانقراض. فنبَّههم بذلك على أنه لا يضيعُ عنده، وأنه يجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبة النفس من المال الطيب. والمراد: النفقة في الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال في

فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ
وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ

سبيل الله، ويحتاج فيه إلى المال، حثّ على الصدقة ليتهيأ أسباب الجهاد ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ بالنصبِ، عاصم، على جواب الاستفهام، وبالرفع؛ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، وعليّ، عطفاً على (يقرضُ). أو هو مستأنف، أي: فهو يضاعفه. (فيضعّفَه)، شامي. فيضعّفُه: مكي ﴿أَضۡعَافٗا﴾ في موضع المصدر ﴿كَثِيرَةٗۚ﴾ لا يعلم كنهها إلا الله، وقيل: الواحد بسبعمئة ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقتر الرزق على عباده، ويوسعه عليهم، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لا يبدلكم الضيق بالسعة. ويبصط: حجازي، وعاصم، وعليّ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدَّمتم.

٢٤٦ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ الأشراف، لأنهم يملؤون القلوبَ دلالة، والعيون مهابة ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ من للتبعيض ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ من بعد موته. ومن: لابتداء الغاية ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ هو شمعون، أو يوشع، أو أشمويل ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره ﴿نُّقَٰتِلۡ﴾ بالنون والجزم على الجواب ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ صلة نقاتل ﴿قَالَ﴾ النبي: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ (عَسِيتُم) حيث كان، نافع ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ شرط فاصل بين اسم عسى وخبره، وهو ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾. والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعني: هل الأمر كما أتوقّعه أنكم لا تقاتلون وتجبنون، فأدخل «هل» مستفهماً عما هو متوقّع عنده. وأراد بالاستفهام: التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائبٌ في توقّعه ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأيّ داع لنا إلى ترك القتال، وأيّ غرض لنا فيه ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ الواو في ﴿وقد﴾ للحال. وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن

وأربعين. يعنون إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: أجيبوا إلى ملتمّسهم ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر، على عدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

٢٤٧ ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو اسم أعجمي كجالوت، وداود. ومُنِع من الصرف للتعريف، والعجمة ﴿مَلِكًا﴾ حال ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف؟ ومن أين؟ وهو إنكارٌ لتملُّكه عليهم، واستبعاد له ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواو للحال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: كيف يتملّك علينا والحال أنه لا يستحقُّ التملك؛ لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير، ولابُدَّ للملك من مال يعتضدُ به. وإنما قالوا ذلك لأن النبوةَ كانت في سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، والملك في سبط يهوذا، وهو كان من سبط بنيامين، وكان رجلاً سقاء، أو دباغاً فقيراً. وروي أن نبيّهم دعا الله حين طلبوا منه مَلِكاً فأتى بعصا يُقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاء في اصطفاه بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة، أي: اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراضَ على حكمه. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط، والجسامة، فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ مفعول ثان ﴿فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلم بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطول من كلِّ إنسان برأسه ومنكبه. والبسطة: السعة والامتداد. والملك لابُدَّ أن يكون من أهل العلم، فإنَّ الجاهلَ ذليلٌ مُزْدَرى، غير منتفع به، وأن يكون جسيماً؛ لأنه أعظمُ في النفوس، وأهيبُ في القلوب ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ
تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ
طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى

﴿يَشَآءُ﴾ أي: الملك له غير منازع فيه، وهو يؤتيه من يشاء إيتاءه، وليس ذلك بالوراثة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك. فثمَّة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت.

٢٤٨ ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدّمه، فكانت تسكن نفوسُ بني إسرائيل، ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكون، وطمأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رُضاض[1] الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وشيء من التوراة، ونعلا موسى، وعمامة هارون عليهما السلام ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: التابوت. وكان رفعه الله بعد موسى، فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه. والجملة في موضع الحال. وكذا ﴿فيه سكينة﴾. و﴿من ربكم﴾ نعت لسكينة و﴿مما ترك﴾ نعت لبقية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إنَّ في رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملَّك طالوت عليكم إن كنتم مُصدِّقين.

٢٤٩ ـ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾ عن بلده إلى جهاد العدو. و«بالجنود» في موضع الحال، أي: مختلطاً بالجنود، وهم ثمانون ألفاً. وكان الوقت قيظاً، وسألوا أن يجري الله لهم نهراً ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم، أي: يعاملكم معاملة المختبر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطين، ليتميز المحقّ في الجهاد من المعذر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً ﴿فَلَيْسَ مِنِّى﴾ فليس من أتباعي

---

(١) الرُّضاض: الفُتات والدُّقاق.

وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

وأشياعي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه، من: طعم الشيء: إذ ذاقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ وبفتح الياء، مدني وأبو عمرو. واستثنى ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ من قوله ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾. والجملة الثانية في حكم المتأخرة عن الاستثناء، إلا أنها قُدِّمت للعناية ﴿غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ غَرفة، حجازي وأبو عمرو: بمعنى المصدر. وبالضم بمعنى المغروف. ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكرع. والدليل عليه: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: فكرعوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: القليل ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا قوة لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو جبار من العمالقة. من أولاد عِمْليق بن عاد، وكان في بيضته ثلاثمئة رطل من الحديد! ﴿وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ يوقنون بالشهادة. قيل: الضمير في ﴿قالوا﴾ للكثير الذين انخذلوا. و﴿الذين يظنون﴾ هم القليل الذين ثبتوا معه. ورُوي: أنَّ الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته. والذين شربوا منه اسودّت شفاههم، وغلبهم العطش ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم خبرية، وموضعها رفع بالابتداء ﴿غَلَبَتْ﴾ خبرها ﴿فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بنصره ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر.

٢٥٠ ـ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ اصبب. ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا، وإلقاء الرعب في صدور عدوّنا ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أعنا عليهم.

٢٥١ ـ ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: طالوتُ والمؤمنون جالوتَ وجنودَه ﴿بِإِذْنِ

ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بقضائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم، وهو صغير، يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم: أن داود هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار، دعاه كلّ واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته، ورمى بها جالوت فقتله، وزوّجه طالوت بنته، ثم حسده، وأراد قتله، ثم مات تائباً ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرئيل على ملك قط قبل داود ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والنبوّة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صنعة الدروع، وكلام الطيور، وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ هو مفعول به ﴿بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس. (دِفاعُ): مدني، مصدر: دفع، أو دافع ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: ولولا أنَّ الله تعالى يدفعُ بعضَ الناس ببعض، ويكفّ بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل. أو: ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بإزالة الفساد عنهم، وهو دليلٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

٢٥٢ ـ ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القصص التي اقتصّها من حديث الألوف، وإماتتهم، وإحيائهم، وتمليك طالوت، وإظهاره على الجبابرة على يد صبي ﴿نَتْلُوهَا﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ والعامل فيه معنى الإشارة، أو ﴿آيات الله﴾ بدل من ﴿تلك﴾ و﴿نتلوها﴾ الخبر ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب؛ لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أهله.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾

٢٥٣ - ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة من آدم إلى داود، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين، يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلّمه الله، حذف العائد من الصلة، يعني: منهم مَنْ فضَّله الله بأن كلّمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ مفعول أوّل. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أي: بدرجات، أو: إلى درجات. يعني: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة. وهو محمد ﷺ؛ لأنه هو المفضَّل عليهم بإرساله إلى الكافة، وبأنه أوتي ما لم يؤته أحدٌ من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف أو أكثر، وأكبرها القرآن؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر. وفي هذا الإبهام تفخيمٌ وبيانٌ أنه العَلَم الذي لا يشتبه على أحد، والمتميِّز الذي لا يلتبس. وقيل: أريد به محمد وإبراهيم وغيرهما من أولي العزم من الرسل. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قوّيناه بجبريل، أو بالإنجيل. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ﴾ أي: ما اختلف لأنه سببه. ﴿الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل. ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات الظاهرات. ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ بمشيئتي. ثم بيّن الاختلاف فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بمشيئتي. يقول الله: أجريت أمور رسلي على هذا، أي: لم يجتمعْ لأحد منهم طاعة جميع أمته في حياته، ولا بعد وفاته، بل اختلفوا عليه ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كرّره للتأكيد. أي: لو شئت ألا يقتتلوا لم يقتتلوا، إذ لا يجري في ملكي إلا ما يوافقُ مشيئتي. وهذا يبطلُ قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ألا يقتتلوا لم يقتتلوا،

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى
يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وهم يقولون: شاء ألا يقتتلوا فاقتتلوا. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أثبتَ الإرادَة لنفسه، كما هو مذهبُ أهل السنة.

٢٥٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عام في كلّ صدقة واجبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: مِنْ قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاّؤكم به ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة. أو: إلا بإذنه ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بترك التقديم ليوم حاجتهم. أو: الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون. ﴿لا بيعَ فيه ولا خلَّةَ ولا شفاعةَ﴾: مكي، وبصري.

٢٥٥ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مع اسمه، وخبره، وما أبدل من موضعه: في موضع الرفع خبر المبتدأ، وهو الله ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق، وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ نعاس، وهو: ما يتقدّم النوم من الفتور ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ عن المُفضَّل: السِّنَة: ثقَل في الرأس، والنعاس: في العين، والنوم: في القلب. وهو تأكيد للقيوم؛ لأنَّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيُّوماً. وقد أوحى إلى موسى عليه السلام: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا[1] ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ليس لأحد أن يشفعَ عنده إلا بإذنه. وهو بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلَّم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. وفيه ردٌّ لزعم الكفار أن الأصنامَ تشفعُ لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٦٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١/ ٨٣).

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلومه، يقال في الدعاء: اللهم اغفر علمك فينا، أي: معلومك ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ إلا بما علّم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: علمه. ومنه: الكراسة لتضمنها العلم. والكراسي: العلماء. وسمي العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. أو ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. أو عرشه، كذا عن الحسن. أو هو سرير دون العرش. في الحديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بفلاة. وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[١]، أو قدرته، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عزّه وجلاله. أو ﴿العليّ﴾: المتعالي عن الصفات التي لا تليق به، ﴿العظيم﴾: المتصف بالصفات التي تليقُ به، فهما جامعان لكمال التوحيد. وإنما ترتبت الجملُ في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان. فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره. والثالثة: لكبرياء شأنه. والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق. والخامسة: لسعة علمه، وتعلّقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره. وإنما فضّلت هذه الآية حتى وَرَدَ في فضلها ما ورد، منه ما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صِدِّيقٌ أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله»[٢]. وقال ﷺ: «سيد البشر آدم وسيد

---

(١) رواه ابن مردويه، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨).

(٢) رواه البيهقي كما في حاشية الكشاف (١/ ٣٠٣).

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي»[١]. وقال: «ماقرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة»[٢]. وقال: «من قرأ آية الكرسي عند منامه بعث إليه ملك يحرسه حتى يصبح»[٣]. وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حتى يمسي حُفظ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح حُفظ بهما حتى يُمسيَ: آية الكرسي وأول حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾»[٤] لاشتمالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبه يُعلم أن أشرفَ العلوم علم التوحيد.

٢٥٦ـ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا إجبار على الدين الحق، وهو دين الإسلام. وقيل: هو إخبار في معنى النهي. وروي أنه كان لأنصاري ابنان فتنصّرا، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري: يارسول الله! أيدخل بعضي في النار وأنا أنظر؟! فنزلت. فخلاَّهما[٥]. قال ابن مسعود وجماعة: كان هذا في الابتداء، ثم نسخ بالأمر بالقتال ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدّلائل الواضحة ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧١).
(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (الكشاف ١/ ٣٠٢).
(٣) رواه ابن الضريس عن قتادة، كما في الدر المنثور (٢/ ١٥).
(٤) رواه الترمذي (٢٨٧٩).
(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٥٢).

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ

﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ تمسّك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾ أي: المعتصم، والمتعلّق ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تأنيث الأوثق، أي: الأشد من الحبل الوثيق، المحكم، المأمون ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع للعروة. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال، بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوَّره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده. والمعنى: فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تحلّه شبهة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإقراره ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقاده.

٢٥٧ ـ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أرادوا أن يؤمنوا، أي: ناصرهم، ومتولّي أمورهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة. وجُمعت لاختلافها ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان والهداية. ووحّد لاتحاد الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مبتدأ. والجملة، وهي ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ خبره ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وجمع؛ لأن الطاغوت في معنى الجمع، يعني: والذين صمّموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو: الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم، ويوفقهم له من حلّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين. والذين كفروا أولياؤهم الشياطين، يخرجونهم من نور البيّنات؛ الذي يظهر لهم، إلى ظلمات الشَّكّ والشُّبهة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٥٨ ـ ثم عَجَّبَ نبيه ﷺ، وسَلّاه بمجادلة إبراهيم عليه السلام نمروذ الذي كان يدَّعي الربوبية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ في معارضته ربوبية ربّه. والهاء في «ربّه» يرجع إلى إبراهيم، أو إلى الذي حاجّ، فهو ربهما ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ لأنْ آتاه الله: يعني: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر، فحاجّ لذلك. وهو دليلٌ على المعتزلة في الأصلح، أو: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك ﴿إِذْ قَالَ﴾ نصب بحاجَّ، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى: الوقت ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ﴾ رَبِّي، حمزة ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنه قال له: من ربك؟ قال:

قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ

ربي الذي يحيي ويميت ﴿قَالَ﴾ نمروذ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ يريد: أعفو عن القتل، وأقتل. فانقطع اللعين بهذا عند المخاصمة، فزاد إبراهيم عليه السلام ما لا يتأتى فيه التلبيس على الضَّعفَة، حيث ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا ليس بانتقال من حجَّة إلى حجَّة كما زعم البعض لأن الحجَّة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجّة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر، كلّمه من وجه لا يعاند. وكانوا أهل تنجيم. وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم. والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحريك الماء النمل على الرحى إلى غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنتَ ربّاً فحرّكها بحركتها، فهو أهون ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ تحيَّر، ودهش ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفِّقهم . وقالوا: وإنما لم يقل نمروذ: فليأت ربك بالشمس من المغرب لأنَّ الله تعالى صرفه عنه. وقيل: إنه كان يدَّعي الربوبية لنفسه، وما كان يعترف بالربوبية لغيره. ومعنى قوله: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أن الذي ينسب إليه الإحياء والإماتة أنا لا غيري. والآية تدلُّ على إباحة التكلُّم في علم الكلام والمناظرة فيه؛ لأنه قال: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾ والمحاجة تكون بين اثنين، فدلَّ على أن إبراهيم حاجّه أيضاً. ولو لم يكن مباحاً لما باشرها إبراهيم عليه السلام؛ لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام. ولأنّا أُمِرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بُدَّ أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرة، كذا في «شرح التأويلات».

٢٥٩ـ ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ﴾ معناه: أو أرأيت مثل الذي، فحذف لدلالة «ألم تر» عليه؛ لأن كلتيهما كلمة تعجيب. أو: هو محمول على المعنى دون اللفظ ، تقديره: أرأيت كالذي حاجّ إبراهيم، أو: كالذي مرّ. وقال صاحب

عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

«الكشّاف»[1]: فيه الكاف زائدة، والذي عطف على قوله: ﴿إلى الذي حاجّ﴾ عن الحسن: إن المارّ كان كافراً بالبعث لا نتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: ﴿أنى يُحيي﴾. والأكثر أنه عزير، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. و﴿أنّى يُحيي﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي بيت المقدس حين خرّبه بختنصر. أو: هي التي خرج منها الألوف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة مع سقوفها، أو: سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان، وكل مرتفع عرش ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ أي: كيف ﴿هَٰذِهِ﴾ أي: أهل هذه ﴿ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: أحياه ﴿قَالَ﴾ له مَلَك ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن. وفيه دليلُ جواز الاجتهاد. روي أنه مات ضحى، وبعث بعد مئة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: ﴿يوماً﴾ ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أو بعض يوم﴾ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روي: أن طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً ولبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على الوجهين؛ لأن لامها هاء؛ لأن الأصلَ سنهة، والفعل سانهت فلاناً، أي: عاملته سنة. أو: واو، لأن الأصل سنوة، والفعل سانيت. ومعناه: لم تغيره السنون. لم يتسن بحذف الهاء في الوصل، وبإثباتها في الوقف، حمزة وعليّ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرّقت عظامه، ونخرت. وكان له حمار قد ربطه فمات، وبقيت عظامه. أو: ﴿وانظر﴾ إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يُعَيِّشَه مئة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه

---

(١) انظر الكشاف؛ للزمخشري (١/ ٣٨٩) طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾

وشرابه من التغير ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك. يريد إحياءه بعد الموت، وحفظ ما معه. وقيل: الواو عطف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك. قيل: أتى قومه راكباً حماراً، وقال: أنا عزير، فكذَّبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤوها عن ظهر قلبه، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير، فذلك كونه آية. وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجَّب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نحرّكها، ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. نَنْشُرُهَا بالراء، حجازي وبصري، نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾ جعل اللحم كاللباس مجازاً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعله مضمر تقديره: ﴿فلما تبين له﴾ أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كقولهم: ضربني، وضربت زيداً. ويجوز ﴿فلما تبيّن له﴾ ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى. قال: (اعْلَمْ) على لفظ الأمر، حمزة وعليّ، أي: ﴿قال﴾ الله له: ﴿اعلم﴾ أو: هو خاطب نفسه.

٢٦٠ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ بصِّرني ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ موضع ﴿كيف﴾ نصب بتحيي ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإنما قال له: ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؛ ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي. معناه ﴿بلى﴾ آمنت، ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بمضامّة علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة. فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضروري. واللام تتعلق بمحذوف، تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامة

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصاد[1]، حمزة، أي: أملهن، واضممهن إليك ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جزئهن، وفرّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وكانت أربعة أجبل، أو سبعة. (جُزُءاً) بضمتين وهمز، أبو بكر ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قال لهن: تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: ساعيات مسرعات في طيرانهن، أو: في مشيهن على أرجلهن. وإنما أمره بضمّها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها، ويعرف أشكالها وهيئاتها، وحلاَّها؛ لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك. ورُوي: أنه أمر بأن يذبحها، وينتف ريشها، ويقطعها، ويفرّق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالى. فجعل كلُّ جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن، كل جثّة إلى رأسها ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبّر لايفعل إلا مافيه الحكمة.

٢٦١ ـ ولما برهن على قدرته على الإحياء، حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأعلم أن من أنفق في سبيله فله في نفقته أجر عظيم، وهو قادر عليه، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لابد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ المنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعَّب منه سبع شعب، لكل واحد سنبلة. وهذا التمثيلُ تصويرٌ للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر. والممثل به موجود في الدُّخن والذرة، وربما

---

(١) أي: (فصِرْهُنَّ).

وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ
لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فرّخت ساق البرّة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ. على أنَّ التمثيلَ يصحّ وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير. ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقراء ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين. أو يزيد على سبعمئة لمن يشاء. يُضاعِفَ، شامي. و(يضعّفُ)، مكي ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل والجود ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّات المنفقين.

٢٦٢ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾ هو أن يعتدّ على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقّاً له. وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه. ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثواب إنفاقهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من بخس الأجر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوته. أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب. وإنما قال هنا ﴿لهم أجرهم﴾ وفيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط، وضمنه ثمة.

٢٦٣ـ ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردّ جميل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول. أو: ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وصحّ الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ لاحاجة له إلى منفق يمنّ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة. وهذا وعيد له. ثم أكّد ذلك بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾

٢٦٤ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى﴾ الكاف نصب صفة مصدر محذوف، والتقدير: إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ورئاء: مفعول له ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ لايجدون ثواب شيء مما أنفقوا. أو الكاف في محل النصب على الحال؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق. وإنما قال ﴿لايقدرون﴾ بعد قوله ﴿كالذي ينفق﴾ لأنه أراد بالذي ينفق الجنس، أو: الفريق الذي ينفق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر.

٢٦٥ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، عُلم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبه. ومن: لابتداء الغاية. وهو معطوف على المفعول له، أي: للابتغاء والتثبيت. والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع. وخصّها لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً. (بِرَبْوَةٍ)[1]: عاصم، وشامي ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾

---

(١) أي: بفتح الراء، وقرأ الباقون (بِرُبْوَةٍ) بضم الراء.

ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ
أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثمرتها. (أُكْلهَا): نافع، ومكي، وأبو عمرو ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مثليْ ما كانت تثمر قبلُ بسبب الوابل ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو: مثّل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل. وكماأن كلّ واحد من المطرين يضعّف أُكُل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة في زلفاهم، وحسن حالهم عنده ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال، ويعلم نياتكم فيهما من رياء وإخلاص.

٢٦٦ـ الهمزة في: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ﴾ للإنكار ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ﴾ لصاحب البستان ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يريد بالثمرات: المنافع التي كانت تحصل له فيها. أو: أنّ النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع،خصّهما بالذكر، وجعل الجنة منهما ـ وإن كانت محتوية على سائر الأشجار ـ تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ للحال، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. والواو في: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ أولاد صغار للحال أيضاً، والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ ريح تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود ﴿فِيهِ﴾ في الإعصار. وارتفع ﴿نَارٞ﴾ بالظرف، إذ جرى الظرف وصفاً لإعصار ﴿فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ الجنة. وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياء، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسّر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم، فهلكت بالصاعقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا البيان الذي بيّن فيما تقدم ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ في التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنتبهوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

٢٦٧ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من جياد مكسوباتكم. وفيه دليلُ وجوب الزكاة في أموال التجارة ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحب، والثمر، والمعادن، وغيرها. والتقدير: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا المال الرديء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق. وهو في محل الحال، أي: ولا تيمموا الخبيث منفقين، أي: مقدرين النفقة ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ إلا بأن تتسامحوا في أخذه، وتترخَّصوا فيه. من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه: إذا غضّ بصره. ويقال للبائع: أغمضْ، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره، فنُهوا عنه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد، أو: محمود.

٢٦٨ـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿ٱلْفَقْرَ﴾ ويقول لكم: إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. والوعد يُستعمل في الخير والشر ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ويغريكم على البخل، ومنع الصدقات، إغراء الآمر للمأمور. والفاحش عند العرب: البخيل ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم، وكفارة لها ﴿وَفَضْلًا﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم. أو: وثواباً عليه في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يوسع على من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، ونيّاتكم.

٢٦٩ـ ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ علم القرآن والسنة. أو: العلم النافع الموصل إلى رضا الله، والعمل به. والحكيم عند الله هو: العالم العامل ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿ومَنْ يُؤْتِ﴾ يعقوب. أي: ومن يؤته اللهُ الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِىَ كَثِيرًا﴾ تنكير تعظيم، أيْ: أوتي خيراً، أي: خير كثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وما يتَّعظ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمة، أو العُلماءُ: العمّال. والمراد به: الحثّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

٢٧٠ـ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ في طاعة الله، أو: في معصيته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ لايخفى عليه، وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو ينذرون في المعاصي، أو لا يفون بالنذور ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

٢٧١ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فنعم شيئاً إبداؤها. وما نكرة غير موصولة ولا موصوفة، والمخصوص بالمدح هي. ﴿فنِعْمَّا هي﴾ بكسر النون وإسكان العين، أبو عمرو، ومدني غير ورش. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ. وبكسر النون والعين، غيرهم ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم. قالوا: المراد: صدقات التطوع. والجهر في الفرائض أفضل لنفي التّهْمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يُعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل. والمتطوع إن أراد أن يُقتدَى به كان إظهاره أفضل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنون وجزم الراء[1]، مدني، وحمزة، وعليّ. وبالياء ورفع الراء، شامي، وحفص. وبالنون والرفع، غيرهم. فَمَن جَزَم فقد عَطف على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط. ومن رفع فعلى الاستئناف. والياء على معنى: يكفر الله ﴿عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والنون على معنى: نحن نكفر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم.

---

(١) أي: (ونُكفِّرْ).

۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ

٢٧٢ـ ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن، والأذى، والإنفاق من الخبيث، وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أو: ليس عليك التوفيق على الهدى، أو خلق الهدى، وإنما ذلك إلى الله ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ ﴾ من مال ﴿ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنّوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ وليست نفقتكم إلا ابتغاء وجه الله، أي: رضا الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنّون بها، وتنفقون الخبيث الذي لا يوجّه مثله إلى الله؟ أو: هذا نفي معناه النهي، أي: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه، وأجملها ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ولا تنقصون، كقوله: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

٢٧٣ـ الجار في: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ متعلق بمحذوف، أي: اعمدوا للفقراء. أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الصدقات للفقراء ﴿ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد، فمنعهم من التصرف ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ للكسب. وقيل: هم أصحاب الصفّة، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجري قريش، لم تكن لهم مساكن في المدينة، ولا عشائر، فكانوا في صفّة المسجد، وهي سقيفته[1]، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضَخون النوى[2] بالنهار، وكانوا يخرجون في كل

(١) «الصُّفَّة»: الظُّلَّة؛ أي: الموضع المظلّل، والسقيفة: العريش يُستَظلُّ به.
(٢) «يرضخون النوى»: يكسرونه ويدقّونه.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

سريَّة بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضلٌ أتاهم به إذا أمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم. يحسَبهم وبابه: شامي، ويزيد، وحمزة، وعاصم، غيرالأعشى، وهُبيرة. والباقون بكسر السين ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ مستغنين من أجل تعفُّفهم عن المسألة ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ من صفرة الوجوه، ورثاثة الحال ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. قيل: هو نفي السؤال والإلحاح جميعاً، كقوله:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمنارِه ... ...[1]

يريد: نفي المنار والاهتداء به. والإلحاح: هو اللزوم، وألا يفارق إلا بشيء يُعطاه. وفي الحديث: «إن الله يحبُّ الحيي الحليم المتعفّف، ويبغض البذيّ السَّآل الملحف»[2]. وقيل: معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده.

٢٧٤ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هما حالان، أي: مسرّين ومعلنين، يعني: يُعمِّمُون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجةُ محتاج عجلوا قضاءها، ولم يؤخّروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. أو: في عليّ ـ رضي الله عنه ـ لم يملك إلا أربعة دراهم، تصدَّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم

---

(١) صدر بيت لامرىء القيس، وعجزه: إذا سافَهُ العَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرا.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٣٣٥).

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ

سراً، وبدرهم علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢٧٥ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال. وكتب «الربوا» بالواو على لغة من يفخم، كما كتبت: الصلوة، والزكوة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بُعِثوا من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: المصروع، لأنه تخبط في المعاملة، فجوزي على المقابلة. والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء[1] ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ من الجنون. وهو يتعلّق بـ: «لا يقومون» أي: لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. أو بـ: «يقوم» أي: كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين. تلك سيماهم يُعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يُوفِضُون إلا أكلة الربا، فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا، فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرون على الإيفاض ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ولم يقل إنما الربا مثل البيع، مع أن الكلام في الربا لا في البيع، لأنه جيء به على طريقة المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل، حتى شبهوا به البيع ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحل مع الحرمة ضدان، فأنّى يتماثلان؟! ودلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فتبع

(١) «العشواء»: الناقة التي لا تبصر ما أمامها، فهي تخبط بيديها كلَّ شيء.

فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

النهي، وامتنع ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا، عن الزجَّاج. أو: إلى الربا مستحلاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأنَّ من أحلَّ ما حرم الله ـ عز وجل ـ فهو كافر؛ فلذا استحقَّ الخلود. وبهذا تبيَّن أنه لا تعلُّق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفسَّاق.

٢٧٦ ـ ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخلُ فيه ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ينميها، ويزيدها، أي: يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويبارك فيه. وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط»[1] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متماد في الإثم بأكله.

٢٧٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ قيل: المراد به: الذين آمنوا بتحريم الربا.

٢٧٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا، وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها، ولا يطالبوا بها. رُوي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال، فطالبوهم عند المَحلِّ[2] بالمال والربا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان، فإنَّ دليلَ كماله امتثالُ المأمور به.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٢) أي: حلَّ الأجل، كما في أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٥).

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا
تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟
خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ
كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

٢٧٩ - ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فاعلموا بها. من: أذن بالشيء: إذا علم. يؤيده قراءة الحسن: (فأيقنوا) فآذنوا، حمزة، وأبو بكر، غير ابن غالب، فأعلموا بها غيركم. ولم يقل: بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبلغ؛ لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. ورُوي: أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

٢٨٠ - ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ﴿ذو عسرة﴾ ذو إعسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم، أو: فالأمر نظرة، أي: إنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار. ميسُرة، نافع، وهما لغتان ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ بالتخفيف، عاصم، أي: تتصدقوا برؤوس أموالكم، أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم. وبالتشديد غيره. فالتخفيف على حذف إحدى التاءين، والتشديد على الإدغام ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في القيامة. وقيل: أريد بالتصدّق: الإنظار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لايحل دينُ رجلٍ مسلم فيؤخّره إلا كان له بكل يوم صدقة»[1] ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به - وإن علمه - كأنه لا يعلمه.

٢٨١- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَرجعون أبو عمرو. فرجع لازم ومتعد. قيل: هي آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: ضعها في رأس المئتين والثمانين من البقرة، وعاش رسولُ الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، أو أحداً وثمانين، أو سبعة أيام، أو ثلاث ساعات ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) رواه ابن ماجه(٢٤١٨).

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ

كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصان الحسنات وزيادة السيئات.

٢٨٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي[1]: إذا داين بعضكم بعضاً. يقال: داينت الرجل: إذا عاملته بدين معطياً أو آخذاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مدة معلومة كالحصاد، أو: الديَّاس[2]، أو: رجوع الحاجّ. وإنما احتيج إلى ذكر الدين، ولم يقل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى؛ ليرجع الضمير إليه في قوله ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجّل وحالّ. وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود. والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجّل فاكتبوه. والأمر للندب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن المرادَ به السّلَم. وقال: لما حرم الله الربا أباح السَّلَم. المضمون إلى أجلٍ معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية. وفيه دليلٌ على اشتراط الأجل في السّلَم ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ بين المتداينين ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ هو متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالاحتياط، لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع. وهو أمرٌ للمتداينين بتخير الكاتب، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديِّناً حتى يكتب ما هو مُتَّفقٌ عليه ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع واحدٌ من الكُتَّاب ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ مثل ما علَّمه الله كتابة الوثائق، لا يبدِّل، ولا يُغيِّر. و﴿كما﴾ متعلق بأن يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة لا يعدل عنها ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولا يكن المملي إلا من وجب عليه

---

(١) من المطبوع.
(٢) يقال: داس الحبَّ، دِياساً ودِياسَة، درسه.

وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟

الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في ذمّته، وإقراره به، فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملال والإملاء لغتان ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وليتق الله الذي عليه الدين ربّه فلا يمتنع عن الإملاء، فيكون جحوداً لكلّ حقه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء، فيكون جحوداً لبعض حقه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: مجنوناً؛ لأن السفهَ خفَّةٌ في العقل. أو محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صبياً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لعيّ به، أو خرَس، أوجهلٍ باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ الذي يلي أمره، ويقوم به ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالصدق، والحق ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدَّيْن ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام. وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ فإن لم يكن الشهيدان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان. وشهادة الرجال مع النساء تُقبل فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. وفيه دليلٌ على أنَّ غير المرضي شاهد ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لأجل أن تنسى إحداهما الشهادة فتذكّرها الأخرى.

(إن تضل إحداهما) على الشرط (فتَذَكِّرُ) بالرفع والتشديد، حمزة. كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] (فتُذْكِرَ) بالنصب، مكي وبصري، من الذِّكر لا من الذُّكْرِ ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمّل؛ لئلا تَتْوَى[1] حقوقهم. وسمّاهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن. فالأول للفرض، والثاني للندب ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ ولا تملوا. قال الشاعر[2]:

---

(١) «تتوىٰ»: تذهب.

(٢) هو زهير بن أبي سُلمى.

أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ

سئمتُ تكاليف الحياةِ ومن يعشْ ثمانينَ حولاً لا أبا لك يَسْأمِ

والضمير في: ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ للدين، أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أيّ حال كان الحق من صغر أو كبر. وفيه دلالة جواز السَّلَم في الثياب؛ لأن ما يكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير، وإنما يقال في الذرعيّ. ويجوزُ أن يكون الضمير للكُتَّاب، وأن يكتبوه مختصراً، أو مشبعاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ﴿أن تكتبوه﴾ لأنه في معنى المصدر، أي: ذلك الكَتْب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط، وهو: العدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف لأقسط. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة. وبني أفعل التفضيل ـ أي: أقسط وأقوم ـ من أقسط وأقام على مذهب سيبويه ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات، وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك. وألف أدنى منقلبة من واو؛ لأنه من الدنو ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ عاصم. أي: إلا أن تكون التجارة تجارة. أو: إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة. غيره: (تجارةٌ) حاضرةٌ على كان التامة. أي: إلا أن تقع تجارة حاضرة. أو: هي ناقصة، والاسم ﴿تجارة حاضرة﴾ والخبر ﴿تُدِيرُونَهَا﴾. ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف لتديرونها، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيها يداً بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد، فلا بأس ألا تكتبوها؛ لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً، أو كالئاً؛ لأنه أحوط، وأبعد من وقوع الاختلاف. أو أريد به ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. والأمر للندب ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر ـ رضي الله عنه ـ: ولا يُضَارِرْ، وللمفعول

وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ

لقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولا يضارَر. والمعنى: نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف، والزيادة، والنقصان. أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزّا[١]، أو: لا يعطى الكاتب حقه من الجُعْل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلده ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟﴾ وإن تضارّوا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ فإن الضِّرارَ ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ مأثم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ شرائع دينه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يلحقه سهو، ولا قصور.

٢٨٣ ـ ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ﴾ (فرُهُنٌ): مكي، وأبو عمرو. أي: فالذي يستوثق به رُهُن. وكلاهما جمع رهن، كسقف وسقف، وبغل وبغال. ورهن في الأصل مصدر سمّي به، ثم كسّر تكسير الأسماء. ولما كان السفر مظنَّة لإعواز الكَتْب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال مَن كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكَتْب والإشهاد، لا أن السفر شرط تجويز الارتهان. وقوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدلُّ على اشتراط القبض، لا كما زعم مالك: أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به، فلم يتوثّق بالكتابة، والشهود، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ دينه. وائتمن: افتعل، من الأمن. وهو حثٌّ للمديون على أن يكون عند ظن الدائن، وأمنه منه، وائتمانه له، وأن يؤدّي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه. وسمّي الدين أمانة، وهو مضمون، لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إنكار حقه

---

(١) «اللِّزاز»: يقال: هو لزازُ خصومة، أي: ملازم لها، قادر عليها.

وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ هذا خطاب للشهود ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ ارتفع قلبه بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، أو: بالابتداء. وآثم: خبره مقدّم، والجملة: خبر إن. وإنما أسند إلى القلب، والجملة هي الآثمة، لا القلب وحده؛ لأنَّ كتمانَ الشهادة أن يضمرها في القلب، ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً مكتسباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما تقول: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي. ولأنَّ القلب رئيسُ الأعضاء، والمضغة التي إن صلَحت صلَح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثمُ في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه. ولأنَّ أفعالَ القلوب أعظمُ من أفعال سائر الجوارح. ألا ترى أن أصلَ الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب! وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإظهارها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه.

٢٨٤ ـ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يكافئكم، ويجازيكم. ولا تدخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلوّ منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، والحاصل: أن عزم الكفر كفر، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوّة، وعزم الذنوب إذا ندم عليه، ورجع عنه، واستغفر منه مغفور. فأما إذا همّ بسيئة، وهو ثابت على ذلك، إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره، فإنه لا يعاقب على ذلك عقوبة فعله. أي: بالعزم على الزنى لا يعاقب عقوبة الزنى. وهل يعاقب عقوبة عزم الزنى؟ قيل: لا، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله عفا عن أمتي ما حدّثت به أنفسها

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

ما لم تعمل، أو تتكلم به»[١]. والجمهور على أنَّ الحديثَ في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة في العزم ثابتة، وإليه مال الشيخ أبو منصور، وشمس الأئمة الحلواني ـ رحمهما الله ـ. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الآية [النور: ١٩]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما همّ العبد بالمعصية من غير عمل؛ يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن في الدنيا. وفي أكثر التفاسير: أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقالوا: أنُؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا؟! فنزل قوله: ﴿آمن الرسول﴾ إلى قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبت﴾ فتعلّق ذلك بالكسب دون العزم. وفي بعضها: أنها نسخت بهذه الآية. والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ برفعهما: شامي، وعاصم، أي: فهو يغفر ويعذب. وبجزمهما: غيرهم عطفاً على جواب الشرط. وبالإدغام: أبو عمرو، وكذا في الإشارة والبشارة. وقال صاحب «الكشاف»: مُدْغِمُ الراء في اللام لاحنٌ مخطىء. لأنَّ الراء حرف مكرر، فيصير بمنزلة المضاعف، ولا يجوز إدغام المضاعف. وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية[٢] ما يؤذن بجهل عظيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢٨٥ ـ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف المؤمنون على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في ﴿كُلٌّ﴾ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان عليه ﴿كل﴾ مبتدأ ثانياً، والتقدير: كل منهم، وآمن: خبر المبتدأ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٥) والبخاري (٢٥٢٨) وأبو داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) وابن ماجه (٢٠٤٤).

(٢) في الكشاف: بالعربية.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا

الثاني، والجملة: خبر الأوّل، وكان الضمير للمؤمنين. ووحّد ضمير كل في آمن على معنى: كلّ واحدٍ منهم آمن. (وكِتابهِ): حمزة، وعليّ، يعني: القرآن، أو الجنس ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ أي: يقولون ﴿لا نفرق﴾ بل نؤمن بالكلّ ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أحد في معنى الجمع؛ ولذا دخل عليه بين، وهو لا يدخل إلا على اسم يدلّ على أكثر من واحد، تقول: المال بين القوم، ولا تقول: المال بين زيد ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ أجبنا قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: اغفر لنا غفرانك، فهو منصوب بفعل مضمر ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، وفيه إقرار بالبعث والجزاء. والآية تدلُّ على بطلان الاستثناء في الإيمان، وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

٢٨٦ ـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ محكي عنهم، أو مستأنف ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يردّ إلا بفعل يقدر عليه المكلف، كذا في «شرح التأويلات». وقال صاحب «الكشاف»: الوسع: ما يسعُ الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، أي: لا يكلِّفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود... فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير، ويضرّها ما اكتسبت من شرّ. وخصّ الخير بالكسب والشر بالاكتساب؛ لأن الافتعال للانكماش، والنفس تنكمش في الشر، وتتكلّف للخير ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ تركنا أمراً من أوامرك سهواً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودلَّ هذا على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ ـ خلافاً للمعتزلة ـ لإمكان التحرّز عنهما في الجملة. ولولا جوازُ المؤاخذة بهما لم يكن للسؤال معنى ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبئاً يأصِر حامله، أي: يحبسه مكانه لِثقَله. استعير للتكليف الشاق، من نحو: قتل الأنفس، وقطع

كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا
وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

موضع النجاسة من الجلد[١] والثوب، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ امح سيئاتنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا. وليس بتكرار، فالأوّل للكبائر، والثاني للصغائر ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا. أو: الأول من المسخ، والثاني من الخسف، والثالث من الغرق ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو: ناصرنا، أو: متولّي أمورنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فمن حقّ المولى أن ينصر عبيده.

في الحديث: «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة كفتاه»[٢]. وفيه: «من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل»[٣]. ويجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة، لما روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. وقال بعضهم: يُكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تُذكر فيها البقرة، والله أعلم.

* * *

(١) في هامش المخطوط: المراد: جلد الخف والفرو، لا جلد البَدَن.
(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٢) والبخاري (٥٠٠٩) ومسلم (٨٠٧) (٢٥٥).
(٣) رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود. وفي إسناده: الوليد بن عباد، وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك. (الكشاف ١/ ٣٣٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣﴾

١و٢ ـ ﴿الٓمٓ اللَّهُ﴾ حُرِّكتْ الميم لالتقاء الساكنين، أعني سكونها وسكون لام الله، وفتحت لخفّة الفتحة، ولم تكسر للياء وكسر الميم قبلها، تحامياً عن توالي الكسرات. وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها، إذ لو كان كذلك لوجب فتحها في «حم» ولا يصحّ أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت إلى الميم؛ لأنَّ تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج، وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها، وإثباتها غير جائز. وأسكن يزيد والأعشى الميم وقَطَعا الألف. والباقون بوصل الألف وفتح الميم. والله مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره. وخبر: (لا) مضمر، والتقدير: لا إله في الوجود إلا ﴿هو﴾. و﴿هو﴾ في موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحي، أو بدل من هو. والقيُّوم: فيعول، من قام، وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

٣ ـ ﴿نَزَّلَ﴾ أي: هو نزّل. ﴿عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزله حقاً ثابتاً ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ هما اسمان

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

أعجميان. وتكلُّف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وإنما قيل: ﴿نزّل الكتاب﴾ ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة.

٤ ـ ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى، أو لجميع الناس ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: جنس الكتب؛ لأن الكلّ يفرق بين الحق والباطل. أو: الزبور. أو: كرّر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيماً لشأنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة، وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو عقوبة شديدة، لا يقدر على مثلها منتقم.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في العالم. فعبّر عنه بالسماء والأرض. أي: هو مطلع على كفر من كفر، وإيمان مَن آمن، وهو مجازيهم عليه.

٦ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصور المختلفة ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره. رُوي أنه لمّا قدم وفد بني نجران ـ وهم ستون راكباً، أميرهم العاقب، وعمدتهم السيد، وأسقُفُهم وحبرهم أبو حارثة ـ خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حيٌّ لا يموت وعيسى يموت، وأن ربنا قيّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما علّم، وأنه صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعته، وأرضعته، وكان يأكل، ويحدث، وربنا منزّه عن ذلك كله؟» فانقطعوا، فنزل فيهم صدرُ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية[١].

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٢/ ١٤٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾

٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿مِنْهُ﴾ من الكتاب ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها، بأن حُفِظت من الاحتمال والاشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها، وتردّ إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ مشتبهات محتملات. مثال ذلك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فالاستواء يكون بمعنى الجلوس، وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أو المحكم: ما أمر الله به في كلّ كتاب أنزله، نحو قوله: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات، ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآيات. والمتشابه ما وراءه. أو: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. وما احتمل أوجهاً. أو ما يعلم تأويله، وما لا يعلم تأويله. أو: الناسخ: الذي يعملُ به، والمنسوخ: الذي لا يعملُ به. وإنما لم يكن كل القرآن محكماً لما في المتشابه من الابتلاء، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه، وردّه إلى المحكم، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق، وهم أهلُ البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتملُ ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطلبَ أن يؤوِّلوه التأويل الذي يشتهونه. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ والذين رسخوا، أي: ثبتوا فيه، وتمكنوا، وعضّوا فيه بضرس قاطع. مستأنف عند الجمهور. والوقف عندهم على قوله ﴿إلا الله﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه. وهو مبتدأ عندهم، والخبر: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾. وهو ثناءٌ منه تعالى عليهم بالإيمان على

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا
مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾

التسليم، واعتقاد الحقية بلا تكييف. وفائدة إنزال المتشابه: الإيمان به، واعتقاد حقِّيَّة ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلاً. ويعضده قراءة أبيّ: (ويقول الراسخون)، وعبد الله (إنْ تأويله إلا عند الله). ومنهم من لا يقف عليه ويقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ﴿ويقولون﴾ كلام مستأنف موضّح لحال الراسخين. بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به، أي: بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم؛ الذي لا يتناقض كلامه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ، وأصله: يتذكر ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول، وهو مدحٌ للراسخين بإلقاء الذهن، وحسن التأمل وقيل: يقولون حال من الراسخين.

٨ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بخلق الميل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك، نعمة بالتوفيق والتثبيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ كثير الهبة. والآية من مقول الراسخين. ويحتمل الاستئناف، أي: قولوها. وكذلك التي بعدها وهي:

٩ ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم، أو لجزاء يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ في وقوعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الموعد. والمعنى: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيّب سائله. أي: لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ تنفع، أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ

١١ ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل: إذا كدح فيه. فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله. والكاف مرفوع المحل، تقديره: دأب هؤلاء الكفرة في تكذيب الحق كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. أو منصوب المحل بلن تغني، أي: لن تغني عنهم، مثل: ما لم تغن عن أولئك. (كداب) بلا همز حيث كان، أبو عمرو ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فُعِلَ بهم، على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم. ويجوز أن يكون حالاً، أي: قد كذبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، يقال: أخذته بكذا، أي: جازيته عليه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ شديد عقابه، فالإضافة غير محضة.

١٢ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم مشركو مكة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ من الجِهِنَّام[1]، وهي: بئر عميقة. وبالياء فيهما، حمزة وعليّ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المستقر، جهنم.

١٣ـ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وفئة أخرى ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلْي عدد المشركين ألفين، أو مثلْي عدد المسلمين ستمئة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلّتهم أضعافهم ليهابوهم، ويجبنوا عن قتالهم. تَرَوْنَهم، نافع، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلْي فئتكم الكافرة، أو مثلْي أنفسهم. ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأنهم قلّلوا أولاً في

(١) في اللّسان: الجِهِنَّام: القعر البعيد.

رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ
مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة، وإظهار الآية. ومثليهم نصب على الحال؛ لأنه من رؤية العين بدليل قوله: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كما أيَّدَ أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في تكثير القليل ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر.

١٤ ـ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] دليله قراءة مجاهد ﴿زَيَّنَ للناس﴾ على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوة: توقان النفس إلى الشيء. جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة. أو: كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والإماء داخلة فيها. ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ جمع ابن. وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث. وهنا أُريد به الذكور، فهم المشتَهون في الطباع، والمعدّون للدفاع. ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو: المال الكثير. قيل: ملء مَسْك[1] ثور أو مئة ألف دِينار. ولقد جاء الإسلام وبمكة مئة رجل قد قنطروا. ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المنضدة، أو المدفونة. ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ سُمِّي ذهباً لسرعة ذهابه بالإنفاق، وفضة لأنها تتفرّق بالإنفاق. والفضُّ: التفريق. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ سُمِّيت به لاختيالها في مشيها. ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة، من: السَّومة،

(١) «مَسك»: جِلْد.

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾
۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وهي: العلامة، أو المرعية، من: أسام الدابة، وسوّمها. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي الأزواج الثمانية. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتمتع بها في الدنيا. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ المرجع.

١٥ ـ ثم زهّدهم في الدنيا فقال: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ من الذي تقدّم ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف، فيه دلالةٌ على بيان ما هو خير من ذلكم. فجنات مبتدأ و﴿للذين اتقوا﴾ خبره. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لجنات. ويجوز أن يتعلّق اللام بخير. واختص المتقين؛ لأنّهم هم المنتفعون به. ويرتفع جنات على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ جناتٍ بالجر، على البدل من خير. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رضا الله. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بأعمالهم فيجازيهم عليها، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم؛ فلذا أعدَّ لهم الجنات.

١٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع، أو جر صفة للمتقين، أو للعباد. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ إجابةً لدعوتك. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إنجازاً لوعدك. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بفضلك.

١٧ ـ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعات والمصائب. وهو نصب على المدح. ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وفعلاً بإحكام العمل، ونية بإمضاء العزم. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الداعين، أو المطيعين. ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ المتصدّقين. ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ المصلّين، أو طالبين المغفرة. وخصّ الأسحار؛ لأنه

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ﴾

وقتُ إجابة الدعاء، ولأنه وقتُ الخلوة. قال لقمان لابنه: يا بني! لا يكن الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كلٍّ واحدةٍ منها. وللإشعار بأن كلَّ صفةٍ مستقلة بالمدح.

١٨ ـ ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: حكم أو قال. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرته. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض، والعمل على السوية فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى، أو من (هو). وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت: جاء زيد وعمرو راكباً لم يجز؛ لعدم الإلباس، فإنك لو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة. أو: على المدح. وكرر ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتأكيد. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رفع على الاستئناف، أي: هو العزيز، وليس بوصف لـ«هو» لأنَّ الضميرَ لا يُوصف. يعني: أنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي لا يعدلُ عن الحقِّ.

١٩ ـ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة. وقرىء[1] ﴿أن الدين﴾ على البدل من قوله ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام.

قال ﷺ: «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة. ومن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي [عند الله] وديعة، يقول الله تعالى يوم القيامة: إن لعبدي عندي عهداً، وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة»[2].

---

(١) من المطبوع.
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦) وقال: رواه الطبراني، وفيه عمر =

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد، فثلّثت النصارى، وقالت اليهود: عزير ابن الله. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنه الحق الذي لا محيدَ عنه. ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كلّ فريق ناساً، لا شبهة في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعدما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله. ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بحججه، ودلائله. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ سريع المجازاة.

٢٠ـ ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في أنَّ دينَ الله الإسلام. والمراد بهم: وفد بني نجران عند الجمهور. ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾[1] أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبده، وأدعو إلهاً معه. يعني: أن ديني دين التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته، كما ثبتت عندي، وما جئتُ بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهو دفعٌ للمحاجّة بأن ما هو عليه، ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لا شك فيه، فما معنى المحاجة فيه؟! ﴿وَجْهِيَ﴾: مدني، وشامي، وحفص، والأعشى، والبرجمي. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت،

= ابن المختار، وهو ضعيف. وانظر الدر المنثور (٢/١٦٦). وما بين حاصرتين ساقط من المخطوط.

(١) في الأصل المخطوط: ثبتت قراءة: ﴿وَجْهِيْ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، والحضرمي، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/١٦).

وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

أي: أسلمت أنا ومَن اتبعني. وحسن للفاصل. ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، فيكون مفعولاً معه. ومن اتبعني: في الحالين: سهل، ويعقوب. وافق أبو عمرو في الوصل. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من اليهود والنصارى. ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بهمزتين، كوفي. يعني: أنه قد أتاكم من البينات حصول الإسلام، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعدُ على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، أي: أسلموا، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضَّلال إلى الهدى. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ أي: لم يضروك، فإنك رسول منبّه، ما عليك إلا أن تبلّغ الرسالة، وتُنَبِّه على طريق الهدى. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

٢١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الأنبياءَ. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال مؤكد؛ لأن قتل النبي لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ ويقاتلون: حمزة. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: سوى الأنبياء، قال ﷺ: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار في ساعة واحدة. فقام مئة واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم»(١). ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء في خبر إن لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشّرهم؛ بمعنى: من يكفر

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢/٢١٦).

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ

فبشّرهم. وهذا لأنَّ (إنّ) لا تغير معنى الابتداء فهي للتحقيق، فكأن دخولها كـ: لا دخول. ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع دخول الفاء.

٢٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: ضاعت. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ جمع لوقف رؤوس الآي، وإلا فالواحد النكرة في النفي يعمّ.

٢٣ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصَّلوا نصيباً وافراً من التوراة. و«من» للتبعيض، أو للبيان. ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ حال من الذين. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: التوراة أو القرآن. ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ جعل حاكماً حيث كان سبباً للحكم. أو: ليحكم النبي. روي أنه ﷺ دخل مدراسهم فدعاهم. فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال النبي ﷺ: «على ملة إبراهيم». قالا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: «إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها». فأبيا[1]. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ استبعاد لا يزال الإعراضُ ديدنهم.

٢٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ أي: ذلك التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب، وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، وهي أربعون يوماً، أو سبعة أيام. وذلك: مبتدأ، وبأنهم خبره ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: غرّهم افتراؤهم على الله، وهو قولهم: نحن أبناء الله وأحبَّاؤه فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة.

٢٥ ـ ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ﴾ فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت ﴿لَّا

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٧).

لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

﴿رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت ﴿وَهُمْ﴾ يرجع إلى كلّ نفس على المعنى؛ لأنه في معنى كلّ الناس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة في سيئاتهم، ونقصان في حسناتهم.

٢٦ ـ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض من يا، ولذا لا يجتمعان. وهذا بعضُ خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في: يا ألله، وبالتفخيم ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ تملك جنس الملك، فتتصرف فيه تصرف الملاّك فيما يملكون. وهو نداء ثان، أي: يا مالك الملك ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمتَ له من الملك ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ أي: تنزعه. فالملك الأوّل عام، والملكان الآخران خاصّان بعضان من الكل. رُوي أنه ﷺ حين فتح مكة وَعَد أمته ملك فارس والروم، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات! هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك. فنزلت[1] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بالملك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بنزعه منه ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: الخير والشر، فاكتفى بذكر أحد الضدَّين عن الآخر. أو: لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: ﴿بيدك الخير﴾ تؤتيه أولياءك على رغمٍ مِن أعدائك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

وقيل: المراد بـ﴿الملك﴾ ملك العافية، أو ملك القناعة. قال ﷺ: «ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يوماً فيوماً»[2]. أو: ملك قيام الليل. وعن

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٦٣).
(٢) لم نجده في المصادر الحديثية المتوافرة لدينا.

تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ

الشبلي: الاستغناء بالمكوّن عن الكونين[1]. ﴿تعز﴾ بالمعرفة أو بالاستغناء بالمكوّن أو بالقناعة ﴿وتذل﴾ بأضدادها. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

٢٧ ـ ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فالإيلاج: إدخال الشيء في الشيء، وهو مجاز هنا، أي: تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار وتزيد في الليل ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو الفرخ من البيضة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج، أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ لا يعرف الخلق عدده ومقداره، وإن كان معلوماً عند الله ليدلّ على أنَّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيّرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادرٌ على أن ينزعَ الملك من العجم ويذلّهم، ويؤتيه العرب ويعزّهم. وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي. فإنِ العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم. وهو معنى قوله ﷺ: «كما تكونوا يولّى عليكم»[2]. «الحيَّ من الميّت» و«الميّت من الحيِّ» بالتشديد حيث كان: مدني وكوفي، غير أبي بكر.

٢٨ ـ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم،

---

(١) «الكونان»: الدنيا والآخرة.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣٧٢).

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ
وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾

أو لصداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك. وقد كرّر ذلك في القرآن. والمحبة في الله والبغض في الله بابٌ عظيمٌ في الإيمان ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثروهم عليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: ومن يوالِ الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعاداة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاته، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه. وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معدّ لديه، وهو وعيد آخر.

٢٩ ـ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفار، أو غيرها، مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف، وليس بمعطوف على جواب الشرط، أي: هو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يخفى عليه سرّكم وعلنكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على عقوبتكم.

٣٠ ـ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يوم: منصوب بتود. والضمير في «بينه» لليوم. أي: يوم القيامة حين تجد كلُّ نفس خيرَها وشرَّها حاضرين، تتمنى لو أنَّ بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً، أي: مسافة بعيدة. أو: باذكر. ويقع على ﴿ما عملت﴾ وحده. ويرتفع ﴿وما عملت﴾ على الابتداء و﴿تود﴾ خبره. أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصحُّ أن تكون «ما» شرطية لارتفاع تودّ. نعم: الرفع جائز إذا كان الشرط ماضياً، لكن الجزم هو

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

الكثير، وعن المبرد: أن الرفع شاذ. وكرر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ليكون على بال منهم، لا يغفلون عنه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته بهم أن حذّرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه. ويجوز أن يريد أنه، مع كونه محذوراً لكمال قدرته، مرجوّ لسعة رحمته؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

٣١ ـ ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ محبة العبد لله: إيثارُ طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد: أن يرضى عنه، ويحمد فعله. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعلَ لقولهم تصديقاً من عمل. فمن ادَّعى محبته، وخالف سُنَّة رسوله، فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه. وقيل: محبة الله: معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب به وبذكره، ودوام الأنس به. وقيل: هي اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحداً ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٢ ـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامة المحبة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن قبول الطاعة، ويحتمل أن يكون مضارعاً، أي: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يُحِبُّهم.

٣٣ ـ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ موسى وهارون هما ابنا عمران بن يصهر. وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان. وبين العمرانين ألف وثمانمئة سنة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا
فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ
أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ

٣٤ ـ ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾ بدل من آل ابراهيم وآل عمران ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ مبتدأ، وخبره في موضع النصب صفة لذرية. يعني: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة، بعضها متشعب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان، وهو يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل ابراهيم رسول الله ﷺ. وقيل: بعضها من بعض في الدِّين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

٣٥ ـ ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ وإذ: منصوب به، أو بإضمار اذكر ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم، جدة عيسى، وهي: حنة بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ﴾ أوجبتُ ﴿مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ هو حال من ما، وهي بمعنى الذي، أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس، لا يد لي عليه، ولا أستخدمه. وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. أو مخلصاً للعبادة، يقال: طين حرّ، أي: خالص ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ (مِنِّيَ): مدني، وأبو عمرو. والتقبل: أَخْذُ الشيء على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لـ«ما في بطني» وإنما أنَّث على تأويل الحبلة، أو النفس، أو النسمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ حال من الضمير في وضعتها، أي: وضعت الحبلة، أو النفس، أو النسمة أنثى. وإنما قالت هذا القول لأنَّ التحرير لم يكن إلا للغلمان، فاعتذرت عما نذرت، وتحزنت إلى ربّها. ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر، قال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيماً لموضوعها. أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما علق به من عظائم الأمور. ﴿وَضَعْتُ﴾ شامي، وأبو بكر، بمعنى: ولعل لله فيه سراً

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾

وحكمة. وعلى هذا يكون داخلاً في القول، وعلى الأول يوقف عند قوله ﴿أنثى﴾ وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿إني وضعتها أنثى﴾ وما بينهما جملتان معترضتان. وإنما ذكرتْ حنّةُ تسميتها مريم لربّها؛ لأنّ مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بذلك التقرّب، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان بقوله: ﴿وَإِنِّىٓ﴾ ﴿وإنّيَ﴾ مدني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أُجيرها ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ الملعون. في الحديث: «ما من مولود يُولَدُ إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها»[1].

٣٧ ـ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل اللهُ مريم، ورضي بها في النذر مكان الذَّكَر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيل: القَبُول: اسم ما يقبل به الشيء، كالسعوط: لما يسعط به. وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذَّكَر في النذر، ولم تُقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ، وتصلح للسدانة. رُوي أنّ حنة لما ولدت مريم لفَّتها في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم. وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم. فقال لهم زكريا: أنا أحقُّ بها، عندي أختها. فقالوا: لا، حتى نقترعَ عليها. فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين ـ إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فتكفَّلها. وقيل: هو مصدر، على تقدير حذف المضاف، أي: فتقبلها

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦).

وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ

بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة. قال ابن عطاء: ما كانت ثمرته مثل عيسى، فذاك أحسن النبات. ونباتاً: مصدر على خلاف الصَّدر، أو التقدير: فنبتت نباتاً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾[1] قبلها، أو ضمن القيام بأمرها. ﴿وكفّلها﴾ كوفي، أي: كفّلها الله زكريا، يعني: جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر كوفي، غير أبي بكر، في كل القرآن. وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا. غيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة. ومعناه في العبري: دائم الذكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ قيل: بَنَى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة تصعد إليها بسلم. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمَّى المحاريب. وكان لا يدخلُ عليها إلا هو وحده ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ كان رزقُها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تستبعد. قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهُو في المهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ من جملة كلام مريم، أو: من كلام رب العالمين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو تفضلاً بغير محاسبة، ومجازاة على عمل.

٣٨ ـ ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب. أو: في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا، وحيث، وثم: للزمان. لما رأى حال

(١) في الأصل المخطوط ثبتت قراءة: ﴿كَفَلَهَا﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ٢٤).

دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

مريم في كرامتها على الله ومنزلتها، رغب أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أمها حنة في الكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أمها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولداً. والذرّية يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة. والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيبه.

٣٩ ـ ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل عليه السلام. وإنما قيل: الملائكة لأنَّ المعنى: أتاه النداء من هذا الجنس، كقولهم: فلان يركب الخيل. ﴿فناديه﴾ بالياء والإمالة: حمزة وعليّ ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليلٌ على أن المرادات تطلبُ بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات. وقال ابن عطاء: ما فتح اللهُ تعالى على عبدٍ حالة سنية إلا باتّباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾[1] بكسر الألف: شامي، وحمزة، على إضمار القول، أو: لأنَّ النداء قول. الباقون بالفتح، أي: بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ يَبْشُرُكَ وما بعده: حمزة، وعليّ، من بَشَرَهُ. والتخفيف والتشديد لغتان ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ هو غير منصرف. إن كان عجمياً، وهو الظاهر فللتعريف والعجمة، كموسى وعيسى. وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل، كيعمر ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ حال منه ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى، مؤمناً به، فهو أول من آمن به. وسُمِّي عيسى كلمة الله لأنَّ تكوّنه بكن بلا أب. أو مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف. وكان يحيىٰ فائقاً على قومه؛ لأنه لم يركب سيئة قط، ويالها من سيادة! وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضاً عن المكوّن ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصراً لنفسه، أي: منعاً لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿إن الله﴾ بكسر الهمزة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ
يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ
إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ

الأنبياء، أو كائناً من جُملة الصالحين.

٤٠ ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ استبعاد من حيث العادة، واستعظام للقدرة، لا تشكك ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السن العالية، أي: أثَّر فيَّ الكبر، وأضعفني، وكان له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

٤١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ﴾ مدني، وأبو عمرو ﴿ءَايَةٗ﴾ علامة أعرف بها الحبل لأتلقّى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو عين، أو حاجب. وأصله: التحرّك يقال: ارتمز: إذا تحرك. واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام؛ لأنه لما أدّى مؤدى الكلام، وفهم منه ما يفهم منه سمّي كلاماً. أو هو استثناء منقطع. وإنما خصّ تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة، والأدلة الظاهرة. وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله، لا يشغل لسانه بغيره. كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان منتزعاً من السؤال. والعشي: من حين الزوال إلى الغروب. والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

٤٢ ـ ﴿وَإِذۡ﴾ عطف على إذ قالت امرأة عمران، أو التقدير: واذكر إذ ﴿قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ رُوي أنَّهم كلموها شفاهاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أولاً حين تقبلك من أم، وربّاك، واختصّك بالكرامة السَّنية ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يُستقذر من

وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ

الأفعال ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ آخراً ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأن وَهَب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

٤٣ ـ ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أديمي الطاعة، أو: أطيلي قيام الصلاة ﴿وَٱسۡجُدِي﴾. وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيئات الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة. أو: وانظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني في عدادهم، ولا تكوني في عدادِ غيرهم.

٤٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة، وزكريا، ويحيى، ومريم ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ يعني: أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ أزلامهم، وهي: قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. أو: هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها، اختاروها للقرعة تبرّكاً بها ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دلَّ عليه يلقون، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم، أو ليعلموا، أو يقولون ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها.

٤٥ ـ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: اذكر ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ﴾ أي: بعيسى ﴿مِّنۡهُ﴾ في موضع جر صفة لكلمة ﴿ٱسۡمُهُ﴾ مبتدأ. وذكر ضمير الكلمة لأنَّ المسمَّى بها مذكر ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ خبره، والجملة في موضع جر صفة لكلمة. والمسيح لقب من الألقاب المشرّفة، كالصديق، والفاروق. وأصله: مشيحاً بالعبرانية، ومعناه: المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] وقيل: سُمِّي مسيحاً لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، أو: لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة، لا يستوطن مكاناً ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ٱبۡنُ

مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

مَرْيَمَ﴾ خبراً مبتدأ محذوف، أي: هو ابن مريم. ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى؛ لأن اسمه عيسى فحسب وليس اسمه عيسىٰ ابن مريم، وإنما قال ﴿ابن مريم﴾ إعلاماً لها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والطاعة ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بعلوّ الدرجة، والشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السَّماء. وقوله: ﴿وجيهاً﴾ حال من «كلمة» لكونها موصوفة، وكذا ﴿من المقربين﴾ أي: وثابتاً من المقربين وكذا:

٤٦ ـ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ومُكلِّماً الناس ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في يكلم، أي: ثابتاً في المهد، وهو: ما يُمهد للصبي من مضجعه، سُمِّي بالمصدر ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه، أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، أي: يكلّم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة؛ التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال أيضاً، والتقدير: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات.

٤٧ ـ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا قدر تكوّن شيء كوّنه من غير تأخير. لكنه عبّر بقوله: ﴿كن﴾ إخباراً عن سرعة تكوُّن الأشياء بتكوينه.

٤٨ ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدني، وعاصم، وموضعه حال معطوفة على: وجيهاً. الباقون بالنون على أنه كلام مبتدأ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابة، وكان أحسن الناس خطّاً في زمانه. وقيل: كُتُبَ الله ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بيان الحلال والحرام. أو: الكتاب: الخط باليد، والحكمة: البيان باللسان ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

٤٩ ـ ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعله رسولاً. أو: يكون في موضع الحال، أي: وجيهاً في الدنيا والآخرة ورسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى﴾ بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ

﴿رَبِّكُمْ﴾ بدلالة تدلُّ على صدقي فيما أدَّعيه من النبوة ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ نصب بدل من ﴿أني قد جئتكم﴾. أو: جر بدل من «آية». أو: رفع على هي ﴿أني أخلق لكم﴾ ﴿إنّي﴾ نافع على الاستئناف ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: أقدر لكم شيئاً مثل صُورة الطَّير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور. طائراً: مدني ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره. قيل: لم يخلق شيئاً غير الخُفّاش ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي وُلد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرَّر بإذن الله دفعاً لوهم مَن يتوهم فيه اللاهوتية. رُوي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام وهم ينظرون إليه. فقالوا: هذا سحر مبين، فأرنا آية. فقال: يافلان! أكلت كذا، ويافلان خُبِّيء لك كذا، وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ و«ما» فيهما بمعنى الذي، أو: مصدرية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما سبق. ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥٠ ـ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: قد جئتكم بآية، وجئتكم مُصدقاً ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ردّ على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى عليه السلام: الشحوم، ولحوم الإبل، والسمك، وكلّ ذي ظفر. فأحلَّ لهم عيسى بعض ذلك ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرّر للتأكيد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أمري.

٥١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية، ونفي للربوبية عن نفسه،

﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ دوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يؤدِّي صاحبه إلى النعيم المقيم.

٥٢ ـ ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفراً، علماً لا شبهة فيه، كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ مدني. وهو جمع ناصر كأصحاب، أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتعلّق بمحذوف حال من الياء، أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله، ملتجئاً إليه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل: صفوته، وخاصّته ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أعوان دِينه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ ياعيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرُّسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم. وفيه دليلٌ على أن الإيمانَ والإسلام واحد

٥٣ ـ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: رسولك عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو: مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو: مع أمة محمدﷺ؛ لأنهم شهداءُ على الناس.

٥٤ ـ ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: كفار بني إسرائيل الذين أحسّ[1] منهم الكفر حين أرادوا قتله، وصَلْبه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على مَن أراد اغتياله حتى قُتِل. ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذمومٌ عند الخلق. وعلى هذا: الخداع والاستهزاء، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقوى المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

(١) أي: أحسّ عيسى عليه السلام.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

٥٥ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوف أجلك. ومعناه: أني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومميتك حتف أنفك، لا قتلاً بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: من سوء جوارهم، وخبث صحبتهم. وقيل: متوفيك: قابضك من الأرض ، من: توفيت مالي على فلان: إذا استوفيته. أو: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا توجب الترتيب. قال النبي ﷺ: «ينزل عيسى خليفة على أمتي، يدق الصليب، ويقتل الخنازير، ويلبث أربعين سنة، ويتزوج، ويولد له، ثم يتوفىٰ. وكيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها؟»[1] أو متوفي نفسك بالنوم، ورافعك وأنت نائم؛ حتى لايلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن، مقرّب. ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: المسلمين ـ لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ـ دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعلونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وتفسير الحكم هاتان الآيتان. (فيُوَفِّيهم): حفص.

---

(١) رواه ابن جرير (٣/ ٢٩١)، وانظر: الدر المنثور (٢/ ٢٢٥).

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ
ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟

٥٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره. وهو مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ خبره ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ القرآن. يعني: المحكم، أو: كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

٥٩ ـ نزل لما قال وفد بني نجران: هل رأيت ولداً بلا أب؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قدّره جسداً من طين. وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها. أي: خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم. فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب، وأخرق للعادة من الوجود من غير أب. فشبه الغريب بالأغراب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وعن بعض العلماء: أنه أُسِر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له. قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى. قال: فحزقيل أولىٰ لأن عيسىٰ أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنه طُبِخ وأُحْرِق ثم قام سالماً ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنشأه بشراً ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فكان. وهو حكاية حال ماضية. و«ثم» لترتيب الخبر على الخبر، لا لترتيب المخبر عنه.

٦٠ ـ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها السامع ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبيﷺ. ويكون من باب التهييج لزيادة الثبات؛ لأنهﷺ معصومٌ من الامتراء.

٦١ ـ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من البينات الموجبة للعلم. و«ما» بمعنى الذي ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ هلمّوا. والمراد: المجيء بالعزم والرأي، كما تقول: تعال نُفكِّر في هذه المسألة

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: يدع كّل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: بَهْلَةُ الله على الكاذب منّا ومنكم. والبهلة ـ بالفتح والضم ـ: اللعنة، وبهله الله: لعنه الله وأبعده من رحمته. وأصل الابتهال هذا، ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. روي أنهﷺ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فقال العاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى! أن محمداً نبي مرسل، وما باهل قومٌ نبيّاً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتَهْلَكُنَّ. فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسولَ اللهﷺ وقد غداً محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيلَ جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني. فقالوا: يا أبا القاسم! رأينا ألا نباهلك. فصالحهم النبيُّ على ألفي حلّة كل سنة. فقالﷺ: «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير»[1]. وإنما ضمَّ الأبناء والنساء، وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه؛ لأنَّ ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزّته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزّته إن تمَّتِ المباهلة. وخصّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليلٌ واضحٌ على صحة نبوة النبيﷺ؛ لأنه لم

---

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وابن مروان: متروك، متهم بالكذب (حاشية الكشاف ١/٣٦٩).

فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ

يرْوِ أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسى. ونبتهل، ونجعل: معطوفان على ندع.

٦٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ فصل بين اسم إن وخبرها، أو مبتدأ. و﴿القصص الحق﴾ خبره. والجملة: خبر إن. وجاز دخول اللام على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولها على الخبر، كان دخولُها على الفصل أجوز؛ لأنه أقربُ إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و«مِنْ» في: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق. والمراد: الردّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير الأحكام.

٦٣ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا، ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيدٌ لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٦٤ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم أهل الكتابين، أو وفد نجران، أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي: مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كلَّ واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله. وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله! قال: «أليس كانوا

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يحلّون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم. قال: «هو ذاك»[1] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا، وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع: أعترف بأني أنا الغالب، وسلِّم إليَّ الغلبة.

٦٥ ـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ زعم كلُّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه. فقيل: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

٦٦ ـ ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ ها: للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبره ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وقيل: هؤلاء: بمعنى الذين، وحاججتم: صلته. ﴿ها أنْتُم﴾ بالمد وغير الهمز حيث كان، مدني، وأبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينهم فقال:

٦٧ ـ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت
طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ

كأنه أراد بالمشركين: اليهود والنصارى؛ لإشراكهم به عزيراً والمسيح. أو: وما كان من المشركين كما لم يكن منهم.

٦٨ ـ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إن أخصّهم به، وأقربهم منه، من: الوَلْي، وهو: القرب ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصاً. خصّ بالذكر لخصوصيته بالفضل، والمراد: محمدﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أمته ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

٦٩ ـ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

٧٠ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول اللهﷺ وغيرها. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله. أو: تكفرون بالقرآن، ودلائل نبوة الرسول، وأنتم تشهدون نعته في الكتابين. أو: تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق.

٧١ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت محمدﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

٧٢ ـ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: القرآن ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف، أي: أوله. يعني: أظهروا الإيمان

وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ

بما أنزل على المسلمين في أول النهار. ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ واكفروا به في آخره ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم، فيرجعون برجوعكم.

٧٣ ـ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ «ولا تؤمنوا» متعلق بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد اوتوا من الكتب مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم، دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن «يؤتىٰ». والضمير في «يحاجوكم» لأحد؛ لأنه في معنى الجمع. بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق، ويغالبونكم عند الله بالحجَّة. ومعنى الاعتراض أنَّ الهدى هدى الله، من شاء هداه حتى أسلم أو ثبت على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم، وحيلكم، وذبّكم[1] تصديقكم عن المسلمين والمشركين. وكذلك قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو: يتم الكلام عند قوله ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: ﴿ولا تؤمنوا﴾ هذا الإيمان الظاهر، وهو إيمانهم وجه النهار ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم. ومعنى قوله: ﴿أن يؤتى﴾ لأن يؤتى ﴿أحد مثل ما أوتيتم﴾ قلتم ذلك، ودبّرتموه لا لشيء آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد والبغي ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ من العلم والكتاب، دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. ويدلُّ عليه قراءة ابن كثير (آن)

---

(١) «ذبّكم»: أي: منعكم.

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ
لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ

بالمد والاستفهام يعني: ألأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم؟ وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذا معناه: دبرتم ما دبرتم لأن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، أو لما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة.

٧٤ ـ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ بالنبوة، أو بالإسلام ﴿مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٧٥ ـ ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو عبد الله بن سلام. استودعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فأدَّاه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو فنحاص بن عازوراء استودعه رجلٌ من قريش ديناراً، فجحده، وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مدة دوامك عليه ياصاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له. (يؤده) و(لا يؤده) بكسر الهاء مشبعة: مكي، وشامي، ونافع، وعلي، وحفص. واختلس أبو عمرو في رواية. غيرهم بسكون الهاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دلَّ عليه: لا يؤده ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي: لا يتطرق علينا إثم وذم في شأن الأميين، يعنون: الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم، والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا. وكانوا يستحلّون ظلم من خالفهم، وكانوا يقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في

وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ
لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ

كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم أنَّ ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٦ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ جملة مستأنفة، مقررة للجملة التي سدّت بلى مسدّها. والضمير في ﴿بعهده﴾ يرجع إلى الله تعالى، أي: كل من أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحبهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى مَنْ. ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر، وأعمال السوء. قيل: نزلت في عبد الله ابن سلام ونحوه من مسلمي أهل الكتاب. ويجوز أن يرجع الضمير إلى من أوفى، أي: كلّ من وفى بما عاهد عليه، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

٧٧ ـ ونزل فيمن حرّف التوراة، وبدّل نعته ﷺ من اليهود، وأخذ الرشوة على ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به، ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترؤس، والارتشاء، ونحو ذلك. وقوله: ﴿بعهد الله﴾ يُقوّي رجوع الضمير في «بعهده» إلى الله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرّهم ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ نظر رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٧٨ ـ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَيّ بن أخطب، وغيرهم ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرّف. واللَّيُّ: الفتل، وهو: الصرف.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

والمراد: تحريفهم؛ كآية الرجم، ونعت محمدﷺ، ونحو ذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ يرجع الضمير إلى ما دلَّ عليه ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ وهو المحرَّف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب، لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: التوراة. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٩ ـ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام. وقيل: قال رجل: يا رسول الله! نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجدَ لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله»(١) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة، وهي: السنة، أو فصل القضاء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ عطف على «يؤتيه» ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن يَقُولَ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، وهو: شديد التمسُّك بدين الله وطاعته. وحين مات ابنُ عباس قال ابنُ الحنفية: مات ربانيُّ هذه الأمة. وعن الحسن ﴿ربانيين﴾ علماء فقهاء. وقيل: علماء معلِّمين. وقالوا: الرباني: العالم العامل ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كوفي وشامي، أي: غيرَكم. غيرهم بالتخفيف ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون. والمعنى: بسبب كونكم عالمين، وبسبب كونكم دارسين للعلم، كانت الربانية ـ التي هي قوة التمسُّك بطاعة الله ـ مسببة عن العلم والدراسة. وكفى به دليلاً على خيبة سعي مَن

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٧٤) من حديث الحسن البصري. قال ابن حجر: لم أجدْ له إسناداً. (حاشية الكشاف ١/٣٧٨).

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

جهد نفسه، وكدّ روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسناء تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها. وقيل: معنى ﴿تدرسون﴾ تدرسونه على الناس، كقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون، من التدريس، كقراءة ابن جبير.

٨٠ ـ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾. ووجهه أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله، وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له، ويأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني، ولا يستخف بي. وبالرفع: حجازي، وأبو عمرو، وعليّ، على ابتداء الكلام. والهمزة في: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ للإنكار، والضمير في ﴿لا يأمركم﴾ و﴿أيأمركم﴾ للبشر، أو لله. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

٨١ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. أو المراد: ميثاق أولاد النبيين، وهم بنو إسرائيل، على حذف المضاف. واللام في: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي ﴿لتؤمنن﴾ لام جواب القسم، و﴿ما﴾ يجوز أن تكون متضمنة لمعنى الشرط، و﴿لتؤمنن﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به. ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى (ما) محذوف، والتقدير: ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذي معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ بالرسول ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي: الرسول، وهو محمدﷺ ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ حمزة و«ما» بمعنى الذي، أو مصدرية. أي: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم. واللام للتعليل. أي: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه لأجل أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. (آتيناكم) مدني ﴿قَالَ﴾ أي: الله ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم عهدي. وسُمِّي إصراً لأنه مما يؤصر، أي: يشدّ، ويعقد ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلكم من إقراركم وتشاهدكم. وهذا توكيد عليهم، وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

٨٢ ـ ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق، والتوكيد، ونقض العهد بعد قبوله، وأعرض عن الإيمان بالنبي الجائي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار.

٨٣ ـ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون. فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون، فغير دين الله يبغون. وقدم المفعول وهو ﴿غير دين الله﴾ على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار ـ الذي هو معنى الهمزة ـ متوجّه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدلة، والإنصاف من نفسه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف، أو بمعاينة العذاب، كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، أي: طائعين ومكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازون على الأعمال. (يبغون) و(يرجعون) بالياء فيهما، حفص. وبالتاء في الثاني وفتح الجيم، أبو عمرو؛ لأن

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ

الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وبالتاء فيهما وفتح الجيم، غيرهما.

٨٤ ـ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان. فلذا وحّد الضمير في ﴿قل﴾ وجمع في ﴿آمنا﴾. أو: أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. وعدّى ﴿أنزل﴾ هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. وقال صاحب «اللباب»: الخطاب في البقرة للأمة لقوله ﴿قولوا﴾ فلم يصح إلا «إلى»؛ لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً وهنا قال ﴿قل﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه. وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب، وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ كرّر في البقرة ﴿وما أوتي﴾ ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الإيتاء، حيث قال: ﴿لما آتيتكم﴾ ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ من عند ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ موحّدون مخلصون أنفسنا له، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ ـ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني: التوحيد، وإسلام الوجه لله. أو: غير دين محمد ﷺ ﴿دِينًا﴾ تمييز ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا في الخسران.

٨٦ ـ ونزل في رهط أسلموا، ثم رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ والواو في: ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾

وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

للحال، وقد مضمرة، أي: كفروا وقد شهدوا أن الرسول، أي: محمداً حق. أو للعطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل؛ لأن معناه: بعد أن آمنوا ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ما داموا مختارين الكفر، أو: لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفاراً.

٨٧ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهما خبر أولئك. أو: جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٨٨ ـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿عليهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٨٩ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الكفر العظيم، والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا، أو: دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

٩٠ ـ ونزل في اليهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. أو ﴿كفروا﴾ برسول الله ﷺ بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثة ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فيه في كلّ وقت. أو: نزل في الذين ارتدوا، ولحقوا بمكة وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: إيمانهم عند البأس؛ لأنهم لا يتوبوا إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

٩١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء في ﴿فلن يقبل﴾ يؤذن بأن الكلام بُني على الشرط والجزاء، وأنَّ سَبَبَ امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وترك الفاء فيما تقدَّم يُشعر بأن الكلام مبتدأ وخبر، ولا دليل فيه على التسبيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: ﴿فلن يقبل من أحدهم﴾ فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. قال ﷺ: «يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم فيقال له: لقد سُئلت أيسر من ذلك»[1]. قيل: الواو لتأكيد النفي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ معينين، دافعين للعذاب.

٩٢ ـ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر، أو: أن تكونوا أبراراً، أو: لن تنالوا برّ الله، وهو ثوابه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها. وعن الحسن: كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمرة فهو داخل في هذه الآية، قال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحابِّ، وإلى الربِّ بالتخلي عن الكونين. وقال أبو بكر الوراق: لن تنالوا برّي بكم إلا ببرّكم بإخوانكم. والحاصل: أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب. وعن عمربن عبد العزيز: أنه كان يشتري أعدالَ[2] السُّكر ويتصدّق بها، فقيل له: لم لا تتصدَّق بثمنها؟ قال: لأن السكر أحبُّ إليَّ، فأردت أن أنفقَ مما أحب ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عليم بكل شيء تنفقونه، فيجازيكم بحسبه. و«من» الأولى للتبعيض لقراءة عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) والثانية للتبيين. أي: من أي: شيء كان الإنفاق طيب تحبونه، أو خبيث تكرهونه.

---

(١) رواه أحمد (٣/٢١٨) والبخاري (٦٥٣٨) ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢).

(٢) «أعدال»: جمع عِدل وهو الكيس يُعبَّأ فيه المتاع والحاجات.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ
أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

٩٣ ـ ولما قالت اليهود للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها! فقال ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحلّه»[1] فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، نزل تكذيباً لهم: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ ﴾ أي: المطعومات التي فيها النزاع؛ فإن منها ما هو حرام قبل ذلك، كالميتة، والدم ﴿ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: حلالاً، وهو مصدر، يقال: حلَّ الشيء حلاًّ، ولذا استوى في صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠] ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ ﴾ أي: يعقوب. ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ وبالتخفيف، مكي وبصري. وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحب الطعام إليه. والمعنى: أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه. فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها، لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حُرِمَ عليهم تَحْرِيمٌ حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه. فلم يجرؤوا على إخراج التوراة وبُهِتوا. وفيه دليلٌ بين على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

٩٤ ـ ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرّماً في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم، ولا يلتفون إلى البينات.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٥ ـ ٧٦).

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾

٩٥ ـ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يحرم. وفيه تعريضٌ بكذبهم، أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل، وأنتم الكاذبون ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ﷺ ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرّتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلّها الله لإبراهيم ولمن تبعه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٩٦ ـ لما قالت اليهود للمسلمين: قبلتنا قبل قبلتكم نزل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الواضع هو الله عزوجل. ومعنى وضع الله بيتاً للناس: أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وفي الحديث: «إن المسجد الحرام وُضِع قبل بيت المقدس بأربعين سنة»[1]. قيل: أول من بناه إبراهيم، وقيل: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وقيل: هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الأرض. وقوله: ﴿وضع للناس﴾ في موضع جر صفة لبيت، والخبر: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: للبيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكَّه: إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها، أو لأنها تبكّ أعناق الجبابرة، أي: تدقّها، لم يقصدها جبّار إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب، وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم و﴿مباركاً﴾ و﴿هدى﴾ حالان من الضمير في ﴿وضع﴾.

٩٧ ـ ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ علامات واضحات، لا تلتبس على أحد ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيات بينات﴾ وصحّ بيان الجماعة بالواحد لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه، وقوة دلالته على قدرة الله تعالى، ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد، أو لا شتماله على آيات؛ لأن

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠ و١٦٦) والبخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾

أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة. على أن: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ عطف بيان لآيات ـ وإن كان جملة ابتدائية، أو شرطية ـ من حيث المعنى؛ لأنه يدلّ على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله، والاثنان في معنىٰ الجمع، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوىٰ ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، وكثير سواهما، نحو: انمحاق الأحجار مع كثرة الرماة، وامتناع الطير من العلو عليه، وغير ذلك. ونحوه في طيّ الذكر قوله ﷺ: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عيني في الصلاة»(١). فقرة عيني ليس من الثلاث، بل هو ابتداء كلام؛ لأنها ليست من الدنيا، والثالث مطوي. وكأنه ﷺ ترك ذكر الثالث تنبيهاً على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدنيا، فذكر شيئاً هو من الدين. وقيل في سبب هذا الأثر: أنه لما ارتفع بنيان الكعبة، وضعف إبراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر، فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام: انزل حتى تغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعته على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شقّ رأسه، ثم حوّلته إلى شقّه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ وأمان من دخله بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جنى كلّ جناية، ثم التجأ إلى الحرم لم يُطلب. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ومن لزمه القتل في الحلّ بقود، أو ردة، أو زنىٰ، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار؛ لقوله ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بُعث يوم

(١) رواه أحمد (٣/١٠٨) والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٨٨) والحاكم (٢/ ١٦٠).

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

القيامة آمناً من النار»[١]. وعنه ﷺ: «الحجون والبقيع يُؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة، وهما مقبرتا مكة والمدينة»[٢]. وعنه ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعةً من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مئتي عام»[٣] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: استقر له عليهم فرض الحج. (حج البيت): كوفي غير أبي بكر، وهو اسم، وبالفتح مصدر، وقيل: هما لغتان في مصدر حج ﴿مَنِ﴾ في موضع جر، على أنه بدل البعض من الكل ﴿ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فسّرها النبي ﷺ بالزاد والراحلة[٤]. والضمير في «إليه» للبيت، أو للحجِّ، وكل مأتى إلى الشيء فهو سبيلٌ إليه. لما نزل قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلّهم فخطبهم، فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجّوا»[٥] فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فنزل: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جحد فرضية الحج، وهو قول ابن عباس، والحسن، وعطاء. ويجوز أن يكون من الكفران، أي: من لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم، وسعة الرزق، ولم يحج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مستغن عنهم، وعن طاعتهم. وفي هذه الآية أنواع من التأكيد، والتشديد، منها: اللام، وعلى، أي: أنه حقّ واجب لله في رقاب الناس. ومنها: الإبدال، ففيه تثنية للمراد، وتكرير له، ولأن الإيضاحَ بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنها: قوله: ﴿ومن كفر﴾ مكان «ومن لم يحج» تغليظاً على تاركي الحج. ومنها: ذكر

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤١٨٠).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/ ٣٨٩).

(٣) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٢٦) وقال: حديث باطل، لا أصل له.

(٤) رواه الترمذي (٢٩٩٨).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٠).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

الاستغناء، وذلك دليلٌ على المقت، والسخط، ومنها: قوله: ﴿عن العالمين﴾ وأن لم يقل: «عنه» وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنىٰ عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدلّ على الاستغناء الكامل، فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه.

٩٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو للحال. والمعنى: ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها.

٩٩ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصد: المنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ عن دين حق عُلم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها، وهو الإسلام، وكانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. ومحل ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبون لها: نصب على الحال ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة؛ بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يَصُدُّ عنها إلا ضالّ مضلّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصَّدِّ عن سبيله، وهو وعيدٌ شديد.

١٠٠ ـ ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصَّادِّين عن سبيله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ قيل: مَرَّ شاس بن قيس اليهودي على نفرٍ من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدثهم وتألفهم، فأمر شاباً من اليهود أن يذكّرهم يوم بُعاث لعلهم يغضبون. وكان يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح! السلاح! فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وألّف بينكم؟!» فعرف القومُ أنها نزعة من الشيطان، فألقوا السلاح، وعانق بعضُهم بعضاً باكين، فنزلت الآية[1].

١٠١ ـ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار والتعجب، أي: من أين يتطرق إليكم الكفر؟! ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والحال أن آيات الله ـ وهي القرآن المعجز ـ تتلى عليكم على لسان الرسول غضّة طرية ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ وبين أظهركم رسول الله ﷺ يُنبّهكم ويعظكم، ويزيح عنكم شبهكم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه، أو بكتابه، أو: هو حثّ لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أرشد إلى الدين الحق، أو: من يجعل ربّه ملجأ ومفزعاً عند الشبه يحفظه عن الشّبه.

١٠٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ واجب تقواه وما يحقّ منها، وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى. أو: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه، أو بنيه، أو أبيه. وقيل: لايتقي اللهَ عبدٌ حق تقاته حتى يخزنَ لسانه. والتقاة من اتقى، كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

١٠٣ ـ ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ تمسّكوا بالقرآن؛ لقوله ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخلَق عن كثرة الرد. من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم»[2] ﴿جَمِيعًا﴾ حال

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) مطوّلاً، وقال: هذا حديث إسناده مجهول، وفي الحارث الأعور مقال.

وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ

من ضمير المخاطبين. وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: ولا تتفرقوا، يعني: ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع. أو: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم، كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوة والحروب، فألف بين قلوبهم بالإسلام، وقذف في قلوبهم المحبة، وصاروا إخواناً ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم؛ لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. وهو ردّ على المعتزلة، فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى. والضمير للحفرة، أو: للنار أو للشفا، وأنّث لإضافته إلى الحفرة. وشفا الحفرة: حرفها. ولامها واو؛ فلهذا يثنى: شفوان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن الذي فيه أمر ونهي، ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب، وما ينال به الثواب.

١٠٤ ـ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل. أو: المعروف: ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر: ما خالفهما. أو: المعروف: الطاعة. والمنكر: المعاصي. والدعاء إلى الخير عامّ في التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص. ومِنْ: للتبعيض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته؛ فإنه يبدأ بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]. أو للتبيين، أي: وكونوا أمة تأمرون؛ كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بالفلاح الكامل. قال ﷺ: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»[1]. وعن عليّ رضي الله عنه ـ أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُواْ﴾ في الديانة. وهم اليهود والنصارى؛ فإنهم اختلفوا، وكفّر بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي: كلمة الحق ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٠٦ ـ ونصب ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بالظرف وهو ﴿لهم﴾ أو بعظيم، أو باذكروا. أي: وجوه المؤمنين ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكافرين. والبياض من النور، والسواد من الظُلمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فحذف الفاء والقول جميعاً للعلم به. والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاق، فيكون المراد به: جميع الكفار، وهو قول أُبيٍّ، وهو الظاهر. أو: هم المرتدون، أو المنافقون، أي: أكفرتم باطناً بعد إيمانكم ظاهراً. أو: أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان: تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٠٧ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ففي نعمته، وهي: الثواب المخلد، ثم استأنف فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يموتون.

١٠٨ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في الوعد، والوعيد، وغير ذلك ﴿نَتْلُوهَا

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٠٠) في ترجمة كادح بن رحمة. قال الأزدي وغيره: كذّاب.

عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى

﴿عَلَيْكَ﴾ ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل، من جزاء المحسن والمسيء ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

١٠٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿تَرْجِعُ﴾، شامي، وحمزة، وعليّ.

١١٠ ـ كان: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، ولا دليل فيه على عدم سابق، ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، أو: كنتم في علم الله، أو: في اللوح خير أمة، أو: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت. ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام تتعلق بأخرجت ﴿تَأْمُرُونَ﴾ كلام مستأنف، بيّن به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم. بيّنت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، وطاعة الرسول ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الكفر، وكلّ محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به. أو: لأن الواو لا تقتضي الترتيب ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمانُ خيراً لهم مما هم فيه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة، واستتباع العوام. ولو آمنوا لكان لهم من الرئاسة، والأتباع، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إيتاء الأجر مرتين ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر.

١١١ ـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

طعن في الدين، أو: تهديد، أو: نحو ذلك ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ولا يضروكم بقتل، أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد، ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم، وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء، وليس بمعطوف على «يولوكم» إذ لو كان معطوفاً عليه لقيل: ثم لا ينصروا. وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا. وتقدير الكلام: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم: أنهم لا ينصرون. و«ثم» للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

١١٢ ـ ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: على اليهود ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في محل النصب على الحال، والباء متعلق بمحذوف تقديره: إلا معتصمين، أو متمسّكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ والحبل: العهد، والذمة. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في كل حال، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني: ذمة الله وذمة المسلمين، أي: لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو خوف الفقر مع قيام اليسار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك: إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة، والمسكنة، والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: ذلك الكفر، وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم لحدوده.

۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ

---

١١٣ ـ ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾ ليس أهل الكتاب مستوين ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ بياناً لقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ جماعة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، أي: استقام، وهم الذين أسلموا منهم. ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن. ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ ساعاته، واحدها: إنى، كمعى، أو: إنو، كقنو، أو: إني، كنحي ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون. قيل: يريد صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وقيل: عبَّر عن تهجُّدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود.

١١٤ ـ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالإيمان، وسائر أبواب البر ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ عن الكفر، ومنهيَّات الشَّرع ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت. وقوله: يتلون، ويؤمنون: في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة، تالون، مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة في الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر سارع بالقيام به ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم.

١١٥ ـ ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ بالياء فيهما، كوفي غير أبي بكر. وأبو عمرو مخير. غيرهم بالتاء. وعُدِّي يكفروه إلى مفعولين ـ وإن كان «شكر»

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾

و«كفر» لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها ـ لتضمُّنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، أي: فلن تحرموا جزاءه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذاب الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١١٧ ـ ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المفاخر، والمكارم، وكسب الثناء، وحسن الذِّكْر بين الناس. أو: ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثل مُهلَك ريح، وهو الحرث، أو: مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو مبتدأ وخبر في موضع. جرٍّ صفة لريح، مثل: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. أو: يكون الضمير للمنفقين، أي: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول.

١١٨ ـ ونزل نهياً للمؤمنين عن مصافاة المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته: خصيصه، وصفيّه. شبّه ببطانة الثوب، كما يقال: فلان شعاري. وفي الحديث: «الأنصار شعار، والناس دثار»[1] ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم، وهم المسلمون، وهو صفة لبطانة. أي:

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ في موضع النصب صفة لبطانة. يعني: لا يقصرون في فساد دينكم. يقال: ألا في الأمر يألو: إذا قصر فيه. والخبال: الفساد. وانتصب خبالاً على التمييز، أو على حذف في، أي: في خبالكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم. فما: مصدرية. والعنت: شدة الضرر والمشقة، أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضَّرر وأبلغه. وهو مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة، كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون ـ مع ضبطهم أنفسهم ـ أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بُيِّن لكم.

١١٩ ـ ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ﴾ ها للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وأولاء: خبره، أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. أو: أولاء: موصول صلته ﴿تحبونهم﴾. والواو في: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ للحال، وانتصابها من «لا يحبونكم» أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد؛ لأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم. وقيل: الكتاب للجنس ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فارقوكم، أو خلا بعضُهم ببعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يوصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل، والبنان، والإبهام ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به. والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام، وعزّ أهله، وما لهم في ذلك من الذل والخزي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض. وهو داخلٌ في جملة المقول، أي: أخبرهم بما يسُرّونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. أو: خارج عن المقول، أي: قل لهم ذلك يا محمد، ولا تتعجب من إطلاعي إياكَ على ما يسرون، فإني أعلمُ بما هو أخفى من ذلك، وهو: ما أضمروه في صدورهم.

١٢٠ ـ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رخاء، وخصب، وغنيمة، ونصرة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا. والمس مستعار من الإصابة، فكأنَّ المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]. ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مانهيتم عنه من موالاتهم. أو: ﴿وإن تصبروا﴾ على تكاليف الدين ومشاقه ﴿وتتقوا﴾ الله في اجتنابكم محارمه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم، وكنتم في كنف الله. وهذا تعليم من الله، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿لا يَضِرْكُم﴾ مكي، وبصري، ونافع، من ضاره يضيره بمعنى ضره، وهو واضح. والمشكل قراءة غيرهم لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط مجزوم، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم، إلا أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، نحو: مدّ: يا هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالتاء سهل، أي: من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُحِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وبالياء غيره، أي: أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

١٢١ ـ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واذكر يا محمد إذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة. والمراد: غدوّه من حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى أحد ﴿تُبَوِّئُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم، وهو حال ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف من الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين، والساقة. وللقتال: يتعلق بـ«تبوىء» ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم وضمائركم. روي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء، فاستشار رسولُ الله ﷺ أصحابه، ودعا عبد الله بن أُبيّ فاستشاره، فقال: أقم بالمدينة، فما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا، وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم. فقال ﷺ: «إني رأيت في منامي بقراً مذبَّحةً حولي، فأوَّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلمة فأوَّلتها هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوَّلتها المدينة». فلم يزل به قومٌ ينشطون في الشهادة حتى لبس لأمته، ثم ندموا، فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشِّعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال[١].

١٢٢ ـ ﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل من إذ غدوت. أو: عمل فيه معنى ﴿عليم﴾ ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ حيَّان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنوحارثة من الأوس. وكان ﷺ خرج إلى أُحد في ألف، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخذل عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس، وقال: عَلَامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهمّ الحيان باتباعه، فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: بأن تفشلا، أي: بأن تَجْبُنَا وتضعفا. والفشل: الجُبْن، والخَوَر ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ محبّهما، أو ناصرهما، أو متولي أمرهما، فما لهما تفشلان، ولا تتوكلان على الله؟! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه. قال جابر: والله ما يسّرنا أنا لم نهمّ بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله بأنه ولينا.

١٢٣ ـ ثمَّ ذكّرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يَسَّر لهم من الفتح يوم بدر،

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧١) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٠٥).

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

وهم في حال قلَّة وذلَّة فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يُسمَّىٰ بدراً، فَسُمِّي به. أو ذكر بدراً بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلَّة العَدَد ـ فإنهم كانوا ثلاثمئة وبضعة عشر، وكان عدوّهم زهاء ألف مقاتل ـ والعُدَد فإنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد، ومع عدوِّهم مئة فرس، والشِّكّة والشوكة. وجاء بجمع القلة، وهو «أذلة»؛ ليدلَّ على أنهم على ذلَّتهم كانوا قليلاً ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ ـ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أي: نصركم الله وقت مقالتكم هذه، أو: بدل ثان من «إذ غدوت»، على أن يقول لهم ذلك يوم أحد ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ﴿منزَّلين﴾: شامي. ﴿منزِلين﴾: أبو حيوة، أي: النُّصْرة. ومعنى ألن يكفيكم: إنكار ألا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وجيء بلن الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلَّتهم، وضعفهم، وكثرة عدوهم وشوكته كالآيسين من النصر.

١٢٥ ـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي: يكفيكم الإمداد بهم. فأوجب الكفاية، ثمّ قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ على القتال ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ خلاف الرسول ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعني: المشركين ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ هو من فارت القدر: إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت بها الحالة التي لا ريث بها، ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول: من ساعته لم يلبث. ومنه قول الكرخي: الأمر المطلق على الفور لا على التراخي. والمعنى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يعني: أن الله تعالى يعجل نصرتكم، وييسر فتْحكم إن

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾
لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

صبرتم واتَّقيتم ﴿ مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو، مكي، وأبو عمرو، وعاصم، وسهل، أي: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرفون بها في الحرب. والسومة: العلامة. عن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها. غيرهم بفتح الواو، أي: معلمين. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وكانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. قال قتادة: نزلت ألفاً فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف.

١٢٦ ـ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذي دلَّ عليه ﴿أن يمدكم﴾ ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر، وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة، ولا من عند الملائكة، ولكن ذلك مما يُقوّي به الله رجاء النصرة، والطمع في الرحمة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يغالب في أحكامه ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الذي يعطي النصر لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه.

١٢٧ ـ واللام في: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤوساء قريش: متعلقة بقوله: ﴿ولقد نصركم الله﴾ أو بقوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أو: بـ﴿يمددكم ربكم﴾ ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو: يخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة. وحقيقة الكبت: شدّة وهن تقع في القلب، فيصرع في الوجه لأجله ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم.

١٢٨ ـ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اسم ليس ﴿شيء﴾ والخبر ﴿لك﴾ ﴿ومن الأمر﴾ حال من شيء؛ لأنها صفة مقدّمة ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم﴾. و﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: أنَّ الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن

أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرُّوا على الكفر. وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومجاهدتهم. وعن الفراء ﴿أو﴾ بمعنى: حتى. وعن ابن عيسى بمعنى: إلا أن، كقولك: لألزمنك؛ أو تعطيني حقّي. أي: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى؛ لعلمه أنَّ فيهم مَن يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مستحقُّون للتعذيب.

١٢٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأمر ضله لا لك؛ لأنَّ ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ الكافرين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ﴿مُضَعَّفَةً﴾: مكي، وشامي. هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه. كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّيْن محله يقول: إما أن تقضي حقي، أو تربي، وتزيد في الأجل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٣١ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: هي أخوفُ آيةٍ في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفُّرهم على طاعته وطاعة رسول الله، بقوله:

١٣٢ ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفيه ردٌّ على المرجئة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلاً، وعندنا: غير الكافرين

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

من العصاة قد يدخلها، ولكن عاقبة أمره الجنة. وفي ذكره تعالى: «لعل» «وعسى» في نحو هذه المواضع ـ وإن قال أهلُ التفسير: إن لعل وعسى من الله للتحقيق ـ ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله تعالى، وعزة التوصُّل إلى رحمته وثوابه.

١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ سارعوا: مدني، وشامي. فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومن حذفها استأنفها. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يُوصِل إليهما. ثم قيل: هي الصلوات الخمس، أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة، والجماعات ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض؛ كقوله ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسط، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض. وما روي: أنَّ الجنة في السماء السابعة، أو في السماء الرابعة، فمعناه أنها في جهتها، لا أنها فيها، أو في بعضها، كما يقال: في الدار بستان، وإن كان يزيد عليها؛ لأنَّ المرادَ: أنَّ بابه إليها ﴿أُعِدَّتْ﴾ في موضع جر صفة لجنة أيضاً، أي: جنة واسعة معدّة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ودلَّت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان ثمَّ المتقي: من يتقي الشرك، كما قال ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١] أو: من يتقي المعاصي. فإن كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة، وإن كان الأوّل فهي لهم أيضاً في العاقبة. ويوقف عليه إن جعل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حال اليسر والعسر، مبتدأ، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾. وجعل الخبر ﴿أولئك﴾. وإن جعل وصفاً للمتقين، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي: أعدّت للمتقين والتائبين فلا وقف، فإن قلت: الآية تدلُّ على أنَّ الجنة معدّة للمتقين والتائبين

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾

دون المصرِّين، قلت: جاز أن تكون معدَّة لهما، ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما، كما يقال: أعدّت هذه المائدة للأمير، ثم قد يأكلها أتباعه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق؟! وافتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شيء على النفس، وأدلّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدوّ، ومواساة فقراء المسلمين. وقيل: المراد: الإنفاق في جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرَّة ومضرَّة ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ عن الإمضاء. يقال: كظم القربة إذا ملأها، وشدّ فاها، ومنه: كظم الغيظ: وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر، ولا يظهر له أثراً. والغيظ: توقّد حرارة القلب من الغضب. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدرُ على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[1] ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عَفَا»[2]. وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد ـ وقد غضب على رجل ـ فخلّاه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس، فيتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. أو: للعهد، فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن الثوري: الإحسان: أن تحسن إلى المسيء فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

١٣٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح. ويجوز أن يكون «والذين» مبتدأ خبره: «أولئك» ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة. أو: الفاحشة: الزنى، وظلم النفس: القبلة، واللمسة، ونحوهما ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بلسانهم، أو قلوبهم ليبعثهم على التوبة ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين. قيل: بكى إبليس حين نزلت

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٦) والترمذي (٢٠٢٢) وابن ماجه (٤١٨٦).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧٤٥١).

وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

هذه الآية ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿من﴾ مبتدأ، و﴿يغفر﴾ خبره، وفيه ضمير يعود إلى من. و﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير في ﴿يغفر﴾ والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. وفيه تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب ـ وإن جلّت ـ فإنَّ عفوه أجلّ، وكرمه أعظم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم. والإصرار: الإقامة. قال ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[1]. وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[2] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الضمير في «ولم يصروا» أي: ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم أساؤوا، أو: ﴿وهم يعلمون﴾ أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

١٣٦ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون. ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ برحمته ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات. نزلت في تمّار قال لا مرأة تريد التمر: في بيتي تمر أجود، فأدخلها بيته وضمها إلى نفسه، وقبّلها، فندم. أو: في أنصاري استخلفه ثقفي ـ وقد آخى بينهما النبي ﷺ ـ في غيبة غزوة، فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبّلها، فندم، فساح في الأرض صارخاً، فاستعتبه الله تعالى.

١٣٧ ـ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنّه الله تعالى في

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٤).
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧٩٤٤).

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾

الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فتعتبروا بها.

١٣٨ ـ ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو: ما تقدّم ذكره ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي: إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

١٣٩ ـ ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة. ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما فاتكم من الغنيمة. أو: على من قتل منكم، أو جرح. وهو تسليةٌ من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد، وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو: ﴿وأنتم الأعلون﴾ بالنصر والظفر في العاقبة. وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. أو: ﴿وأنتم الأعلون﴾ شأناً؛ لأن قتالكم لله، ولإعلاء كلمته، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر. أو: لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي، أي: ﴿ولا تهنوا﴾ إن صحَّ إيمانكم، يعني: أن صحة الإيمان توجب قوّة القلب، والثقة بوعد الله، وقلة المبالاة بأعدائه. أو: بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به، ويُبشِّركم به من الغلبة.

١٤٠ ـ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾[1] بضم القاف حيث كان كوفي، غير حفص. وبفتح القاف غيرهم. وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل: بالفتح: الجراحة، وبالضم: ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: إن نالوا منك يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، لم يمنعهم عن

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿قُرْحٌ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٢/ ٦٦).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

معاودتكم إلى القتال، فأنتم أولى ألا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ صفته، والخبر ﴿نداولها﴾ ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نُصرِّفها. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نصرف ما فيها من النعم والنقم، نعطي لهؤلاء تارة، وطوراً لهؤلاء، كبيت الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا ويوماً نُسَاءُ ويوماً نُسَرّ (١)

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: نداولها لضروب من التدبير، وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم، كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وليكرم ناساً منك بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو: ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض. ومعناه: والله لا يحبّ من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيله، وهم: المنافقون، والكافرون.

١٤١ ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ التمحيص: التطهير، والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتّمييز، والاستشهاد، والتّمحيص. وإن كانت على الكافرين فلمحقهم، ومحو آثارهم.

١٤٢ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: لاتحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: ولما تجاهدوا؛ لأن العلم متعلق بالمعلوم. فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه؛ لأنه منتفٍ بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيراً، أي: ما فيه خير حتى يعلمه. ولما بمعنى لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقّع، فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى، وعلى توقّعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن. والواو بمعنى الجمع، نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. أو: جزم للعطف على يعلم الله. وإنّما

---

(١) البيت للنمر بن تولب.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

حركت الميم لالتقاء الساكنين. واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها.

١٤٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنّون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه، وتعرفوا شدّته ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي: رأيتموه معاينين، مشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخٌ لهم على تمنّيهم الموت، وعلى ما تسبَّبوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه. وإنما تمنّوا الشَّهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفار، كمن شرب الدواء من طبيب نصراني، فإن قصده حصول الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرَّ منفعة إلى عدو الله، وتنفيقاً لصناعته.

١٤٤ ـ لما رمى ابنُ قميئة رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسر رَبَاعيَته، أقبل يريد قتله، فذبَّ عنه مصعب بن عُمَيْر، وهو صاحب الراية، حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه رسول الله ﷺ. فقال: قتلتُ محمداً. وصرخ صارخ ـ قيل: هو الشيطان ـ: ألا إنَّ محمداً قد قُتِل، ففشا في الناس خبر قتله، فانكفؤوا. وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليّ عبادَ الله» حتى انحازتْ إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله! فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبرُ قتلك فولّينا مدبرين، فنزل[1]: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت ﴿ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ فسيخلو كما خلوا. وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسّكوا بدينه بعد خلوّه؛ لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى

(١) قال ابن حجر: هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد (حاشية الكشاف ١/ ٤٢١).

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ
قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟

التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت، أو قتل، مع علمهم أنَّ خلو الرسل قبله، وبقاء دينهم متمسّكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسُّك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه. والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد، أو عن الانهزام ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما ضرّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا. وسمّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

١٤٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعلمه، أو بأن يأذن لملَكَ الموت في قبض روحه. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله. وفيه تحريضٌ على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك، واقتحم المعارك ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم، ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة. وهو تعريضٌ بالذين شغلتهم الغنائم يوم أُحُد. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: إعلاء كلمة الله، والدرجة في الآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وسنجزي الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

١٤٦ ـ ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أيّ، دخل عليه كاف التشبيه، وصارا في معنى كم التي للتكثير. وكائن بوزن كاع حيث كان، مكي ﴿مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ﴾ ﴿قُتِلَ﴾: مكي، وبصري، ونافع ﴿مَعَهُۥ﴾ حال من الضمير في قتل، أي: قتل كائناً معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربّيون: الربانيون. وعن الحسن بضم الراء، وعن البعض بفتحها، فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب، والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ فما فتروا عند قتل نبيهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا

وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ وما خضعوا لعدوّهم. وهذا تعريضٌ بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، واستكانتهم لهم حيث أرادوا أن يعتضدوا بابن أُبيٍّ في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

١٤٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: وما كان قولهم إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم، مع كونهم ربّانيين، هضماً لها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حدّ العبودية ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في القتال. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالغلبة. وقدّم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة؛ لما فيه من الخضوع والاستكانة.

١٤٨ ـ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرة، والظفر، والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة. وخُصّ بالحسن دلالة على فضله، وتقدمه، وأنه هو المعتدّ به عنده ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هم محسنون، والله يحبهم.

١٤٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قيل: هو عامّ في جميع الكفار. وعلى المؤمنين أن يجانبوهم، ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه، وتستأمنوهم، يردوكم إلى دينهم. وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم.

١٥٠ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم، فاستغنوا عن نصرة غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ

١٥١ ـ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الرعُب: شامي، وعليّ. وهما لغتان. قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد، فانهزموا إلى مكة من غير سبب، ولهم القوة والغلبة ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ آلهة لم ينزّل الله بإشراكها حجّة. ولم يردْ أن هناك حجّة إلا أنها لم تنزل عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيم أن تقومَ عليه حجّة. وإنما المرادُ: نفي الحجّة ونزولها جميعاً، كقوله:

.... ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِر (١)

أي: ليس بها ضب فينجحر، ولم يعن: أن بها ضبّاً ولا ينجحر ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ ومرجعهم ﴿ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذمّ محذوف.

١٥٢ ـ ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فنزل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلاً ذريعاً. وعن ابن عيسى: حسّه: أبطل حسّه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره، وعلمه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم المركز، واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، وقهر الكفار. ومتعلق إذا محذوف تقديره: ﴿حتى إذا فشلتم﴾ منعكم نصره. وجاز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.

مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة.

رُوي أن رسولَ الله ﷺ جعل أُحُداً خلف ظهره، واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم، ولا يبرحوا؛ كانت الدَّولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف، حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، حتى إذا فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا؟ فادخلوا عسكر المسلمين، وخذوا الغنيمة مع إخوانكم. وقال بعضهم: لا تخالِفُوا أَمْرَ رسول الله ﷺ. فممن ثبت مكانه: عبد الله بن جبير ـ أمير الرماة ـ في نفر دون العشرة، وهم المعنيّون بقوله ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كف معونته عنكم، فغلبوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم عندها. وحقيقته: ليعاملكم معاملة المختبر؛ لأنه يجازي على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم، وقبول توبتهم. أو: هو متفضل عليهم في جميع الأحوال، سواء أديل لهم، أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة، كما أن النصرة رحمة.

١٥٣ ـ وانتصب ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض. والإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد فيه. بصرفكم، أو بقوله: ﴿ليبتليكم﴾ أو بإضمار: اذكروا ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفتون. وهو عبارة عن غاية انهزامهم، وخوف عدوّهم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول: «إليّ عباد الله! أنا رسول الله! من يكرّ فله الجنة».

فِىٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ

والجملة في موضع الحال ﴿فِىٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ في ساقتكم، وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أوّلهم، وأولاهم؛ بتأويل مقدمتهم، وجماعتهم الأولى ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غَمَّۢا﴾ حين صرفكم عنهم، وابتلاكم. ﴿بِغَمّٖ﴾ بسبب غمّ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم أمره، أو: غمّاً مضاعفاً، غماً بعد غم، وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أُرجف به من قتل رسول الله ﷺ، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ لتتمرّنوا على تجرع الغموم، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عالم بعملكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب في الطاعة، وترهيب عن المعصية.

١٥٤ ـ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ ثم أنزل الله الأمن على المؤمنين، وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم، حتى نعَسوا، وغلبهم النوم. عن أبي طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافّنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه[1]. والأمنة: الأمن. و﴿نعاساً﴾ بدل من أمنة. أو هو مفعول، و﴿أمنة﴾ حال منه مقدمة عليه، نحو: رأيت راكباً رجلاً. والأصل: أنزل عليكم نعاساً ذا أمنة، إذ النعاس ليس هو الأمن. ويجوز أن يكون «أمنة» مفعولاً له، أو حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبارّ وبررة ﴿يَغۡشَىٰ﴾ يعني: النعاس. «تغشى» بالتاء والإمالة: حمزة، وعليّ، أي: الأمنة ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ هم أهل الصدق، واليقين ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ هم المنافقون ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ ما يهمّهم إلا همّ أنفسهم وخلاصها، لا همّ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٢).

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾

الدين، ولا همّ رسول الله ﷺ والمسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجبُ أن يظنّ به. وهو ألا ينصر محمداً ﷺ ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه. والمراد: الظن المختص بالملة الجاهلية. أو: ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون: النصر، والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ﴾ أي: النصر، والغلبة ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كلَّه﴾ تأكيد للأمر و﴿لله﴾ خبر إن ﴿كلُّه﴾ بصري. وهو مبتدأ، و﴿لله﴾ خبره، والجملة خبر إن. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفاً من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو بعضهم لبعض، منكرين لقولك لهم: ﴿إن الأمر كله الله﴾ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد ﴿إن الأمر كله لله﴾ ولأوليائه، وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قُتِل من المسلمين من قُتِل في هذه المعركة. ﴿قد أهمتهم﴾ صفة لطائفة. و﴿يظنون﴾ خبر لطائفة، أو صفة أخرى، أو حال، أي: قد أهمتهم أنفسهم ظانين. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يظنون﴾. و﴿يخفون﴾ حال من ﴿يقولون﴾. و﴿قل إن الأمر كله لله﴾ اعتراض بين الحال وذي الحال. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يخفون﴾ أو استئناف ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: مَن علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة، وكتب ذلك في اللوح، لم يكن بُدٌّ من وجوده. فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم بأحد، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن

وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟
عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ

ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيصٌ لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح جمة، وللابتلاء، والتمحيص ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

١٥٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ انهزموا ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد ﷺ وجمع أبي سفيان للقتال بأُحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ دعاهم إلى الزلّة، وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب، والتعليل بكسبهم وَعْظ وتأديب. وكان أصحاب محمد ﷺ تولوا عنه يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلاً، منهم: أبو بكر، وعليّ، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

١٥٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كابن أُبيّ وأصحابه ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم في النسب، أو: في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة، أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غاز، كعاف وعُفًّى، وأصابهم موت، أو قتل ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام تتعلق بـ«لا تكونوا»، أي: لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول، واعتقاده؛ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة، ويصون منها قلوبكم. أو: بـ«قالوا»، أي: قالوا ذلك، واعتقدوه؛ ليكون ذلك حسرة في قلوبهم. والحسرة: الندامة على فوت المحبوب ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردّ لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والمقاتل، ويميت

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا
رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

المقيم والقاعد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم. يعملون: مكي، وحمزة، وعليّ، أي: الذين كفروا.

١٥٧ ـ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ «متم» وبابه بالكسر، نافع، وكوفي، غير عاصم. تابعهم حفص إلا في هذه السورة، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم بضم الميم في جميع القرآن. فالضم من: مات يموت. والكسر: من مات يمات كخاف يخاف، فكما تقول: خفت، تقول: مت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف. وبالياء: حفص[1].

١٥٨ ـ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة، المثيب، العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غني عن البرهان. «لمغفرة» جواب القسم، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط. وكذلك ﴿لإلىٰ الله تحشرون﴾. كذّب الكافرين أولاً في زعمهم: أن من سافر من إخوانهم، أو غزا، لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سببُ التقاعد عن الجهاد. ثم قال لهم: ولئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت، أو القتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا؛ لأن الدنيا زاد المعاد، فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتج إلى الزاد.

١٥٩ ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ «ما» مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه، وتوفيقه

---

(١) أشار المصنف ـ رحمه الله ـ إلى قراءة حفص المثبتة في النص، وأما قراءة «تجمعون» بالتاء، فهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾

للرفق، والتلطف بهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحدٌ منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يوم أحد مما يختصُّ بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختصُّ بحقِّ الله، إتماماً للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي تطييباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، ورفعاً لأقدارهم، ولتقتدي بك أمتك فيها. في الحديث: «ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»[١]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ[٢]. ومعنى: شاورت فلاناً: أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي، وشرت الدابة: استخرجت جريها. وشرت العسل: أخذته من مآخذه. وفيه دلالةُ جواز الاجتهاد، وبيان أن القياسَ حُجَّة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد، لا على المشورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، والتوكل: الاعتماد على الله، وتفويض الأمر إليه. وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

١٦٠ ـ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. وإنما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوّته، واستعصم بربه وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، وهو: ترك المعونة؛ أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من

(١) قال ابن حجر: المحفوظ عن الحسن. ورواه الطبري موقوفاً عليه في التفسير (٤/ ١٥٢).

(٢) قال ابن حجر: هذا فيه تحريف، والصواب: من رسول الله ﷺ لأصحابه. رواه الترمذي بإثر حديث (١٧١٤) في الجهاد.

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

بعد فلان، تريد: إذا جاوزته. وهذا تنبيهٌ على أنَّ الأمر كله لله، وعلى وجوب التوكل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخص المؤمنون ربَّهم بالتوكل والتفويض إليه، لعلمهم: أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

١٦١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ مكي، وأبو عمرو، وعاصم، أي: يخون. وبضم الياء وفتح الغين غيرهم. يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلولاً، وأغل إغلالاً: إذا أخذه في خفية، ويقال: أغله إذا وجده غالاً. والمعنى: ما صح له ذلك، يعني: أن النبوة تنافي الغلول. وكذا من قرأ على البناء للمفعول، فهو راجع إلى هذا لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا ان غالاً. رُوي أن قطيفةً حمراء فُقِدت يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعضُ المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فنزلت الآية[1] ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يأت بالشيء الذي غلّه بعينه، حاملاً له على ظهره، كما جاء في الحديث[2]؛ أو: يأت بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تُعطى جزاءها وافياً. ولم يقل: ثم يوفى ما كسب ـ ليتصل بقوله: ومن يغلل ـ بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى. وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال: أنَّ كلَّ كاسب خيراً أو شراً مجزي فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلّص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: جزاء كلّ علىٰ قدر كسبه.

١٦٢ ـ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رضا الله. قيل: هم المهاجرون والأنصار ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكُفَّار ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٩).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٢٦) والبخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١).

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ
أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ

١٦٣ ـ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات. أو: ذوو درجات. والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها، فيجازيهم على حسابها.

١٦٤ ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه. وخصّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربياً مثلهم. أو: من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده. والمنة في ذلك من حيث إنه إذا [كان منهم][1] كان اللسان واحداً، فيسهل أخذ ما يجبُ عليهم أخذه عنه. وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم. وفي قراءة رسول الله من أنفسهم، أي: من أشرفهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم بالإيمان من دنس الكفر والطغيان، أو: يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﷺ.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ عمى، وجهالة ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شُبهة فيه. إن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والتقدير: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مبين.

١٦٥ ـ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد مِن قَتْل سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين. وهو في موضع رفع صفة لمصيبة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ
نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ
بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ

لاختياركم الخروج من المدينة، أو لتركِكم المركز ﴿لما﴾ نصب بقلتم، و﴿أصابتكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أنى هذا﴾ نصب؛ لأنه مقول. والهمزة: للتقرير والتقريع. وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أو على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا، وقلتم حينئذ كذا؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ يقدر على النصر وعلى منْعه.

١٦٦ ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ «ما» بمعنى الذي، وهو مبتدأ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأُحُد. والخبر: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله، أي: بعلمه، وقضائه ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٦٧ ـ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ وهو كائن؛ ليتميز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ للمنافقين، وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ أي: قاتلوا دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، إن لم تُقاتلوا للآخرة. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما تُروِّع العدو ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ أي: لو نعلم ما يصحّ أن يُسمَّى قتالاً لاتبعناكم. يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم ليس بشيء، ولا يقال لمثله: قتال، إنما هو: إلقاء النفس في التهلكة ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ يعني: أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يضمرون من

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ
عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ

الإيمان وغيره. والتقييد بالأفواه للتأكيد، ونفي المجاز ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ من النفاق.

١٦٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ أي: ابن أبيّ وأصحابه. وهو في موضع رفع على «هم الذين قالوا». أو: على الإبدال من واو «يكتمون». أو نصب بإضمار: أعني. أو على البدل «من الذين نافقوا». أو جرّ على البدل من الضمير في «أفواههم» أو قلوبهم ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أُحُد ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود، ووافقونا فيه، لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر، فخذوا حذركم من الموت. أو: معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً، وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً. ورُوي أنه مات يوم قالوا هذه المقال سبعون منافقاً.

١٦٩ ـ ونزل في قتلى أُحُد: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ شامي، وحمزة، وعلي، وعاصم، وبكسر السين غيرهم. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ قُتّلوا، شامي ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مقرّبون عنده، ذوو زلفى ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيدٌ لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعُّم برزق الله.

١٧٠ ـ ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وهو التوفيق في الشهادة، وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقرّبين، معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وقال النبي ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تدور في أنهار

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»[1]. وقيل: هذا الرزق في الجنة يوم القيامة. وهو ضعيف؛ لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم، وهم قد تقدّموهم. أو: ﴿لم يلحقوا بهم﴾: لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو: أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشّرهم الله بذلك، فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٧١ ـ ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يسرون بما أنعم الله عليهم، وما تفضَّل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. و﴿إن الله﴾ عليّ، بالكسر على الاستئناف، وعلى أن الجملة اعتراض ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُوفِّر عليهم.

١٧٢ ـ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿للذين أحسنوا﴾ أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجرح. رُوي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أُحد، فبلغوا الروحاء ندموا، وهمّوا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب النبيُّ أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾

فذهبوا. فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ «من» للتبيين، مثلها في قوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٧٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدل من الذين استجابوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ رُوي أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد! موعدنا موسم بدر القابل. فقال ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى اللهُ الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي ـ وقد قدم معتمراً ـ فقال: يا نعيم! إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر. وقد بدا لي أن أسلم فالحق بالمدينة، فثبطهم، ولك عندي عشرة من الإبل. فخرج نعيم، فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم؟! فو الله لا يفلت منكم أحد. فقال ﷺ: «والله لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً، وهم يقولون: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ حتى وافوا بدراً، وأقاموا بها ثماني ليال. وكانت معهم تجارة فباعوها، وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ولم يكن قتال، ورجع أبو سفيان إلى مكة. فسمّى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السويق[١]. فالناس الأول: نعيم، وهو جمع أريد به الواحد. أو كان له أتباع يثبطون مثل تثبيطه. والثاني: أبو سفيان وأصحابه ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: المقول الذي هو: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ أو: القول، أو: نعيم ﴿إِيمَـٰنًا﴾ بصيرة، وإيقاناً ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله، أي: الذي يكفينا الله. يقال: أحسبه الشيء: إذا كفاه، وهو بمعنى المحسب، بدليل أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛

(١) رواه ابن سعد من طريق ابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وغيرهما. (حاشية الكشاف ١/ ٤٤١).

وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

لأن إضافته غير حقيقية لكونه في معنى اسم الفاعل ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو.

١٧٤ ـ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي السلامة، وحذرُ العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة، فأصابوا بالدرهم درهمين ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوؤهم من كيد عدوّ. وهو حال من الضمير في ﴿انقلبوا﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ والتقدير: فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بجراءتهم، وخروجهم إلى وجه العدوّ على أثر تثبيطه. وهو معطوف على انقلبوا ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا.

١٧٥ ـ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ هو خبر ﴿ذلكم﴾ أي: ﴿إنما ذلكم﴾ المثبط هو ﴿الشيطان﴾ وهو نعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: المنافقين. وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو: ﴿الشيطان﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿يخوف﴾ الخبر ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءه ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي أن يؤثر العبدُ خوفَ الله على خوف غيره. وخافوني في الوصل والوقف، سهل ويعقوب. وافقهما أبو عمرو في الوصل.

١٧٦ ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ يُحزنك في كل القرآن: نافع، إلا في سورة الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: لا يحزنوك لخوف أن يضروك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: أولياء الله، يعني: أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بيّن كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: نصيباً من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضرَّ به الإنسان نفسه. والآية تدلُّ على إرادة الكفر

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ

والمعاصي؛ لأن إرادته ألا يكون لهم ثواب في الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم، ومعاصيهم.

١٧٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: استبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ هو نصب على المصدر، أي: شيئاً من الضرر. الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين، أو ارتد عن الإسلام، والثانية في جميع الكفار. أو على العكس ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٧٨ ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء في ﴿يحسبنهم﴾ بالياء، مكي، وأبو عمرو. وكلها بالتاء حمزة. وكلها بالياء مدني، وشامي إلا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإنها بالتاء. الباقون: الأوليان بالياء، والأخريان بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيمن قرأ بالياء رفع، أي: ولا يحسبن الكافرون. وأنَّ مع اسمه وخبره في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ في موضع المفعولين ليحسبن، والتقدير: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ إملاءنا خيراً لأنفسهم. و«ما» مصدرية، وكان حقّها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة، فلا يخالف. وفيمن قرأ بالتاء نصب، أي: ولا تحسبن الكافرين. و﴿أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل من الكافرين، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم. وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين. والإملاء لهم: إمهالهم، وإطالة عمرهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ «ما» هذه حقّها أن تكتب متصلة؛ لأنها كافة دون الأولى. وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم؟ فقيل: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾. والآية حجة لنا على المعتزلة في مسألتي الأصلح، وإرادة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٧٩ ـ اللام في: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط

حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

المؤمنين الخلَّص والمنافقين؛ لتأكيد النفي ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص ﴿يُمَيِّزَ﴾: حمزة، وعليّ. والخطاب في ﴿أنتم﴾ للمصدقين من أهل الإخلاص والنفاق. كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه، وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتي أحداً منك علم الغيوب، فلا تتوهّموا عند إخبار الرسول بنفاق الرجل، وإخلاص الآخر، أنه يطّلع على ما في القلوب اطّلاع الله، فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه، ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق، وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حُجَّة على الباطنية، فإنهم يدّعون ذلك العلم لإمامهم، فإن لم يثبتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص، حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسل. وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر، وهو قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفة الإخلاص. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٨٠ ـ ونزل في مانعي الزكاة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من قرأ بالتاء قدّر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الباخلين. و﴿هو﴾ فصل. و﴿خيراً لهم﴾ مفعول ثان. وكذا من قرأ بالياء، وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان التقدير: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ وهو: فصل، وخيراً لهم: مفعول ثان ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم وبالُ البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفسير لقوله ﴿بل هو شر لهم﴾ أي: سيجعل مالهم الذي منعوه عن الحق طوقاً في أعناقهم، كما جاء في الحديث: «من منع زكاة ماله يصير حية ذكراً أقرع له نابان فيطوّق في عنقه فينهشه ويدفعه إلى النار»[1] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه في سبيل الله؟! والأصل في ميراث: موارث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء مكي، وأبو عمرو، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد. والياء على الظاهر.

١٨١ ـ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذاً أغنياء وهو فقير. ومعنى سماع الله له، أنه لم يَخْفَ عليه، وأنه أعدَّ له كفاء من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف. أو: سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه، فَسُمِّي به مجازاً. و«ما» مصدرية، أو: بمعنى الذي ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على ما. جَعَل قتلهم الأنبياء قرينة له، إيذاناً بأنهما في العِظَم أخوان، وأن من قَتَلَ الأنبياء لم يستبعدْ منه الاجتراء على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار كما أذقتم المسلمين الغصص. قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنة جهنم. وإنما أضيف إلى الله تعالى؛ لأنه بأمره كما في قوله: ﴿سنكتب﴾. ﴿سيُكتَب﴾، ﴿وقتلُهم﴾، ويقول: حمزة.

١٨٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذاب بما قدّمتم من الكفر والمعاصي. والإضافة إلى اليد؛ لأن أكثر

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٢٠) والبخاري (١٤٠٢) والنسائي (٦/ ٢٣ـ٢٤) وابن ماجه (١٧٨٦).

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

الأعمال يكون بالأيدي، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. ولأنه يقال للأمر بالشيء: فاعله، فذكر الأيدي للتحقيق، يعني: أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده، فلا يعاقبهم بغير جرم.

١٨٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ في موضع جر على البدل من ﴿الذين قالوا﴾. أو: نصب بإضمار: أعني. أو: رفع بإضمار: هم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ بألا نؤمن. ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: يقرّب قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله، فإن جئتنا به صدقناك. وهذه دعوى باطلة، وافتراء على الله؛ لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتي به؛ لكونه معجزة، فهو إذاً وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: بالقربان. يعني: قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم، وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا، فلم لم تؤمنوا بالذين أتوا به؟! ولم قتلتموهم؟! ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إنما نؤخر الإيمان لهذا.

١٨٤ ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود، فلا يهولنك، فقد فعلت الأمم بأنبيائها كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات الظّاهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب، جمع زبور، من الزبر، وهو: الكتابة. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ شامي ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ﴾ جنسه. ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ المضيء. قيل: هما واحد في الأصل. وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين. فالزبور: كتاب فيه حكم زاجرة. والكتاب المنير هو: الكتاب الهادي.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

١٨٥ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم. والمعنى: لا يحزنك تكذيبهم إياك، فمرجع الخلق إليّ، فأجازيهم على التكذيب، وأجازيك على الصَّبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة؛ فإنَّ الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بعد، والزحزحة: الإبعاد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير. وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق، وقيل: الفوز: نيل المحبوب، والبعد عن المكروه ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبّه الدنيا بالمتاع الذي يدلَّس به على المستام ويغرّ، حتى يشتريه، ثم يتبيَّن له فساده ورداءته. والشيطان: هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة. فأما مَن طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ. وعن الحسن: كخضرة النبات، ولعب البنات، لا حاصل لها.

١٨٦ ـ ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ﴾ والله لتبلونّ، أي: لتختبرن ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالإنفاق في سبيل الله، وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وهذه الآية دليلٌ على أنَّ النفسَ هي الجسم المعاين دون ما فيه من المعنى الباطن، كما قال بعضُ أهل الكلام والفلاسفة، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ كالطعن في الدين، وصدّ من أراد الإيمان، وتخطئة مَن آمن، ونحو ذلك. ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ فإنَّ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور. خوطب المؤمنون بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها ـ لقوها وهم مستعدون ـ لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة، فينكرها، وتشمئزّ منها نفسه.

١٨٧ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ واذكروا وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عن الناس. بالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: ٤]. وبالياء: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر؛ لأنه غيب. والضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاق، وتأكيده عليهم، أي: لم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه. والنبذ وراء الظهر مثلٌ في الطرح، وترك الاعتداد. وهودليلٌ على أنه يجب على العلماء أن يُبيِّنوا الحقَّ للناس، وما علموه، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، أو لجرّ منفعة، أو دفع أذية، أو لبخل بالعلم. وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله ألجمه الله بلجام من نار»[1] ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

١٨٨ ـ والخطاب في: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني ﴿بمفازة﴾ وقوله: ﴿فلا تحسبنهم﴾ تأكيد. تقديره: لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما فعلوا، وهي قراءة أبي. وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. وقرأ النخعي: بما آتوا، أي: أعطوا ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣) وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة، فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم فأطلع اللهُ رسوله على ذلك؛ وسلاّه بما أنزل مِن وعيدهم. أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه، ناجين من العذاب. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين، وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة. وفيه وعيدٌ لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه.

١٨٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ على عقابهم.

١٩٠ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾ لأدلة واضحة على صانع قديم، عليم، حكيم، قادر ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللبّ عن القشر. فيرى أن العرضَ المحدث في الجواهر يدلُّ على حدوث الجواهر؛ لأن جوهراً ما لا ينفك عن عرض حادث، وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث. ثم حدوثها يدلُّ على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى مالا يتناهى. وحسن صنعه يدلُّ على علمه، وإتقانه يدلُّ على حكمته، وبقاؤه يدلُّ على قدرته. قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1]. وحُكي أنه كان في بني إسرائيل من إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلَّته سحابة، فعبده فتى فلم تظلّه، فقالت له أمه: لعلَّ فرطةً فرطت منك في

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٤٠٩).

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

مدتك؟! قال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر؟! قال: لعل. قالت: فما أُوتيت إلا من ذاك.

١٩١ - ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع جر نعت لـ: «أولي»، أو نصب بإضمار أعني، أو رفع بإضمار هم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يصلّون ﴿قِيَـٰمًا﴾ قائمين عند القدرة ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: مضطجعين عند العجز. وقياماً وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في ﴿يذكرون﴾. و﴿على جنوبهم﴾ حال أيضاً. أو: المراد الذكر على كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال. وفي الحديث: «من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[1] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما يدلُّ عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعتها، وما دبرّ فيها مما تكلُّ الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، من عظم شأن الصانع، وكبرياء سلطانه. وعن النبي ﷺ: «بينا رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه، فنظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له»[2]. وقال ﷺ: «لا عبادة كالتفكر»[3]. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ أي: يقولون ذلك. وهو في محل الحال، أي: يتفكرون قائلين. والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقته لحكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة لهم على معرفتك. وهذا إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق، كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الوصف بخلق الباطل. وهو اعتراض ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك فقنا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٣٠٢).

(٢) رواه الثعلبي. حاشية الكشاف (١/٤٥٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٤٨).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

١٩٢ ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أهنته، أو أهلكته، أو فضحته. واحتج أهلُ الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] في أنَّ من يدخل النار لا يكون مؤمناً ويخلد. قلنا: قال جابر: إخزاء المؤمن تأديبه، وإن فوق ذلك لخزياً ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، والمراد: الكفار ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ من أعوان وشفعاء يشفعون لهم كالمؤمنين.

١٩٣ ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف لم يكن منه بُدٌّ، وأن يقال: سمعت كلام فلان، والمنادي هو الرسول ﷺ، أو القرآن ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي، إذ لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ بأن آمنوا، أو: أي: آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: فيه دليلُ بطلان الاستثناء في الإيمان ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم. والأبرار: المتمسكون بالسنة، جمع بر، أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب.

١٩٤ ـ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على تصديق رسلك، أو: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو: على ألسنة رسلك. و﴿على﴾ متعلق بوعدتنا. والموعود هو الثواب، أو النصرة على الأعداء. وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله ـ والله لا يخلف الميعاد ـ لأن معناه: طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. أو: المراد: اجعلنا ممن لهم الوعد إذ الوعد غير مبيَّن لمن هو. أو: المراد ثبتنا على ما يوصلنا إلى عدتك، يؤيده قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى
وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾

أو: هو إظهار للخضوع والضراعة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ هو مصدر بمعنى الوعد.

١٩٥ ـ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجاب، يقال: استجاب له، واستجابه ﴿أَنِّي﴾ بأني. ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ صفة لعامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعامل ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، كلكم بنو آدم. أو: بعضكم من بعض في النصرة والدين. وهذه جملة معترضة بُيِّنَتْ بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين. عن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا... أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد. وقرأ الآيات ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ مبتدأ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم، على سبيل التعظيم له، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم، فارّين إلى الله بدينهم إلى حيث يأمنون عليه. فالهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ التي وُلدوا فيها ونشؤوا ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ بالشتم، والضرب، ونهب المال. يريد: سبيل الدين ﴿وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا ﴿وقُتِّلوا﴾: مكي، وشامي. (وقتلوا وقاتلوا) على التقديم والتأخير، حمزة، وعلي. وفيه دليل على أنَّ الواو لا توجب الترتيب. والخبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وهو جواب قسم محذوف ﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد، يعني: إثابة، أو تثويباً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لأن قوله: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم﴾ في معنى: لأثيبنهم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: يختص به، ولا يقدر عليه غيره.

١٩٦ ـ ورُوي أنَّ طائفةً من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع، فنزل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ
لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ

والخطاب لكلِّ أحد. أو للنبي ﷺ، والمراد به غيره. أو: لأن مِدَرة[1] القوم ومقدّمهم يخاطب بشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم. أو: لأنَّ رسولَ الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكّد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦].

١٩٧ ـ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: تقلُّبهم في البلاد متاع قليل. وأراد: قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو: في جنب ما أعدَّ الله للمؤمنين من الثواب، أو: أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه، وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

١٩٨ ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ عن الشرك ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ النُّزُل والنُّزْل: ما يقام للنازل. وهو حال من جنات لتخصُّصها بالصفة، والعامل اللام في «لهم»؛ أو: هو مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً، أو: عطاء ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلّب فيه الفجار من القليل الزائل. «لكن» بالتشديد: يزيد. وهو للاستدراك، أي: لا بقاء لتمتعهم، لكن ذلك للذين اتقوا.

١٩٩ ـ ونزلت في ابن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، أو: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، وكانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن

---

(١) جاء في حاشية الأصل المخطوط: مِدَرَة القوم: سيّدهم.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من الكتابين ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن؛ لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم، وهو حال بعد حال، أي: غير مشترين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر. وهو ما وُعدوه في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه في كلِّ شيء.

٢٠٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ على الدِّين وتكاليفه. قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الصبر: حبس النفس على المكروه بنفي الجزع ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداء الله في الجهاد، أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقلّ صبراً منهم وثباتاً ﴿وَرَابِطُواْ﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين، مستعدين للغزو ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه. ولعل: لتغييب المآل لئلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال. وقيل: اصبروا في محبتي، وصابروا في نعمتي، ورابطوا أنفسكم في خدمتي، ﴿لعلكم تفلحون﴾: تظفرون بقربتي.

قال النبي ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو: غيايتان، أو: فرقان من طير صوافّ، تحاجّان عن أصحابهما»[1]. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) رواه مسلم (٨٠٤). «كأنهما غمامتان أو غيايتان»: الغمامة والغياية: كل شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه: سحابة وغبرة وغيرهما. «أو فرقان من طير صوافّ»: الفِرقان: القطعتان أو الجماعتان. و«طير صواف»: هي التي تبسط أجنحتها في الهواء. «تحاجان»: تدافعان، وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً

---

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فرَّعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة، أنشأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعَّبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [ونشر من آدم وحواء﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ كثيرة، أي: وبثّ منهما نوعي جنس الإنس، وهما: الذكور والإناث][١]. فوصفها بصفةٍ هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها. أو: على خلقكم، والخطاب في ﴿يا أيها الناس﴾ للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: خلقكم مِن نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء غيركم من الأمم الفائتة للحصر. فإنْ قلت: الذي تقتضيه جزالة النظم أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدعو إليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التنصيل الذي ذكره داعياً إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدلُّ على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾

الكفار والفجار، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه، ويخشى عقابه؛ ولأنه يدلُّ على النعمة السابغة عليهم، فحقّهم أن يتقوه في كفرانها. قال ﷺ عند نزول الآية: «خُلقت المرأة من الرجل فهمّها في الرجل، وخلق الرجل من التراب فهمّه في التراب»[1] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾[2] والأصل: تتساءلون، فأدغمت التاء في السين بعد إبدالها سيناً لقرب التاء من السين للهمس. «تساءلون به» ـ بالتخفيف ـ كوفي، على حذف التاء الثانية استثقالاً لاجتماع التاءين. أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم، فيقول: بالله وبالرحم افعل كذا، على سبيل الاستعطاف ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم الله تعالى، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أو على موضع الجار والمجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً. أو: بالجر، حمزة، على عطف الظاهر على الضمير، وهو ضعيف؛ لأن الضمير المتصل كاسمه متصل، والجار والمجرور كشيء واحد، فأشبه العطف على بعض الكلمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً أو عالماً.

٢ ـ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتم: الانفراد، ومنه: الدرة اليتيمة. وقيل: اليتم في الأناسي من قبَل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. وحقّ هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار؛ لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسمُّوا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد الحلم»[3] تعليم شريعة لا لغة. يعني: أنه إذا احتلم لم تجرِ عليه أحكامُ الصغار. والمعنى: وآتوا اليتامى أموالهم بعد

---

(١) ذكره السيوطي في (الدر المنثور ٢/٤٢٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تسَّاءلون﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٠٣/٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٣).

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

البلوغ. وسمَّاهم يتامى لقرب عهدهم ـ إذا بلغوا ـ بالصغر. وفيه إشارة إلى ألا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حدِّ البلوغ إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصِّغار ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام ـ وهو مال اليتامى ـ بالحلال ـ وهو مالكم ـ أو: لا تستبدلوا الأمر الخبيث ـ وهو اختزال أموال اليتامى ـ بالأمر الطيب ـ وهو حفظها، والتورُّع عنها ـ. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز، ومنه التعجل بمعنى الاستعجال ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف، وهو في موضع الحال، أي: مضافة إلى أموالكم. والمعنى: ولا تضمُّوها إليها في الإنفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحلُّ لكم، وتسوية بينه وبين الحلال ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ أكلها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً.

٣ ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ أي: لا تعدلوا. أقسط، أي: عدل ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [يقال للإناث اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة ويتيم، وأما أيتام فجمع يتيم لا غير](١) ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ ما حلَّ لكم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ لأنَّ منهن ما حرم الله كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ﴿مَا﴾ ذهاباً إلى الصفة؛ لأنَّ «ما» يجيءُ في صفات من يعقل، فكأنه قيل: الطَّيبات من النساء. ولأنَّ الإناثَ من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾. قيل: كانوا لا يتحرَّجون من الزنى، ويتحرَّجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتم الجور في حقِّ اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حلَّ لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات. أو: كانوا يتحرَّجون من الولاية في أموال اليتامى، ولا يتحرَّجون من الاستكثار من النساء، مع أنَّ الجورَ يقعُ بينهن إذا كثرن، فكأنه قيل: إذا تحرَّجتم من هذا فتحرَّجوا من ذلك. وقيل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في﴾ نكاح ﴿اليتامى فانكحوا﴾ من البالغات. يقال: طابت الثمرة،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً

أي: أدركت ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ نكرات. وإنما مُنعت الصرف للعدل والوصف، وعليه دلَّ كلام سيبويه. ومحلُّهن النصب على الحال من النساء، أو مما طاب، تقديره: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. فإن قلت: الذي أطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع، فوجب التكرير ليصيب كلُّ ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له. كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال ـ وهو ألف درهم ـ درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. وجيء بالواو لتدلَّ على تجويز الجمع بين الفرَق، ولو جيء بأو مكانها لذهب معنى التجويز ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فالزموا، أو: فاختاروا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ سوى في اليسر بين الحرَّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتَّسرِّي ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أقرب من ألا تميلوا ولَا تجوروا. يقال: عال الميزان عولاً: إذا مال، وعال الحاكم في حكمه: إذا جار. ويُحكى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه فسَّر ﴿ألا تعولوا﴾: ألا تكثر عيالكم. واعترضوا عليه بأنه يقال فيه أعال يعيل: إذا كثر عياله. وأجيب بأن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولك: مانهم يمونهم: إذا أنفق عليهم؛ لأنَّ مَن كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعّب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال. وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، كأنه سلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

٤ ـ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ مِن: نحله كذا: إذا أعطاه إياه، ووهبه له عن طيبة من نفسه، نحلةً ونحلاً. وانتصابها على المصدر؛ لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكأنه قال: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم. أو: على الحال من المخاطبين، أي:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾

آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالإعطاء. أو: من الصدقات، أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل: نحلة من الله تعالى: عطية من عنده وتفضُّلاً منه عليهن. وقيل: النحلة: الملة، وفلان ينتحل كذا، أي: يدين به، يعني: وآتوهن مهورهن ديانة، على أنها مفعول لها. والخطاب للأزواج، وقيل،: للأولياء؛ لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواج ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الصداق، إذ هو في معنى الصدقات ﴿نَفْسًا﴾ تمييز. وتوحيدها لأنَّ الغرضَ بيانُ الجنس، والواحد يدل عليه. والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق، وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم، وسوء معاشرتكم. وفي الآية دليلٌ على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس، فقيل: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم[1] إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة ﴿فَكُلُوهُ﴾ الهاء تعود على شيء ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا إثم فيه ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ لا داء فيه. فسّرهما النبي ﷺ. أو: هنيئاً في الدنيا بلا مطالبة، مريئاً في العقبى بلا تبعة. وهما صفتان من: هنؤ الطعام ومرؤ؛ إذا كان سائغاً لا تنغيصَ فيه. وهما وصف مصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير، أي: كلوه، وهو هنيء مريء. وهذه عبارةٌ عن المبالغة في الإباحة، وإزالة التبعة. هنياً مرياً بغير همز: يزيد. وكذا حمزة في الوقف. وهمزهما الباقون. وعن عليّ ـرضي الله عنه ـ: إذا اشتكى أحدُكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، ثم ليشتر بها عسلاً فليشربه بماء السماء، فيجمع الله له هنيئاً ومريئاً وشفاء ومباركاً.

٥ ـ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا قدرة لهم على إصلاحها، وتثميرها، والتصرف فيها. والخطاب للأولياء. وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء؛ بقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لأنهم يلونها،

---

(١) من المطبوع.

ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴿٦﴾

ويمسكونها. ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي: قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم. ﴿قِيَماً﴾ بمعنى قياماً، نافع وشامي، كما جاء عوذاً بمعنى عياذاً. وأصل قيام: قوام: فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وكان السلفُ يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان ـ وكان له بضاعة يقلبها ـ: لولاها لتمندل بي بنو العباس[1] ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتتربَّحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فيأكلها الإنفاق ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قال ابنُ جريج: عدة جميلة: إن صَلَحتم ورَشَدتم سلمنا إليكم أموالكم. وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل، فهو معروف. وما أنكرته لقبحه، فهو منكر.

٦ ـ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ واختبروا عقولهم، وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصُّرف قبل البلوغ. فالابتلاء عندنا: أن يدفع إليه ما يتصرَّف فيه حتى تتبيَّن حاله فيما يجيء منه. وفيه دليلٌ على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: الحُلم؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، ولطلب ما هو مقصود به، وهو: التوالد ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ﴾ تبينتم ﴿رُشۡدٗا﴾ هداية في التصرفات، وصلاحاً في المعاملات ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ من غير تأخير عن حدِّ البلوغ. ونظم هذا الكلام أنَّ ما بعد حتى إلى ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جعل غاية للابتلاء. وهي «حتى» التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

.... حتى ماءُ دجلةَ أشكلُ[2]

والواقعة بعدها جملة شرطية؛ لأن إذا متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط:

---

(١) أي: لاتخذوني كالمنديل يتمسّحون بي.

(٢) البيت لجرير، وهو بتمامه:

فما زالتِ القتلى تمجُّ دماءها بدجلةَ حتى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ

وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأوّل؛ الذي هو «إذا بلغوا النكاح»، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وتنكير الرشد يفيد أن المرادَ رشدٌ مخصوص، وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو يفيد: التقليل، أي: طرفاً من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد. وهو دليلٌ لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم. فإسرافاً وبداراً مصدران في موضع الحال و﴿أن يكبروا﴾ في موضع المصدر منصوب الموضع ببداراً. ويجوز أن يكونا مفعولاً لهما. أي: لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تُفْرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعفّ من أكلها، أي: يحترز من أكل مال اليتيم. واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. والفقير يأكل قوتاً مقدّراً محتاطاً في أكله. عن إبراهيم: ما سدّ الجوعة، ووارى العورة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلّموها وقبضوها دفعاً للتجاحد، وتفادياً عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم، والتناكر ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب. أو: هو راجع إلى قوله: ﴿فليأكل بالمعروف﴾ أي: ولا يسرف، فإن الله يحاسبه عليه، ويجازيه به. وفاعل كفى: لفظة الله، والباء زائدة. وكفى يتعدّى إلى مفعولين، دليله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٧ ـ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

﴿وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هم المتوارثون من ذوي القرابات دون غيرهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل ﴿مما ترك﴾ بتكرير العامل. والضمير في ﴿منه﴾ يعود إلى ما ترك ﴿نَصِيبًا﴾ نصب على الاختصاص، بمعنى: أعني نصيباً ﴿مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعاً لا بدّ لهم من أن يحوزوه. رُوي أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كُحّة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن. وكان أهلُ الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لايرث إلا من طاعنَ بالرماح، وحاز الغنيمة. فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فشكت. فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت الآية. فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله تعالى قد جعل لهن نصيباً، ولم يبين حتى يبين» فنزلت: ﴿يوصيكم الله﴾ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين، والباقي ابني العم[1].

٨ ـ ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة التركة ﴿أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ فأعطوهم ﴿مِّنْهُ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون. وهو أمر ندبٍ، وهو باق لم ينسخ. وقيل: كان واجباً في الابتداء، ثم نُسِخ بآية الميراث ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عذراً جميلاً، وعدة حسنة. وقيل: القول المعروف: أن يقولوا لهم: خذوا بارك الله عليكم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يمنّوا عليهم.

٩ ـ ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ المراد بهم الأوصياء. أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على مَن في حجورهم من اليتامى، فيشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً، وأن يقدّروا ذلك في أنفسهم، ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف

(١) قال الحافظ: هكذا أورده الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد (حاشية الكشاف ١ / ٤٧٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾

الشفقة والرحمة. و«لو» مع ما في حيزه: صلة للذين، أي: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً ـ وذلك عند احتضارهم ـ خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم. وجواب ﴿لو﴾ خافوا. والقول السديد من الأوصياء: أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن، والترحيب، ويدعوهم بـ: يا بني، ويا ولدي.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، فهو مصدر في موضع الحال ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم ﴿نَارًا﴾ أي: يأكلون ما يجرُّ إلى النار. فكأنه نار. رُوي أنه يُبعث آكلُ مال اليتامى يوم القيامة والدخان يخرجُ من قبره، ومِن فيه، وأنفه، وأذنيه، فيعرف الناس أنه كان يأكلُ مال اليتيم في الدنيا[1] ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ ﴿وسيُصْلَون﴾ شامي، وأبو بكر. أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً من النيران، مبهمة الوصف.

١١ ـ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعهد إليكم، ويأمركم ﴿فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهذا إجمال تفصيله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر منهم، أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه؛ لأنه مفهوم، كقولهم: السمن منوان بدرهم. وبدأ بحظ الذكر، ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث، وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى الذكور أن ضُوعِف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. والمراد: حال الاجتماع، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان تأخذان الثلثين. والدليل عليه أنه أتبعه حكم الانفراد بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٦٦) بلفظ: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجّج أفواههم ناراً...».

فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ

﴿نِسَآءً﴾ أي: فإن كانت الأولاد نساء خلصاً، يعني: بنات ليس معهن ابن ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان لكان، أو: صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت؛ لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي: وإن كانت المولودة منفردة ﴿وَاحِدَةٌ﴾: مدني على كان التامة. والنصب أوفق لقوله: ﴿فإن كن نساء﴾. فإن قلت: قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد فما حكمهما؟ قلت: حكمهما مختلف فيه. فابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلهما منزلة الواحدة، لا منزلة الجماعة. وغيره من الصحابة - رضي الله عنهم - أعطوهما حكم الجماعة بمقتضى قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وذلك لأن من مات، وخلَّف بنتاً وابناً، فالثلث للبنت، والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة كان الثلثان للبنتين. ولأنه قال في آخر السورة: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ والبنتان أمسّ رحماً بالميت من الأختين، فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين، ولم ينقصوا حظهما عن حظِّ مَن هو أبعد منهما. ولأنَّ البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أحرى أن يجبَ لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه ، فوجب لهما الثلثان. وفي الآية دلالةٌ على أنَّ المال كله للذكر إذا لم يكن معه أنثى؛ لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد جعل للأنثى النصف إذا كانت منفردة، فعلم أن للذكر في حال الانفراد ضعف النصف، وهو الكلّ. والضمير في: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ للميت، والمراد: الأب والأم، إلا أنه غلب الذكر ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ بدل من «لأبويه» بتكرير العامل. وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافها. ولو قيل:

﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾

ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد، وهو التفصيل بعد الإجمال. والسدس: مبتدأ خبره: لأبويه، والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن: السدْس والربْع والثمْن والثلْث بالتخفيف ﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ هو يقع على الذكر والأنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: مما ترك. والمعنى ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب؛ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما يبقى بعد إخراج نصيب الزوج، لا ثلث ما ترك؛ لأنَّ الأب أقوى من الأم في الإرث، بدليل أن له ضعف حظها إذا خلصا. فلو ضرب لها الثلث كَمَلاً لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها. فإن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين، فصار للزوج النصف وللأم الثلث، والباقي للأب، حازت الأم سهمين والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين. فلأمه -بكسر الهمزة- حمزة، وعليّ لمجاورة كسر اللام ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ أي: للميت ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ إذا كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعداً فلأمه السدس. والأخ الواحد لا يحجب. والأعيان والعَلات والأخياف في حجب الأم سواء ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلّها، لا بما يليه وحده. كأنه قيل: قسمة هذه الأنصباء ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ﴾[1] هو وما بعده بفتح الصادين: مكي، وشامي، وحماد. ويحيى وافق الأعشى في الأولى. وحفص في الثانية لمجاورة يورث. وكسرَ الأولى لمجاورة يوصيكم الله. الباقون بكسر الصادين. أي: يوصي الميت ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ والإشكال أن الدين مُقدَّم على الوصية في الشرع، وقدمت الوصية على الدين في التلاوة. والجواب: أن أو لا تدلُّ على الترتيب، أَلَا ترى أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو كان المعنى: جاءني أحد الرجلين، فكان التقدير في قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ من بعد أحد هذين الشيئين الوصية، أو الدين. ولو قيل بهذا اللفظ لم

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يُوصَى﴾.

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

يدر فيه الترتيب، بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا. وإنما قدّمنا الدين على الوصية بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الدَّيْن قبل الوصية»[(١)]. ولأنها تشبه الميراث من حيث إنها صلة بلا عوض، فكان إخراجها مما يشقّ على الورثة، وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين، فقدّمت على الدين ليسارعوا إلى إخراجها مع الدين ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه. والخبر ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾ والجملة في موضع نصب بتدرون ﴿نَفْعًا﴾ تمييز. والمعنى: فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيُّهم أنفع لكم، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع، وأنتم لا تدرون تفاوتها، فتولى الله ذلك فضلاً منه، ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير. وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة، لا موضع لها من الإعراب ﴿فَرِيضَةً﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض، وقسم من المواريث، وغيرها.

١٢ ـ ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: زوجاتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ابن، أو بنت. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم، أو من غيركم ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧٩ و١٣١ و١٤٤) والبخاري (٥/ ٣٧٧) تعليقاً، والترمذي (٢٠٩٤) وابن ماجه (٢٧١٥) بلفظ: قضى رسولُ الله ﷺ بالدَّيْن قبل الوصية.

مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ والواحدة والجماعة سواء في الربع والثمن. جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة؛ لدلالة قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ﴾ يعني: الميت، وهو اسم كان ﴿يُورَثُ﴾ من ورِث، أي: يورث منه، وهو صفة لرجل ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان. أي: وإن كان رجل موروث منه كلالة. أو: «يورث» خبر كان، و«كلالة» حال من الضمير في يورث. والكلالة: تطلق على من لم يُخلّف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلَّفين. وهو في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو: ذهاب القوّة من الإعياء ﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ عطف على رجل ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ أي: لأم. فإن قلت: قد تقدم ذكر الرجل والمرأة، فلم أفرد الضمير وذكَّره؟ قلت: أما إفراده: فلأن «أو» لأحد الشيئين. وأما تذكيره: فلأنه يرجع إلى رجل؛ لأنه مذكر مبدوء به، أو يرجع إلى أحدهما وهو مُذكَّر ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون بقرابة الأم، وهي لا ترث أكثر من الثلث. ولهذا لا يفضّل الذكر منهم على الأنثى ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ إنما كررت الوصية لاختلاف الموصين، فالأول: الوالدان والأولاد، والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج، والرابع: الكلالة ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضار لورثته. وذلك بأن يوصي بزيادة على الثلث، أو لوارث ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أي: يوصيكم بذلك وصية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار، أو عدل في وصيته ﴿حَلِيمٞ﴾ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة، وهذا وعيد. فإن قلت: أين ذو الحال فيمن قرأ يوصى بها؟ قلت: يضمر يوصي فينتصب عن فاعله؛ لأنه لما قيل يُوصَى بها علم أن ثَمّ موصياً. كما كان ﴿رجال﴾ فاعل ما يدل عليه يسبح؛ لأنه لما قيل ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ [النور: ٣٦] علم أن ثم مسبِّحاً فأضمر يسبِّح.

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ

واعلم أن الورثة أصناف: أصحاب الفرائض، وهم الذين لهم سهام مقدرة: كالبنت: ولها النصف، وللأكثر الثلثان. وبنت الابن وإن سفلت: وهي عند عدم الولد كالبنت، ولها مع البنت الصلبية السدس، وتسقط بالابن وبنتي الصلب إلا أن يكون معها غلام فيعصبها. والأخوات لأب وأم: وهن عند عدم الولد وولد الابن كالبنات، والأخوات لأب، وهن كالأخوات لأب وأم عند عدمهن. ويصيرُ الفريقان عصبة مع البنت أو بنت الابن. ويسقطن بالابن وابنه وإن سفل والأب وبالجد عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. وولد الأم، فللواحد السدس وللأكثر الثلث، وذكرهم كأنثاهم. ويسقطون بالولد وولد الابن وإن سفل والأب والجد. والأب: وله السدس مع الابن أو ابن الابن وإن سفل، ومع البنت أو بنت الابن وإن سفلت السدس والباقي. والجد: وهو أبو الأب، وهو كالأب عند عدمه، إلا في رد الأم إلى ثلث ما يبقى. والأم: ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وإن سفل، أو الاثنين من الإخوة والأخوات فصاعداً من أي جهة كانا. وثلث الكل عند عدمهم. وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين في زوج وأبوين، أو زوجة وأبوين. والجدة: ولها السدس وإن كثرت لأم كانت أو لأب. والبعدى تحجب بالقربى. والكل بالأم، والأبويات بالأب. والزوج: وله الربع مع الولد، أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه النصف. والزوجة: ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه الربع. والعصبات: وهم الذين يرثون ما بقي من الفرض. وأولاهم: الابن، ثم ابنه وإن سفل، ثم الأب، ثم أبوه وإن علا، ثم الأخ لأب وأم، ثم الأخ لأب، ثم ابن الأخ لأب وأم، ثم ابن الأخ لأب، ثم الأعمام، ثم أعمام الأب، ثم أعمام الجد، ثم المعتق، ثم عصبته على الترتيب. واللاتي فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبة بإخوتهن لا غيرهن. وذوو الأرحام: وهم الأقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض، وترتيبهم كترتيب العصبات.

١٣ ـ ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى، والوصايا، والمواريث ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ سمَّاها حدوداً؛ لأن الشرائع كالحدود

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّـٰتِى
يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

المضروبة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٤ ـ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ انتصب خالدين وخالداً على الحال. وجمع مرة، وأفرد أخرى نظراً إلى معنى مَنْ ولفظها ﴿ندخله﴾ فيهما، مدني، وشامي ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهوانه عند الله. ولا تعلق للمعتزلة والخوارج بالآية فإنها في حق الكفار، إذ الكافر هو الذي تعدَّى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حدّ التوحيد. ولهذا فسَّر الضحاك المعصية هنا بالشرك. وقال الكلبي: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بكفره بقسمة المواريث ﴿ويتعد حدوده﴾ استحلالاً.

١٥ ـ ثم خاطب الحكام فقال: ﴿وَٱلَّـٰتِى﴾ هي جمع التي، وموضعها رفع بالابتداء، ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ أي: الزنى لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. يقال: أتى الفاحشة، وجاءها، ورهقها، وغشيها بمعنى. ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ للتبعيض. والخبر: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ فاطلبوا الشهادة. ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ من المؤمنين ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ بالزنى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ملائكة الموت، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨] أو: حتى يأخذهن الموت، ويستوفي أرواحهن. ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ﴾ قيل: أو بمعنى: إلا أن ﴿سَبِيلًا﴾ غير هذه. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: السبيل للبكر جلد مئة وتغريب عام، وللثيب الرجم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ

جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة ورجم بالحجارة»[1].

١٦ ـ ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يريد: الزاني والزانية. وبتشديد النون، مكي ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ أي: الفاحشة ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعيير، وقولوا لهما: أمَا استحييتما؟ أما خفتما الله؟ ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ وغيّرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ فاقطعوا التوبيخ والمذمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يقبل توبة التائب ويرحمه. قال الحسن: أول ما نزل من حد الزنى الأذى، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم، فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة. والحاصل: أنهما إذا كانا محصنين فحدّهما: الرجم لا غير. وإذا كانا غير محصنين فحدهما: الجلد لا غير. وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن، فعلى المحصن منهما الرجم، وعلى الآخر الجلد. وقال ابن بحر: الآية الأولى في السَّحَّاقات، والثانية في اللوَّاطين، والتي في سورة النور في الزاني والزانية. وهو دليلٌ ظاهرٌ لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في أنه يعزّر في اللِّواطة ولا يحدّ. وقال مجاهد: آية الأذى في اللّواطة.

١٧ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ هي من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، أي: إنما قبولها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس المراد به الوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني: أنه يكون لا محالة، كالواجب الذي لا يترك ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ الذنب لسوء عقابه ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه. وعن مجاهد: من عَصَى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. وقيل: جهالته: اختياره اللذة الفانية على الباقية. وقيل: لم يجهل أنه ذنب، ولكنه جهل كنه

(١) رواه أحمد (٥/٣١٣) ومسلم (١٦٩٠) (١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذي (١٤٣٤).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾

عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قبل أن ينظر إلى ملك الموت. وعنه ﷺ «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]. ومن: للتبعيض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عدة بأنه يفي بذلك، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمهم على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بكون الندم توبة.

١٨ ـ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ أي: ولا توبة للذين يذنبون، ويسوّفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت، ومعاينة ملك الموت، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار، وقبول التوبة ثواب، ولا وعد به إلا لمختار ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ في موضع جر بالعطف على ﴿للذين يعملون السيئات﴾ أي: ليست التوبة للذين يعملون السيئات ولا للذين يموتون ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين. وفي بعض المصاحف بلامين، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا من العتيد، وهو الحاضر، أو الأصل أعددنا، فقلبت الدال تاء.

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٣٢) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر ـرضي الله عنهما ـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

١٩ ـ كان الرجل يرث امرأة مورّثه بأن يلقي عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز المواريث، وهنّ كارهات لذلك، أو مكرهات ﴿كرهاً﴾ بالفتح من الكراهة. وبالضم: حمزة، وعليّ، من الإكراه. مصدر في موضع الحال من المفعول. والتقييد بالكره لا يدلُّ على الجواز عند عدمه؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ كان الرجل إذا تزوج امرأة، ولم تكن من حاجته حبَسَها مع سوء العشرة لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾. وهو منصوب عطفاً على «أن ترثوا». و«لا» لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن. أو مجزوم بالنهي على الاستئناف، فيجوز الوقف حينئذ على ﴿كرهاً﴾. والعضل: الحبس، والتضييق ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ من المهر. واللام متعلقة بـ«تعضلوا» ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ هي النشوز، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء. أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم في طلب الخلع. وعن الحسن: الفاحشة: الزنى، فإن فعلت حلَّ لزوجها أن يسألها الخلع ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ وبفتح الياء: مكي، وأبو بكر. والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾ في جميع الأوقات إلا وقت ﴿أن يأتين بفاحشة﴾ أو ﴿ولا تعضلوهن﴾ لعلة من العلل ﴿إلا أن يأتين بفاحشة﴾. وكانوا يسيئون معاشرة النساء، فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: النَّصَفَة في المبيت، والنفقة، والإجمال في القول ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ لقبحهن، أو سوء خلقهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ في ذلك الشيء، أو في الكره. ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ ثواباً جزيلاً، أو ولداً صالحاً. والمعنى: فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها. فربما كرهت النفس ما هو أصلح في

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

الدين، وأدنى إلى الخير، وأحبت ما هو بضدٍّ ذلك. ولكن للنظر في أسباب الصلاح. وإنما صحَّ قوله ﴿فعسى أن تكرهوا﴾ جزاء للشرط؛ لأن المعنى: ﴿فإن كرهتموهن﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

٢٠ ـ كان الرجل إذا رأى امرأةً فأعجبته بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة[1]، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها. فقيل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق امرأة وتزوّج أخرى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ وأعطيتم إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج: الجمع؛ لأن الخطابَ لجماعة الرجال ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً عظيماً كما مرَّ في آل عمران. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ على المنبر: لا تغالوا بصدُقات النساء، فقالت امرأة: أنتبع قولك أم قول الله ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾؟ فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، تزوَّجوا على ما شئتم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: بيِّناً. والبهتان: أن تستقبلَ الرجلَ بأمرٍ قبيح تقذفه به وهو بريء منه؛ لأنه يُبهَت عند ذلك، أي: يتحير. وانتصب بهتاناً على الحال، أي: باهتين وآثمين.

٢١ ـ ثم أنكر أخذ المهر بعد الإفضاء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: خلا بلا حائل، ومنه: الفضاء. والآية حجة لنا في الخلوة الصحيحة أنها تؤكِّد المهر، حيث أنكر الأخذ. وعلّل بذلك ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو قول الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن، فهو كأخذهن. أو قول النبي عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أي: رماها بالباطل.

وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

«استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»(١).

٢٢ ـ ولما نزل: ﴿لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نرثهن كرهاً ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن، فقيل لهم: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾. وقيل المراد بالنكاح: الوطء، أي: لا تطؤوا ما وطىء آباؤكم. وفيه تحريم وطء موطوءة الأب بنكاح، أو بملك يمين، أو بزنى، كما هو مذهبنا، وعليه كثيرٌ من المفسرين. ولما قالوا: كنا نفعل ذلك، فكيف حال ما كان منا؟ قال: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾. أي: لكن ما قد سلف، فإنكم لا تؤاخذون به. والاستثناء منقطع، عن سيبويه. ثم بيَّن صفة هذا العقد في الحال فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ بالغة في القبح ﴿ وَمَقْتًا ﴾ وبغضاً عند الله، وعند المؤمنين، وناس منهم يمقتونه من ذوي مروءاتهم، ويسمُّونه: نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له: المقتي ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ وبئس الطريق طريقاً ذلك.

٢٣ ـ ولما ذكر في أول السورة نكاح: ﴿ما طاب﴾ أي: حَلَّ ﴿من النساء﴾ وذكر بعض ما حرم قبل هذا، وهو نساء الآباء، ذكر المحرَّمات الباقيات، وهن: سبع من النسب، وسبع من السبب، وبدأ بالنسب فقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾. والمراد: تحريم نكاحهن عند البعض. وقد ذكرنا المختار في «شرح المنار». والجدة من قبل الأم أو الأب ملحقة بهن ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبنات الابن وبنات البنت ملحقات بهن. والأصل: أنَّ الجمعَ إذا قُوبِل بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد، فتحرم على كل واحد أمه وبنته.

---

(١) هذا مركب من حديثين: الأول بلفظ: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هُنَّ عَوَانٌ عندكم» رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١). والثاني بلفظ: «فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه مسلم (١٢١٨) (١٤٧) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٠٧٤). «العوان»: جمع عانية وهي الأسيرة.

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ لأب أو أم، أو لأب أو لأم. ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ من الأوجه الثلاثة. ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ كذلك. ثم شرع في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾. الله تعالى نزّل الرضاعة منزلة النسب، فسمَّى المرضعة أمّاً للرضيع، والمراضعة أختاً. وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل وَلَد وُلِدَ له من غير الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضِعة جدته، وأختها خالته، وكلّ من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه. ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»[1] ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وهنّ محرمات بمجرد العقد ﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾ سمّي ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيبة؛ لأنه يَرُبُّهما كما يَرُبُّ ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسمِّيا بذلك وإن لم يَرُبّهما ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قال داود: إذا لم تكن في حجرة لا تحرم. قلنا: ذكر الحجر على غلبة الحال دون الشرط، وفائدته: التعليل للتحريم، وأنهن لاحتضانكم لهن، أو لكونهن بصدد احتضانكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ متعلق بربائبكم. أي: الربيبة من المرأة المدخول بها حرام على الرجل، حلال له إذا لم يدخل بها. والدخول بهن كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، أي: أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول. وقد جعل بعضُ العلماء اللاتي دخلتم بهن وصفاً للنساء المتقدمة والمتأخرة. وليس كذلك؛ لأن الوصفَ الواحد لا يقع على موصوفين مختلفي العامل، وهذا لأن النساءَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٩) ومسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

الأولى مجرورة بالإضافة والثانية بمن. ولا يجوز أن تقول: مررت بنسائك، وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن تكون الزظريفات نعتاً لهؤلاء النساء وهؤلاء النساء. كذا قال الزجاج وغيره، وهذا أولى مما قاله صاحب «الكشاف» فيه ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حرج عليكم في أن تتزوَّجوا بناتهن إذا فارقتموهن، أو متن ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ جمع حليلة، وهي: الزوجة؛ لأن كلَّ واحد منهما يحلُّ للآخر، أو يُحلُّ فراش الآخر، من الحل، أو من الحلول ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ دون مَن تبنيتم، فقد تزوج رسول الله ﷺ زينب حين فارقها زيد، وقال الله تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وليس هذا لنفي الحرمة عن حليلة الابن من الرضاع ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ أي: في النكاح، وهو في موضع الرفع عطف على المحرمات، أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفور، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وعن محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ: إنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يعرفون هذه المحرمات إلا نكاح امرأة الأب، ونكاح الأختين؛ فلذا قال فيهما: ﴿إلا ما قد سلف﴾.

٢٤ ـ ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ذوات الأزواج لأنهن أحصنّ فروجهن بالتزوج. قرأ الكسائي بفتح الصاد هنا، وفي سائر القرآن بكسرها. وغيره بفتحها في جميع القرآن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالسبي، وزوجها في دار الحرب. والمعنى: وحرم عليكم نكاح المنكوحات، أي: اللاتي لهن أزواج إلا ما ملكتموهن بسبيهن، وإخراجهن بدون أزواجهن، لوقوع الفرقة بتباين الدارين لا بالسبي، فتحل للغانم بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ

﴿عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وفرضه فريضة، وهو تحريم ما حرّم. وعطف ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾(١) على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله، أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك ﴿وأَحل لكم﴾ ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما سوى المحرمات المذكورة ﴿وأُحِل﴾ كوفي غير أبي بكر عطف على ﴿حُرِّمَت﴾ ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ مفعول له. أي: بيّن لكم ما يحلُّ مما يحرم لأن تبتغوا. أو بدل من ﴿ما وراء ذلكم﴾. ومفعول ﴿تبتغوا﴾ مقدر، وهو: النساء. والأجود ألا يقدر ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يعني: المهور. وفيه دليلٌ على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسَمَّ، وأن غير المال لا يصلح مهراً، وأنَّ القليلَ لا يصلحُ مهراً، إذا الحبة لا تعدُّ مالاً عادة ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ في حال كونكم محصنين ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم. وتفقروا أنفسكم فيما لا يحلُّ لكم فتخسروا دينكم ودنياكم، ولا فساد أعظم من الجمع بين الخسرانين. والإحصان: العفة، وتحصين النفس من الوقوع في الحرام. والمسافح: الزاني، من: السفح، وهو: صبُّ المني ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فـ«ما» نكحتموه منهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ لأن المهر ثواب على البُضْع. فـ«ما» في معنى النساء. و﴿من﴾ للتبعيض، أو للبيان. ويرجع الضمير إليه على اللفظ في ﴿به﴾ وعلى المعنى في ﴿فآتوهن﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور، أي: مفروضة، أو: وضعت موضع إيتاء؛ لأنَّ الإيتاءَ مفروض. أو مصدر مؤكَّد، أي: فرض ذلك فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحطّ عنه من المهر، أو تهب له من كله، أو يزيد لها على مقداره. أو فيما تراضيا به من مقام، أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خَلْقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما فرض لهم من عقد النكاح؛ الذي به حُفِظت الأنساب.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿وأَحَلَّ﴾.

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ

وقيل: إن قوله: ﴿فما استمتعتم﴾ نزلت في المتعة؛ التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله، ثم نُسِخت.

٢٥ - ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ فضلاً. يقال: لفلان عليّ طوْل، أي: فضل وزيادة. وهو مفعول يستطع ﴿ أَن يَنكِحَ ﴾ مفعول الطول، فإنه مصدر فيعمل عمل فعله، أو بدلاً من ﴿طولاً﴾ ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الحرائر المسلمات ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي: فلينكح مملوكة من الإماء المسلمات. وقوله ﴿من فتياتكم﴾ أي: من فتيات المسلمين. والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة، فلينكح أمة. ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا. والتقييد في النص للاستحباب؛ بدليل أنَّ الإيمانَ ليس بشرطٍ في الحرائر اتفاقاً مع التقييد به. وقال ابن عباس: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمَة، واليهودية، والنصرانية، وإن كان موسراً. وفيه دليلٌ لنا في مسألة الطوْل ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾ فيه تنبيهٌ على قبول ظاهر إيمانهن، ودليلٌ على أنَّ الإيمانَ هو التصديق دون عمل اللسان؛ لأنَّ العلمَ بالإيمان المسموع لا يختلف ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي: لا تستنكفوا من نكاح الإماء، فكلكم بنو آدم، وهو تحذيرٌ عن التعيير بالأنساب، والتفاخر بالأحساب ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ سادتهن. وهو حجةٌ لنا في أنَّ لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنه اعتبر إذن الموالي لا عقدهم، وأنه ليس للعبد أو للأمة أن يتزوج إلا بإذن المولى ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وأدُّوا إليهن مهورهن بغير مطل وإضرار. ومُلاَّك مهورهن مواليهن، فكان أداؤها إليهن أداء إلى الموالي؛ لأنهن وما في أيديهن مال الموالي. أو: التقدير: وآتوا مواليهن، فحذف المضاف ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ عفائف. حال من المفعول في ﴿وآتوهن﴾ ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ زوانٍ علانية ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ زوانٍ سراً.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٥ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾

والأخدان: الأخلاَّء في السر ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ بالتزويج. أَحْصَنَّ: كوفي غير حفص ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ زنى ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ من الحد، يعني: خمسين جلدة. وقوله: ﴿نصف ما على المحصنات﴾ يدلُّ على أنه الجلدَ لا الرجم، لأنَّ الرجم لا يتنصف، وأن المحصنات هنا: الحرائر اللاتي لم يزوجن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ لمن خاف الإثم الذي تؤدِّي إليه غلبةُ الشهوة. وأصل العنت: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الزنى؛ لأنه سبَبُ الهلاك ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لأن فيه إرقاق الولد، ولأنها خراجة، ولاجة، ممتهنة، مبتذلة، وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة. والعزة من صفات المؤمنين. وفي الحديث: «الحرائر صلاحُ البيت، والإماء هلاك البيت»[1] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يستر المحظور ﴿رَّحِيمٞ﴾ يكشف المحذور.

٢٦ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في: لا أبالك؛ لتأكيد إضافة الأب. والمعنى: يريد الله أن يُبيِّن لكم ما هو خفيٌّ عليكم من مصالحكم، وأفاضل أعمالكم ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وأن يهديكم مناهج مَن كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ويوفِّقكم للتوبة عمَّا كنتم عليه من الخلاف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢٨٢٠). وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وفي إسناده: أحمد بن محمد، وهو متروك، وكذَّبه أبو حاتم، ويونس لا أعرفه. (حاشية الكشاف ١/ ٥٠١).

حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ

بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لهم.

٢٧ ـ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد، والتقرير، والتقابل ﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه، بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات. وقيل: هم اليهود؛ لاستحلالهم الأخوات لأب، وبنات الأخ، وبنات الأخت. فلما حرمهن الله قالوا: فإنكم تحلّون بنت الخالة والعمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخت والأخ، فنزلت. يقول: يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

٢٨ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات، وعلى مشاقِّ الطاعات.

٢٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لم تُبحه الشريعةُ من نحو السرقة، والخيانة، والغصب، والقِمار، وعقود الربا ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾[1] إلا أن تقع تجارةٌ، ﴿تِجارةً﴾ كوفي، أي: ﴿إلا أن تكون﴾ التجارة ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض بالعقد، أو بالتعاطي. والاستثناء منقطع، معناه: ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض. أو: ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وخصّ التجارة بالذكر؛ لأنَّ أسبابَ الرزق أكثرها مُتعلِّق بها. والآية تدلُّ على جواز البيع بالتعاطي، وعلى جواز البيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضا، وعلى نفي خيار المجلس؛ لأن فيها إباحة الأكل بالتجارة عن تراض من غير

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تجارةٌ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٢٦).

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

تقييد بالتفرق عن مكان العقد. والتقييد به زيادة على النَّصِّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَن كان مِن جنسكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، أو: ولا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعضُ الجهلة، أو: معنى القتل: أكل الأموال بالباطل، فظالم غيره كمهلك نفسه، أو: لا تتبعوا أهواءها فتقتلوها، أو: تركبوا ما يوجب القتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولرحمته بكم نبَّهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وبقاء أبدانكم. وقيل: معناه: أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم، وتمحيصاً لخطاياهم، و﴿كان بكم﴾ ياأمة محمد ﴿رحيماً﴾ حيث لم يكلِّفكم تلك التكاليف الصَّعبة.

٣٠ ـ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: القتل، أي: ومن يقدم على قتل الأنفس ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأ ولا قصاصاً، وهما مصدران في موضع الحال، أو مفعول لهما ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله ناراً مخصوصة، شديدة العذاب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إصلاؤه النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً. وهذا الوعيد في حقِّ المستحلِّ للتخليد، وفي حقِّ غيره لبيان استحقاقه دخول النار، مع وعد الله بمغفرته.

٣١ ـ ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الكبائر: كلُّ ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وعنه أيضاً: الكبائر ثلاث: الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله. وقيل: المراد به أنواع الكفر بدليل قراءة عبد الله (كبير ما تنهون عنه) وهو الكفر ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ مَدخلاً: مدني. وكلاهما بمعنى المكان والمصدر. ﴿كَرِيمًا﴾ حسناً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة ممَّا طَلَعَتْ عليه الشمس وغَرَبت ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

﴿يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ١١٠] ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وتشبَّث المعتزلةُ بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر، وعلى أن الكبائر غيرُ مغفورة، باطل، لأنَّ الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء، إن شاء عذب عليهما، وإن شاء عفا عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقد وعد المغفرة لما دون الشرك، وقرنها بمشيئته تعالى. وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فهذه الآية تدلُّ على أن الصغائر والكبائر يجوزُ أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظَ السيئات ينطلقُ عليهما.

٣٢ ـ ولَمَّا كان أَخْذُ مال الغير بالباطل، وقَتْل النفس بغير حق، بتمني مال الغير وجاهه، نهاهم عن تمني ما فضَّل الله به بعضَ الناس على بعض من الجاه والمال بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن ذلك التفضيلَ قسمةٌ من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكلّ مَن بسط في الرزق، أو قبض. فعلى كلِّ واحد أن يرضى بما قسم له، ولا يحسد أخاه على حظِّه. فالحسدُ: أن يتمنى أن يكون ذلك الشيءُ له، ويزول عن صاحبه. والغبطة: أن يتمنَّى مثل ما لغيره. وهو مرخَّص فيه، والأوَّلُ منهيٌّ عنه. ولما قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث، وقالت النساء: يكون وِزْرُنا على نصف وِزْر الرجال كالميراث، نزل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: ليس ذلك على حسب الميراث ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فإنَّ خزائنه لا تنفد، ولا تتمنوا ما للناس من الفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فالتفضيل منه عن علم بمواضع الاستحقاق. قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖ

وفي الحديث: «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه»[١]. وفيه: «إن الله تعالى يمسك الخير الكثير عن عبده، ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألني».
«وسلوا»: مكي، وعليّ.

٣٣ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ المضاف إليه محذوف، تقديره: ولكل أحد، أو: ولكل مال ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ورّاثاً يلونه ويحرزونه ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هو صفة مال محذوف، أي: لكل مال ممّا تركه الوالدان. أو: هو متعلق بفعل محذوف دلَّ عليه الموالي، تقديره: يرثون مما ترك ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عاقدتهم أيديكم. وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط، فوقع خبره، وهو ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، مع الفاء. عقَدَت: كوفي. أي: عقدت عهودَهم أيمانكم. والمراد به عقد الموالاة، وهي مشروعة، والوراثة بها ثابتة عند عامة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهو قولنا. وتفسيره: إذا أسلم رجل أو امرأة لا وارث له، وليس بعربي؛ ولا معتق؛ فيقول لآخر: واليتك على أن تعقلني إذا جنيت، وترث مني إذا مت، ويقول الآخر: قبلت، انعقد ذلك، ويرث الأعلى من الأسفل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا﴾ أي: هو عالم الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعيد.

٣٤ ـ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا، وسُمُّوا قوّاماً لذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖ﴾ الضمير في ﴿بعضهم﴾ للرجال والنساء، يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن لسبب تفضيل الله بعضهم ـوهم الرجال ـ على بعض ـوهم النساء ـ بالعقل، والعزم، والحزم، والرّمي، والقوّة، والغزو، وكمال الصوم والصلاة، والنبوّة، والخلافة، والإمامة، والأذان، والخطبة، والجماعة، والجمعة، وتكبير

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٢٧).

وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

التشريق عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ والشهادة في الحدود والقصاص، وتضعيف الميراث، والتعصيب فيه، وملك النكاح، والطلاق، وإليهم الانتساب، وهم أصحابُ اللِّحى والعمائم ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وبأن نفقتهن عليهم، وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم. ثم قسمهن على نوعين، النوع الأول: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات، قائمات بما عليهنَّ للأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب، وهو خلافُ الشهادة. أي: إذا كان الأزواجُ غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج، والبيوت، والأموال. وقيل: ﴿للغيب﴾ لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أو: بما حفظهنَّ الله، وعصمهن، ووفَّقهن لحفظ الغيب. أو: بحفظ الله إياهن حيث صيَّرهن كذلك. والثاني: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن، وترفُّعهن عن طاعة الأزواج. والنَّشْز: المكان المرتفع. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: هو أن تستخفَّ بحقوق زوجها، ولا تطيع أمره. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خوِّفوهنَّ عقوبة الله تعالى، والضَّربَ. والعظة: كلام يلين القلوب القاسية، ويرغب الطبائع النَّافرة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد، أي: لا تداخلوهن تحت اللُّحُف. وهو كناية عن الجماع. أو: هو أن يوليها ظهره في المضجع؛ لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً غير مبرح. أمر بوعظهن أوّلاً، ثم بهجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهِجْران ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فأزيلوا عنهن التعرّض بالأذى. و﴿سبيلاً﴾ مفعول تبغوا. وهو من: بغيت الأمر، أي: طلبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: إن علت أيديكم عليهن، فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، فاجتنبوا ظلمهن. أو: ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ وإنكم تعصونه على علو شأنه، وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا

٣٥ ـ ثم خاطب الولاة بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾. أصله: شقاقاً بينهما، فأضيف الشقاق إلى الظرف على سبيل الاتساع، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وأصله: بل مكر في الليل والنهار. والشقاق: العداوة والخلاف؛ لأن كلاّ منهما يفعل ما يشُقُّ على صاحبه، أو: يميل إلى شقّ، أي: ناحية غير شق صاحبه. والضمير للزوجين، ولم يجرِ ذكرهما لجري ذكر ما يدلُّ عليهما، وهو الرجال والنساء ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ رجلاً يصلح للحكومة والإصلاح بينهما ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما؛ لأنَّ الأقاربَ أعرفُ ببواطن الأحوال، وأطلبُ للصلاح، ونفوس الزوجين أسكنُ إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب، والبغض، وإرادة الصحبة والفرقة. والضمير في: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ للحكمين. وفي: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين، وكانت نيتهما صحيحة، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألْفة والوفاق، وألقى في نفوسهما المودّة والاتفاق. أو: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاحَ ذات البين والنصيحة للزوجين، يوفق الله بينهما، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يتمَّ المراد. أو: الضميران للزوجين، أي: إن يريدا إصلاحَ ما بينهما، وطلبا الخير، وأن يزول عنهما الشقاق، يُلْقِ الله بينهما الأُلْفة، وأبدلهما بالشقاق الوفاق، وبالبغضاء المودّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإدارة الحكمين ﴿خَبِيرًا﴾ بالظالم من الزوجين. وليس لهما ولاية التفريق خلافاً لمالك ـ رحمه الله ـ.

٣٦ ـ ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ صنماً وغيره. ويحتمل المصدر، أي: إشراكاً ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأحسنوا

وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ
وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ

بهما إحساناً بالقول، والفعل، والإنفاق عليهما عند الاحتياج ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وبكلّ من بينكم وبينه قربى من أخ، أو عم، أو غيرهما ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذي قرب جواره ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الذي جواره بعيد. أو: الجار: القريب النسيب، والجار الجنب: الأجنبي ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الزوجة، عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أو الذي صحبك بأن حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، أو شريكاً في تعلُّم علم، أو غيره، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الغريب، أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ العبيد، والإماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن قرابته وجيرانه، فلا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يعدِّد مناقبه كبراً. فإن عدَّها اعترافاً كان شكوراً.

٣٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ نصب على البدل من ﴿من كان مختالاً فخوراً﴾. وجمع على معنى مَن، أو على الذم، أو رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم ﴿الذين يبخلون﴾ ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بالبَخَل: حمزة، وعليّ، وهما لغتان كالرُّشْد والرَّشَد. أي: يبخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسَّخاء. قيل: البخل أن يأكل بنفسه، ولا يُؤكل غيره. والشح: ألا يأكل ولا يؤكل. والسخاء: أن يأكل ويؤكل. والجود: أن يؤكل ولا يأكل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويخفون ماأنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال. وفي الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده»[1]. وبنى عاملٌ للرشيد قصراً حذاء قصره، فنُمّ به. فقال الرجل: ياأمير المؤمنين!

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) بلفظ: «إن الله يحب أن يرى أَثَر نعمته على عبده».

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

إن الكريمَ يسرُّه أن يرى أثر نعمته، فأحببت أن أسُرَّك بالنظر إلى آثار نعمتك. فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يهانون به في الآخرة.

٣٨ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ معطوف على الذين يبخلون، أو: على الكافرين ﴿ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ مفعول له، أي: للفخار، وليقال: ما أجودهم! لا لابتغاء وجه الله. وهم المنافقون، أو مشركو مكة ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكلِّ شر. ويجوزُ أن يكون وعيداً لهم بأن الشَّيطانَ يُقْرَنُ بهم في النار.

٣٩ ـ ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ وأيّ تبعة ووبال عليهم في الإيمان، والإنفاق في سبيل الله. والمراد: الذم والتوبيخ، وإلا فكلُّ منفعة ومصلحة في ذلك. وهذا كما يقال للعاق: ما ضرَّك لو كنتَ باراً؟! وقد علم أنه لا مَضَرَّة في البرِّ، ولكنه ذمّ وتوبيخ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

٤٠ ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ هي: النملة الصغيرة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه أدخل يده في التراب، فرفعه، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكون ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً ﴾ وإن تك مثقال الذرة حسنة. وإنما أنّث ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى مؤنّث. ﴿حَسَنَةٌ﴾: حجازي على كان التامة. وحذفت النون من تكن تخفيفاً لكثرة الاستعمال ﴿ يُضَاعِفْهَا ﴾ يضاعف ثوابها. ﴿يضعِّفها﴾: مكي، وشامي ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ويُعْطِ صاحبها من عنده ثواباً عظيماً. وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع أنه سمَّى متاع الدنيا

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾

قليلاً؟! وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة، مع أن له حسنات كثيرة.

٤١ ـ ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا، وهو نبيُّهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ حال، أي: شاهداً على مَن آمن بالإيمان، وعلى مَن كفر بالكفر، وعلى مَن نافق بالنفاق. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسولُ الله ﷺ، وقال: «حسبنا»[1].

٤٢ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فتسوَّى بهم الأرض كما تسوَّى بالموتى. أو: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء. أو: تصير البهائم تراباً فيودُّون حالها ﴿تَسْوى﴾ بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين من: تتسوى، حمزة وعليّ. ﴿تَسَوَّى﴾ بإدغام التاء في السين: مدني، وشامي ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ مستأنف، أي: ولا يقدرون على كتمانه؛ لأنَّ جوارحهم تشهدُ عليهم.

٤٣ ـ لما صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً وشراباً، ودعا نفراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حين كانت الخمرُ مباحةً، فأكلوا وشربوا، فقدَّموا أحدهم ليصلي بهم المغرب، فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد، نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾. أي: لا تقربوها في هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: تقرؤون. وفيه دليلٌ على أنَّ رِدّة السكران ليست بِردة؛ لأن قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾

ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان. وما أمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالتفريق بينه وبين امرأته، ولا بتجديد الإيمان، ولأنَّ الأمة اجتمعت على أنَّ من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً لا يُحكم بكفره ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على ﴿وأنتم سكارى﴾ لأنَّ محلَّ الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، أي: ولا تصلُّوا جنباً. والجنب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث؛ لأنه اسمٌ جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ صفة لقوله: «جنباً»، أي: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير مسافرين، والمراد بالجنب: الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾. أي: إلا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيممين. عبَّر عن المتيمم بالمسافر؛ لأنَّ غالبَ حاله عدمُ الماء. وهذا مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو مروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ أي: مواضع الصلاة، وهي: المساجد ﴿ولا جنباً﴾ أي: ولا تقربوا المسجد جنباً ﴿إلا عابري سبيل﴾ إلا مجتازين فيه. فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة، فكنى به عن الحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن. كذا عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وابن عباس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تقدروا على استعماله لعدمه، أو بعدِه، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية، أو سبع، أو عدو ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل في حكم الشرط أربعة، وهم: المرضى، والمسافرون، والمحدثون، وأهل الجنابة. والجزاء الذي هو الأمر بالتيمم يتعلَّق بهم جميعاً. فالمرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه [لبعض الأسباب][1].

---

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَن

فلهم أن يتيمموا. ﴿لمستم﴾ حمزة وعلي. ﴿صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: هو وجه الأرض، تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده ومسح، لكان ذلك طهوره. و﴿من﴾ في سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتبعيض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ قيل الباء زائدة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بالترخيص، والتيسير﴿غَفُورًا﴾ عن الخطأ والتقصير.

٤٤ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من رؤية القلب. وعدّي بإلى على معنى: ألم ينته علمك إليهم. أو: بمعنى: ألم تنظر إليهم ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً من علم التوراة، وهم: أحبارُ اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يستبدلونها بالهدى، وهو: البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبيُّ العربيُّ المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ أي: سبيل الحق كما ضلّوه.

٤٥ ـ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم، ولا تستنصحوهم في أموركم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ في النفع ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ في الدفع. فثقوا بولايته، ونُصْرته دونهم. أو: لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم، ويكفيكم مكرهم. «ولياً» و«نصيراً» منصوبان على التمييز، أو على الحال.

٤٦ ـ ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أو: بيان لأعدائكم. وما بينهما اعتراض. أو: يتعلق بقوله «نصيراً»، أي: ينصركم ﴿من الذين هادوا﴾ كقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧]. أو: يتعلق بمحذوف تقديره: ﴿من الذين هادوا﴾ قوم ﴿يحرفون الكلم﴾. فقوم: مبتدأ، ويحرفون: صفة له، والخبر من الذين هادوا مقدَّم عليه، وحذف الموصوف وهو «قوم»، وأقيم صفته، وهو: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن

﴿مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ﴾

﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يميلونه عنها، ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كَلِماً غيره، فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة؛ التي وضعه الله تعالى فيها، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم: «أسمر ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم: «آدم طويل» مكانه. ثم ذكر هنا ﴿عن مواضعه﴾ وفي المائدة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]. فمعنى عن مواضعه على ما بينا من إزالته عن مواضعه؛ التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. ومعنى ﴿من بعد مواضعه﴾ أنه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه. والمعنيان متقاربان ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. قيل: أسرّوا به ﴿وَاسْمَعْ﴾ قولنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع. وهو قولٌ ذو وجهين يحتمل الذم. أي: اسمع منّا مدعوّاً عليك بلا سمعت؛ لأنه لو أُجيبت دعوتُهم عليه لم يسمعْ شيئاً، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذكل اتكالاً على أنَّ قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة. أو: اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمعْ شيئاً. أو: اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، فسمعك عنه ناب. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً: إذا سبّه ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يحتمل راعنا: نكلمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية، أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي «راعينا» فكانوا سخرية بالدين، وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة، والإهانة، ويظهرون به التوقير، والإكرام ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلاً بها. وتحريفاً، أي: يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون ﴿راعنا﴾ موضع «انظرنا» و﴿غير مسمع﴾ موضع: «لا أسمعت مكروهاً» أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ هو قولهم: لو كان نبياً حقاً لأخبر بما نعتقد فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ﴿وَاسْمَعْ﴾ ولم يلحقوا به ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾

وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

﴿وَانظُرْنَا﴾ مكان ﴿راعنا﴾ ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذاك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله ﴿وَأَقْوَمَ﴾ وأعدل، وأسدّ ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم، وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه. أو: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره.

٤٧ ـ ولما لم يؤمنوا نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني: التوراة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين، وحاجب، وأنف، وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها. والفاء للتسبيب. وإن جعلتها للتعقيب على أنهم تُوُعِّدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر، رَدُّها على أدبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكس الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. وقيل: المراد بالطمس: القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة، وبالوجوه: رؤوسهم ووجهاؤهم. أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم، ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم، وإدبارهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي: نُخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت. والضمير يرجع إلى الوجوه إن أريد الوجهاء، أو: إلي الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات. والوعيد كان معلقاً بألا يؤمن كلهم، وقد آمن بعضهم، فإنَّ ابن سلام قد سمع الآية قافلاً من الشام، فأتى النبيَّ ﷺ مُسْلِماً قبل أن يأتي أهله، وقال: ما كنت أرى أن أصلَ إلى أهلي قبل أن يطمسَ الله وجهي. أو: أن الله تعالى أوعدهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه، أو بلعنهم. فإن كان الطمس تبدل أحوال رؤسائهم فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان. وقيل: هو منتظر في اليهود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: المأمور به، وهو العذاب، الذي وعدوا به

مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة، فلا بُدَّ أن يقعَ أحدُ الأمرين إن لم يؤمنوا.

٤٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة. والحاصل: أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأنَّ وَعْد غفران ما دونه لمن لم يتب، أي: لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب وهو مذنب. قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ولم تضره خطيئته»[1]. وتقييده بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لا يخرجه عن عمومه، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما في القرآن آية أحبّ إليَّ من هذه الآية. وحَمْلُ المعتزلة على التائب، باطل؛ لأنَّ الكفرَ مغفورٌ عنه بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فما دونه أولى أن يغفر التوبة. والآية سيقت لبيان التفرقة بينهما. وذا فيما ذكرنا ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كذب كذباً عظيماً استحقَّ به عذاباً أليماً.

٤٩ ـ ونزل فيمن زكّى نفسه من اليهود والنصارى، حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويدخلُ فيها كلُّ مَن زكّى نفسه، ووصفها بزكاء العمل، وزيادة الطاعة، والتقوى ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتدُّ بها، لا تزكية غيره؛ لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية. ونحوه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم، ولا ينقص من ثوابهم ﴿فَتِيلًا﴾ قدر فتيل، وهو: ما يحدث بفتل الأصابع من الوسخ.

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٠ـ ٣٦٢).

ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ
أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ
نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ
عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ

---

٥٠ ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أزكياء ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ ﴾ بزعمهم هذا ﴿ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ من بين سائر آثامهم.

٥١ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني: اليهود ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ ﴾ أي: الأصنام، وكلّ ما عبدوه من دون الله ﴿ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الشيطان ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ وذلك أن حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأنتم إلى محمد أقرب منا، وهو أقربُ منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم. ففعلوا. فهذا إيمانُهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس عليه اللعنة فيما فعلوا. فقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: أنتم أهدى سبيلاً.

٥٢ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ يعتدّ بنصره.

٥٣ ـ ثم وصف اليهود بالبخل والحسد، وهما من شرِّ الخصال، يمنعون مالهم، ويتمنون ما لغيرهم، فقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ فـ «أم» منقطعة، ومعنى الهمزة: الإنكار أن يكون لهم نصيبٌ من الملك ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ـ أي: ملك أهل الدنيا، أو ملك الله ـ فإذاً لا يؤتون أحداً مقدارَ نقير لفرط بخلهم. والنقير: النقرة في ظهر النواة. وهو مثل في القلّة كالفتيل.

٥٤ ـ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بل أيحسدون رسول الله

فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

ﷺ والمؤمنين، على إنكار الحسد واستقباحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم اللهُ من النصرة، والغلبة، وازدياد العز، والتقدم كلَّ يوم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الموعظة، والفقه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني: ملك يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام. وهذا إلزامٌ لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أُوتي أسلافه.

٥٥ ـ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته. أو: من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، وأعرض عنه ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ للصَّادِّين.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أحرقت ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصليين عند أهل الحق، خلافاً للكرامية. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك الله، أي: أدامك على عزك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ غالباً بالانتقام، لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بالكافرين.

٥٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الأنجاس، والحيض، والنِّفاس. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل،

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

وهو ما كان طويلاً فَيْناناً: لا جُوَب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسَجْسَجاً لا حرَّ فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة.

٥٨ ـ ثمَّ خاطب الولاة بأداء الأمانات، والحكم بالعدل بقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾. وقيل: قد دخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى؛ التي حملها الإنسان، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى. ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ قضيتم. ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالسوية، والإنصاف. وقيل: إنَّ عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة، وقد أخذ رسولُ الله ﷺ منه مفتاحَ الكعبة. فلما نزلت الآية أمر علياً ـ رضي الله عنه ـ بأن يردَّه إليه، وقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» و قرأ عليه الآية. فأسلم عثمان. فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله ﷺ أن السِّدانة في أولاد عثمان أبداً(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ «ما» نكرة منصوبة موصوفة بـ: يعظكم به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به. أو: موصولة مرفوعة المحل صلتها ما بعدها، أي: نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعما يعظكم به ذاك. وهو المأمورُ به من أداء الأمانات، والعدل في الحكم. وبكسر النون وسكون العين، مدني، وأبو عمرو. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرٗا﴾ بأعمالكم.

٥٩ ـ ولما أمر الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: الولاة، أو: العلماء؛ لأن أمرهم ينفذ على الأمراء ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي:

---

(١) قال ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب. انظر: حاشية الكشاف (١/ ٥٢٣).

إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ

ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أي: إن الإيمان يوجب الطاعة دون العصيان. ودلَّت الآيةُ على أن طاعةَ الأمراء واجبةٌ إذا وافقوا الحق، فإذا خالفوه فلا طاعة لهم؛ لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]. وحُكي أنَّ مسلمةَ بن عبدالملك بن مروان قال لأبي حازم: ألستم أُمرتم بطاعتنا بقوله ﴿وأولي الأمر منكم﴾؟ فقال أبو حازم: أليس قد نزعت الطاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾؟ أي: القرآن والرسول في حياته، وإلى أحاديثه بعد وفاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الردِّ. أي: الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خَيْرٌ﴾ عاجلاً ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة.

٦٠ ـ كان بين بشر المنافق ويهودي خصومة، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ لعلمه أنه لا يرتشي، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ليرشُوَه. فاحتكما إلى النبي ﷺ، فقضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر. فقال اليهودي لعمر ـ رضي الله عنه ـ: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فأخذ سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق. فقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرّق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»[2] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿يزعمون﴾ ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: كعب بن الأشرف. سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله ﷺ. أو: على التشبيه بالشيطان. أو جعل اختيار

(١) رواه أحمد (١/٤٠٩) و (٥/٦٦).
(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧ ـ ١٠٨).

وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

التحاكم إلى غير الله على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ مستمراً إلى الموت.

٦١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين. ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ للتحاكم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة، فيقضي لهم.

٦٢ ـ ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم، وكيف يصنعون؟ ﴿إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ من قتل عمر بشراً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك، واتهامهم لك في الحكم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: أصحاب القتيل من المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَـٰنًا﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطاً لحكمك. وهذا وعيدٌ لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه، وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به.

٦٣ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ فأعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار. أو: أعرض عن عقابهم، وعظهم في عتابهم، وبلغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بارتكابهم. والبلاغة: أن يبلغ بلسانه كنه ما في جنانه. و﴿في أنفسهم﴾ يتعلق بـ: قل لهم، أي: ﴿قل لهم في﴾ معنى ﴿أنفسهم﴾ الخبيثة وقلوبهم المطوية على

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

النفاق ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

٦٤ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: رسولاً قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقه في طاعته وتيسيره. أو: بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه؛ لأنه مؤدٍّ عن الله، فطاعته طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من النفاق، معتذرين عما ارتكبوا من الشقاق ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من النفاق والشقاق ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم. والعامل في ﴿إذ ظلموا﴾ خبر أنَّ وهو ﴿جاؤوك﴾. والمعنى: ولو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول. ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم. ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم. قيل: جاء أعرابي بعد دفنه ﷺ فرمى بنفسه على قبره، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله! قلت فسمعنا، وكان فيما أنزل عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...﴾ الآية وقد ظلمتُ نفسي، وجئتك أستغفر الله من ذنبي، فاستغفر لي من ربي. فنُودِي من قبره: قد غفر لك!

٦٥ ـ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢] و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم. وجواب القسم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو: التقدير ﴿فلا﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون، ثم قال: ﴿وربك لا يؤمنون﴾ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه: الشجر؛ لتداخل أغصانه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا تضيق صدورهم من حكمك، أو شكّاً؛ لأن الشاك في ضيق من أمره

وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لقضائك انقياداً، وحقيقته: سلم نفسه له وأسلمها، أي: جعلها سالمة له، أي: خالصة. و﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك.

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين، أي: ولو وقع كتبنا عليهم ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ أن هي المفسرة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تعرَّضوا للقتل بالجهاد، أو: ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرة ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقهم، والهاء: ضمير أحد مصدري الفعلين، وهو: القتل، أو الخروج، أو: ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (قليلاً): شامي، على الاستثناء، والرفع على البدل من واو «فعلوه» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من اتباع رسول الله ﷺ، والانقياد لحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لإيمانهم، وأبعد عن الاضطراب فيه.

٦٧ ـ ﴿وَإِذًا﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وما ذا يكون لهم بعد التثبيت؟ فقيل: ﴿وإذاً﴾ لو ثبتوا ﴿لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً لا ينقطع.

٦٨ ـ ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا﴾ مفعول ثان ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: لثبتناهم على الدِّين الحق.

٦٩ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء. والصديق: المبالغ في صِدْق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة. أو: الذي يصدق قوله بفعله ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والذين استشهدوا

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾
وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ

في سبيل الله ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومن صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ أي: وما أحسن أولئك رفيقاً! وهو كالصديق، والخليط في استواء الواحد، والجمع فيه.

٧٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أو: الفضل صفته و(من الله) خبره. والمعنى: أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم، ومرافقة المنعم عليهم، من الله؛ لأنه تفضّل به عليهم. أو: أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيّتهم من الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ بعباده، وبمن هو أهل الفَضْل. ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه، بخلاف ما يقوله المعتزلة.

٧١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْر والحَذَر بمعنى، وهو: التَّحَرُّز، وهما كالإثر والأثر. يقال: أخذ حذره؛ إذا تيقظ، واحترز من المخوف، كأنه جَعَل الحذر آلته التي بقي بها نفسه، ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو جماعات متفرقة سريّة بعد سَريّة. فالثبات: الجماعات، واحدها: ثُبَة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أي: مجتمعين، أو مع النبي ﷺ؛ لأن الجمع بدون السمع لا يتم، والعقد بدون الواسطة لا ينتظم. أو: ﴿انفروا ثبات﴾ إذا لم يعم النفير ﴿أو انفروا جميعاً﴾ إذا عَمَّ النفير. و«ثبات» حال، وكذا «جميعاً».

٧٢ ـ واللام في: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن﴾ للابتداء بمنزلتها في إن الله لغفور، ومن موصولة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ اللام جواب قسم محذوف، تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن. والقسم وجوابه صلة مَن. والضمير الراجع منها إليه ما استكن في ﴿ليبطئن﴾ أي: ليتثاقلن، وليتخلفن عن الجهاد. وبطؤ بمعنى: أبطأ، أي: تأخر. ويقال: ما بطؤ بك، فيتعدّى بالباء. والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ. وقوله ﴿منكم﴾ أي: الظاهر دون الباطن، يعني: المنافقين، يقولون: لم تقتلون أنفسكم، تأنوْا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ﴾ قتل، أو هزيمة

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ المبطِّىء ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً، فيصيبني مثل ما أصابهم.

٧٣ ـ ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتح، أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطىء متلهفاً على ما فاته من الغنيمة، لا طلباً للمثوبة ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنه ﴿لَّمْ تَكُنۢ﴾[1] وبالياء، مكي، وحفص ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ وهي اعتراضٌ بين الفعل، وهو ﴿ليقولن﴾ وبين مفعوله، وهو ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ والمعنى: كأن لم يتقدَّم له معكم موادة؛ لأنَّ المنافقين كانوا يوادُّون المؤمنين في الظاهر، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل[2] في الباطن ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالنصيب؛ لأنه جواب التَّمنِّي ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فآخذ من الغنيمة حظاً وافراً.

٧٤ ـ ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمراد: المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة، ويستبدلونها بها. أي: إن صدّ الذين مرضت قلوبهم، وضعفت نياتهم عن القتال، فليقاتل الثابتون المخلصون. أو: يشترون. والمراد: المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة. وعظوا بأن يغيِّروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿يَكُنۢ﴾. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحمزة، وعاصم، وأبي جعفر المدني، وحفص، ورويس البرجمي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٤٥).

(٢) «الغوائل»: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

٧٥ - ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر. وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاء، وفي الإثبات للإنكار ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال، والعامل فيها الاستقرار، كما تقول: مالك قائماً؟! والمعنى: وأي شيء لكم تاركين القتال، وقد ظهرت دواعيه؟! ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿سبيل الله﴾ أي: في سبيل الله، وفي خلاص المستضعفين. أو: منصوب على الاختصاص منه، أي: واختص من سبيل الله خلاص المستضْعَفين [من المستضعِفين][1]؛ لأن سبيل الله عام في كلِّ خير، وخلاص المستضعفين المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير، وأخصّه. والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة، وصدّهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين، يَلْقَوْن منهم الأذى الشديد ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ذكر الولدان تسجيلاً بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم؛ الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس عليه السلام. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولْدان ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الظالم: وصف للقرية، إلا أنه مسند إلى أهلها، فأعطي إعراب القرية؛ لأنه صفتها، وذكّر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم. كانوا يدعون الله بالخلاص، ويستنصرونه، فيسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خير وليّ وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسنَ التولي، ونصرهم أقوى

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾

النصر. ولما خرج محمد ﷺ استعمل عتاب بن أسيد، فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان ينصر الضعيف من القوي، حتى كانوا أعزَّ بها من الظلمة.

٧٦ ـ ثمَّ رغَّب الله المؤمنين بأنهم يقاتلون في سبيل الله، فهو وليّهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولي لهم إلا الشيطان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ أي: الشيطان بقوله: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: وساوسه، وقيل الكيد: السعي في فساد الحال، على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه غرور، لا يؤول إلى محصول، أو: كيده في مقابلة نصر الله تعالى ضعيف.

٧٧ ـ كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه، فنزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرِض بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخافون أن يقاتلهم الكفار، كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين، ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الأخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: هذه خشية طبع، لا أنَّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء مجبولٌ على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالباً. و«خشية الله» من إضافة المصدر إلى المفعول، ومحلُّه النصب على الحال من الضمير في ﴿يخشون﴾ أي: يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ هو معطوف على الحال، أي: أو أشد خشية من أهل خشية الله. وأو: للتخيير، أي: أن قلت خشيتهم الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن قلت: إنها أشد فأنت مصيب؛ لأنه حصل لهم مثلها وزيادة ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ

عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى الموت، فنموت على الفرش. وهو سؤالٌ عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه؛ بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة كثير دائم، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل، فكيف القليل الزائل؟! ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتل، فلا ترغبوا عنه. وبالياء، مكيّ، وحمزة، وعليّ.

٧٨ ـ ثم أخبر أنَّ الحذرَ لا ينجي من القدر بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «ما» زائدة لتوكيد معنى الشرط في أين ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ حصون، أو قصور ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرفّعة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة من خصب، ورخاء. ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية من قحط، وشدّة ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك. وذلك: أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى، وإذا أصابهم مكروه نسبوه إلى محمد ﷺ، فكذّبهم الله تعالى بقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والمضاف إليه محذوف، أي: كل ذلك، فهو يبسط الأرزاق ويقبضها ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادرٌ عن حكمة.

٧٩ ـ ثمَّ قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ياإنسان! خطاباً عاماً، وقال الزجاج: المخاطب به النبي ﷺ، والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة، وإحسان ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضُّلاً منه، وامتناناً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من بلية، ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فمن عندك، أي: فبما كسبت يداك ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أيديكم﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ لا مقدراً حتى نسبوا إليك الشدة. أو: أرسلناك للناس رسولاً، فإليك تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأنك رسوله. وقيل: هذا متصل بالأول، أي: ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ يقولون: ﴿ما أصابك﴾. وحَمْل المعتزلة الحسنة والسيئة في هذه الآية على الطاعة والمعصية، تعسُّف بيِّن. وقد نادى عليه ﴿ما أصابك﴾ إذ يقال في الأفعال: ما أصبت، ولأنهم لا يقولون الحسنات من الله خلقاً وإيجاداً، فأنّى يكون لهم حجة في ذلك؟! و﴿شهيداً﴾ تمييز.

٨٠ ـ ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتعاقبهم.

٨١ ـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا وشأننا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زور، وسوّى. فهو من البيتوتة؛ لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، أو من أبيات الشعر لأن الشاعر يدبِّرها ويُسوِّيها. وبالإدغام[1] حمزة، وأبو عمرو ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت، وما أمرت به. أو: خلاف ما قالت، وما ضمنت من الطاعة؛ لأنهم أبطنوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة، وإنما ينافقون بما يقولون، ويظهرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك مضرَّتهم، وينتقم لك منهم

(١) أي: بإدغام التاء مع الطاء ﴿بيَّت طَّائفة﴾.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ﴾

إذا قوي أمر الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ كافياً لمن توكل عليه.

٨٢ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أفلا يتأملون معانيه ومبانيه. والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كلِّ تأمل. والتفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل. وهذا يردُّ قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول الله ﷺ، والإمام المعصوم. ويدلُّ على صحة القياس، وعلى بطلان التقليد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضاً من حيث التوحيد، والتشريك، والتحليل، والتحريم. أو: تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضُه بالغاً حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته. أو: من حيث المعاني، فكان بعضُه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم. وأما تعلق الملاحدة بآيات يدَّعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فقد تفصّى عنها أهلُ الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانّها إن شاء الله تعالى.

٨٣ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم يكن فيهم خبرة بالأحوال. أو: المنافقون؛ كانوا إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله ﷺ من أمن، وسلامة، أو خوف، وخلل ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أفشوه، وكانت إذاعتهم مفسدة. يقال: أذاع السر، وأذاع به. والضمير يعود إلى الأمر، أو: إلى الأمن، أو: الخوف؛ لأن أو تقتضي أحدهما ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الخبر ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: رسول الله ﷺ ﴿وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعني: كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمَّرون منهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾

ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

لعَلِم تدبيرَ ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدبيره بفطنهم، وتجاربهم، ومعرفتهم بأمور الحرب ومكائدها. وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء، أو على خوف واستشعار، فيذيعونه، فينتشر، فيبلغ الأعداء، فتعود إذاعتهم مفسدة، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وفوّضوه إليهم، وكانوا كأن لم يسمعوا، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه، وما يأتون، ويذرون فيه. والنبَط: الماء الذي يخرج من البئر أول ما تُحفر. واستنباطه: استخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني، والتدابير فيما يعضل ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإنزال الكتاب ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لبقيتم على الكفر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لم يتبعوه، ولكن آمنوا بالعقل كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس ابن ساعدة، وغيرهما.

٨٤ ـ لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة، وإضمارهم خلافها، قال: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن أفردوك، وتركوك وحدك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ غير نفسك وحدها أن تُقدّمها إلى الجهاد، فإنَّ الله تعالى ناصرك لا الجنود. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها، فكره بعضُ الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرج وما معه إلا سبعون، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض على القتال فحسب، لا التعنيف بهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بطشهم وشدتهم، وهم قريش. وقد كفَّ بأسهم بالرعب فلم يخرجوا. و﴿عسى﴾ كلمة مطمعة، غير أن إطماع الكريم أعود من إنجاز اللئيم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً، وهو تمييز كـ: بأساً.

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ

٨٥ ـ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعاً ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مالها مفسِّر غيري: معناه: من أمر بالتوحيد، وقاتل أهل الكفر، وضده: السيئة. وقال الحسن: هو المشي بالصلح، وضده: النميمة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً. من: أقات على الشيء: اقتدر عليه، أو حفيظاً. من القوت لأنه يمسك النفس، ويحفظها.

٨٦ ـ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سُلِّم عليكم، فإنَّ التحيةَ في ديننا بالسلام في الدارين ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وكانت العرب تقول عند اللقاء: حياك الله، أي: أطال حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ هي تفعلة، من حيّا يحيّي تحية ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي: أجيبوها بمثلها. وردُّ السلام: جوابُه بمثله؛ لأن المجيب يردُّ قولَ المسلم. وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها. والتسليم سُنَّة، والرد فريضة، والأحسنُ فضل. وما من رجل يمرُّ على قوم مسلمين فيُسلِّمُ عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس، وردت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم، والأذان، والإقامة. وعند أبي يوسف ـ رحمه الله ـ: لا يسلّم على لاعب الشطرنج والنرد، والمُغنّي، والقاعد لحاجته، ومُطَيِّر الحَمَام، والعاري من غير عذر في حمام أو غيره. ويسلّم الرجل إذا دخل على امرأته، والماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾

وإذا التقيا ابتدرا. وقيل: ﴿بأحسن منها﴾ لأهل الملة ﴿أو ردوها﴾ لأهل الذمة. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم»[1] أي: وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وقوله ﷺ: «لا غرار في تسليم»[2] أي: لا يقال عليك، بل عليكم؛ لأن كاتبيه معه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: يُحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

٨٧ ـ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر، أو اعتراض، والخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ومعناه: اللهُ، واللهِ ليجمعنكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة: القيام، كالطلابة والطلاب، وهي: قيامهم من القبور، أو: قيامهم للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو حال من يوم القيامة، والهاء يعود إلى اليوم. أو: صفة المصدر محذوف، أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء يعود إلى الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ تمييز. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه في إخباره، ووعده، ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه لقبحه؛ لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

٨٨ ـ ﴿۞ فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقاً ظاهراً، وتفرقتم فيهم فرقتين، وما لكم لم تقطعوا القول بكفرهم. وذلك أنَّ قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة. فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون. و﴿فئتين﴾ حال، كقولك: مالك قائماً؟ قال سيبويه: إذا قلت مالك قائماً؟ فمعناه: لم قمت؟ ونصبه على

---

(١) رواه البخاري (٦٢٥٨) ومسلم (٢١٦٣).
(٢) رواه أحمد (٢ / ٤٦١) وأبو داود (٩٢٨ و ٩٢٩). ومعنى «لا غِرار»: لا نُقصان.

وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ
لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ
مِنْهُمْ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ

تأويل: أي شيء يستقرُّ لك في هذه الحال؟! ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردَّهم إلى حُكْم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين. فردوهم أيضاً، ولا تختلفوا في كفرهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ مَن جعله الله ضالاً. أو: أتريدون أن تسموهم مهتدين، وقد أظهر الله ضلالهم، فيكون تعييراً لمن سماهم مهتدين. والآية تدلُّ على مذهبنا في إثبات الكسب للعبد، والخلق للرب جلَّت قدرته ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ طريقاً إلى الهداية.

٨٩ ـ ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ الكاف: نعت لمصدر محذوف، وما: مصدرية، أي: ودوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على تكفرون ﴿سَوَآءٗ﴾ أي: مستوين أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا؛ لأنَّ الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كما كان حُكْم سائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

٩٠ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ﴾ أي: ينتهون إليهم، ويتصلون بهم. والاستثناء من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾ دون الموالاة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ القوم هم الأسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، وذلك أنه وَادَعَ قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال، والتجأ إليه، فله من الجوار مثل الذي لهلال. أي: فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطف على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم. أو: على صلة الذين، أي: إلا الذين يتصلون

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى
ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا
كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ

بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد. والحصر: الضيق، والانقباض ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم، أي: عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقوية قلوبهم، وإزالة الحصر عنها ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ عطف على «لسلطهم» ودخول اللام للتأكيد ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الانقياد، والاستسلام ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى القتال.

٩١ ـ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق. هم قومٌ من أسد وغَطَفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا، وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا، ونكثوا عهودهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم على القتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شرّاً فيها من كلِّ عدو ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ عطف على لم يعتزلوكم، أي: ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف عليه أيضاً، أي: ولم يمسكوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم، وظفرتم بهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنّا لكم في قتلهم.

٩٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له، ولا استقام، ولا لاق بحاله ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ابتداء من غير قصاص، أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدَّم إباحة دمه ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ إلا على وجه الخطأ، وهو استثناء منقطع بمعنى:

وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ

لكن، أي: لكن إن وقع خطأ. ويحتمل أن يكون صفة للمصدر، أي: إلا قتلاً خطأ. والمعنى: من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد بأن يرمي كافراً، فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر، فإذا هو مسلم ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: قتلاً خطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم؛ لأن الكرم في الأحرار، كما أن اللؤم في العبيد، ومنه عتاق الطير، وعتاق الخيل لكرامها. والرقبة: النسمة، ويعبّر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ قيل: لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولهذا منع من تصرف الأحرار. وهذا مشكل، إذ لو كان كذلك لوجب في العمد أيضاً. لكن يحتمل أن يقال: إنما وجب عليه ذلك لأن الله تعالى أبقى للقاتل نفساً مؤمنة، حيث لم يوجب القصاص، فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها، كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، فيُقْضَى منها الدين، وتنفذ الوصية، وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال. وقد ورث رسول الله ﷺ امرأةَ أشيم الضبابي من عَقْل زوجها أشيم. لكن الدية على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، أي: يعفوا عنه، والتقدير: فعليه دية في كل حال، إلا في حال التصدُّق عليه بها ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأ من قوم أعداء لكم، أي: كفرة، فالعدو يطلق على الجمع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: المقتول مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعني: إذا أسلم الحربي في دار الحرب، ولم يهاجر إلينا، فقتله مسلم خطأً، تجب

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

الكفارة بقتله للعصمة المؤثمة، وهي الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقومة بالدار، ولم توجد ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين. ﴿وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وإن كان المقتول ذمياً فحكمه حكم المسلم. وفيه دليلٌ على أنَّ دية الذمي كدية المسلم، وهو قولنا ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة، أي: لم يملكها، ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قبولاً من الله، ورحمة منه، من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو فليتب توبة، فهي نصب على المصدر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قدر.

٩٣ ـ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير القاتل، أي: قاصداً قتله لإيمانه، وهو كفر، أو قتله مستحلاً لقتله، وهو كفر أيضاً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: إن جازاه. قال ﷺ: «هي جزاؤه إن جازاه»[1]. والخلود قد يراد به طول المقام. وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: انتقم منه، وطرده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لارتكابه أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً. في الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم»[2].

٩٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سرتم في طريق الغزو.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٦٢٧).
(٢) رواه الترمذي (١٣٩٥).

فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فتثبتوا، حمزة، وعليّ. وهما من التفعل بمعنى الاستفعال. أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته، ولا تتهوكوا فيه[١] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ السَلَم: مدني، وشامي، وحمزة. وهما الاستسلام، وقيل: الإسلام، وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ في موضع النصب بالقول. روي أنَّ مرداس بن نهيك أسلم، ولم يُسْلم من قومه غيره، فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ فهربوا، وبقي مرداس لثقته بإسلامه، فلما رأى الخيلَ ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصَعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر، ونزل، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه؟!» ثم قرأ الآية على أسامة[٢] ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبت، وقلّة البحث عن حال مَن تقتلونه. والعَرَض: المال، سُمِّي به لسرعة فنائه. و﴿تبتغون﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿تقولوا﴾ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكموها، تغنيكم عن قتل رجل يُظهر الإسلام، ويتعوّذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم. والكاف في ﴿كذلك﴾ خبر كان، وقد تقدم عليها وعلى اسمها ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة، والاشتهار بالإيمان، فافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ كرَّر الأمر بالتبين ليؤكّد عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تتهافتوا في القتل، وكونوا محترزين، محتاطين في ذلك.

---

(١) «لا تتهوكوا فيه»: أي: لا تتحيروا أو تخبطوا بلا مبالاة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/ ٥٥٢).

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾

٩٥ ـ ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالنصب: مدني، وشامي، وعليّ؛ لأنه استثناء من القاعدين، أو حال منهم. وبالجر: عن حمزة، صفة للمؤمنين. وبالرفع: غيرهم، صفة للقاعدين. والضرر: المرض، أو العاهة من: عمى، أو عرج، أو زمانة، أو نحوها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿القاعدون﴾. ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، وتوبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ ذكر هذه الجملة بياناً للجملة الأولى، موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل: ما لهم لا يستوون؟! فأجيب بذلك ﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: كأنه فضلهم تفضلة، كقولك: ضربه سوطاً. ونصب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل فريق من القاعدين والمجاهدين، ونصب لأنه مفعول أول؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ والثاني ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩٦ ـ ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: انتصب ﴿أجراً﴾ بـ«فضّل» لأنه في معنى أجرهم أجراً. ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من «أجراً». أو انتصب «درجات» نصب «درجة»، كأنه قيل: فضلهم تفضيلات، كقولك: ضربه أسواطاً، أي: ضربات، و﴿أجراً عظيماً﴾ على أنه حال من النكرة؛ التي هي درجات مقدمة عليها. ومغفرة ورحمة بإضمار فعلهما، أي: وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة. وحاصله: أنَّ الله تعالى فضّل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة؛ وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبي ﷺ اكتفاء بغيرهم،

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

درجات؛ لأنَّ الجهادَ فرضُ كفاية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ بتكفير العذر ﴿رَّحِيمًا﴾ بتوفير الأجر.

٩٧ ـ ونزل فيمن أسلم ولم يهاجر، حين كانت الهجرة فريضة، وخرج مع المشركين إلى بدر مرتداً فقتل كافراً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يجوز أن يكون ماضياً لقراءة من قرأ (توفتهم) ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين. والتوفي: قبض الروح. والملائكة: ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال من ضمير المفعول في توفاهم، أي: في حال ظلمهم أنفسهم بالكفر، وترك الهجرة ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة للمتوفَّين ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟ ومعناه: التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين عن الهجرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكة موبخين لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد؛ التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ. ونصب ﴿فتهاجروا﴾ على جواب الاستفهام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ خبر «إن»: ﴿فأولئك﴾. ودخول الفاء لما في الذين من الإبهام المشابه بالشرط. أو: ﴿قالوا فيم كنتم﴾ والعائد محذوف، أي: قالوا لهم. والآية تدلُّ على أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره حقّت عليه المهاجرة. وفي الحديث: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استُوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»[1].

٩٨ ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثنى من أهل الوعيد

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي مرسلاً. (حاشية الكشاف ١/ ٥٥٥).

لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ
مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ في الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ولا معرفة لهم بالمسالك. و﴿لا يستطيعون﴾: صفة للمستضعفين، أو: للرجال، والنساء، والولدان. وإنما جاز ذلك والجمل نكرات؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف، فليس بشيء بعينه، كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني[1] ... ...

٩٩ ـ ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله واجب؛ لأنَّ الكريم إذا أطمع أنجز ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده قبل أن يخلقهم.

١٠٠ ـ ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مهاجَراً وطريقاً، يراغم بسلوكه قومَه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل، والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرَّغام، وهو التراب. يقال: راغمت الرجل؛ إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلّة تلحقه بذلك ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق، أو في إظهار الدين، أو في الصدر؛ لتبدُّل الخوف بالأمن ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في ﴿يخرج﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مهاجَره. وهو عطف على ﴿يخرج﴾ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حصل له الأجر بوعد الله. وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجبُ على الله لأحدٍ من خلقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قالوا: كل هجرة لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهداً، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله.

---

(١) صدر بيت، وعجزه: فمضيت ثمة قلت لا يعنيني.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

١٠١ - ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها، فالضرب في الأرض هو السفر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾ في أن تقصروا ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة، فتصلوا الرباعية ركعتين. وظاهر الآية يقتضي أنَّ القصر رخصة في السفر، والإكمال عزيمة، كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ لأن «لا جناح» يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة. وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولا يجوز الإكمال لقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر، فنفى عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر، ويطمئنوا إليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل، أو جرح، أو أخذ. والخوف: شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص. وعند الجمهور ليس بشرط؛ لما روي عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أمنّا؟ فقال: عجبت مما تعجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»(١). وفيه دليلٌ على أنه لا يجوز الإكمال في السفر؛ لأنَّ التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتملُ الرد، وإن كان المتصدّق ممن لا تلزم طاعته كوليّ القصاص إذا عفا، فمن تلزم طاعته أولى. ولأنَّ حالهم حين نزول الآية كذلك، فنزلت على وفق الحال. وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] دليله قراءة عبد الله (من الصلاة أن يفتنكم) أي: لئلا يفتنكم. على أنَّ المراد بالآية قصر الأحوال، وهو أن يومىء على الدابة عند الخوف، أو يخفّف القراءة والركوع والسجود والتسبيح، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فتحرّزوا عنهم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٥) ومسلم (٦٨٦) وأبو داود (١١٩٩) والترمذي (٣٠٣٤) وابن ماجه (١٠٦٥).

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ

١٠٢ ـ ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ في أصحابك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فأردت أن تقيم الصَّلاة بهم. وبظاهره تعلّق أبو يوسف ـ رحمه الله ـ فلا يرى صلاة الخوف بعده عليه الصلاة والسلام. وقالا: الأئمة نواب عن رسول الله ﷺ في كل عصر، فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام، كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. دليله فعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعده عليه الصلاة والسلام. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك فصلِّ بهم، وتقوم طائفة تُجاه العدو ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: الذين تجاه العدو. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وإن كان المراد به المصلين، فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة، كالسيف، والخنجر، ونحوهما ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: قيدوا ركعتهم بسجدتين. فالسجود على ظاهره عندنا، وعند مالك بمعنى الصلاة ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: إذا صلّت هذه الطائفة التي معك ركعة، فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ في موضع رفع صفة لطائفة ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أي: ولتحضر الطائفة الواقفة بإزاء العدوّ، فليصلّوا معك الركعة الثانية ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾ ما يتحرّزون به من العدو، كالدرع، ونحوه ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جمع سلاح، وهو: ما يقاتل به. وأخذ السلاح شرط عند الشافعي ـ رحمه الله ـ، وعندنا مستحب. وكيفية صلاة الخوف معروفة ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: تمنّوا أن ينالوا منكم غرّة في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فيشدّون عليكم شدة واحدة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ﴾ في أن تضعوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ رخّص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

عليهم حملها، بسبب ما يبلّهم من مطر، أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا، فيهجم عليهم العدو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم، وإنما هو تعبُّد من الله تعالى.

١٠٣ ـ ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فرغتم منها ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ أي: دوموا على ذِكْر الله في جميع الأحوال. أو: فإذا أردتم أداء الصلاة فصلّوا قياماً إن قدرتم عليه، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ سكنتم بزوال الخوف ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فأتمّوها بطائفة واحدة. أو: إذا أقمتم فأتموا ولا تقصُروا. أو: إذا اطمأننتم بالصحة فأتموا القيام، والركوع، والسجود ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة.

١٠٤ ـ ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا، ولا تتوانوا ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال، والتعرض به لهم. ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ أي: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؟! مع أنكم أجدر منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون؛ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير أمورهم.

١٠٥ ـ رُوي أن طُعمة بن أبيرق ـ أحد بني ظَفَر ـ سرق درعاً من جارٍ له اسمه قتادة بي النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثرُ من خرقٍ فيه،

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

وخبأها عند زيد بن السمين ـ رجل من اليهود ـ فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها، وماله بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طعمة، وشهد له ناسٌ من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعلْ هلك صاحبنا، وافتضح، وبرىء اليهودي، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحقّاً ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما عرَّفك، وأوحى به إليك. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزَّلة. وفيه دلالة جواز الاجتهاد في حقه ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا﴾ مخاصماً، أي: ولا تخاصم اليهود لأجل بني ظفر.

١٠٦ ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

١٠٧ ـ ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية. جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن الضرر راجع إليهم. والمراد به: طعمة، ومَن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق. أو: ذكر بلفظ الجمع ليتناول طعمة، وكلّ من خان خيانته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإنما قيل بلفظ المبالغة؛ لأنه تعالى عالم من طعمة أنه مُفْرط في الخيانة، وركوب المآثم. وروي أنَّ طعمة هرب إلى مكة، وارتد، ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أنَّ لها أخوات. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي، وتقول: هذه أوّل سرقة سرقها فاعفُ عنه، فقال: كذبتِ إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ

١٠٨ ـ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياء منهم، وخوفاً من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم، مطّلع عليهم، لا يخفى عليه خافٍ من سرّهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم أنّهم في حضرته لا سُترة، ولا غيبة ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبّرون. وأصله: أن يكون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد لِيُسَرَّق دونه، ويحلف أنه لم يسرقها. وهو دليلٌ على أنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، حيث سمّى التدبير قولاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ عالماً علم إحاطة.

١٠٩ ـ ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ ها للتنبيه في «أنتم»، و«أولاء»، وهما مبتدأ وخبر. و﴿جادلتم﴾ خاصمتم وهي جملة مبينة لوقوع «أولاء» خبراً، كقولك لبعض الأسخياء: أنتِ حاتم تجود بمالك. أو: «أولاء» اسم موصول بمعنى الذين، وجادلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة، وقومه ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرىء: عنه، أي: عن طعمة ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله، وعذابه.

١١٠ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ ذنباً دون الشرك ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بالشرك. أو ﴿سوءاً﴾ قبيحاً يتعدى ضرره إلى الغير، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختصُّ به كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يسأل مغفرته. ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ له. وهذا بعثٌ لطعمة على الاستغفار والتوبة.

١١١ ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ وباله عليها ﴿وَكَانَ

ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا
وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ
فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ

﴿ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقب بالذنب غير فاعله.

١١٢ ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. أو: الأول ذنب بينه وبين ربه، والثاني ذنب في مظالم العباد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا﴾ كذباً عظيماً ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنباً ظاهراً، وهذا لأنه بكسب الإثم آثم، وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين. والبهتان: كذب يَبهَت من قيل عليه مالا علم له به.

١١٣ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: عصمته، ولطفه من الاطلاع على سرهم ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من بني ظفر. أو: المراد بالطائفة بنو ظفر، والضمير في ﴿منهم﴾ يعود إلى الناس. ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق، وتوخّي طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني صاحبهم. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأنَّ وباله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك. ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين، والشرائع، أو من خفيّات الأمور، وضمائر القلوب ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فيما علّمك، وأنعم عليك.

١١٤ ـ ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من تناجي الناس. ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر. وهو مجرور بدل من «كثير» أو من «نجواهم»، أو منصوب على الانقطاع بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففي نجواه الخير. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: قرض، أو إغاثة ملهوف، أو كلّ جميل. أو: المراد بالصدقة: الزكاة، وبالمعروف: التطوع. ﴿أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي:

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ
ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ
جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا

إصلاح ذات البين. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلب رضا الله. وخرج عنه من فعل ذلك رياء، أو ترؤساً. وهو مفعول له. والإشكال أنه قال: ﴿إلا من أمر﴾ ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ والجواب أنه ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله؛ لأنه إذا دخل الآمر به في زمرة الخيّرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل، وقرن به الوعد بالأجر العظيم. أو: المراد من يأمر بذلك، فعبّر عن الأمر بالفعل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يؤتيه: أبو عمرو، وحمزة.

١١٥ ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل، وظهور الرشد ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي. وهو دليلٌ على أنَّ الإجماعَ حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة؛ لأن الله تعالى جمع بين اتّباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاقّة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتّباعهم واجباً كموالاة الرسول ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، وندعه وما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ في العقبى ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ قيل: هي في طعمة، وارتداده.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مرَّ تفسيره في هذه السورة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الصواب.

١١٧ ـ ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى، وهي: اللات، والعزّى، ومناة، ولم يكن حيّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه: أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في

وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ
نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

أصنامهم: هنّ بنات الله ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾ ما يعبدون ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام، فأطاعوه، فجعلت طاعتهم له عبادة ﴿مَّرِيدٗا﴾ خارجاً عن الطاعة، عارياً عن الخير، ومنه: الأمرد.

١١٨ ـ ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ صفتان، يعني: شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ مقطوعاً واجباً لـي، من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، وواحد لله.

١١٩ ـ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ بالدعاء إلى الضلالة، والتزيين، والوسوسة، ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضلَّ الكل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ ولألقين في قلوبهم الأماني الباطلة من: طول الأعمار، وبلوغ الآمال ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ البتك: القطع، والتبتيك: للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام. كانوا يشقّون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ بفقوء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب، أو: بالخصاء. وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم. أو بالوشم، أو: بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو: بالتحريم والتحليل، أو: بالتخنث، أو: بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ لقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ في الدارين.

١٢٠ ـ ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ يوسوسهم إليهم أن لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو أن يرى شيئاً يظهر خلافه.

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

---

١٢١ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً، ومفرّاً.

١٢٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتبعوا الشيطان في الأمر بالكفر ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقرأ النخعي: سيدخلهم ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ قولاً. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه. وهو تأكيد ثالث. وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

١٢٣ ـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم ـ أيها المشركون ـ أن تنفعكم الأصنام ﴿وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: من المشركين وأهل الكتاب، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده:

١٢٤ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقوله: ﴿وهو مؤمن﴾ حال. ومَنْ الأولى: للتبعيض، والثانية: لبيان الإبهام فيمن يعمل. وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يُدخَلون: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر النقير، وهو: النقرة في ظهر النواة. والراجع في ﴿ولا يظلمون﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

عند الآخر. وقوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ بعد ذكر تمني أهل الكتاب، كقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] وقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ عقيب قوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾.

١٢٥ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، وجعلها سالمة له، لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، وهو حال من المتَّبِع، أو: من إبراهيم ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ هو في الأصل: المخالّ، وهو: الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو: يداخلك خلال منزلك، أو: يسد خللك كما يسدّ خلله. فالخلة: صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار. والمحبة أصفى؛ لأنها من حبة القلب. وهي جملة اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب كقوله:

...... والحوادث جمة[١] ... ...

وفائدتها: تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن مَن بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملّته وطريقته. ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى. وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام»[٢]. وقيل: أوحي إليه: إنما اتخذتك خليلاً لأنك تحبُّ أن تُعطِي ولا تُعْطى. وفي رواية: لأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

---

(١) البيت بتمامه:
ياليت شعري والحوادث جمة هل أغدونْ يوماً وأمري مجمع
(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٦١٦).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

١٢٦ ـ وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذه خليلاً لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى إليه؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ عالماً.

١٢٧ ـ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ ويسألونك الإفتاء في النساء. والإفتاء: تبيين المبهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الله يفتيكم، والمتلو في الكتاب، أي: القرآن في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣] وهو من قولك: أعجبني زيد وكرمه. «وما يتلى» في محل الرفع بالعطف على الضمير في «يفتيكم» أو: على لفظ «الله». و﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناهن. ويجوز أن يكون «في يتامى النساء» بدلاً من ﴿فيهن﴾. والإضافة بمعنى من ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضمُّ اليتيمة إلى نفسه ومالَها، فإن كانت جميلة تزوّجها، وأكل المال، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوّج حتى تموت، فيرثها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهن لجمالهن، أو: عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي: اليتامى، وهو مجرور معطوف على يتامى النساء. وكانوا في الجاهلية إنما يورّثون الرجال القوّام بالأمور، دون الأطفال والنساء ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا، أو: منصوب بمعنى: ويأمركم أن تقوموا. وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي: فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

١٢٨ - ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقعت منه ذلك؛ لما لاح لها من مخايله، وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته، وأن يؤذيها بسبٍّ، أو ضرب ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها؛ بأن يقلَّ محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن، أو دمامة، أو شيء[1] في خُلُق أو خَلْق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ كوفي، (يَصَّالحا) غيرهم. أي: يتصالحا، وهو أصله، فأبدلت التاء صاداً، وأدغمت ﴿صُلْحًا﴾ في معنى مصدر كلّ واحد من الفعلين. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها، أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، أو من النشوز، أو: من الخصومة في كلِّ شيء. أو: ﴿والصلح خير﴾ من الخيور، كما أن الخصومة شرّ من الشرور. وهذه الجملة اعتراض، كقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والمراد: أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمها، والرجل لا يكاد يسمح بأن يقسم لها إذا رغب عنها، فكلّ واحد منهما يطلب ما فيه راحته. وأحضرت يتعدَّى إلى مفعولين، والأول: الأنفس. ثم حثّ على مخالفة الطبع، ومتابعة الشرع بقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهن، وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحقِّ الصحبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى، والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان، والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيثيبكم عليه.

وكان عمران الخارجي من أدمّ بني آدم، وامرأته من أجملهم فنظرت إليه، وقالت: الحمد لله على أني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ فقالت: لأنك

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: سوء.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

رزِقْتَ مثلي فشكرت، ورزقتُ مثلك فصبرتُ، والجنة موعودة للشاكرين والصابرين.

١٢٩ ـ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة. فتمام العدل أن يسوّي بينهن بالقسمة، والنفقة، والتعهد، والنظر، والإقبال، والممالحة، والمفاكهة، وغيرها.
وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»(١). يعني: المحبة؛ لأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت أحبّ إليه ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغتم في تحرّي ذلك ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها. يعني: أن اجتناب كل الميل في حدّ اليسر، فلا تفْرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كلّه. وفيه ضرب من التوبيخ. وكلّ نصب على المصدر؛ لأن له حكم ما يضاف إليه ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي: التي ليست بذات بعل، ولا مطلّقة ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ بينهن. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الجور ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ميل قلوبكم، ويرحمكم فلا يعاقبكم.

١٣٠ ـ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: إن لم يصطلح الزوجان على شيء، وتفرقا بالخلع، أو بتطليقه إياها، وإيفائه مهرها، ونفقة عِدَّتها ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ كل واحد منهما ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من غناه، أي: يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ بتحليل النكاح ﴿حَكِيمًا﴾ بالإذن في السراح. فالسعة: الغِنَى والقُدرة. والواسع: الغَنِيُّ المُقْتَدِر.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

---

١٣١ ـ ثم بَيَّنَ غِناه وقدرته بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً، والمتملكون عبيده رقاً ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم السالفة، وهو متعلق بـ«وصينا» أو بـ«أوتوا» ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بأن اتقوا، أو: تكون «أن» المفسرة لأنَّ التوصية في معنى القول. والمعنى: أنَّ هذه وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده ـ ولستم بها مخصوصين ـ لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ ﴾ عطف على «اتقوا» لأن المعنى: أمرناهم، وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا ﴾ عن خلقه، وعن عبادتهم ﴿ حَمِيدًا ﴾ مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد. وتكرير قوله: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأن الخلق لما كان كله له، وهو خالقهم ومالكهم، فحقه أن يكون مطاعاً في خَلْقه غير معصى. وفيه دليلٌ على أن التقوى أصلُ الخير كله. وقوله: ﴿وإن تكفروا﴾ عقيب التقوى دليلٌ على أنَّ المراد: الاتقاء عن الشرك.

١٣٢ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ فاتخذوه وكيلاً، ولا تتكلوا على غيره.

١٣٣ ـ ثم خوَّفهم وبين قدرته بقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعدمكم ﴿ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو: خلقاً آخرين غير الإنس ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ بليغ القدرة.

١٣٤ ـ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ فماله يطلب أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن
تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟

أخسّهما ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا ﴾ للأقوال ﴿ بَصِيرًا ﴾ بالأفعال. وهو وعد ووعيد.

١٣٥ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ خبر بعد خبر ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي: تقيمون شهاداتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم. والشهادة على نفسه هي: الإقرار على نفسه؛ لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق، وهذا لأنَّ الدعوى والشهادة والإقرار يشترك جميعها في الإخبار عن حق لأحد على أحد. غير أنَّ الدعوى: إخبار عن حقّ لنفسه على الغير، والإقرار: للغير على نفسه، والشهادة للغير على الغير ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على آبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا﴾ فلا يمنع الشهادة: عليه لغناه طلباً لرضاه. ﴿ أَوْ فَقِيرًا ﴾ فلا يمنعها ترحُّماً عليه ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ بالغني والفقير، أي: بالنظر لهما والرحمة. وإنما ثنى الضمير في بهما، وكان حقه أن يوحّد؛ لأن المعنى: إن يكن أحد هذين، لأنه يرجع إلى ما دل عليه قوله: «غنياً أو فقيراً» وهو جنس الغني والفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ إرادة ﴿ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ عن الحق من: العدول، أو: كراهة أن تعدلوا بين الناس من العدل ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾[1] بواو واحدة وضم اللام: شامي، وحمزة، من: الولاية ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ أي: وإن وليتم إقامة الشهادة، أو أعرضتم عن إقامتها. غيرهما: تلووا بواوين وسكون اللام، من: الليّ، أي: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم، وتمنعوها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم عليه.

١٣٦ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ خطاب للمسلمين ﴿ ءَامِنُوا۟ ﴾ اثبتوا على

---

(١) في الأصل المخطوط أثبت قراءة: ﴿تلوا﴾.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ
وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

الإيمان، ودوموا عليه. أو: لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل، وكفروا ببعض. أو: للمنافقين، أي: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمِنوا إخلاصاً ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أي: القرآن ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، ويدل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾. ﴿نُزِّل﴾ و﴿أُنْزِل﴾: مكي، وشامي، وأبو عمرو. وعلى البناء للفاعل فيهما: غيرهم. وإنما قيل: نزّل على رسوله، وأنزل من قبل؛ لأن القرآن نزل مفرقاً منجماً في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ لأن الكفر ببعضه كُفْر بكلّه.

١٣٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بموسى عليه السلام ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ حين عبدوا العجل ﴿ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ﴾ بموسى بعد عوده ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة. أو: هم المنافقون آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر مرة بعد أخرى، وازدياد الكفر منهم: ثباتهم عليه إلى الموت. يؤيده قوله:

١٣٨ ـ ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أي: أخبرهم. ووضع ﴿بشّر﴾ مكانه تهكماً بهم ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلماً.

١٣٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ نصب على الذم، أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو: هم الذين ﴿ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ كان المنافقون يوالون الكفرة، يطلبون منهم المَنَعَة والنُّصْرة، ويقولون: لا يتمّ أمر محمد ﷺ ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ولمن أعزّه كالنبي ﷺ، والمؤمنين، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟
مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ
فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن
مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ

١٤٠ ـ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح النون: عاصم. وبضمها: غيره ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن. والخوض: الشروع. و«أن» مخففة من الثقيلة، أي: إنه إذا سمعتم. أي: نزل عليكم أن الشأن كذا. والشأن: ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها. وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع بـ«نُزِّل»، أو: في موضع النصب بـ«نَزَّل». والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فنُهي المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الوزر إذا مكثتم معهم. ولم يُرِدْ به التمثيل من كلِّ وجهٍ، فإن خوض المنافقين فيه كفر، ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء.

١٤١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من «الذين يتخذون»، أو صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم ما يتجدَّد لكم من ظفر، أو إخفاق[1] ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصرة، وغنيمة ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين، فأشركونا في الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سمَّى ظفر المسلمين فتحاً؛ تعظيماً لشأنهم؛ لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء، وظفر

(١) «إخفاق»: أخفق الرجل: إذا غزا ولم يغنم.

قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم؛ لأنه لُمْظة[1] من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكفار ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلبكم، ونتمكّن من قتلكم، فأبقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، والغلبة. ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبّطناهم عنكم، وخيّلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به، ومرضوا عن قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم. فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيدخل المنافقين النار، والمؤمنين الجنة ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في القيامة؛ بدليل أوّل الآية، كذا عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ. أو: حجة، كذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

١٤٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر. والمنافق: مَن أظهر الإيمان، وأبطن الكفر. أو: أولياءَ الله وهم المؤمنون. فأضاف خداعهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدَّرْك الأسفل من النار في العقبى. والخادع: اسم فاعل من: خادعته فخدعته: إذا غلبته، وكنت أخدع منه. وقيل: يجزيهم جزاء خداعهم ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كراهة. أما الغفلة فقد يُبتلى بها المؤمن. وهو جمع كسلان، كسكارى في سكران ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ حال، أي: يقصدون بصلاتهم الرياء، والسمعة. والمراءاة: مفاعلة من الرؤية؛ لأن المرائي يريهم عمله، وهم يُرُونه استحساناً ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يصلون إلا قليلاً؛ لأنهم لا يصلّون قط غائبين

---

(١) «المظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

عن عيون الناس. أو: لا يذكرون الله بالتسبيح، والتهليل إلا ذكراً قليلاً نادراً. قال الحسن: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً.

١٤٣ ـ ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ نصب على الذم، أي: مردَّدين، يعني: ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم متردّدون بينهما، متحيرون. وحقيقة المذبذب: الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين، أي: يُدْفَع فلا يَقرّ في جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء، فيكونوا مؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء، فيسمون مشركين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهدى.

١٤٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة في تعذيبكم.

١٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ[1] ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: في الطبق الذي في قعر جهنم، والنار سبع دَرَكات. سُمِّيت بذلك لأنها متداركة، متتابعة، بعضها فوق بعض. وإنما كان المنافقُ أشدَّ عذاباً من الكافر؛ لأنه أمن السيف في الدنيا فاستحق الدرك الأسفل في العقبى تعديلاً، ولأنه مثله في الكفر، وضمَّ إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله. والدرْك ـ بسكون الراء ـ كوفي، غير الأعشى. وبفتح الراء: غيرهم، وهما لغتان، وذكر الزجّاج أن الاختيار فتح الراء. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يمنعهم من العذاب.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿الدَّرَك﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبي بكر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٧٥).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

---

١٤٦ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من النفاق، وهو استثناء من الضمير المجرور في ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم، وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخلّص ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين، ورفاقهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيشاركونهم فيه. وحذفت الياء في الخط هنا إتباعاً للفظ.

١٤٧ ـ ثمَّ استفهم مقرّراً أنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ لله ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به. فـ«ما» منصوبة بـ«يفعل». أي: أيّ شيء يفعل بعذابكم. فالإيمان: معرفة المنعم. والشكر: الاعتراف بالنعمة. والكفر بالمنعم والنعمة عناد؛ فلذا استحق الكافر العذاب. وقدّم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر مُتقدِّماً على الإيمان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم، أو: يقبل اليسير من العمل، ويعطي الجزيل من الثواب ﴿عَلِيمًا﴾ عالماً بما تصنعون.

١٤٨ ـ ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ولا غير الجهر، ولكن الجهر أفحش ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جهر من ظلم. استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء. وقيل: ﴿الجهر بالسوء من القول﴾ هو الشتم ﴿إلا من ظلم﴾ فإنه إن ردّ عليه مثله فلا حرج عليه ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بظلم الظالم.

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ
يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

١٤٩ ـ ثمَّ حثَّ على العفو، وألا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به، حثاً على الأفضل. وذكر إبداء الخير وإخفاءه تسبيباً للعفو، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ مكان جهر السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سراً. ثم عطف العفو عليهما فقال: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: تمحوه عن قلوبكم. والدليل على أن العفو هو المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: أنه لم يزل عفواً عن الآثام، مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بِسُنَّته.

١٥٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، والإنجيل، والقرآن. وكالنصارى كفروا بمحمد ﷺ، والقرآن. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة بينهما.

١٥١ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر؛ لأن الكفر بواحد كفر بالكلّ ﴿حَقًّا﴾ تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هذا عبد الله حقّاً، أي: حقّ ذلك حقّاً، وهو كونهم كاملين في الكفر. أو: هو صفة لمصدر الكافرين، أي: هم الذين كفروا كفراً حقاً، ثابتاً، يقيناً، لا شك فيه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ في الآخرة.

١٥٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وإنما جاز دخول «بين» على أحد؛ لأنه عام في الواحد، المذكر، والمؤنث، وتثنيتهما،

أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ

وجمعهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ﴾[1] وبالياء، حفص ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ أي: الثواب الموعود لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ يستر السيئات ﴿رَّحِيمٗا﴾ يقبل الحسنات. والآية تدلُّ على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة؛ لأنه أخبر أنَّ مَن آمن بالله ورسوله، ولم يفرّق بين أحد منهم يؤتيه أجره. ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله، ولم يفرّق بين أحد منهم، فيدخل تحت الوعد. وعلى بطلان قول مَن لا يقول بقدم صفات الفعل من المغفرة والرحمة؛ لأنه قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وهم يقولون: ما كان الله غفوراً رحيماً في الأزل، ثم صار غفوراً رحيماً.

١٥٣ ـ ولما قال فنحاص وأصحابه للنبي ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام، نزل: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وبالتخفيف: مكي، وأبو عمر ﴿كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جملة كما نزلت التوراة جملة. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. وقال الحسن: ولو سألوه مسترشدين لأعطاهم؛ لأنَّ إنزالَ القرآن جملة ممكن ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ هذا جواب شرط مقدّر، معناه: إن استكبرت ما سألوه منك، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك. وإنما أسند السؤال إليهم؛ وقد وجد من آبائهم في أيام موسى عليه السلام، وهم النقباء السبعون؛ لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ عياناً، أي: أرنا نره جهرة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه، أو بالتحكم على نبيهم في الآيات، وتعنّتهم في سؤال الرؤية، لا بسؤال الرؤية؛ لأنها ممكنة كإنزال القرآن جملة،

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿نؤتيهم﴾. وهي قراءة: حمزة، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٧٦).

ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا
مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ
فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق، فإنه قال: ﴿ربّ أرني أنظر إليك﴾ وما أخذته الصاعقة، بل أطمعه وقيّده بالممكن، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت، ثم أحياهم ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ التوراة، والمعجزات التسع ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ تفضلاً، ولم نستأصلهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة ظاهرة على مَن خالفه.

١٥٤ ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا، فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ والطور مطلّ عليهم ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب إيلياء مطأطئين عند الدخول رؤوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ﴾ لا تجاوزوا الحد ﴿تعَدّوا﴾: ورش. ﴿تعْدّوا﴾ بإسكان العين وتشديد الدال: مدني غير ورش. وهما مدغماً (تعتدوا). وهي قراءة أبيّ، إلا أنه أدغم التاء في الدال، وأبقى العين ساكنة في رواية، وفي رواية نقل فتح التاء إلى العين ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بأخذ السمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً مؤكداً.

١٥٥ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي: فبنقضهم. وما: مزيدة للتوكيد. والباء يتعلق بقوله: ﴿حرّمنا عليهم طيّبات﴾ تقديره: حرّمنا عليهم طيبات بنقضهم ﴿مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ بدل من قوله: ﴿فبما نقضهم﴾. ومعنى التوكيد: تحقيق أنَّ تحريمَ الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد، وما عطف عليه من الكفر، وقتل الأنبياء، وغير ذلك ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: معجزات موسى عليه السلام ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف، أي: محجوبة لا يتوصل إليها شيء من الذكر، والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ

عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ هو ردّ وإنكار لقولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

١٥٦ ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوف على ﴿فبما نقضهم﴾ أو: على ما يليله من قوله: ﴿بكفرهم﴾. ولما تكرر منهم الكفر؛ لأنهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد ﷺ عطف بعض كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هو النسبة إلى الزنىٰ.

١٥٧ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سُمِّي مسيحاً لأن جبريل عليه السلام مسحه بالبركة، فهو ممسوح، أو: لأنه كان يمسحُ المريض[1]، والأكمه، والأبرص فيبرأ، فسمِّي مسيحاً بمعنى الماسح ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسول الله، لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا: ﴿ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾. ويحتمل: أن الله وصفه به وإن لم يقولوا ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رُوي أنَّ رهطاً من اليهود سبّوه، وسبّوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي، وبكلمتك خلقتني، اللهم العن مَن سبني وسبّ والدتي. فمسخ الله من سبّهما قردة وخنازير. فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء، ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلْقَى عليه شبهي فيُقْتَل، ويُصْلَب، ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا! فألْقَى الله عليه شبهه، فقُتل، وصلب. وقيل: كان رجل ينافق عيسى، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى، ورُفع عيسى، وألقى الله شبهه على المنافق، فدخلوا عليه، فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى، وجاز هذا على قوم متعنتين حكَم الله بأنهم لا يؤمنون. و﴿شُبِّه﴾ مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿لهم﴾ كقولك: خيّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع

(١) الأرجح أن لفظة «المسيح» سريانية، وأصلها «مشيحا» فعربتها العرب، ومن الأسلم عدم الخوض في البحث عن معناها في اللغة العربية. انظر تاج العروس (٧/ ١٢٤).

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ

لهم التشبيه. أو مسند إلى ضمير المقتول لدلالة: ﴿إنا قتلنا﴾ عليه، كأنه قيل: ﴿ولكن شبه لهم﴾ من قتلوه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في عيسى، يعني: اليهود قالوا: إن الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، أو: اختلف النصارى قالوا: إله، وابن إله، وثالث ثلاثة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن. وإنما وصفوا بالشك، وهو: ألا يترجَّح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن، وهو أن يترجح أحدهما؛ لأن المراد: أنهم شاكون ما لهم به من علم، ولكن إن لاحت لهم أمارة، فظنوا فذاك. وقيل: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في قتله ﴿لفي شك منه﴾ أي: من قتله، لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: قتلاً يقيناً، أو: ما قتلوه متيقنين، أو: ما قتلوه حقاً، فيجعل يقيناً تأكيداً لقوله: ﴿وما قتلوه﴾ أي: حق انتفاء قتله حقاً.

١٥٨ ـ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله، أو: إلى السماء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر من رفعه إليه.

١٥٩ ـ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ «ليؤمننَّ به»: جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف، تقديره: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أحد ﴿إلا ليؤمنن به﴾. ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]. والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. أو: الضميران لعيسى، يعني: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. رُوي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملّة

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ
مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

الإسلام. أو الضمير في ﴿به﴾ يرجع إلى الله، أو إلى محمد ﷺ، والثاني: إلى الكتابي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذّبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

١٦٠ ـ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي ما ذكر في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية. والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه وهو ما عُدِّدَ قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، أو: صداً كثيراً.

١٦١ ـ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ وكان الربا محرماً عليهم، كما حرم علينا، وكانوا يتعاطونه ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة، وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٦٢ ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون فيه، المتقون، كابن سلام وأضرابه. وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون منهم، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: سائر الكتب ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة.

وفي مصحف عبد الله (والمقيمون) وهي قراءة مالك بن دينار، وغيره ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مبتدأ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ عطف عليه، والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبالياء: حمزة.

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾

١٦٣ ـ ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجه عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ كـ: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ ﴿زُبوراً﴾ حمزة. مصدر بمعنى مفعول، سُمِّي به الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

١٦٤ ـ ﴿وَرُسُلٗا﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿أوحينا إليك﴾ وهو: أرسلنا، ونبأنا ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ من قبل هذه السورة ﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر، أول الرسل آدم، وآخرهم نبيكم محمد ﷺ وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ»(١). والآية تدلُّ على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطاً لقصَّ علينا كلّ ذلك ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي: بلا واسطة.

١٦٥ ـ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، أي: أعني رسلاً. ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، وأن يكون مفعولاً، أي: وأرسلنا رسلاً. واللام في: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ يتعلق

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ـ ١٦٨).

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

بمبشرين ومنذرين. والمعنى: أن إرسالهم إزاحة للعلَّة، وتتميم لإلزامهم الحجة؛ لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا بما وجب الانتباه له، ويعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات، والشرائع، أعني: في حق مقاديرها، وأوقاتها، وكيفياتها، دون أصولها؛ فإنها مما يعرف بالعقل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا﴾ في بعث الرسل للإنذار.

١٦٦ ـ ولما نزل: «إنا أوحينا إليك» قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات؛ إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب بالمعجزة ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك، وأنك مبلغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد. وفيه: نفي قول المعتزلة في إنكار الصفات؛ فإنه أثبت لنفسه العلم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لك بالنبوة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ شاهداً، وإن لم يشهد غيره.

١٦٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتكذيب محمد ﷺ، وهم: اليهود ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب: إنا لا نجد في كتابنا ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الرشد.

١٦٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ محمداً ﷺ بتغيير نعته، وإنكار نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر.

١٦٩ ـ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وكان تخليدهم في جهنم سهلاً عليه. والتقدير: يعاقبهم ﴿خالدين﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا
تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ

فهو حال مقدرة. والآيتان في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، ويموتون على الكفر.

١٧٠ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بالإسلام. أو: هو حال، أي: محقاً ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وكذلك ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] انتصابه بمضمر؛ وذلك: أنه لما بعثهم على الإيمان، وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر، فقال: ﴿خيراً لكم﴾ أي: اقصدوا، وائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو: الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يضرُّه كفركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمن، وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا﴾ لا يسوي بينهما في الجزاء.

١٧١ ـ ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد، فغلت اليهود في حطّ المسيح عن منزلته، حتى قالوا: إنه ابن الزنى، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك، والولد ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابن الله ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، وهو المسيح، و«عيسى» عطف بيان، أو: بدل ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ عطف على «رسول الله» وقيل له: كلمة؛ لأنه يُهتدىٰ به كما يُهتدىٰ بالكلام ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ حال، و«قد» معه مرادة، أي: أوصلها إليها، وحصَّلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على الخبر أيضاً، وقيل له: روح؛ لأنه كان يحيي الموتى، كما سُمِّي القرآن روحاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] لما أنه يحيي القلوب ﴿مِّنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وبه أجاب عليّ بن الحسين بن واقد غلاماً نصرانياً كان للرشيد في مجلسه، حيث زعم أن

فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ

في كتابكم حجة على أنَّ عيسى من الله ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ عن التثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ والذي يدلُّ عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ ﴾ مبتدأ ﴿ إِلَـٰهٌ ﴾ خبره ﴿وَٰحِدٌ﴾ توكيد ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أسبّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيان لتنزهه مما نُسب إليه بمعنى أنَّ كلَّ ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟! إذ النُّبوَّة والملك لا يجتمعان على أنَّ الجزء إنما يصحُّ في الأجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسماً ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، ومدبراً لهما، ولما فيهما، ومن عجز عن كفاية أمر يحتاجُ إلى ولدٍ يعينه.

١٧٢ ـ ولما قال وفدُ نجران لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا عيسى؟ قال: «وأيّ شيء أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: «إنه ليس بعارٍ أن يكون عبداً لله». قالوا: بلىٰ، فنزل قوله تعالى[1]: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف ﴿ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ هو ردٌّ على النصارى ﴿ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ ردٌّ على من يعبدهم من العرب، وهو عطف على المسيح ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي: الكروبيون الذين حول العرش؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَن في طبقتهم. والمعنى: ﴿ولا الملائكة المُقَرَّبُون﴾ أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عبداً لله﴾ عليه إيجازاً. وتشبثت المعتزلة والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا: الارتقاءُ إنما يكون

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٢٥).

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

إلى الأعلى، يقال: فلان لا يستنكفُ عن خدمتي، ولا أبوه، ولو قال: ولا عبده لم يحسن. وكان معنى قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً، وأعظم منه خطراً، ويدلُّ عليه: تخصيص المقربين. والجواب: إنّا نسلم تفضيل الثاني على الأول، ولكن هذا لا يمسُّ ما تنازعنا فيه؛ لأنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسى، ونحن نسلِّم بأنَّ جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر. إلى هذا ذهب بعضُ أهل السنة؛ ولأنَّ المرادَ أنَّ الملائكة مع مالهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية، وتجرّدهم عن التولد الازدواجي رأساً لا يستنكفون عن عبادته، فكيف بمن يتولَّد من آخر، ولا يقدر على ما يقدرون، ولا يعلم ما يعلمون؟! وهذا لأنَّ شدةَ البطش، وسعة العلوم، وغرابة التكون هي التي تورث الحمقى ـ أمثال النصارى ـ وَهْمَ الترفع عن العبودية، حيث رأوا المسيح ولد من غير أب، وهو يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، وينبىء بما يأكلون، ويدَّخرون في بيوتهم فبرؤوه من العبودية. فقيل لهم: هذه الأوصافُ في الملائكة أتمُّ منها في المسيح، ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية، فكيف المسيح؟! والحاصل: أن خواصَّ البشر ـ وهم الأنبياء عليهم السلام ـ أفضل من خواصِّ الملائكة ـ وهم الرسل ـ منهم ـ كجبريل، وميكائيل، وعزرائيل، ونحوهم. وخواصّ الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة. ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء: أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى، مع أنهم جُبلوا عليها، فضاهت الأنبياء عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة، وتفضَّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدواعي الجسدانية، فكانت طاعتهم أشقّ، لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة؛ لأنهم جُبِلُوا عليها، فكانت أزيد ثواباً بالحديث ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفَّع، ويطلب الكبرياء ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم على استنكافهم، واستكبارهم. ثم فصَّل، فقال:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ

---

١٧٣ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأن التفصيل اشتمل على الفريقين، والمفصل على فريق واحد، قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكّل به. وصحة ذلك لوجهين: أحجهما: أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، لأنَّ ذكر أحدهما يدلُّ على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ والثاني: أنَّ الإحسان إلى غيرهم مما يغمّهم، فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنه قيل: ومن يستنكف عن عبادته، ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

١٧٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رسول يبهر المنكر بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ قرآناً يُستضاء به ظلمات الحيرة.

١٧٥ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ بالله، أو بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: جنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله، أو: إلى الفضل، أو: إلى صراطه ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فـ«صراطاً»: حال من المضاف المحذوف.

١٧٦ ـ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ كان جابر بن عبد الله مريضاً، فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلالة ، فكيف أصنع في مالي؟

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

فنزلت[١] ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر. ومحلُّ ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة، أي: إن هلك امرؤ غير ذي ولد. والمراد بالولد: الابن؛ وهو مشتركٌ يقعُ على الذكر والأنثى. لأنَّ الابنَ يسقطُ الأخت، ولا تسقطها البنت ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: لأب وأم، أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي: الأخ يرثُ الأخت جميع مالها إن قدّر الأمر على العكس من موتها، وبقائه بعدها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لايسقط الأخ وحده، فالأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: بيّن حكم انتفاء الولد، ووكَلَ حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ عَصَبَة ذَكَر»[٢]. والأب أولى من الأخ ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين. دلَّ على ذلك: ﴿وله أخت﴾ ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً﴾ أي: وإن كان من يرث بالأُخُوَّة. والمراد بالأخوة: الإخوة والأخوات، تغليباً لحكم الذكورة ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الحق، فهو مفعول ﴿يبين﴾ ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ كراهة أن تضلوا. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده.

* * *

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/ ٥٩٨).
(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٢) والبخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

---

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يقال: وفىٰ بالعهد، وأوفى به. والعقد: العهد الموثّق. شبّه بعقد الحبل ونحوه. وهي: عقود الله التي عقدها على عباده، وألزمها إياهم من مواجب التكليف، أو: ما عقد الله عليكم، أو: ما تعاقدتم بينكم. والظاهر: أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وأنه كلام قدّم مجملاً، ثم عقب بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع قوائم في البر والبحر، وإضافتها إلىٰ الأنعام للبيان، وهي بمعنى «مِنْ»، كخاتم فضة، ومعناه: البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية. وقيل: بهيمة الأنعام: الظباء، وبقر الوحش، ونحوهما ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ آية تحريمه، وهو قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة...﴾ الآية ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لكم﴾ أي: أحلت لكم هذه الأشياء، لا محلين الصيد ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ حال من محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون؛ لئلا يضيق عليكم. والحُرُم: جمع حرام، وهو: المُحرِم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، أو: من التحليل والتحريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾

٢ - ونزل نهياً عن تحليل ما حرم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ جمع شعيرة، وهي: اسم ما أشعر، أي: جعل شعاراً وعلماً للنسك به من مواقف الحج، ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: أشهر الحج ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ وهو ما أهدي إلى البيت، وتُقُرِّب به إلى الله تعالى من النسائك، وهو: جمع هَدْيَة ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدي من نعل، أو عروة مزادة، أو لحاء شجر، أو غيره ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ ولا تحلّوا قوماً قاصدين المسجد الحرام، وهم: الحجاج، والعمّار. وإحلال هذه الأشياء: أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدّون به الناس عن الحج، وأن يتعرّضوا للهدي بالغصب، أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد فجاز أن يراد بها ذوات القلائد، وهي: البُدْن، وتعطف على الهَدْي للاختصاص؛ لأنها أشرف الهدي، كقوله: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً. وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، أي: ولا تحلوا قلائدها فضلاً أن تحلوها، كما قال: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿آمّين﴾ ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ثواباً ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ وأن يرضى عنهم. لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَٱصۡطَادُواْ﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ «جرم» مثل «كسب» في تعديته إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنباً، نحو:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

كسبه، وجرمته ذنباً، نحو: كسبته إياه. وأول المفعولين ضمير المخاطبين، والثاني: أن تعتدوا. و﴿أن صدوكم﴾ متعلق بالشنآن بمعنى العلة، وهو: شدة البغض. وبسكون النون: شامي، وأبو بكر. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه. ﴿إن صدوكم﴾ على الشرط: مكي، وأبو عمرو. ومعنى: صدّهم إياهم عن المسجد منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ على الانتقام والتشفّي. أو: البر: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور: والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحظور. ويجوز أن يُراد العموم لكل برّ وتقوى، ولكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه: العفو، والانتصار ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وما اتقاه.

٣ ـ ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: البهيمة التي تموتُ حتف أنفها ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي: المسفوح، وهو: السائل ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وكله نجس. وإنما خصّ اللحم لأنه معظم المقصود ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة، أو غيرها ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أثخنوها ضرباً بعصاً، أو: حجر، حتى ماتت ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من جبل، أو: في بئر فماتت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ المنطوحة، وهي: التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ بعضه، ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته، وهو يضطرب اضطراب المذبوح. والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، فإنه إذا أدركها وبها حياة، فذبحها، وسمّى عليها حلّت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

يذبحون عليها يعظمونها بذلك، ويتقربون به إليها تسمّى: الأنصاب. واحدها: نُصُب، أو: هو جمع، والواحد: نصاب ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ في موضع الرفع بالعطف على الميتة، أي: حرمت عليكم الميتة، كذا وكذا، والاستقسام بالأزلام: وهي القداح المعلمة واحدها زَلَم وزُلَم. كان أحدهم إذا أراد سفراً، أو غزواً، أو تجارة، أو نكاحاً، أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة، على واحد منها مكتوب: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني، والثالث غُفْل، فإن خرج الآمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاده. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. قال الزجاج: لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج لطلوع نجم كذا. و«في شرح التأويلات» ردّ هذا، وقال: لا يقول المنجم: إن نجم كذا يأمر بكذا، ونجم كذا ينهى عن كذا، كما كان فعل أولئك. ولكن المنجم جعل دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى، ويجوز أن يجعل الله في النجوم معاني وأعلاماً يدرك بها الأحكام، ويستخرج بها الأشياء، ولا لائمة في ذلك، إنما اللائمة عليه فيما يحكم على الله، ويشهد عليه. وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الاستقسام بالأزلام خروج عن الطاعة. ويحتمل أن يعودَ إلى كلِّ محرم في الآية ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لـ«يئس». ولم يرِدْ به يوم بعينه، وإنما معناه: الآن، وهذا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، تريدُ: الآن. وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه، أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله تعالى وفّى بوعده من إظهاره على الدين كلّه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين، وزوال الخوف من الكفار، وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبين ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، أي: أخلصوا لي الخشية ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفيتكم خوف عدوكم، وأظهرتكم

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ

عليهم، كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك، أي: كُفينا من كنّا نخافه.

أو: أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفيكم من تعليم الحلال والحرام، والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة، ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم الجاهلية، ومناسكهم. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ حال. اخترته لكم من بين الأديان، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات. وقوله: ﴿ذلكم فسق﴾ اعتراض أكّد به معنى التحريم. وكذا ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة، أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ﴾ حال ﴿مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ مائل إلى إثم، أي: غير متجاوز سدّ الرمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

٤ ـ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في السؤال معنى القول، فلذا وقع بعده: ماذا ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ كأنه قيل: يقولون لك: ﴿ماذا أحل لهم﴾. وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا؟ حكاية لما قالوا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، كقولك: أقسم زيد ليفعلن، ولوقيل: لأفعلن، وأحل لنا لكان صواباً. و﴿ماذا﴾ مبتدأ و﴿أحل لهم﴾ خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم؟ ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم. كأنه حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل، سألوا عما أحل لهم منها، فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث منها، أو هو كل مالم يأت تحريمه في كتاب الله، أو سنة، أو إجماع، أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات، وصيد ما علمتم، فحذف المضاف. أو: تجعل ما شرطية وجوابها ﴿فكلوا﴾ ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: الكواسب للصيد من سباع البهائم والطير، كالكلب، والفهد، والعقاب، والصقر، والبازيّ،

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

والشاهين. وقيل: هي من الجراحة، فيشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من علمتم. وفائدة هذه الحال ـ مع أنه استغنى عنها بـ«علمتم» ـ أن يكون من يعلم الجوارح موصوفاً بالتكليب. والمكلب مؤدِّب الجوارح ومعلِّمها، مشتق من الكلْب، لأنَّ التأديب في الكلاب أكثر، فاشتق من لفظه لكثرته في جنسه، أو: لأنَّ السَّبع يُسمَّى كلباً، ومنه الحديث: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك»[1]. فأكله الأسد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال، أو: استئناف، ولا موضع له. وفيه دليلٌ على أن على كلِّ آخذ علماً ألا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم دراية، فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيّع أيامه، وعضَّ عند لقاء النحارير أنامله!! ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من التكليب ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساك على صاحبه: ألا يأكل منه. فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صيد كلب ونحوه، فأما صيد البازي ونحوه فأكله لا يحرمه، وقد عرف في موضعه. والضمير في: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يرجع إلى ﴿ما أمسكن﴾ على معنى: وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته. أو: إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾ أي: سموا عليه عند إرساله ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واحذروا مهالفة أمره في هذا كله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم، ولا يلحقه فيه لَبْث.

٥ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كرَّره تأكيداً للمنَّة ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي: ذبائحهم؛ لأنَّ سائر الأطعمة لا يختصُّ حلّها بالملة ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم؛ لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هي الحرائر، أو العفائف. وليس هذا بشرط لصحة النكاح، بل هو للاستحباب؛ لأنه يصحُّ نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفائف. وتخصيصهن بَعْثٌ على

(١) رواه الحاكم (٢ / ٥٣٩).

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ

تخيُّر المؤمنين لنطفهم. وهو معطوف على الطيبات، أو: مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: والمحصنات من المؤمنات حلّ لكم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هن الحرائر الكتابيات، أو: العفائف الكتابيات ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ متزوجين غير زانين ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ صدائق. والخِدْن: يقع على الذَّكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بشرائع الإسلام، وما أحلَّ الله، وحرَّم ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾ بطل ﴿عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن، فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل؛ لأن الفعل مسببٌ عن الإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب؛ لملابسة بينهما طلباً للإيجاز. ونحوه: كما تدين تدان، عبّر عن الفعل الابتدائي، الذي هو سبب الجزاء؛ بلفظ الجزاء؛ الذي هو مسبّب عنه. وتقديره: وأنتم محدثون. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أو: من النوم؛ لأنه دليل الحدث. وكان رسول الله ﷺ والصحابة يتوضؤون لكل صلاة[1]. وقيل: كان الوضوء لكلِّ صلاةٍ واجباً أول ما فرض، ثم نُسِخ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ إلى: تفيد معنى الغاية مطلقاً. فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدورُ مع الدليل. فما فيه دليل على الخروج: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً في الحالتين معسراً وموسراً. وكذلك: ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لو دخل الليل

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١١٢).

﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

لوجب الوصال. ومما فيه دليلٌ على الدخول، قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] لوقوع العلم بأنه ﷺ لا يُسْرَى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله: ﴿إلى المرافق﴾ لا دليلَ فيه على أحد الأمرين. فأخذ الجمهور بالاحتياط، فحكموا بدخولها في الغسل. وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها. وعن النبي ﷺ أنه كان يديُر الماء على مرفقيه[١] ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد: إلصاق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه. فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، والشافعي باليقين فأوجب أقلّ ما يقع عليه اسم المسح. وأخذنا ببيان النبي ﷺ، وهو ما روي: أنه مسح على ناصيته[٢]. وقدرت الناصية بربع الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ بالنصب: شامي، ونافع، وعليّ، وحفص. والمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم، على التقديم والتأخير. غيرهم: بالجر بالعطف على الرؤوس؛ لأن الأرجل، من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصبّ الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنهي عنه، فعطفت على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها. وقيل: «إلى الكعبين» فجيء بالغاية إماطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة؛ لأن المسحَ لم تضرب له غاية في الشريعة. وقال في «جامع العلوم»: إنها مجرورة للجوار. وقد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى قوماً يمسحون على أرجلهم فقال: «ويل للاعقاب من النار»[٣]. وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مَسَحَ على القدمين، وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليطهرها من الأوساخ؛ التي تتصل بها؛ لأنها تبدو كثيراً. والصلاة:

(١) رواه الدارقطني (١/ ٨٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٤) (١٨ و٨٣).
(٣) رواه أحمد (٢/ ١٩٣) والبخاري (٦٠) ومسلم (٢٤١).

وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ
ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن
يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

خدمة الله تعالى، والقيام بين يديه متطهراً من الأوساخ أقرب إلى التعظيم، فكان أكمل في الخدمة، كما في الشاهد إذا أراد أن يقوم بين يدي الملك. ولهذا قيل: إن الأولى أن يصلِّي الرجل في أحسن ثيابه، وإن الصلاة متعمّماً أفضل من الصلاة مكشوف الرأس؛ لما أن ذلك أبلغ في التعظيم ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾ فاغسلوا أبدانكم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾

قال الرازي: معناه: وجاء؛ حتى لا يلزم المريض والمسافر التيمم بلا حدث.

﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ المكان المطمئن، وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ جامعتم. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة، حتى لا يرخص لكم في التيمم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ وليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيثيبكم.

٧ ـ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو: الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، فقبلوا، وقالوا: سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة، وفي بيعة الرضوان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في نقض الميثاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بسرائر الصدور من الخير والشر، وهو وعد ووعيد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾

٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ عدَّى «يجرمنكم» بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم بغض قوم على تَرْك العدل فيهم ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى. نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل. ثم استأنف، فصرَّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ وإذا كان وجوب العدل مع الكفار بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه؟! ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر ونهى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد؛ ولذا ذكر بعدها آية الوعد، وهو قوله تعالى:

٩ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يتعدَّى إلى مفعولين، فالأول ﴿الذين آمنوا﴾ والثاني محذوف، استغنى عنه بالجملة التي هي قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والوعيد وهو قوله:

١٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: لا يفارقونها.

١١ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ رُوي أنَّ رسول الله ﷺ أتى بني قريظة، ومعه الشيخان أبو بكر وعمر، والخَتَنان، يستقرضهم دية مسلمين(١) قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما

(١) قال الحافظ: قوله: «مسلمين»: لم أجد ذلك في شيء من طريق الحديث، بل صرَّح=

﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾

مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! اجلس حتى نطعمك، ونقرضك، فأجلسوه في صُفَّة، وهمّوا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحىً عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريلُ فأخبره بذلك، فخرج النبيُّ ﷺ، ونزلت الآية. إذ: ظرف للنعمة ﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ﴾ بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل، يقال: بسط لسانه إليه؛ إذا شتمه، وبسط إليه يده: إذا بطش به ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢] ومعنى بسط اليد: مدّها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ فمنعها أن تمدّ إليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي، والدافع، والمانع.

١٢ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هو الذي ينقب عن أحوال القوم، ويفتش عنها. ولما استقر بنو إسرائيل بمصر، بعد هلاك فرعون؛ أمرهم الله بالميسر إلى أريحاء أرض الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، قال لهم: إني كتبتُها لكم داراً، وقراراً، فاخرجوا إليها، وجاهدوا مَن فيها، وإنّي ناصركم. وأمر الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذَ من كلّ سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقةً عليهم، فاختار النقباء، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفَّل لهم به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون، فرأوا أجراماً عظيمة، وقوة، وشوكة، فهابوا، ورجعوا، فحدّثوا قومهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا، ويوشع بن نون، وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: ناصركم، ومعينكم. وتقف هنا

= موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد. وفي «الدلائل» لأبي نعيم من حديث ابن عباس: فلقي عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب معهما أمان، ولم يعلم به، فقتلهما. (حاشية الكشاف ١/ ٦١٤). و«الختنان»: عثمان وعليّ رضي الله عنهما زوجا ابنتي رسول الله ﷺ.

لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ

لا بتدائك بالشرط الداخل عليه اللام الموطئة للقسم، وهو: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكانتا فريضتين عليهم ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظّمتموهم، أو نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم. والعزر في اللغة: الرد. ويقال: عزرت فلاناً، أي: أدَّبته، يعني: فعلت به ما يردعه عن القبيح، كذا قاله الزجاج ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا مَنٍّ، وقيل: هو كلّ خير ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم، وهذا الجواب سادٌّ مسد جواب القسم والشرط جميعاً ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الحق، نعم مَن كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضاً، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم.

١٣ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ «ما» مزيدة لإفادة تفخيم الأمر ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ يابسة لا رحمة فيها، ولا لين. ﴿قسيّة﴾: حمزة، وعليّ، أي: رديئة من قولهم: درهم قسي، أي: رديء ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يُفسِّرونه على غير ما أنزل. وهو بيانٌ لقسوة قلوبهم؛ لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً، وقسطاً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من التوراة. يعني: أنَّ تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم. أو: قست قلوبهم، وفسدت، فحرّفوا التوراة، وزلّت أشياء منها عن حفظهم. عن ابن مسعود ـ رضي الله

وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

عنه ـ: قد ينسى المرءُ بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية. أو: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: هذه عادتهم، وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك، ويهمون بالفتك بك. وقوله: ﴿على خائنة﴾ أي: على خيانة، أو: على فعلة ذات خيانة، أو: على نفس، أو: فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر، للمبالغة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم، أو فاعف عن مؤمنيهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم ﴿وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤ ـ و«مِن» في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وهو الإيمان بالله، والرسل، وأفعال الخير. يتعلق بأخذنا، أي: وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم. فقدّم الفعل على الجار والمجرور، وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور. وإنما لم يقلْ من النصارى؛ لأنهم إنما سمّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله، وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نحن أنصار الله﴾ ثم اختلفوا بعد نسطورية، ويعقوبية، وملكانية أنصاراً للشيطان ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا، وألزمنا، من غرى بالشيء: إذا لزمه، ولصق به: ومنه: الغراء؛ الذي يلصق به ﴿بَيْنَهُمُ﴾ بين فرق النصارى المختلفين ﴿ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي: في القيامة بالجزاء والعقاب.

١٥ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطاب لليهود والنصارى، والكتاب للجنس.

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ
فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من نحو صفة رسول الله ﷺ، ومن نحوه الرجم ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه. أو: يعفو عن كثيرٍ منكم لا يؤاخذه ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافياً على الناس من الحق، أو: لأنه ظاهر الإعجاز. أو: النور: محمد ﷺ؛ لأنه يُهتدىٰ به، كما سُمِّي: سراجاً.

١٦ ـ ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ مَن آمن منهم ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو: سبل الله. فالسلام: السلامة، أو الله ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [بإرادته، وتوفيقه][(١)] ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٧ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: بَتَّ القول على أنَّ الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، أو: لأن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا: أنه يخلق، ويحيي، ويميت ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إن أراد أن

---

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يهلك من دعوه إلهاً من المسيح وأمه، يعني: إنَّ المسيحَ عبدٌ مخلوق من كسائر العباد. وعطف «مَن في الأرض جميعاً» على المسيح وأمه إبانة أنهما من جنسهم، لا تفاوت بينهما وبينهم. والمعنى: أنَّ مَن اشتمل عليه رحم الأمومية متى يفارقه نقص البشرية؟ ومن لاحتْ عليه شواهد الحديثة أنى يليقُ به نعت الربوبية؟ ولو قطع البقاء عن جميع ما أوجد لم يعد نقص إلى الصمدية ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي: يخلق من ذكر وأنثى، ويخلق من أنثى بلا ذكر كما خلق عيسى، [ويخلق من ذكر من غير أنثى كما خلق حواء من آدم][1] ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو: يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، فلا اعتراض عليه؛ لأنه الفعال لما يريد ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أي: أعزة عليه كالابن على الأب، أو: أشياع ابني الله: عزير، والمسيح، كما قيل لأشياع أبي خبيب ـ وهو عبد الله بن الزبير ـ: الخبيبيون، وكما يقول رهط مسيلمة: نحن أبناء الله، ويقول أقرباء الملك وحشمه: نحن أبناء الملوك، أو: نحن أبناء رسل الله ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أي: فإن صحَّ أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم تعذبون بذنوبكم بالمسخ والنار أياماً معدودة على زعمكم؟ وهل يمسخ الأبُ ولده؟ وهل يعذّب الوالدُ ولده بالنار؟ ثم قال ردّاً عليهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي: أنتم خلق من خلقه، لا بنوه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ لمن تاب عن الكفر، فضلاً ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ من مات عليه عدلاً ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيه تنبيهٌ على عبودية المسيح؛ لأنَّ الملك والبنوة متنافيان.

---

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ
بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ

---

١٩ ـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ أي: الشرائع. وحذف لظهوره. أو: ما كنتم تخفون. وحذف لتقدم ذكره، أو: لا يقدر المبين، ويكون المعنى: يبذل لكم البيان. وهو حال، أي: مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلق بـ«جاءكم»، أي: جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع من الوحي. وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمئة سنة، أو خمسمئة سنة وستون سنة ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ كراهة ﴿أن تقولوا﴾ ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ والفاء في: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٞ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٞ﴾ للكافرين. والمعنى: الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي، أحوج ما يكونون إليه، ليهشوا إليه، ويعدوه أعظم نعمة من الله، وتلزمهم الحجة، فلا يَعْتَلّوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من يُنبِّههم من غفلتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فكان قادراً على إرسال محمد ﷺ ضرورة.

٢٠ ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجبابرة ملكهم، ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: الملك: مَن له مسكن واسع فيه ماء جار، وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية. وقيل: من له بيت وخدم. ولأنهم كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، فسمّى إنقاذهم ملكاً ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وإنزال المنّ والسّلوى، وتظليل الغمام، ونحو ذلك من الأمور العظام. أو: أراد عالمي زمانهم.

٢١ ـ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، أو المباركة، وهي:

ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا
قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا
دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ
ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾
قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ

أرض بيت المقدس، أو الشام ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم، أو: سمّاها، أو: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين، منهزمين، منخوف الجبابرة جبناً. أو؛ لا ترتدوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

٢٢ ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبّار فعال: من: جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. وهو: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ بلا قتال ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ بلادهم حينئذ.

٢٣ ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب، ويوشع. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلان من المتقين. وهو في محل الرفع صفة لرجلان، وكذا: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ أي: انهزموا، وكانت الغلبة لكم، وإنما علما ذلك بإخبار موسى عليه السلام ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكل عليه، وهو: قطع العلائق، وترك التملق للخلائق.

٢٤ ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾ هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ من العلماء مَن حمله على الظاهر، وقال: إنه كفر منهم. وليس كذلك، إذ لو قالوا ذلك اعتقاداً، وكفروا به لحاربهم موسى، ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى مِن مقاتلة هؤلاء. ولكن الوجه فيه أن يقال: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ يعينك على قتالك. أو: ﴿وربك﴾ أي: وسيدك، وهو

فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ

أخوك الأكبر هارون أو: لم يرد به حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلَّمته فذهب يُجيبني، تريد: معنى الإرادة، كأنهم قالوا: أريدا قتالهم ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ماكثون، لا نقاتلهم لنصرة دينكم. فلما عصوه وخالفوه:

٢٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾ وهو منصوب بالعطف على «نفسي» أو: على اسم إن. أي: إني لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه. أو: مرفوع بالعطف على محل إن واسمها، أو: على الضمير في ﴿لا أملك﴾ وجاز للفصل، أي: ولا يملك أخي إلا نفسه. أو: هو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: وأخي كذلك. وهذا من البث والشكوى إلى الله، ورقة القلب التي بمثلها تُستجلب الرحمة، وتُستنزل النصرة. وكأنه لم يثقْ بالرجلين المذكورين كلّ الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم. أو: أراد: ومَن يؤاخيني على ديني ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فافصل بيننا وبينهم، بأن تحكم لنا بماهم أهله. وهو في معنى الدعاء عليهم. أو: فباعدنا بيننا وبينهم، وخلّصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

٢٦ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا يدخلونها، وهو تحريم منع، لا تحريم تعبد، كقوله: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. والمراد بقوله ﴿كتب الله لكم﴾ أي: بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: ﴿فإنها محرمةعليهم﴾. أو: المراد فإنها محرمة عليهم ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كتب، فقد سار موسى عليه السلام بمن بقي من بني إسرائيل، وكان يوشع على مقدمته ففتحها، وأقام فيها ما شاء الله، ثم قُبض. و﴿أربعين﴾ ظرف التحريم. والوقف على ﴿سنة﴾ أو: ظرف ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً أربعين سنة. والوقف على ﴿عليهم﴾. وإنما عُوقبُوا بالحبس لاختيارهم

فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

المكث، فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا في سِتَّة فراسخ. ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون. قيل: لم يكن موسى وهارون معهم في التيه؛ لأنه كان عقاباً، وقد سأل موسى ربه أنه يفرُق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما، وسلاماً لا عقوبة. ومات هارون في التيه، وموسى فيه بعده بسنة. ومات النقباء في التيه إلا كالب ويوشع.

٢٧ ـ ثمَّ أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يقصَّ على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا، بقوله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ من صلبه هابيل وقابيل، أو: هما رجلان من بني إسرائيل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ نبأً ملتبساً بالصدق، موافقاً لما في كتب الأولين. أو: تلاوة ملتبسة بالصدق، والصحة. أو: ﴿واتل عليهم﴾ وأنت محقّ صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبأ، أي: قصّتهما وحديثهما في ذلك الوقت، أو: بدل من النبأ، أي: اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت، على تقدير: حذف المضاف ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إلى الله من نسيكة، أو صدقة. يقال: قرَّب صدقة، وتقرب بها؛ لأن تقرب مطاوع قرب. والمعنى: إذ قرَّب كل واحد منهما قربانه، دليله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل. رُوي: أنه أَوْحىٰ الله تعالى إلى آدم أن يزوِّج كلَّ واحدٍ منهما توأمة الآخر. وكانت توأمةُ قابيل أجمل، واسمها: إقليما، فحسده عليها أخوه، وسخط. فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قبل يتزوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً، وسخطاً، وتوعَّده بالقتل ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: قال لهابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره: قال: لم تقتلني؟ قال: لأن الله قبل قربانك، ولم يقبل قرباني! فقال: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ وأنت غير

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ

متق، فإنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي.

وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: مايبكيك وقد كنتَ وكنتَ؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٢٨ ـ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ مددت ﴿إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ بماد ﴿يَدِىَ﴾ مدني، وأبو عمرو، وحفص ﴿لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كان أقوى من القاتل، وأبطش منه، ولكن تحرَّج عن قتل أخيه، واستسلم له خوفاً من الله تعالى؛ لأن الدفعَ لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. وقيل: بل كان ذلك واجباً، فإن فيه إهلاك نفسه، ومشاركة للقاتل في إثمه. وإنما معناه: ما أنا بباسط يدي إليك مبتدئاً، كقصدك ذلك مني. وكان هابيل عازماً على مدافعته إذا قصد قتله، وإنما قتله فتكاً على غفلة منه. ﴿إنِّيَ أخاف﴾ حجازي، وأبو عمرو.

٢٩ ـ ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ﴾ ﴿إنّيَ﴾ مدني ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ أن تحتمل، أو: ترجع ﴿بِإِثْمِى﴾ بإثم قتلي إذا قتلتني ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي لأجله لم يتقبل قربانك. وهو: عقوق الأب، والحسد، والحقد. وإنما أراد ذلك لكفرة بردّه قضية الله تعالى، أو: كان ظالماً، وجزاء الظالم جائز أن يراد ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣٠ ـ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فوسّعته ويسّرته، من: طاع له المرتع: إذا اتسع ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عند عقبة حراء، أو بالبصرة، والمقتول ابن عشرين سنة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٣١ ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ أي: الله، أو: الغراب. ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده.

قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ

روي: أنه أول قتيل قُتِل على وجه الأرض من بني آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أَرْوَحَ، وعكفت عليه السباع. فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة، فحينئذ ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ﴾ عطف على: أكون ﴿سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله، لما تعب فيه من حمله، وتحيره في أمره، ولم يندم ندم التائبين. أو: كان الندم توبة لنا خاصة. أو: على حمله لا على قتله. ورُوي: أنه لما قتله اسْوَدَّ جسده، وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته، ولذا اسْوَدَّ جسدك. فالسودان من ولده. وما رُوي أن آدم رثاه بشعر فلا يصحُ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

٣٢ ـ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بسبب ذلك، وبعلته. و«ذلك» إشارة إلى القتل المذكور. قيل هو متصل بالآية الأولى، فيوقف على ذلك، أي: ﴿فأصبح من النادمين﴾ لأجل حمله، ولأجل قتله. وقيل: هو مستأنف، والوقف على ﴿النادمين﴾ و﴿من﴾ يتعلّق بكتبنا، لا بالنادمين ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خصَّهم بالذكر وإن اشترك الكلُّ في ذلك؛ لأن التوراة أول كتاب فيه الأحكام ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ الضمير للشأن، و«مَنْ» شرطية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطف على نفس، أي: بغير فساد في الأرض. وهو: الشرك، أو قطع الطريق، أو كل فساد يُوجِبُ القتل ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: في الذنب، عن الحسن؛ لأنَّ قاتلَ النفس جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه، والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزدْ على ذلك ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة من: قتل، أو غرق، أو حرق، أو هدم، أو غير ذلك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ جعل قتل

وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ

الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء ترغيباً وترهيباً؛ لأن المتعرضَ لقتل النفس إذا تصوَّر أنَّ قتلها كقتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها إذا تصور أن حكمه كحكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ ﴿رسْلنا﴾: أبو عمرو ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم، أو: بعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل، لا يبالون بعظمته.

٣٣ ـ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: أولياء الله. في الحديث: «يقول الله تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»(١) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. وخبر «جزاءَ» ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ وما عطف عليه. وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد. ومعناه: ﴿أن يقتلوا﴾ من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل وأخذ المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أخذوا المال ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ حال من الأيدي والأرجل، أي: مختلفة ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالحبس إذا لم يزيدوا على الإخافة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذلّ، وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٤ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ فتسقط عنهم هذه الحدود،

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) بلفظ: «مَن عادى لله ولياً، فقد بارز اللهَ بالمحاربة».

فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ
إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ
مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم
بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا

لا ما هو حقّ العباد ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم بالتوبة، ويرحمهم فلا يعذبهم.

٣٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تؤذوا عباد الله ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هي: كلُّ ما يتوسل به، أي: يتقرّب من قرابة، أو صنيعة، أو غير ذلك. فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فِعْل الطاعات، وترك السيئات ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من صنوف الأموال ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وأنفقوه ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. و«لو» مع ما في حيزه خبر: «إنَّ». ووحد الراجع في ﴿ليفتدوا به﴾ وقد ذكر شيئان؛ لأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة؛ كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فلا سبيل لهم إلى النَّجاة بوجه.

٣٧ ـ ﴿يُرِيدُونَ﴾ يطلبون، أو يتمنون ﴿أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ دائم.

٣٨ ـ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ ارتفعا بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: ﴿و﴾ فيما يتلىٰ عليكم ﴿السارق والسارقة﴾. أو: الخبر ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أي: يديهما. والمراد: اليمينان، بدليل قراءة عبد الله بن مسعود. ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق، والتي سرقت ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وبدأ بالرجل لأن السرقةَ مِن الجراءة، وهي في الرجال أكثر. وأخَّر الزاني لأن الزنىٰ ينبعث من الشهوة، وهي في النساء أوفر. وقطعت اليد لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنىٰ تفادياً

جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ۛ سَمَّٰعُونَ

عن قطع النسل ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ مفعول له ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: عقوبة منه. وهو بدل من جزاء ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يعارض في حكمه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

٣٩ ـ ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السُّرَّاق ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بردِّ المسروق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يقبل توبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنبه، ويرحمه.

٤٠ ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو: يا مخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ مَن مات على الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب، والمغفرة، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر. وقدَّم التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة.

٤١ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: لا تهتم، ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر، أي: في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام، ومن موالاة المشركين، فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرّهم. يقال: أسرع فيه الشيب، أي: وقع فيه سريعاً، فكذلك مسارعتهم في الكفر وقوعهم فيه أسرع شيء، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ تبين لقوله: ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ ﴿ءَامَنَّا﴾ مفعول ﴿قالوا﴾ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ متعلق بقالوا، أي: قالوا بأفواههم آمنا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ في محل النصب على الحال ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ معطوف على ﴿من الذين قالوا﴾ أي: من المنافقين واليهود. ويرتفع ﴿سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

﴿لِلْكَذِبِ﴾ على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هم سماعون. والضمير للفريقين. أو: ﴿سماعون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿من الذين هادوا﴾. وعلى هذا يوقف على «قلوبهم» وعلى الأول على «هادوا» ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة، والنقصان، والتبديل، والتغيير ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: سماعون منك لأجل قوم آخرين من اليهود وجّهوهم عيوناً؛ ليبلغوهم ما سمعوا منك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يزيلونه، ويميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، فيهملونه بغير مواضع بعدأن كان ذا موضع. ﴿يحرفون﴾ صفة لقوم، كقوله: ﴿لم يأتوك﴾. أو: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم يحرفون. والضميرُ مردودٌ على لفظ الكلم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ المحرّف المزال عن مواضعه. و﴿يقولون﴾ مثل ﴿يحرفون﴾. وجاز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يحرفون﴾ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاعلموا أنه الحق، واعملوا به ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾ فإياكم وإياه، فهو الباطل. رُوي: أنَّ شريفاً زنى بشريفة بخيبر، وهما محصنان، وحَدُّهما الرجم في التوراة، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إنْ أمركم بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلاله. وهو حُجَّةٌ على من يقول: يريدُ الله الإيمان، ولا يريدُ الكفر ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قطع رجاء محمد ﷺ عن إيمان هؤلاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر. وهو حُجَّةٌ لنا عليهم أيضاً ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) «التحميم»: تسويد الوجه.

خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ
فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ
حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿خِزْيٌ﴾ للمنافقين فضيحة، ولليهود خزْيَة ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: التَّخليد في النار.

٤٢ ـ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرَّر للتأكيد، أي: هم سماعون، ومثله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو كل ما لا يحلُّ كسبه. وهو من: سحته: إذا استأصله؛ لأنه مسحوتُ البركة. وفي الحديث هو «الرشوة في الحكم»[1]. وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وبالتثقيل[2]: مكي، وبصري، وعليّ ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحالكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين ألا يحكم بينهم. وقيل: نسخ التخيير بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ فلن يقدروا على الإضرار بك؛ لأنَّ الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

٤٣ ـ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنَّ الحكمَ منصوصٌ في كتابهم الذي يدعون الإيمان به. ﴿فيها حكم الله﴾ حال من ﴿التوراة﴾. وهي مبتدأ، وخبره ﴿عندهم﴾ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عطف على ﴿يحكمونك﴾. أي: ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أو بكتابهم كما يدّعون.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٨١).
(٢) أي قراءة: ﴿للسُّحُتِ﴾.

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟
وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا
تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ

---

٤٤ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي للحق ﴿ وَنُورٌ﴾ يبيّن ما استبهم من الأحكام ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ انقادوا لحكم الله في التوراة. وهو صفةٌ أجريتْ للنبيِّين على سبيل المدح. وأريد بإجرائها التعريض باليهود؛ لأنهم بعداء من ملة الإسلام؛ التي هي دينُ الأنبياء كلّهم ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ تابعوا من الكفر. واللام يتعلّق بيحكم ﴿ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ معطوفان على «النبيون»، أي: الزهاد والعلماء ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ استودعوا. قيل: ويجوز أن يكون بدلاً من بها في ﴿يحكم بها﴾ ﴿ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ من التبيين والضمير في ﴿استحفظوا﴾ للأنبياء، والربانيين، والأحبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من الله، أي: كلّفهم الله حفظه. أو: لـ«الربانيون والأحبار» ويكون الاستحفاظ من الأنبياء ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ رقباء لئلا يبدل ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ نهي للحكّام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في مخالفة أمري، وبالياء فيهما[1] سهل. وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى﴾ ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وهو الرشوة، وابتغاء الجاه، ورضا الناس ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: من لم يحكم جاحداً فهو كافر، وإن لم يكن جاحداً فهو فاسق ظالم. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هو عامّ في اليهود وغيرهم.

٤٥ ـ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾

---

(١) قوله: «فيهما» أي: في حالي الوقف والوصل.

بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

مأخوذة ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مجدوع ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. أي: ذات قصاص، وهو: المقاصَّة. ومعناه: ما يمكن فيه القصاص. وإلا فحكومة عدل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فنزلت. وقوله: ﴿أن النفس بالنفس﴾ يدلُّ على أن المسلمَ يُقتل بالذميّ، والرجل بالمرأة، والحر بالعبد. نصب نافع وعاصم وحمزة المعطوفات كلّها، للعطف على ما عملت فيه ﴿أن﴾ ورفعها عليّ للعطف على محلّ «أن النفس»؛ لأنَّ المعنى: ﴿وكتبنا عليهم﴾ النفس بالنفس إجراء لكتبنا مجرى قلنا. ونصب الباقون الكل، ورفعوا ﴿الجروح﴾. و﴿الأذْن﴾ بسكون الذال حيث كان نافع والباقون بضمها. وهما لغتان كالسُّحْت، والسُّحُت ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فالتَصدُّق به كفارة للمتصدِّق بإحسانه. قال ﷺ: «من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولدته أمه»[1] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالامتناع عن ذلك.

٤٦ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قفيت الشيء بالشيء: جعلته في أثره كأنه جعل في قفاه يقال: قفاه يقفوه: إذا اتبعه ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ هو حال من عيسى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ ثابتاً ﴿فيه هدى ونور ومصدقاً﴾. فنصب مصدقاً بالعطف على ثابت الذي تعلق به ﴿فيه﴾ وقام مقامه فيه. وارتفع ﴿هدى ونور﴾ بـ: ثابتاً؛ الذي قام مقامه ﴿فيه﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٩٢).

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ﴾ انتصبا على الحال، أي: هادياً وواعظاً ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم ينتفعون به.

٤٧ ـ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه، فاللام: لام الأمر، وأصله الكسر، وإنما سكن استثقالاً لفتحة وكسرة وفتحة. ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾: بكسر اللام وفتح الميم: حمزة، على أنها لام كي، أي: وقفينا ليؤمنوا، وليحكم ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن الطاعة.

قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يجوز أن يحملَ على الجحود في الثلاث، فيكون: كافراً، ظالماً، فاسقاً؛ لأن الفاسق المطلق، والظالم المطلق هو الكافر. وقيل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ فهو كافر بنعمة الله، ظالم في حكمه، فاسق في فعله.

٤٨ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن. فَحَرْفُ التعريف فيه للعهد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بسبب الحق، وإثباته، وتبيين الصواب من الخطأ ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الكتاب ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لما تقدّمه نزولاً. وإنما قيل لما قبل الشيء: هو بين يديه؛ لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه، فما تقدم عليه يكون قدّامه، وبين يديه ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ المراد به جنس الكتب المنزلة؛ لأنَّ القرآنَ مصدقٌ لجميع كتب الله، فكان حَرْفُ التعريف فيه للجنس. ومعنى تصديقه الكتب: موافقتها في التوحيد والعبادة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ وشاهداً؛ لأنه يشهدُ له بالصحة، والثبات ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي: بما في القرآن ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ نهي أن يحكم بما حرّفوه، وبدّلوه اعتماداً على قولهم. ضُمِّن ﴿ولا تتبع﴾ معنى: ولا تنحرف؛ فلذا عدّي بعن، فكأنه قيل:

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

ولا تنحرف ﴿عما جاءك من الحق﴾ متبعاً أهواءهم. أو: التقدير: عادلاً ﴿عما جاءك﴾ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً. واستدلّ به من قال: إن شريعةَ مَن قبلنا لا تلزمنا. ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام، ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ، وبيّن أنّه ليس للسماع فحسب، بل للحكم به. فقال في الأول: ﴿يحكم بها النبيون﴾، وفي الثاني: ﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾، وفي الثالث: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، فتعَبّد كلَّ أمة بما اقتضته الحكمة ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فابتدروها، وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة. والمراد بالخيرات: كل ما أمر الله تعالى به ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المجرور. والعامل: المصدر المضاف؛ لأنه في تقدير: إليه ترجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما لا تشكّون معه من الجزاء الفاصل بين محقّكم، ومبطلكم، وعاملكم، ومفرّطكم في العمل.

٤٩ ـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ أي: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك، وهو مفعول له، أي: مخافة أن يفتنوك. وإنما حذّره ـ وهو رسول مأمون ـ لقطع أطماع القوم ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذنب التولّي عن حكم الله، وإرادة خلافه، فوضع ﴿ببعض ذنوبهم﴾ موضع ذلك. وهذا الإبهام لتعظيم التولّي، وفيه تعظيم الذنوب، فإن بعضها مهلك،

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ

فكيف بكلّها؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ لخارجون عن أمر الله.

٥٠ ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون. وبالتاء: شامي. يخاطب بني النضير في تفاضلهم على بني قريظة، وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «القتلى سواء»(١) فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك، فنزلت. وسُئل طاووس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وناصب ﴿أفحكم الجاهلية﴾: ﴿يبغون﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبره. وهو استفهام في معنى النفي، أي: لا أحد أحسن ﴿مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ هو تمييز. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اللام للبيان، كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: هذا الخطاب. وهذا الاستفهام ﴿لقوم يوقنون﴾ فإنهم هم الذين يتبينون: أن لا أعدل من الله، ولا أحسن حكماً منه. وقال أبو علي: معنى ﴿لقوم﴾: عند قوم؛ لأن اللام و«عند» يتقاربان في المعنى.

٥١ ـ ونزل نهياً عن موالاة أعداء الدين: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علّل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وكلّهم أعداء المؤمنين. وفيه دليلٌ على أنَّ الكفر كلّه ملّة واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم، وحكمه حكمهم. وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في وجوب مجانبة المخالف في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة.

٥٢ ـ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ حال، أو: مفعول ثان؛ لاحتمال أن يكون ﴿فترى﴾ من رؤية العين، أو القلب ﴿فِيهِمْ﴾ في

(١) قال ابن حجر: رواه ابن أبي شيبة من طريق الشعبي (حاشية الكشاف ١/٦٤١).

يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ

معاونتهم على المسلمين، وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم، لقوله: ﴿على ما أَسرّوا﴾ ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: حادثة تدور بالحال؛ التي يكونون عليها ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين، وقَتْلهم ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر ﴿فيصبحوا﴾.

٥٣ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يقول بعضُهم لبعض عند ذلك. ﴿ويقولَ﴾ بصري عطفاً على ﴿أن يأتي﴾. ﴿يقول﴾ بغير واو شامي، وحجازي، على أنه جواب قائل يقول، فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: أقسموا لكم بأغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم، ومعاضدوكم على الكفار. و﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر في تقدير الحال، أي: مجتهدين في توكيد أيمانهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة. وهذا من قول الله ـ عز وجل ـ شهادةً لهم بحبوط الأعمال، وتعجيباً من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة، ودوام العقوبة.

٥٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر. (يرتدد): مدني، وشامي ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يرضى عنهم أعمالهم، ويثني عليهم بها، ويطيعونه، ويؤثرون رضاه. وفيه دليلُ نبوته عليه الصلاة والسلام، حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثبات خلافة الصديق؛ لأنه جاهد المرتدين، وفي صحة خلافته وخلافة عمر ـ رضي الله عنهما ـ. وسُئِل النبي ﷺ عنهم، فضرب على عاتق

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

سلمان وقال: «هذا وذووه. لو كان الإيمانُ معلقاً بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس»[١]. والراجعُ من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف، معناه: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ مكانهم ﴿أَذِلَّةٍ﴾ جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه: ذُلُل. ومَن زعم أنه من الذِّل؛ الذي هو ضد الصعوبة، فَقَدْ سَها؛ لأنَّ ذَلولاً لا يجمع على أذِلّة. قال الجوهري: الذُّل ضد العز، ورجل ذليل: بيّن الذُّل. وقوم أذلاء، وأذلة. والذِّل ـ بالكسر ـ: اللين، وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول، ودواب ذُلُل ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: للمؤمنين؛ لتضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم، على وجه التذلل، التواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشداء عليهم. والعَزَاز: الأرض الصلبة. فهم مع المؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار. وهو صفة لقوم كـ: يحبهم، وأعزة، وأذلة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ الواو يحتمل أن تكون للحال، أي: يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لايخافون لومة لائم. وأن تكون للعطف، أي: من صفتهم المجاهدة في سبيل الله، وهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمرٍ من أمور الدين، لا تَزَعُهُم[٢] لومة لائم. واللومة: المرة من اللوم. وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم واحدٍ من اللوام ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة، والذلة، والعزة، والمجاهدة، وانتفاء خوف اللومة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

---

(١) قال ابنُ حجر: هو وهم، فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة، وهو متفق عليه. وفي آية القتال، رواه الترمذي. (حاشية الكشاف ١/٦٤٦).

(٢) «لا تزعهم»: وَزَعَ: مَنَع وزَجَر.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾
وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾

٥٥ ـ عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم، ذكر من تجب موالاتهم بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿إنما﴾ يفيدُ اختصاصهم بالموالاة. ولم يجمع الوليّ ـ وإن كان المذكور جماعة ـ تنبيهاً على أن الولاية لله أصل، ولغيره تبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصلٌ وتبعٌ. ومحل ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الرفع على البدل من «الذين آمنوا»، أو: على «هم الذين» أو: النصب على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والواو في: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ للحال، أي: يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة. قيل: إنها نزلت في عليّ ـ رضي الله عنه ـ حين سأله سائل وهو راكعٌ في صلاته، فطرح له خاتمه، كأنه كان مرِجاً[1] في خنصره، فلم يتكلّف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته. وورد بلفظ الجمع، وإن كان السبب فيه واحداً ترغيباً للنّاس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه. والآية تدلُّ على جواز الصدقة في الصلاة، وعلى أنَّ الفعلَ القليلَ لا يفسد الصلاة.

٥٦ ـ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يتّخذه وليّاً، أو يكن وليّاً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير، أي: فإنهم هم الغالبون. أو: المراد بحزب الله: الرسول والمؤمنون، أي: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب. وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبهم، أي: أصابهم.

٥٧ ـ رُوي أن رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجالٌ من المسلمين يوادّونهما، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾. يعني: اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء، والمنابذة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) «مرجاً»: قال في اللسان: مَرِج الخاتم في إصبعي مَرَجاً، أي: قَلِق.

مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا
وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ
مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ «من»: للبيان ﴿مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المشركين. وهو عطف على ﴿الذين﴾ المنصوبة. و﴿الكفارِ﴾: بصري، وعليّ، عطف على الذين المجرورة، أي: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

٥٨ ـ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاة أو: المناداة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنهم لا عقل لهم. وفيه دليلٌ على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب، لا بالمنام وحده.

٥٩ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: هل تعيبون منا، وتنكرون إلا الإيمان بالله، وبالكتب المنزلة كلّها؟! ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهو معطوف على المجرور، أي: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون. والمعنى: أعاديتمونا لأنَّا اعتقدنا توحيد الله، وصدق أنبيائه، وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؟! ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، مع أنكم فاسقون.

٦٠ ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً، وهو نصب على التمييز. والمثوبة وإن كانت مختصة بالإحسان، ولكنها وضعت موضع العقوبة، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكان اليهود يزعمون أنَّ المسلمين مستوجبون للعقوبة، فقيل لهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ شر عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى المتقدّم، أي:

وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

الإيمان، أي: بشَرٍّ مما نقمتم من إيماننا ثواباً، أي: جزاء. ولا بُدَّ مِن حَذْف مضاف قبله، أو قبل ﴿مَن﴾ تقديره: بشر من أهل ذلك، أو دينُ مَن لعنه الله. ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ يعني: أصحاب السبت ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي: كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام، أو كلا المسخين من أصحاب السبت، فشبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: العجل، أو الشيطان؛ لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان. وهو عطف على صلة مَن، كأنه قيل: ومَن عبد الطاغوت ﴿وعبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ حمزة، جعله اسماً موضوعاً للمبالغة، كقولهم: رجل حذر، وفطن، للبليغ في الحذر، والفطنة. وهو معطوف على القردة والخنازير، أي: جَعَل الله منهم عبِد الطاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الممسوخون؛، الملعونون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعلت الشَّرارة للمكان، وهي لأهله للمبالغة. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قَصْد الطريق الموصل إلى الجنة.

٦١ ـ ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ويظهرون له الإيمان نفاقاً: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ الباء للحال، أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، وتقديره: ملتبسين بالكفر. وكذلك ﴿قد دخلوا﴾، ﴿وهم قد خرجوا﴾ ولذا دخلت «قد» تقريباً للماضي من الحال. وهو متعلق بقالوا آمنا، أي: قالوا ذلك وهذه حالهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

٦٢ ـ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾ الكذب ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم. أو: الإثم: ما يختصُّ بهم، والعدوان: ما يتعدّاهم إلى غيرهم. والمسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعة ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا

٦٣ ـ ﴿لَوْلَا﴾ هلاّ، وهو تحضيض ﴿يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ هذا ذم للعلماء، والأول للعامة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي أشد آية في القرآن، حيث أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد.

٦٤ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رُوي أنَّ اليهود ـ لعنهم الله ـ لما كذبوا محمداً عليه الصلاة والسلام كفَّ الله ما بسط عليهم من السعة، وكانوا من أكثر الناس مالاً، فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون، فأشركوا فيه. وغل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولا يقصد المتكلم به إثبات يد، ولا غل، ولا بسط، حتى إنه يستعمله في ملك يعطي ويمنع بالإشارة من غير استعمال اليد، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال! وقد استعمل حيث لاتصح اليد، يقال: بسط البأس كفيه في صدري، فجعل للبأس ـ الذي هو من المعاني ـ كفَّان. ومَن لم ينظر في علم البيان يتحيَّر في تأويل أمثال هذه الآية. وقوله: ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله. أو: تغل في جهنم، فهي كأنها غلت. وإنما ثنيت اليد في: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وهي مفردة في يد الله مغلولة؛ ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ، وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد للوصف بالسَّخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ اليهود ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم، تمادياً في الجحود، وكفراً بآيات الله. وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ

قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فكلمهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع بينهم اتفاق، ولا تعاضد ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا، لم يقم لهم نصر من الله على أحد قط. وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. عن قتادة: لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذلّ الناس ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ويجتهدون في دفع الإسلام، ومحو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام من كتبهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٦٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به مع ما عددنا من سيِّئاتهم ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي: وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مع المسلمين.

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: أقاموا أحكامهما، وحدودهما، وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله؛ لأنَّهم مكلّفون الإيمان بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم. وقيل: هو القرآن ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعني: الثمار من فوق رؤوسهم ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: الزروع. وهذه عبارةٌ عن التوسعة، كقولهم: فلان في النعمة من قرنه إلى قَدَمه. ودلَّت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٦٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات

مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

[نوح: ١٠ وما بعدها] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أَمَمٌ[1] في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: هي الطائفة المؤمنة، وهم عبد الله بن سلام، وأصحابه، وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وقيل: كعب بن الأشرف، وأصحابه، وغيرهم.

٦٧ ـ ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (رسالاته): مدني، وشامي، وأبو بكر. أي: فلم تبلغ إذاً ما كُلِّفْت من أداء الرسالة، ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً. كما أنَّ مَن لم يؤمنْ ببعضها كان كمن لم يؤمنْ بكلّها، لكونها في حكم شيء واحد لدخولها تحت خطاب واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلَّغاً غير مبلَّغ، مؤمناً به غير مؤمَن. قالت الملحدة ـ لعنهم الله تعالى ـ: هذا كلام لا يفيد، وهو كقولك لغلامك: كلْ هذا الطعام، فإن لم تأكله فإنك ما أكلته. قلنا: هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل، فإن لم تفعل، أي: إن لم تبلغ الرسالة في المستقبل، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. أو: بلغ ما أنزل إليك من ربك الآن، ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعُدَّة، فإن لم تبلغ كنتَ كمن لم يبلّغ أصلاً. أو: بلّغ ذلك غير خائف أحداً، فإن لم تبلغ على هذا الوصف، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. ثم قال مشجعاً له في التبليغ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يحفظك منهم قتلاً، فلم يقدر عليه، وإن شجّ في وجهه يوم أحد، وكسرت رَباعيته. أو: نزلت بعد ما أصابه ما أصابه.

(١) «أَمَم»: القَصْد الذي هو الوسط.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

والناس: الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

٦٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على دين يعتدّ به، حتى يسمّى شيئاً لبطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ إضافة زيادة الكفر والطغيان إلى القرآن بطريق التسبيب ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تتأسف عليهم؛ فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعودُ إليهم، لا إليك.

٦٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم، وهم المنافقون، ودلَّ عليه قوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قال سيبويه، وجميع البصريين: ارتفع الصابئون بالابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز «إن» من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصابئون كذلك، أي: مَن آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم فقدمه وحذف الخبر، كقوله:

فمنْ يكُ أمسى بالمدينةِ رَحْلُه　　فإنّي وقَيَّارٌ بها لَغَريبُ[1]

أي: فإني لغريب، وقيار كذلك. ودلّ اللام على أنه خبر إن. ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها؛ لأن ذا لا يصحُّ قبل الفراغ من الخبر،

(١) البيت لضابىء البُرْجُمِيّ. و«قيار»: اسم جمل ضابىء.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ

لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان، وإنما يجوز: إن زيداً منطلق وعمرو. والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) إلى آخره. ولا محل لها، كما لا محل للتي عطفت عليها. وفائدة التقديم: التنبيه على أن الصابئين ـ وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً، وأشدّهم غيّاً ـ يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، فما الظن بغيرهم؟! ومحل ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ الرفع على الابتداء، وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. ثم الجملة كما هي خبر «إن» والراجع إلى اسم إن محذوف، تقديره: من آمن منهم.

٧٠ ـ ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليقفوهم على ما يأتون، وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً، والراجع محذوف، أي: رسول منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم، ويضادّ شهواتهم من مشاق التكليف، والعمل بالشرائع. وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: فريقاً كذبوا: جواب مستأنف لقائل، كأنه يقول: كيف فعلوا برسلهم؟ وقال: «يقتلون» بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، استفظاعاً للقتل، وتنبيهاً على أنَّ القتلَ مِن شأنهم. وانتصب «فريقاً، وفريقاً» على أنه مفعول كذبوا، ويقتلون. وقيل: التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى، والقتل مختصٌّ باليهود، فهم قتلوا زكريا، ويحيى.

٧١ ـ ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ﴾ ﴿ألا تكونُ﴾: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو، على أنّ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا تكون، فخففت أن، وحذف ضمير الشأن. ونزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم؛ فلذا دخل فعل الحسبان على أن التي هي للتَّحقيق ﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء وعذاب، أي: وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل. وسدّ

فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ

ما يشتمل عليه صلة «أن، وأن[1]» من المسند والمسند إليه مسدّ مفعولي حسب ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ فلم يعملوا بما رأوا، ولا بما سمعوا. أو: فعموا عن الرشد، وصموا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ رزقهم التوبة ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو بدل من الضمير، أي: الواو ، وهو بدل البعض من الكل، أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

٧٢ ـ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ لم يفرق عيسى ـ عليه السلام ـ بينه وبينهم في أنه عبد مربوب؛ ليكون حُجَّةً على النصارى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمه دخولها، ومنعه منه ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مرجعه. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ وهو من كلام الله، أو: من كلام عيسى عليه السلام.

٧٣ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: ثالث ثلاثة آلهة. والإشكال أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقال في الثانية: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ والجواب: أن بعض النصارى كانوا يقولون: كان المسيح بعينه هو الله؛ لأن الله ربما يتجلى في بعض الأزمان في شخص، فتجلى في ذلك الوقت في شخص عيسى، ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال

---

(١) أي: على القراءتين القراءة التي تعتبر «أن» حرفَ مصدرٍ ونصب، أو القراءة التي تعتبرها مخففة من الثقيلة.

وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ

لا يقدر عليها إلا الله. وبعضهم ذهبوا إلى آلهة ثلاثة: الله، ومريم، والمسيح، وأنه ولد الله من مريم. و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ للاستغراق، أي: وما إله قط في الوجود إلا إلهٰ موصوف بالوحدانية، لا ثاني له، وهو الله وحده، لاشريك له. وفي قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتي في ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] ولم يقل: ليمسنهم؛ لأنَّ في إقامة الظاهر مقام المضمر تكريراً للشهادة عليهم بالكفر. أو: للتبعيض، أي: ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم؛ لأنّ كثيراً منهم تابوا عن النصرانية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

٧٤ ـ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ألا يتوبون ـ بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد ـ مما هم عليه. وفيه تعجيبٌ من إصرارهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم.

٧٥ ـ ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفيُ الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. وإبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى لم يكن منه؛ لأنه ليس إلهاً، بل الله أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى على يده، كما أحيا العصا، وجعلها حيةً تسعى على يد موسى. وخَلْقه من غير ذَكَر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمُّه أيضاً إلا كبعض النساء المصدِّقات للأنبياء المؤمنات بهم. ووقع اسم الصديقة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢]. ثم أبعدهما عما نسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ لأنَّ مَن احتاج إلى الاغتذاء بالطعام،

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾

وما يتبعه من الهضم والنفض[1] لم يكن إلا جسماً مركباً من لحم، وعظم، وعروق، وأعصاب، وغير ذلك مما يدلُّ على أنه مصنوع مؤلّف كغيره من الأجسام ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمّله بعد هذا البيان. وهذا تعجيبٌ من الله تعالى في ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب.

٧٦ ـ ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ هو عيسى عليه السلام. أي: شيئاً لا يستطيع أن يضرَّكم بمثل ما يضركم به الله من البلاء، والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان، والسعة، والخصب؛ ولأنَّ كلَّ ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليلٌ قاطع على أنَّ أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ متعلق بـ: أتعبدون، أي: أتشركون بالله، ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

٧٧ ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، فغلوّ النصارى: رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية. وغلوّ اليهود: وضعه عن استحقاق النبوّة ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: غلواً غير الحق، يعني: غلواً باطلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: أسلافكم

(١) «النفض»: الإلقاء.

وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ
لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم. ﴿وَضَلُّواْ﴾ لما بُعث رسول الله ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ حين كذَّبوه، وحسدوه، وبغوا عليه.

٧٨ ـ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ قيل: إنَّ أهل أيلة لمّا اعتدوا في السبت، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فَمُسِخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة، قال عيسى: اللهم عذِّبْ مَن كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير. وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم.

٧٩ ـ ثم فسَّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ عن قبيح فعلوه ومعنى وصف المنكر بفعلوه ـ ولا يكون النهي بعد الفعل ـ أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو: عن مثل منكر فعلوه، أو: عن منكر أرادوا فعله. أو: المراد: لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرُّون عليه. يقال: تناهى عن الأمر، وانتهى عنه: إذا امتنع منه، وتركه. ثم عجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، بقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. وفيه دليلٌ على أنَّ ترك النهي على المنكر من العظائم. فيا حسرةً على المسلمين في إعراضهم عنه!.

٨٠ ـ ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين، ويصافونهم ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن

وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا
نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لبئس شيئاً قدّموه لأنفسهم سخط الله عليهم، أي: موجب سخط الله ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: في جهنم.

٨١ ـ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ما اتخذوا المشركين أولياء، يعني: أنَّ موالاةَ المشركين تدلُّ على نفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مستمرون في كفرهم ونفاقهم. أو: معناه: ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه، يعني: التوراة، ما اتخذوا المشركين أولياء، كما لم يوالهم المسلمون، ولكن كثيراً منهم فاسقون، خارجون عن دينهم، فلا دين لهم أصلاً.

٨٢ ـ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ هو مفعول ثان لتجدن. و«عداوة» تمييز ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ عطف عليهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ اللام تتعلق بعداوة ومودة. وصف اليهود بشدة الشكيمة، والنصارى بلين العريكة. وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين. ونبّه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء وعباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ علل سهولة مأخذ النصارى، وقرب مودّتهم للمؤمنين؛ بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأن فيهم تواضعاً واستكانة، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليلٌ على أنَّ العلمَ أنفعُ شيء، وأهداه إلى الخير، وإن كان علم القسيسين. وكذا علم الآخرة وإن كان في راهب. والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ

٨٣ ـ ﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفهم برقة القلوب، وأنهم يبكون عند استماع القرآن، كما روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب ـ حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يقرؤونه عليهم ـ: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تُنسب إلى مريم، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩] فبكى النجاشي. وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلاً، حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا ﴿تفيض من الدمع﴾ تمتلىء من الدمع حتى تفيض؛ لأنَّ الفيضَ أن يمتلىء الإناء، أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من أجل البكاء. ومن في ﴿مما عرفوا﴾ لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتدأ، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله. و«مِنْ» في: ﴿من الحق﴾ لتبيين الموصول الذي هو «ما عرفوا». أو: للتبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله، وقرؤوا القرآن، وأحاطوا بالسنة؟! ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿عرفوا﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد ﷺ، والمراد: إنشاء الإيمان، والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ؛ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

٨٤ ـ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان، مع قيام موجبه، وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم، فأجابوهم بذلك. و﴿مالنا﴾ مبتدأ وخبر. و﴿لانؤمن﴾ حال، أي: غير مؤمنين، كقولك: مالك قائماً ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾

وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ

يعني: محمداً ﷺ والقرآن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حال من ضمير الفعل في ﴿نؤمن﴾ والتقدير: ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأنبياء والمؤمنين.

٨٥ ـ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي: بقولهم ﴿ربنا آمنا﴾ وتصديقهم لذلك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الإقرارَ داخلٌ في الإيمان، كما هو مذهب الفقهاء. وتعلَّقت الكراميَّة في أنَّ الإيمان مجرد القول بقوله: ﴿بما قالوا﴾ لكن الثناء بفيض الدمع في السياق، وبالإحسان في السياق، يدفع ذلك. وأنى يكون مجرد القول إيماناً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]؟ نفى الإيمان عنهم مع قولهم ﴿آمنا بالله﴾ لعدم التصديق بالقلب. قال أهل المعرفة: الموجود منهم ثلاثة أشياء: البكاء على الجفاء، والدعاء على العطاء، والرضا بالقضاء. فمن ادَّعى المعرفة، ولم يكن فيه هذه الثلاثة، فليس بصادقٍ في دعواه.

٨٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا أثر الردّ في حقّ الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء ونزل في جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حلفوا أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح، ويقوموا الليل، ويصوموا النهار، ويسيحوا في الأرض، ويجبّوا مذاكيرهم، ولا يأكلوا اللحم والوَدَك[1]، ولا يقربوا النساء والطيب.

٨٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب، ولذّ من الحلال. ومعنى لا تحرموا: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو: لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

---

(١) «الودك»: الدَّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾

منكم، وتقشفاً. وروي: أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ[1]، وكان يعجبه الحلواء والعسل، وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة»[2] وعن الحسن: أنه دُعي إلى طعام ومعه فرقد السَّبَخي وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المُسَمَّن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد! أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه: أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره، فقال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذ ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ ولا تجاوزوا الحد الذي حدّ عليكم في تحليل أو تحريم. أو: ولا تتعدوا حدود ما أحلَّ لكم إلى ما حرم عليكم. أو: ولا تسرفوا في تناول الطيبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ حدوده.

٨٨ ـ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ حال مما رزقكم الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ توكيد للتوصية بما أمر به، وزاده توكيداً بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أمر به، ونهى.

٨٩ ـ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو: أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظنّ أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف بأيماننا؟ فنزلت. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: ما يجري على اللسان بلا قصد ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ أي: بتعقيدكم الأيمان،

(١) «الفالُوذ، والفالوذج»: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وهي كلمة معربة.
(٢) قال الحافظ: ذكره الديلمي في الفردوس عن علي. (حاشية الكشاف ١/ ٦٧١).

فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ

وهو توثيقها. وبالتخفيف: كوفي غير حفص[١]. والعقد: العزم على الوطء. وذا لا يتصور في الماضي، فلا كفارة في الغموس. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: القصد بالقلب، ويمين الغموس مقصودة، فكانت معقودة، فكانت الكفارة فيها مشروعة. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة؛ لأنه كان معلوماً عندهم. أو: بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: فكفارة نكثه، أو فكفارة معقود الأيمان والكفارة الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، أي: تسترها ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ هو أن يغديهم ويعشّيهم. ويجوز أن يعطيهم بطريق التمليك، وهو لكلّ أحدٍ نصف صاع من بُرّ، أو صاع من شعير، أو صاع من تمر. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: مدّ لكلّ مسكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: غداء وعشاء من برّ. إذ الأوسع: ثلاث مرات مع الإدام، والأدنى: مرة من تمر، أو شعير ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على ﴿إطعام﴾ أو: على محل ﴿من أوسط﴾ ووجهه أن ﴿من أوسط﴾ بدل من ﴿إطعام﴾ والبدل هو مقصود في الكلام. وهو: ثوب يغطي العورة. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إزار، أو قميص، أو رداء ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، أو كافرة لإطلاق النص. وشرط الشافعي ـ رحمه الله ـ الإيمان حملاً للمطلق على المقيد في كفارة القتل. ومعنى ﴿أو﴾ التخيير، وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة؛ لقراءة أُبيّ وابن مسعود كذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة لا تجبُ بنفس الحلف؛ ولذا لم يجز التكفيرُ قبل الحنث ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ فَبرّوا فيها، ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً. أو: ولا تحلفوا أصلاً

(١) أي: قرأ الكوفيون وهم حمزة والكسائي وعاصم برواية شعبة عنه بالتخفيف، أما حفص عن عاصم فقرأ بالتشديد.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك البيان ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أعلام شريعته، وأحكامه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته فيما يعلمكم، ويسهل عليكم المخرج منه.

٩٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ أي: القمار ﴿ وَٱلْأَنصَابُ ﴾ الأصنام؛ لأنها تنصب فتعبد ﴿ وَٱلْأَزْلَٰمُ ﴾ وهي القداح التي مرَّت ﴿ رِجْسٌ ﴾ نجس، أو خبيث مستقذر ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لأنه يحمل عليه، فكأنه عمله. والضمير في: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ يرجع إلى الرجس، أو: إلى عمل الشيطان، أو: إلى المذكور، أو: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما تعاطى الخمر والميسر، ولذا قال: ﴿رجس﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أكّد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر الجملة بإنما، وقرنهما بعبادة الأصنام، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابد الوثن»(١)، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت، وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خساراً.

٩١ ـ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ذكر ما يتولد منهما من الوبال، وهو: وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقَمْر، وما يؤديان إليه من الصَّدِّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وخصّ الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها، كأنه قال: وعن الصلاة خصوصاً. وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً، ثم أفردهما آخراً لأنَّ الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر، واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنَّ ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك. فكأنه

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٢٥).

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا
مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ
لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ

لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر. ثم أفردهما بالذكر ليعلم أنَّهما المقصودُ بالذكر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ مِن أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والزواجر، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا، ولم تزجروا؟!.

٩٢ ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ وكونوا حذرين خاشعين؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كلّ سيئة، وعمل كلّ حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول؛ لأنه ما كلّف إلا البلاغ المبين بالآيات. وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عمَّا كلّفتموه.

٩٣ ـ ونزل فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ الشرك ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ الخمر والميسر بعد التحريم ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمهما. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ سائر المحرمات. أو: الأول عن الشرك، والثاني: عن المحرمات، والثالث: عن الشبهات ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾ إلى الناس ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٩٤ ـ ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية، وهم محرمون، وكثر عندهم، حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم، نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو: يختبر، وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم، لا لعلم ما لم يعلم. و﴿مِن﴾ للتبعيض، إذ لا يحرم كل صيد، أو: لبيان الجنس ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾

الاصطياد موجوداً، كما كان يعلم قبل وجوده أنّه يوجد ليثيبه على عمله، لا على علمه فيه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قلّل في قوله ﴿بشيء من الصيد﴾ ليعلم أنه ليس من الفتن العظام. و﴿تناله﴾ صفة لشيء.

٩٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ أي: المصيد، إذ القتل إنما يكون فيه ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: محرمون، جمع حرام، كردح في جمع رداح. في محل النصب على الحال من ضمير الفاعل في ﴿تقتلوا﴾ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: ذاكراً لإحرامه، أو عالماً: أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه. فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطيء. وإنما شرط التعمد في الآية ـ مع أنَّ محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ ـ لأن مورد الآية فيمن تعمّد. فقد رُوي: أنه عَنَّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت. ولأنَّ الأصلَ فعل المتعمد، والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السُّنَّةُ بالخطأ ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ كوفي[1]. أي: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد. وهو قيمة الصيد. يُقوَّم حيثُ صِيدَ، فإن بلغت قيمته ثمن هدي خُيّر بين أن يهدي من النَّعَم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاعاً من غيره. وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً. وعند محمد والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ مثله: نظيره من النعم. فإن لم يوجدْ له نظير من النَّعَم فكما مر. (فجزاءُ مثلِ) على الإضافة، غيرهم[2]. وأصله: فجزاءٌ مثلَ ما قتل، أي: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضربٍ زيداً، ثم من ضربِ زيد ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ حال من

---

(١) أي: قراءة حمزة والكسائي وعاصم.

(٢) أي: قراءة غير الكوفيين وهم: أبو عمرو وابن عامر وابن كثير ونافع.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ﴾

الضمير في قتل، إذ المقتول يكون من النعم، أو صفة لجزاء ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ حكمان عادلان من المسلمين. وفيه دليلٌ على أنَّ المثلَ القيمة؛ لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة، ولأنَّ المثلَ المطلق في الكتاب، والسنة، والإجماع مقيّد بالصورة والمعنى. أو: بالمعنى لا بالصورة، أو بالصورة بلا معنى. والقيمة أريدت فيما لا مثل له صورة إجماعاً، فلم يبق غيرها مراداً، إذ لا عموم للمشترك.

فإن قلت قوله: ﴿من النَّعَم﴾ ينافي تفسير المثل بالقيمة. قلت: من أوجب القيمة خُيِّر بين أن يشتري بها هدياً، أو طعاماً، أو يصوم كما خيّر الله تعالى في الآية، فكان من «النعم» بياناً للهدي المشترى بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأن مَنْ قوَّم الصيد واشترى القيمة هدياً فأهداه، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدي، أو يكفر بالطعام، أو الصوم إنما يستقيم إذا قوّم ونظر بعد التقويم، أيّ: الثلاثة يختار. فأما إذا عمد إلى النظير، وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قوّم حينئذ، ثم يُخيَّر بين الطعام والصيام، ففيه نبُوٌّ عمّا في الآية. أَلا ترى إلى قوله ﴿أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلكَ صياماً﴾ كيف خيّر بين الأشياء الثلاثة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهاء في به، أي: يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ صفة لهدياً؛ لأن إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة: أن يذبح بالحرم، فأما التصدق به فحيث شئت. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: في الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾ ﴿طَعَامُ﴾ بدل من كفارة، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي طعام. ﴿أو كفارة طعام﴾ على الإضافة: مدني وشامي. وهذه الإضافة لتبيين المضاف، كأنه قيل: أو كفارة من طعام ﴿مَسَٰكِينَ﴾. كما تقول: خاتم فضة، أي: خاتم من فضة ﴿أَوْ عَدْلُ﴾ وقرىء بكسر العين، قال الفراء: العَدْل: ما عادلَ الشيء من غير جنسه كالصوم والإطعام. والعِدْل مثله من جنسه، ومنه: عِدْلا الحمل. يقال: عندي غلام عِدْلُ غلامك ـ بالكسر ـ إذا كان من جنسه. فإن أريد أن قيمته كقيمته، ولم يكن من جنسه، قيل: هو عَدْل غلامك

ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

ـ بالفتح ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً. والخيار في ذلك إلى القاتل. وعند محمد ـ رحمه الله ـ إلى الحكمين ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بقوله ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه أن يجازى، أو يُكفِّرَ، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه، والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد التحريم، أو: في ذلك الإحرام ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاء. وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو ينتقم الله منه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بإلزام الأحكام. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لمن جاوز حدود الإسلام.

٩٦ ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل، ومما لا يؤكل. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وما يُطعَم من صيده. والمعنى: أحلّ لكم الانتفاع بجميع ما يُصاد في البحر، وأحلّ لكم أكل المأكول منه، وهو السمك وحده ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ مفعول له، أي: أحلّ لكم تمتيعاً لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وللمسافرين. والمعنى: أحل لكم طعامه تمتيعاً لتُنَائكم[1] يأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً، كما تزوَّد موسى عليه السلام الحوتَ في مسيره إلى الخضر ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ ما صيد فيه. وهو: ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات، كالبط؛ فإنه بري؛ لأنه يتولد في البر. والبحر له مرعى، كما للناس متجر ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ محرمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحرم، أو: في الإحرام ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون فيجزيكم على أعمالكم.

---

(١) «لتنائكم»: أي: للمتوطنين منكم.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ

٩٧ ـ ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ أي: صيّر ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿ قِيَٰمًا ﴾ مفعول ثان. أو: جعل بمعنى خلق، وقياماً: حال. ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: انتعاشاً لهم في أمر دينهم، ونهوضاً إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم؛ لما يتم لهم من أمر حجّهم، وعمرتهم، وأنواع منافعهم. قيل: لو تركوه عاماً لم ينظروا، ولم يؤخروا ﴿ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ والشهر الذي يُؤدَّى فيه الحج، وهو ذو الحجة؛ لأن في اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد علمه الله. أو: أريد به جنس الأشهر الحرم، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم ﴿ وَٱلْهَدْىَ ﴾ ما يُهدى إلى مكة ﴿ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ والمقلد منه خصوصاً، وهو البُدْن، فالثواب فيه أكثر، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى جَعْل الكعبة قياماً، أو: إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد، وغيره ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: لتعلموا أنَّ الله يعلمُ مصالحَ ما في السموات وما في الأرض، وكيف لا يعلم وهو بكل شيء عليم؟!

٩٨ ـ ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن استخفَّ بالحرم والإحرام ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لآثام مَن عظَّم المشاعر العظام ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالجاني الملتجىء إلى البلد الحرام.

٩٩ ـ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ تشديدٌ في إيجاب القيام بما أمر به، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم، ووفاقكم.

١٠٠ ـ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يبدون

وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم، بل يميز بينهما فيعاقب الخبيث، أي: الكافر، ويثيب الطيب، أي: المسلم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وآثروا الطيب ـ وإن قلّ ـ على الخبيث ـ وإن كثر ـ. وقيل: هو عامّ في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وجيد الناس ورديئهم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٠١ ـ كانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن أشياء امتحاناً، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين: أصله: «شيئاء» بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ «شيء» وهمزتها الثانية للتأنيث؛ ولذا لم تنصرف كحمراء. وهي مفردة لفظاً، جمع معنى. ولما استثقلت الهمزتان المجتمعتان قدّمت الأولى التي هي لام الكلمة، فجعلت قبل الشين، فصار وزنها «لفعاء». والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أي: قوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ صفة لأشياء، أي: وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو ما دام الرسول بين أظهركم تبد لكم تلك التكاليف التي تسوؤكم، أي: تغمّكم، وتشقّ عليكم، وتؤمرون بتحمّلها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا الله عمّا سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاقبكم إلا بعد الإنذار.

١٠٢ ـ والضمير في: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ لا يرجع إلى أشياء حتى يعدّى بعن، بل يرجع إلى المسألة التي دلّت عليها «لا تسألوا» أي: قد سأل هذه المسألة ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من الأوّلين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ كما عرف في بني إسرائيل.

١٠٣ ـ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهلُ الجاهلية إذا

وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ

نُتِجَتْ الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها ـ أي: شقّوها ـ وامتنعوا من ركوبها، وذبحها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، واسمها: البحيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري، أو برأت من مرضي، فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما، ولا ميراث. وكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أكله الرجال، وإن كان أنثى أرسلت في الغنم وكذا إن كان ذكراً وأنثى، وقالوا: وصلت أخاها. فالوصيلة بمعنى الواصلة. وإذا نُتِجَتْ من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى: ﴿ما جعل﴾: ما شرع ذلك، ولا أمر به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتحريمهم ما حرّموا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في نسبتهم هذا التحريم إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ الله لم يحرّم ذلك. وهم عوامّهم.

١٠٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: هلمّوا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرّمة ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: كافينا ذلك ﴿حسبنا﴾ مبتدأ. والخبر ﴿ما وجدنا﴾. و«ما» بمعنى: الذي. والواو في: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ للحال، قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره ﴿أ﴾ حسبهم ذلك ﴿ولو كان آباؤهم﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: الاقتداء إنما يصحّ بالعالم المهتدي. إنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

١٠٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ انتصب ﴿أنفسكم﴾ بـ«عليكم». وهو من أسماء الأفعال، أي: الزموا إصلاح أنفسكم. والكاف والميم في ﴿عليكم﴾ في موضع جر؛ لأنَّ اسمَ الفعل هو الجار والمجرور لا «على» وحدها ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ رفع على الاستئناف، أو: جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد ﴿مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ كان المؤمنون تذهبُ أنفسهم

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا

حسرةً على أهل العناد من الكفرة، يتمنَّون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها ﴿لايضركم﴾ الضُّلَّال عن دينكم إذا كنتم مهتدين. وليس المراد: ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يجزيكم على أعمالكم.

١٠٦ ـ رُوي أنه خرج بديل مولى عمرو بن العاص ـ وكان من المهاجرين ـ مع عدي وتميم ـ وكانا نصرانيين ـ إلى الشام. فمرض بديل، وكتب كتاباً فيه ما معه، وطرحه في متاعه، ولم يخبر به صاحبيه. وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات. ففتشا متاعه، فأخذا إناء من فضة. فأصاب أهلُ بديل الصحيفة، فطالبوهما بالإناء، فجحدا. فرفعوا إلى رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ﴾. ارتفع ﴿اثنان﴾ لأنه خبر المبتدأ، وهو ﴿شهادة﴾ بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين. أو: لأنه فاعل شهادة بينكم. أي: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. واتُّسع في «بين» فأضيف إليه المصدر ﴿وإذا حضر﴾ ظرف للشهادة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. وفي إبداله منه دليلٌ على وجوب الوصية؛ لأنَّ حضورَ الموت من الأمور الكائنة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. فيدلُّ على وجود الوصية. فلو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء. فنقل إلى الوجوب. وحضور الموت: مشارفته، وظهور أمارات بلوغ الأجل. ﴿ ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنين ﴿ مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم؛ لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ عطف على ﴿اثنان﴾ ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها. و﴿أنتم﴾ فاعل فعل يفسّره الظاهر ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أو: ﴿منكم﴾ من المسلمين، و﴿من غيركم﴾ من أهل الذمة. وقيل: منسوخ؛ إذ لا يجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أوّل الإسلام لقلّة المسلمين ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ تقفونهما

مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ

للحلف. هو استئناف كلام، أو: صفة لقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: ﴿أو آخران من غيركم﴾ محبوسان. و﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: بعد العصر أو الظهر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر، ودعا بـ: عديٍّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة. فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعديّ[1] ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم في أمانتهما. وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه، وهو ﴿لَا نَشْتَرِى﴾. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام. والتقدير: ﴿إن ارتبتم﴾ في شأنهما فخلفوهما ﴿بِهِۦ﴾ بالله، أو بالقسم ﴿ثَمَنًا﴾ عَرَضاً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقسم له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال، ولو كان من نقسم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها، وتعظيمها ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن كتمنا ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾. وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن: أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما.

١٠٧ ـ ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ فعلاً ما أوجب إثماً، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: ﴿من الذين استحق عليهم﴾ الإثم. ومعناه: من الذين جُني عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل: أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما، وأن شهادتهما أحقّ من شهادتهما ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأحقّان بالشهادة لقرابتهما، أو

---

(١) رواه الترمذي(٣٠٥٩) وقال: حديث غريب.

فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ

معرفتهما. وارتفاعهما على: هما ﴿الأوليان﴾ كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: ﴿الأوليان﴾. أو: هو بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو من ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ حفص. أي: ﴿مِنَ﴾ الورثة ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ من بينهم بالشهادة أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين. ﴿الأوّلين﴾ حمزة، وأبو بكر، على أنه وصف للذين استحقّ عليهم مجرور، أو منصوب على المدح. وسموا: أوّلين؛ لأنهم كانوا أوّلين في الذكر في قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: ليميننا أحق بالقبول من يمين هذين الوصيّين الخائنين ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وما تجاوزنا الحقَّ في يميننا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن حلفنا كاذبين.

١٠٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مرَّ ذكره من بيان الحكم ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ أي: الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ كما حملوها بلا خيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الخيانة، واليمين الكاذبة ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ سمع قبول، وإجابة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة. فإن قلت: ما معنى ﴿أو﴾ هنا؟ قلت: معناه: ذلك أقرب من أن يؤدوا الشهادة بالحق والصدق، إما لله، أو لخوف العار والافتضاح بردّ الأيمان. وقد احتج به مَن يرى ردّ اليمين على المدّعي. والجواب: أن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا، فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادّعيا الشراء فيما كتما، فأنكرت الورثة، فكانت اليمينُ على الورثة لإنكارهما الشراء.

١٠٩ ـ ﴿۞ يَوْمَ﴾ منصوب باذكروا، أو: احذروا ﴿يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان. وهذا السؤال توبيخٌ لمن أنكرهم. و﴿ماذا﴾ منصوب بأجبتم، نصب المصدر على

قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ
نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ
ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

معنى: أيّ إجابة أجبتم؟ ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بإخلاص قومنا. دليله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. أو: بما أحدثوا بعدنا. دليله ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة: ١١٧]. أو: قالوا ذلك تأدّباً، أي: علمنا ساقط مع علمك، ومغمور به، فكأنه لا علم لنا.

١١٠ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدل من: يوم يجمع ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث طهرتها، واصطفيتها على نساء العالمين. والعامل في: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: قويتك ﴿نعمتي﴾ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام. أيّد به لتثبت الحجة عليهم، أو: بالكلام الذي يحيا به الدين. وأضافه إلى القدس لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام. دليلهُ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ حال، أي: تكلمهم طفلاً، إعجازاً ﴿وَكَهْلًا﴾ تبليغاً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على ﴿إذ أيّدتك﴾. ونحوه: ﴿وإذ تخلق﴾ ﴿وإذ تخرج﴾ ﴿وإذ كففت﴾ ﴿وإذ أوحيت﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تقدّر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بِإِذْنِي﴾ بتسهيلي. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف؛ لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى، وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه. وكذا الضمير في ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾. وعطف ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ على ﴿تخلق﴾. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ قيل: أخرج سام بن نوح، ورجلين، وامرأة، وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ أي: اليهود حين همّوا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ ظرف لكففت ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ساحر: حمزة، وعليّ.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ

١١١ ـ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ ألهمت ﴿إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الخواصّ، أو: الأصفياء ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ أي: آمنوا ﴿بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: اشهد بأننا مخلصون. مِن: أسلم وجهه.

١١٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: اذكروا إذ قال الحواريون ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ «عيسى»: نصب على اتباع حركته حركة الابن، نحو: يا زيدَ بن عمرو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعل؟ أو هل يطيعك ربك إن سألته؟ فاستطاع وأطاع بمعنى، كاستجاب وأجاب. (هل تستطيع ربّك): عليّ. أي: هل تستطيع سؤال ربك، فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ ﴿يُنْزل﴾: مكي، وبصري ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي: الخوان[1] إذا كان عليه الطعام، من: ماده: إذا أعطاه، كأنها تميدُ مَن تقدّم إليها ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمانُ يوجِبُ التقوى.

١١٣ ـ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركاً ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ونزداد يقيناً، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدقك عياناً، كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا.

١١٤ ـ ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ﴾

---

(١) «الخُوان»: ـ بضم الخاء وكسرها ـ: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة.

رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

أصله: ياألله، فحذف يا، وعوض منه الميم ﴿رَبَّنَآ﴾ نداء ثان ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، أو العيد: السرور العائد. ولذا يقال: يومُ عيدٍ، فكان معناه: تكون لنا سروراً وفرحاً ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لنا﴾ بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا. أو: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أوّلهم. أو: للمتقدمين منّا والأتباع ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ على صحة نبوّتي. ثم أكّد ذلك بقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأعطنا ما سألناك، وأنت خير المعطين.

١١٥ ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم. وعَد الإنزال، وشرط عليهم شرطاً بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ بعد إنزالها ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم. والضمير في: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بدّ من الباء ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن الحسن: أن المائدة لم تنزل، ولو نزلت لكانت عيداً إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وآخرنا﴾. والصحيح أنها نزلت. فعن وهب: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة، عليها كل طعام إلا اللحم. وقيل: كانوا يجدون عليها ما شاؤوا. وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشياً.

١١٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤال يكون في يوم القيامة. دليله: سياق الآية وسابقها[1] وقيل: خاطبه به حين رفعه إلى السماء. دليله: لفظ ﴿إذ﴾ ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ...﴾ [المائدة: ١٠٩].

لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ
هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ

﴿لِى بِحَقٍّ﴾ أن أقول قولاً لا يحقُّ لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إن صح أني قلته فيما مضى فقد علمته. والمعنى: أني لا أحتاجُ إلى الاعتذار؛ لأنك تعلمُ أني لم أقله، ولو قلته علمته؛ لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ذاتي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ذاتك. فنفس الشيء: ذاته، وهويته. والمعنى: تعلم معلومي، ولا أعلم معلومك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين معاً؛ لأنَّ ما انطوتْ عليه النفوسُ من جملة الغيوب، ولأنَّ ما يعلم علام الغيوب لا ينتهي إليه علمُ أحد.

١١٧ ـ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به. ثم فسّر ما أمر به فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. فـ«أن» مفسرة بمعنى: أي ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ مدّة كوني فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي، وفعلي، وقولهم، وفعلهم.

١١٨ ـ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الزجاج: علم عيسى عليه السلام أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: ﴿إن تعذّبهم﴾ أي: إن تعذب من كفر منهم ﴿فإنهم عبادك﴾ الذين علمتهم جاحدين لآياتك، مكذبين لأنبيائك، وأنت العادل في ذلك؛ فإنهم قد كفروا بعد وجوب الحجة عليهم ﴿وإن تغفر لهم﴾ أي: لمن أقلع منهم وآمن، فذلك فَضْل منك. وأنت عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك. أو: ﴿عزيز﴾ قويّ، قادر على الثواب، ﴿حكيم﴾ لا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

١١٩ ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ برفع اليوم والإضافة على أنه

لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

خبر هذا، أي: يقول الله تعالى: هذا يومُ ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر في دنياهم وآخرتهم. والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب على المفعولية، كما تقول: قال زيد: عمرو منطلق. وبالنصب نافع على الظرف، أي: قال الله هذا لعيسى عليه السلام يومَ ينفع الصادقين صدقهم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ بالجزاء الموفور. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه باقٍ بخلاف الفوز في الدنيا، فهو غير باق.

١٢٠ ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ عظّم نفسه عما قالت النصارى: إن معه إلهاً آخرَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ من المنع، والإعطاء، والإيجاد، والإفناء.

نسأله أن يوفِّقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجنَّاته. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء، أي: الحمد له وإن لم تحمدوه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جمع السموات؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور، فليس بعضها فوق بعض، بل بعضها موالٍ لبعض. جعل يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إن كان بمعنى صيّر، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. وفيه ردّ قول الثنوية بقِدَم النور والظلمة. وأفرد النور لإرادة الجنس، ولأنّ ظلمة كلّ شيء تختلف باختلاف ذلك الشيء، نظيره: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الموضع المظلم، يخالف كل واحد منها صاحبه. والنور: ضرب واحد، لا يختلف كما تختلف الظلمات. وقدّم الظلمات لقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق الله خلقه في ظلمة، ثم رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»[1] ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يساوون به الأوثان. تقول: عدلت هذا بذا، أي: ساويته به. والباء في ﴿بربّهم﴾ صلة للعدل، لا للكفر. أو: ﴿ثمّ الذين كفروا بربّهم

(١) رواه أحمد (٢/١٧٦، ١٩٧) والترمذي (٢٦٤٢) وقال: حديث حسن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾

يعدلون﴾ عنه، أي: يعرضون عنه، فتكون الباء صلة الكفر، وصلة ﴿يعدلون﴾ أي: عنه: محذوفة. وعطف ﴿ثم الذين كفروا﴾ على ﴿الحمد لله﴾ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنّه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته. أو: على ﴿خلق السموات﴾ على معنى: أنه خلق ما خلق ممّا لا يقدر عليه أحد سواه، ثمّ هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ﴿ثمّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ مِن: لابتداء الغاية، أي: ابتدأ خلق أصلكم، يعني: آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: حكَمَ أجل الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة. أو: الأوّل ما بين أن يُخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ. أو: الأوّل: النوم، والثاني: الموت. أو: الثاني هو الأوّل، وتقديره ﴿و﴾ هو ﴿أجل مسمًّى﴾ أي: معلوم. و﴿أجل مسمى﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عنده﴾. وقدّم المبتدأ ـ وإن كان نكرة والخبر ظرفاً ـ وحقّه التأخير؛ لأنّه تخصّص بالصفة، فقارب المعرفة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكّون، من: المرية، أو: تجادلون، من المراء. ومعنى «ثمّ» استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثَبَت أنّه محييهم، ومميتهم، وباعثهم.

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أو هو المعروف بالإلْهية فيهما؛ أو: هو الذي يقال له: الله فيهما. والأول تفريع على أنّه مشتق، وغيره على أنه غير مشتق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبر بعد خبر. أو: كلام مبتدأ، أي: هو ﴿يعلم سرّكم وجهركم﴾ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشرّ، ويثيب عليه، ويعاقب.

٤ ـ و«مِنْ» في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ للاستغراق. وفي: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعيض. أي: وما يظهر لهم دليل قطّ من الأدلّة التي يجب فيها النظر،

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧﴾

والاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر، لا يلتفتون إليه؛ لقلّة خوفهم، وتدبرهم في العواقب.

٥ ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات ﴿فقد كذبوا﴾ ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو القرآن؛ الذي تُحدّوا به، فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أي: أخباره وأحواله، يعني: سيعلمون بأيّ شيء استهزؤوا، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام، وعلوّ كلمته.

٦ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: المكذّبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ هو مدّة انقضاء أهل كلّ عصر، وهو ثمانون سنة، أو سبعون ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ في موضع جرّ صفة لـ«قرْن». وجمع على المعنى ﴿فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ التمكين في البلاد: إعطاء المُكْنة. والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البَسْطة في الأجسام، والسَّعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المطر. ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ كثيراً، وهو حال من السماء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ من تحت أشجارهم. والمعنى: عاشوا في الخِصْب بين الأنهار والثمار، وسُقْيا الغيث المدرار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً منهم.

٧ ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوباً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هو للتأكيد لئلا يقولوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥]. ومن المحتجّ عليهم: العمي ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تعنّتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ
مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

---

٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ﴾ هلا. ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على النبيّ ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلّمنا أنّه نبيّ. فقال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لقضي أمر هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لايمهلون بعد نزوله طرفة عين؛ لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى ﴿ثم﴾ بُعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

٩ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون تارة: لولا أنزل على محمد مَلَك، وتارة يقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في أعمّ الأحوال في صورة دحية؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا، وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان: هذا إنسان، وليس بمَلَك. يقال: لبَست الأمر على القوم، وألبسته: إذا أشبهته، وأشكلته عليهم.

١٠ ـ ثمّ سلّى نبيّه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل استهزائهم به. و﴿منهم﴾ متعلق بسخروا، كقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. والضمير للرسل. والدال مكسورة عند أبي عمرو، وعاصم لالتقاء الساكنين. وضمّها غيرهما إتباعاً لضمّ التاء.

١١ ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والفرق

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

بين فانظروا وبين ﴿ثم انظروا﴾ أن النظر جعل مسبَّباً عن السير في «فانظروا» فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى «سيروا في الأرض ثم انظروا»: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبّه على ذلك بـ«ثمَّ» لتباعد ما بين الواجب والمباح.

١٢ـ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿من﴾ استفهام و﴿ما﴾ بمعنى الذي في موضع الرفع على الابتداء، و﴿لمن﴾ خبره. ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيئاً إلى غيره. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أصل كتب: أوجب، ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره، إذ لا يجب على الله شيء للعبد، فالمراد به: أنه وعد ذلك وعداً مؤكّداً، وهو منجزه لا محالة. وذكر النفس للاختصاص، ورفع الوسائط. ثمَّ أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليجازيكم على إشراككم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم، أو: في الجمع. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ نصب على الذم، أي: أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال الأخفش: ﴿الذين﴾ بدل من ﴿كم﴾ في ﴿ليجمعنكم﴾ أي: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم. والوجه هو الأول؛ لأن سيبويه قال: لا يجوز: مررت بي المسكين، ولا بك المسكين، فتجعل المسكين بدلاً من الياء، أو الكاف؛ لأنهما في غاية الوضوح، فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير.

١٣ ـ ﴿۞وَلَهُۥ﴾ عطف على ﴿لله﴾ ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من السُّكنى، حتى يتناول الساكن والمتحرك، أو: من السكون، ومعناه: ما سكن وتحرّك فيهما، فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر كقوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحرّ والبرد. وذكر السكون لأنه أكثر من الحركة. وهو احتجاجٌ على المشركين؛ لأنهم لم ينكروا أنّه خالق الكلّ، ومدبّره ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾

كلّ مسموع، ويعلم كلّ معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان[١].

١٤ ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ناصراً ومعبوداً. وهو مفعول ثانٍ لـ: ﴿أتّخذ﴾. والأوّل ﴿غير﴾. وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول ﴿أتّخذ﴾ لا عليه؛ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً، لا في اتّخاذ الوليّ، فكان أحقّ بالتقديم ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالجر، صفة لله، أي: مخترعهما. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو يرزق ولا يُرزق. أي: المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبيَّ سابق أمّته في الإسلام؛ كقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ﴿لا تكونن من المشركين﴾. ولو عطف على ما قبله لفظاً لقيل: وألا أكون، والمعنى: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهِيتُ عن الشرك.

١٥ـ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني أخاف عذاب يوم عظيم، وهو القيامة، إن عصيتُ ربي. فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب.

١٦ ـ ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله الرحمة العظمى، وهي: النجاة الظاهرة. ﴿من يَصْرِفْ﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: من يَصْرِف الله عنه العذاب ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

١٧ ـ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض، أو فقر، أو غير ذلك من بلاياه

---

(١) «المَلَوان»: الليل والنهار.

فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى، أو صحّة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إدامته، وإزالته.

١٨ ـ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مبتدأ وخبر. أي: الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ خبر بعد خبر، أي: غالب عليهم بالقدرة. والقهر: بلوغ المراد بمنع غيره من بلوغه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في تنفيذ مراده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأهل القهر من عباده.

١٩ ـ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً﴾ ﴿أيُّ شيءٍ﴾ مبتدأ و﴿أكبر﴾ خبره و﴿شهادة﴾ تمييز. و«أيّ» كلمة يراد بها بعض ما تضاف إليه، فإذا كانت استفهاماً كان جوابُها مسمّى باسم ما أضيفت إليه. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جوابٌ، أي: الله أكبر شهادة. فالله: مبتدأ، والخبر: محذوف، فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق اسم الشيء على الله تعالى، وهذا لأنَّ الشيءَ اسمٌ للموجود؛ ولا يُطلق على المعدوم، والله تعالى موجود فيكون شيئاً؛ ولذا نقول: الله تعالى شيء لا كالأشياء. ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾ ويجوز أن يكون الجواب ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾، لأنه إذا كان الله شهيداً بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ومَنْ بلغه القرآن إلى قيام الساعة. وفي الحديث: «من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ»[1]. و﴿مَنْ﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿كُمْ﴾. والمراد به: أهل مكة، والعائد إليه محذوف، أي: ومن بلغه. وفاعل بلغ ضمير القرآن. ! ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام إنكار، وتبكيت ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. وكرّر ﴿قُلْ﴾ توكيداً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ما: كافة لـ: «أنّ» عن العمل. و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. و﴿واحد﴾ صفة. أو: بمعنى «الذي» في محل النصب بـ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/١١) موقوفاً على سعيد بن جبير.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

«إنَّ»، و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. والجملة: صلة الذي. و﴿واحد﴾: خبر إن. وهذا الوجه أوقع ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى. والكتاب: التوراة، والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: رسول الله ﷺ بحليته، ونعته الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحلاهم، ونعوتهم. وهذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوّته. ثمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢١ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام يتضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم لنفسه. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأشنعهُ: اتّخاذ المخلوق معبوداً. ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختلق. ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفه بما لا يليقُ به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن، والمعجزات ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الأمر، والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله ما لا حجة عليه، وكذّبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسمّوا القرآن والمعجزات: سحراً.

٢٢ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هو مفعول به، والتقدير: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ مع الله غيره، توبيخاً. وبالياء فيهما: يعقوب ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونهم شركاء، فحُذِف المفعولان.

٢٣ ـ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ. ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ كفرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: ثمّ لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه إلا جحوده، والتبرّؤ منه، والحلف على الانتفاء من التديّن به. أو: ثمّ لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسمّي فتنة لأنّه كذب. وبرفع الفتنة: مكيّ،

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

وشاميّ، وحفص. فمن قرأ: ﴿تكن﴾ بالتاء، ورفع الفتنة، فقد جعل الفتنة اسم تكن، و﴿أن قالوا﴾ الخبر، أي: لم يكن فتنتهم إلا قولهم. ومن قرأ بالتاء، ونصب الفتنة حمل على المقالة ﴿رَبِّنَا﴾ حمزة، وعليّ، على النداء، أي: يا ربنا. وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله.

٢٤ ـ ﴿ ٱنظُرْ﴾ يا محمد. ﴿ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بقولهم: ما كنّا مشركين. قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله، وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلّنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]. قالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فيختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ إلهيّته، وشفاعته.

٢٥ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن. رُوي أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وأضرابُهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنّه يحرّك لسانه، ويقول أساطيرَ الأوّلين مثل ما حدّثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنّي لأراه حقّاً، فقال أبو جهل: كلاّ. فنزلت ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كِنان، وهو: الغطاء، مثل عنانٍ وأعنّة ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة ﴿أن يفقهوه﴾ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً يمنع من السمع. ووحّد الوَقْر لأنه مصدر، وهو عطف على أكنّة، وهو حجة لنا في الأصلح[1] على المعتزلة ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿حتى﴾ هي التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله: ﴿إذا جاؤك. . .يقول الذين كفروا﴾. و﴿يجادلونك﴾ في موضع الحال. ويجوز

---

(١) وهو قول المعتزلة: إن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، وسموا ذلك عدلاً.

إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ

أن تكون جارّة، ويكون ﴿إذا جاؤوك﴾ في موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم. و﴿يجادلونك﴾ حال، و﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له. والمعنى: أنه بلغ تكذيبُهم: الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسّر مجادلتهم بأنّهم يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيجعلون كلام الله أكاذيب. وواحد الأساطير: أُسْطورة.

٢٦ ـ ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول، واتّباعه، والإيمان به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ويبعدون عنه بأنفسهم، فيُضلّون ويَضلّون ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتعدّاهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنّون أنّهم يضرّون رسول الله. وقيل: عُني به أبو طالب؛ لأنّه كان ينهى قريشاً عن التعرّض لرسول الله ﷺ، وينأى عنه فلا يؤمن به. والأوّل أشبه.

٢٧ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حذف جوابه، أي: ولو ترى لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أُروها حتى يعاينوها، أو حُبسوا على الصراط فوق النار ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا. تمنّوا الردّ إلى الدنيا ليؤمنوا، وتمّ تمنّيهم. ثم ابتدؤوا بقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب، ونؤمن. ﴿ولا نكذبَ، ونكونَ﴾ حمزة، وحفص، على جواب التمني بالواو، وبإضمار أنْ، ومعناه: إن رُدِدْنا لم نكذب، ونَكُنْ من المؤمنين. وافقهما في ﴿ونكونَ﴾ شامي.

٢٨ ـ ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنّوا ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ من الناس ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من قبائحهم، وفضائحهم في صحفهم.

وقيل: هو في المنافقين، وأنّه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرّونه، أو في أهل الكتاب، وأنّه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحّة نبوّة رسول الله ﷺ ﴿وَلَوْ

رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا

﴿رُدُّوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوا من أنفسهم، لا يوفون به.

٢٩ ـ ﴿وَقَالُوٓا﴾ عطف على ﴿لعادوا﴾ أي: ولو رُدُّوا لكفروا، ولقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة [أو على قوله ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا][1]. و﴿هي﴾ كناية عن الحياة، أو: هو ضمير القصة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

٣٠ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه، أو: وقفوا على جزاء ربهم ﴿قَالَ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالكائن الموجود. وهذا تعييرٌ لهم على التكذيب للبعث، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث: ما هو بحق ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقرّوا، وأكّدوا الإقرار باليمين ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم.

٣١ ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتّصل بها، أو: هو مجرى على ظاهره؛ لأنَّ منكر البعث منكر للرؤية ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لـ (كذّبوا) لـ(خَسِر)؛ لأن خسرانهم لا غاية له ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة؛ لأن مدّة تأخّرها مع تأبّد ما بعدها كساعة واحدة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. وانتصابها على الحال يعني: باغتة، أو: على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة. وهي: ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا﴾ نداء تفجُّع، معناه: يا

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَوٰةُ
الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ
لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

حسرة احضري، فهذا أوانك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصَّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أو: في الساعة، أي: قصَّرنا في شأنها، وفي الإيمان بها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ آثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ خصّ الظَّهر؛ لأن المعهودَ حملُ الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدي. وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم. وقيل: إنّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبحُ شيء صورة، وأخبثُه ريحاً، فيقول: أنا عملك السيّىء، فطالما ركبتني في الدنيا، وأنا أركبك اليوم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يحملونه. وأفاد ﴿أَلَا﴾ تعظيم ما يذكر بعده.

٣٢ ـ ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]. واللعب: ترك ما ينفع بما لا ينفع. واللهو: الميل عن الجد إلى الهزل. قيل: ما أهلُ الحياة الدنيا إلا أهلُ لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو؛ لأنها لا تُعقِب منفعة، كما تعقب أعمالُ الآخرة المنافعَ العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ﴾ مبتدأ ﴿الْآخِرَةُ﴾ صفتها ﴿ولدارُ الآخرة﴾ بالإضافة: شامي، أي: ولدار الساعة الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته. وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وفيه دليلٌ على أنَّ ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء: مدني، وحفص.

٣٣ ـ ولما قال أبو جهل: وما نكذبك يا محمد! وإنّك عندنا لمصدّق، وإنما نكذب ما جئتنا به نزل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ والهاء: ضمير الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا ينسبونك إلى الكذب. وبالتخفيف: نافع، وعليّ، من: أَكْذَبَهُ: إذا وجده كاذباً ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر. وفيه دلالةٌ على أنهم ظلموا في جحودهم. والباء يتعلق بـ «يجحدون»، أو بـ «الظالمين»، كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والمعنى: أن تكذيبك أمرٌ راجعٌ إلى الله؛ لأنك رسوله المصدّق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله؛ لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. وهو دليلٌ على أن قوله: ﴿فإنّهم لا يكذّبونك﴾ ليس بنفي لتكذيبه. وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس: إنهم لم يهينوك، وإنما أهانوني ﴿فَصَبَرُوا﴾ الصبر: حبس النفس على المكروه ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ على تكذيبهم، وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ بعض أنبائهم، وقصصهم، وما كابدوا من مصابرة المشركين. وأجاز الأخفش أن تكون «من» زائدة، و«الفاعل»: نبأ المرسلين. وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب.

٣٥ ـ كان يكبر على النبيّ ﷺ كفر قومه، وإعراضهم، ويحبُّ مجيء الآيات ليسلموا، فنزل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم، وشقّ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة لنفقاً ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ منها ﴿بِآيَةٍ﴾ فافعل، وهو جواب ﴿فإن استطعت﴾. وإن استطعت وجوابها جواب ﴿وإن كان كبر﴾. والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك. والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ لجعلهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لمّا علم أنّهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك، كذا قاله الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون ذلك.

٣٦ ـ ثم أخبر أن حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون

وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ
يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ

دعاءك بقلوبهم ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ مبتدأ. أي: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا.

٣٧ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ هلاّ أنزل عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما نقترح من جعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكّة، وتفجير الأنهار خلالها ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، أو: لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزلت.

٣٨ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هي اسم لما يدبّ، وتقع على المذكّر والمؤنّث ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في موضع جرّ صفة لدابّة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيّد الطيران بالجناحين لنفي المجاز؛ لأنّ غير الطائر قد يقال فيه: طار: إذا أسرع ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبّر يدبّر أمر مراشدها ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ ما تركنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبه، ولم نثبت ما وجب أن يثبت. أو: ﴿الكتاب﴾ القرآن. وقوله: ﴿من شيء﴾ أي: من شيء يحتاجون إليه، فهو مشتمل على ما تعبّدنا به عبارةً، وإشارةً، ودلالةً، واقتضاءً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم كلها من الدوابّ والطيور، فينصف بعضها من بعض، كما رُوي: أنه يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً. وإنّما قال «إلا أمم» مع إفراد الدابّة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما.

٣٩ ـ ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته، وينادي على عظمته قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. خابطون ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمة الجهل، والحيرة، والكفر، غافلون عن تأمل ذلك، والتفكر فيه ﴿صمّ وبكم﴾ خبر الذين، ودخول الواو لا يمنع من ذلك. و﴿في الظلمات﴾ خبر آخر. ثم قال إيذاناً بأنه

مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُۚ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ

فعّال لما يريد: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ أي: من يشأ الله ضلاله يُضْلِلْه ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال، وإرادة المعاصي، ونفي الأصلح.

٤٠ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ وبتليين الهمزة: مدنيّ. وبتركه: عليّ. ومعناه: هل علمتم أن الأمر كما يقال لكم، فأخبروني بما عندكم. والضمير الثاني لا محلّ له من الإعراب. والتاء ضمير الفاعل. ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره: أرأيتكم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ من تدعون؟ ثم بكّتهم بقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ أي: أتخصّون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر، أم تدعون الله دونها؟! ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الأصنام آلهة، فادعوها لتخلّصكم.

٤١ ـ ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ بل تخصّونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ إن أراد أن يتفضّل عليكم ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم، أو: لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربّكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كأنه قيل: أرأيتكم أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله؟

٤٢ ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ رسلاً، فالمفعول محذوف. فكذّبوهم ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر. أو: الأوّل: القحط، والجوع، والثاني: المرض، ونقصان الأنفس، والأموال ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذلّلون، ويتخشّعون لربّهم، ويتوبون عن ذنوبهم، فالنفوس تتخشّع عند نزول الشدائد.

٤٣ ـ ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أي: هلاّ تضرّعوا بالتوبة. ومعناه:

وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

نفي التضرع، كأنّه قيل: فلم يتضرّعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد: أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم ينزجروا بما ابتلوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وصاروا مُعجَبين بأعمالهم التي زيّنها الشيطانُ لهم.

٤٤ ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء، أي: تركوا الاتعاظ به، ولم يزجرهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الصحة، والسعة، وصنوف النعمة. ﴿فتّحنا﴾ شامي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الخير والنعمة ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون، متحسّرون. وأصله: الإطراق حزناً لما أصابه، أو ندماً على ما فاته. وإذا: للمفاجأة.

٤٥ ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أُهلِكوا عن آخرهم، ولم يُترك منهم أحد ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنّه من أجلّ النِّعَم، وأجزل القسم، أو: احمدوا الله على إهلاك من لم يحمد الله.

٤٦ ـ ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأن أصمّكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فسلب العقول، والتمييز ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بما أخذ، وختم عليه ﴿من﴾ رفع بالابتداء، و﴿إله﴾ خبره، و﴿غير﴾ صفة لإله، وكذا ﴿يأتيكم﴾ والجملة في موضع مفعولي ﴿أرأيتم﴾. وجواب الشرط: محذوف: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكرّرها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها. والصدوف: الإعراض عن الشيء.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ

٤٧ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأن ظهرت أماراته. وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ما يهلك هلاك تعذيبٍ وسَخَط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربّهم.

٤٨ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار، ولم[1] نرسلهم ليُقترحَ عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: داوم على إيمانه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿فلا خوفَ﴾ يعقوب.

٤٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماساً، كأنّه حيّ يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر.

٥٠ ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: قِسَمه[2] بين الخلق، وأرزاقه. ومحلُّ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ النصب، عطفاً على محل «عندي خزائن الله»؛ لأنه من جملة المقول، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول، ولا هذا القول ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لا أدّعي ما يستبعدُ في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وعلم الغيب، ودعوى الملكية، وإنما أدّعي ما كان لكثير من البشر، وهو النبوّة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أخبركم إلا بما أنزل الله عليّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للضالّ والمهتدي، أو: لمن اتبع ما يوحى إليه،

(١) في الأصل (ولن) والتصحيح من الكشاف.
(٢) قِسَم: جمع قِسْمَة: وهي النصيب.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾

ومن لم يتبع، أو لمن يدّعي المستقيم، وهو النبوّة، والمحال وهو الإلهيّة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالّين أشباه العميان، أو: فتعلموا أنِّي ما ادّعيت ما لا يليق بالبشر، أو: فتعلموا أن اتّباع ما يوحى إليّ مما لا بدّ لي منه.

٥١ ـ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بما يوحى ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المقرّون بالبعث، إلا أنّهم مفرّطونِ في العمل، فينذرهم بما أوحي إليه، أو: أهل الكتاب لأنّهم مقرّون بالبعث ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من ﴿يحشروا﴾ أي: ﴿يخافون أن يحشروا﴾ غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يدخلون في زمرة أهل التقوى.

٥٢ ـ لمَّا أُمِر النبي ﷺ بإنذار غير المتّقين ليتّقوا، أمر بعد ذلك بتقريب المتّقين، ونهى عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم، أي: عبادته، ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام؛ أو: معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، أو الصلوات الخمس. (بالغُدْوَة) شامي. ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. فالوجه يعبَّر به عن ذات الشيء، وحقيقته. نزلت في الفقراء: بلال، وصهيب، وعمار، وأضرابهم، حين قال رؤساء المشركين: لو طردت هؤلاء السقّاط لجالسناك. فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين». فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا بذلك كتاباً، فدعا علياً ـ رضي الله عنه ـ ليكتب، فقام الفقراء، وجلسوا ناحية، فنزلت. فرمى ﷺ بالصحيفة، وأتى الفقراءَ، فعانقهم[1] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ [الشعراء: ١١٣] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وذلك أنّهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم، لا يتعدّاهم إليك، كما أن

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص١٤٦).

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟
أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ
مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

حسابك عليك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي، وهو: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي: وهو ﴿ولاتطرد﴾. ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿فتطردهم﴾ على وجه التسبيب؛ لأنَّ كونه ظالماً مسبَّبٌ عن طردهم.

٥٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفَتْنِ العظيم ابتلينا الأغنياء بالفقراء ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ أي: الأغنياء ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان. ونحن المقدَّمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير. ونحوه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يشكر نعمته.

٥٤ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم، وتطييباً لقلوبهم. وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليبشّرهم بسعة رحمة الله، وقبوله التوبة منهم. ومعناه: وعدكم بالرحمة وعداً مؤكداً ﴿أَنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ ذنباً ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عَمِلَهُ وهو جاهل بما يتعلّق به من المضرّة، أو: جُعِل جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد السوء، أو العمل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وأخلص توبته ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «أنّه» «فإنّه» شاميّ، وعاصم. الأوّل: بدل الرحمة، والثاني: خبر مبتدأ محذوف، أي: فشأنه أنّه غفور رحيم. «أنّه»، «فإنّه» مدنيّ، الأوّل: بدل الرحمة، والثاني: مبتدأ.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ
ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ

«إنّه» «فأنّه» غيرهم على الاستئناف. كأنّ الرحمة استفسرت فقيل: ﴿إنّه من عمل منكم﴾.

٥٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر. ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالنصب مدنيّ. غيره بالرفع. فرفع السبيل مع التاء والياء لأنها تذكّر وتؤنّث. ونصب السبيل مع التاء على خطاب الرسول ﷺ. يقال: استبان الأمر، وتبيّن، واستبنته، وتبيّنته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البيّن نفصّل آيات القرآن، ونلخّصها في صفة أحوال المجرمين مَنْ هو مطبوعٌ على قلبه، ومَنْ يُرجى إسلامه. ولتستوضح سبيلَهم فتعامل كلاًّ منهم بما يجب أن يُعامل به، فصّلنا ذلك التفصيل.

٥٦ ـ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: صُرِفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتّباع الهوى دون اتّباع الدليل، وهو بيانٌ للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضالّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ في شيء. يعني: أنّكم كذلك.

٥٧ ـ ولمّا نفى أن يكون الهوى متّبَعاً نبّه على ما يجب اتّباعه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: إنّي من معرفة ربّي، أنّه لا معبود سواه على حجة واضحة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ حيث أشركتم به غيره. وقيل: ﴿على بيّنه من ربي﴾ على حجّة من جهة ربي، وهو القرآن ﴿وكذّبتم به﴾ بالبيّنة. وذكّر الضمير على تأويل البرهان، أو البيان، أو القرآن. ثم عقّبه بما دلّ على أنهم أحقّاء بأن يعاقبوا بالعذاب، فقال: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ حجازي،

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن

وعاصم، أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به، ويقدّره، من: قصّ أثره. الباقون ﴿يَقْضِ الحقَّ﴾ في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل. فـ ﴿الحقَّ﴾ أي القضاء: فالحق صفة لمصدر ﴿يقضي﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: القاضين بالقضاء الحق، إذ الفصل هو: القضاء. وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين.

٥٨ ـ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربِّي[1] ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو ينزِّل عليكم العذاب في وقت يعلم أنّه أردع.

٥٩ ـ ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ المفاتح: جمع مِفْتَح، وهو: المفتاح، أو: هي خزائن العذاب والرزق، أو: ما غاب عن العباد من الثواب، والعقاب، والآجال، والأحوال. جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصّل بها إلى ما في المخازن المستوثق منها بالأغلاق، والأقفال. ومَنْ عَلِمَ مفاتحها، وكيفيّة فتحها توصّل إليها. فأراد أنّه هو المتوصّل إلى المغيَّبات وحده، لا يتوصّل إليها غيره، كمن عنده مفتاح أقفال المخازن، ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. قيل: عنده مفاتح الغيب، وعندك مفاتح العيب، فمن آمن بغيبه، أسبل الله السّتر على عيبه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ من النبات، والدوابّ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ من الحيوان، والجواهر، وغيرهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن

---

(١) قال أبو السعود: وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب، مالا يخفى. فما قيل في تفسيره: «لأهلكتكم عاجلاً، غضباً لربي..» بمعزلٍ من توفيةِ المقام حقَّه. (تفسير أبي السعود: ٣/ ١٤٢).

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً

﴿وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ «ما» للنفي، ومَنْ للاستغراق، أي: يعلم عددها، وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على ورقة، وداخل في حكمها. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كالتكرير؛ لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾ لأن معنى ﴿إلا يعلمها﴾ ومعنى ﴿إلا في كتاب مبين﴾ واحد، وهو عِلْمُ الله، أو اللوح.

٦٠ ـ ثم خاطب الكفرة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أنفُسَكم عن التصرّف بالتمام في المنام ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم في النهار. أو: التقدير: ثم يبعثكم في النهار، ويعلم ما جرحتم فيه، فقدّم الكسب لأنه أهمّ. وليس فيه أنّه لا يعلم ما جَرَحْنا بالليل، ولا أنّه لا يتوفّانا بالنهار. فدلّ أنَّ تخصيصَ الشيء بالذكر لا يدلُّ على نفي ما عداه ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوفّى الآجالُ على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم. قال بعضُ أهل الكلام: إنّ لكلّ حاسّة من هذه الحواسّ روحاً تُقْبَض عند النوم، ثمَّ تُرَدُّ إليها إذا ذهب النوم فأمّا الروح التي تحيا بها النفس، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل. والمراد بالأرواح: المعاني والقوى التي تقوم بالحواس، ويكون بها السمع، والبصر، والأخذ، والمشي، والشمّ. ومعنى ﴿ثمّ يبعثكم فيه﴾: أي: يوقظكم، ويردّ إليكم أرواح الحواسّ. فيستدلّ به على مُنكري البعث؛ لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس، ثمّ يردّها إليها، فكذا يحيي الأنفس بعد موتها.

٦١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم، وهم الكرام الكاتبون؛ ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا
وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ

إذا تفكّروا: أنّ صحائفَهم تعرض على رؤوس الأشهاد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «حتّى» لغاية حفظ الأعمال. أي: وذلك دأبُ الملائكة مع المكلَّف مدّة الحياة إلى أن يأتيَه الممات ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: استوفت روحه، وهم: ملك الموت وأعوانه. توفيه واستوفيه بالإمالة: حمزة ﴿رُسْلُنا﴾ أبو عمرو ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتوانَوْن، ولا يؤخِّرون.

٦٢ ـ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه، أي: رُدّ المتوفَّوْن بردّ الملائكة ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ مالكهم الذي يلي عليهم أمورَهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحقّ. وهما صفتان لله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ، لا حكم فيه لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لا يشغله حسابٌ عن حساب، يحاسب جميع الخلق في مقدار حَلْبِ شاة. وقيل: الردّ إلى مَن ربّاك خيرٌ من البقاء مع مَنْ آذاك.

٦٣ ـ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿يُنْجيكم﴾ ابن عباس ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، أو: ظلمات البرّ: الصواعق، والبحر: الأمواج، وكلاهما في الغيم والليل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿ينجيكم﴾ ﴿تَضَرُّعًا﴾ معلنين الضراعة، وهو مصدر في موضع الحال. وكذا ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: مسّرين في أنفسكم. ﴿خِفية﴾ حيث كان: أبو بكر، وهما لغتان ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ عاصم. وبالإمالة: حمزة، وعلي. الباقون: ﴿أنجيتنا﴾. والمعنى: يقولون لئن خلصتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله تعالى.

٦٤ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد: كوفيّ ﴿مِّنْهَا﴾ من الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغمّ، وحزن ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولاتشكرون.

٦٥ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ هو الذي عرفتموه قادراً، أو: هو الكامل القدرة. فاللام يحتمل العهد والجنس ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما أمطر على قوم

أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ

لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارةَ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما غرّق فرعون، وخسف بقارونَ. أو: من قِبَل سلاطينكم وسفلتكم. أو: هو حبس المطر، والنبات ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أو: يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتّى، كلّ فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم، فيختلطوا، ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقتل بعضكم بعضاً. والبأس: السيف. وعنه ﷺ: «سألتُ الله تعالى أن لا يبعثَ على أمتي عذاباً من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمتي بالسيف»[1] ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

٦٦ ـ ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بالقرآن، أو بالعذاب ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق، أو: لا بدّ أن ينزل بهم ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وُكِلَ إليّ أمركم، إنّما أنا منذر.

٦٧ ـ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ لكلّ شيء يُنبأ به. يعني: إنباءَهم بأنّهم يعذّبون، وإيعادَهم به ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وحصول لابدّ منه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

٦٨ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: القرآن. يعني: يخوضون في الاستهزاء بها، والطعن فيها. وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم، وقُمْ عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ غير القرآن ممّا يحلّ، فحينئذ يجوزُ أن تجالسهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ ما نُهيت عنه. ﴿يُنَسِّيَنَّكَ﴾

---

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. (حاشية الكشاف ٢/ ٣٤).

فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ
حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ

شامي. نسّىٰ وأنسىٰ واحد ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكر ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦٩ ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكذيباً، واستهزاء ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وما يلزم المتّقين الذين يجالسونهم شيءٌ مما يحاسَبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يذكّروهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إذا سمعوهم يخوضون؛ بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم. ومحل ذكرى نصب، أي: ولكن يذكّرونهم ﴿ذكرى﴾، أي: تذكيراً. أو: رفع، والتقدير: ولكن عليهم ذكرى. فذكرى: مبتدأ، والخبر: محذوف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلّهم يجتنبون الخوض حياء، أو كراهة لمساءتهم.

٧٠ ـ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلّفوه، ودُعُوا إليه، وهو: دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ سخروا به، واستهزؤوا. ومعنى ذَرْهم: أعرض عنهم، ولا تبالِ بتكذيبهم، واستهزائهم. واللهو: ما يشغل الإنسانَ من هوى، أو طرب ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ وعِظْ بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب، وتَرْتَهِنَ بسوء كسبها. وأصل الإبسال: المنع ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ ينصرها بالقوّة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمسألة. ولا وقْفَ على ﴿كسبت﴾ في الصحيح؛ لأن قوله ﴿ليس لها﴾ صفة لنفس. والمعنى: وذكّر بالقرآن كراهة أن تبسل نفسٌ، عادمة وليّاً، وشفيعاً بكسبها ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ نصب على المصدر. وإن تَفْدِ كلَّ فداء. والعدل: الفديـة؛ لأنّ الفاديَ يعدلُ المفْدَى بمثلـه. وفاعل ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ لا ضمير العدل؛ لأن العدل هنا مصدر، فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقره: ٤٨] فبمعنى المفدّى به، فصحّ إسناده إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّخِذين من دينهم لعباً ولهواً. وهو مبتدأ. والخبر:

ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا

﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء سخين حارّ. خبر ثان لأولئك، والتقدير: أولئك المُبْسِلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حميم. أو مستأنف ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ ـ ﴿قُلْ﴾ لأبي بكر، يقل لابنه عبد الرحمن، وكان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿أَنَدْعُوا۟﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضارّ النافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا إن دعوناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ﴿وَنُرَدُّ﴾ وأُنَرَدُّ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ كالذي ذهبت به الغيلان[١]، ومردة الجنّ. والكاف في محل النصب على الحال من الضمير في ﴿نردّ على أعقابنا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين. وهو استفعال من: هوى في الأرض: إذا ذهب فيها، كأنّ معناه: طلبت هُوِيَّهُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في المَهْمَهِ[٢] ﴿حَيْرَانَ﴾ حال من مفعول استهوته، أي: تائهاً ضالاً عن الجادّة، لا يدري كيف يصنع ﴿لَهُۥٓ﴾ لهذا المستهوي ﴿أَصْحَـٰبٌ﴾ رُفْقَةٌ ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق. سمّىٰ الطريق المستقيم: بالهدى. يقولون له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ وقد اعْتَسَفَ المَهْمَهَ[٣] تابعاً للجنّ لا يجيبهم، ولا يأتيهم. وهذا مبنيٌ على ما يقال: إنّ الجنّ تستهوي الإنسانَ، والغِيلانُ تستولي عليه. فشبّه به الضالَّ عن طريق الإسلام، التابعَ لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونه إليه، فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده، وما وراءه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ محلّه

---

(١) «الغِيلان»: جمع غُول، نوعٌ من الشياطين كانت العرب تزعم أنها تظهر للناس في الفَلاة، فتتَلَوّن لهم في صورٍ شتى وتُضَلِّلُهم وتُهْلِكُهم.

(٢) «المَهْمَه»: المَفَازَةُ البعيدةُ، جمع: مَهامِهُ.

(٣) «اعْتَسَفَ الطريقَ»: سار فيه على غيرِ هُدًى.

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ
أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

النصب بالعطف على محلّ ﴿إنّ هدى الله هو الهدى﴾ على أنهما مقولان: كأنّه قيل: قل هذا القول، وقل: أمرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧٢ ـ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والتقدير: وأمرنا لأن نسلم، ولأن أقيموا، ـلام ولإقامة الصلاة ﴿وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة، أو محقاً كُن فَيَكُونُ﴾ على الخبر دون الجواب ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ، و﴿يوم مقدّماً عليه، كما تقول: يوم الجمعة قولك الصدق، أي: قولك ـوم الجمعة. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنّه خلق السموات ، والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء: كن فيكون ذلك ـقّ والحكمة، أي: لا يكوّن شيئاً من السموات والأرض وسائر ـ حكمة وصواب ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ ظرف لملك﴾ ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ هو القَرْنُ بلغة اليمن، أو: جمع صورة[1] ﴾ هو ﴿عالم الغيب﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السرّ والعلانية ﴿وَهُوَ الإفناء والإحياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء.

ـإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو اسم أبيه، أو لقبه؛ لأنّه خلاف بين ، أبيه تارَح. وهو عطف بيان لأبيه، وزنه فاعَل ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ استفهام توبيخ، أي: أتتخذها آلهة، وهي لا تستحقّ الإلهية ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) الصُّور: قَرْنٌ من نور يُنفخ فيه، النفخة الأولى للفَناء، والثانية للإنشاء. وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم؛ أي يُنفخ في صُوَرِ الموتى على ما نُبَيِّنُهُ. (القرطبي: ٧/ ٢٠).

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

---

٧٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أريناه قُبْحَ الشرك ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: نري بصيرته لطائف خلق السموات والأرض. و﴿نري﴾ حكاية حال ماضية. والملكوت أبلغ من المُلْكِ؛ لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة. قال مجاهد: فُرِجتْ له السموات السبع، فنظر إلى ما فيهنّ، حتى انتهى نظره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى ما فيهنّ ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فعلنا ذلك. أو: ليستدلّ ﴿وليكون من الموقنين﴾ عياناً، كما أيقن بياناً.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي: أظلم، وهو عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾. وقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ أي: الزُّهرة، أو المشتري. وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبّههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرِّفهم: أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أنّ شيئاً منها ليس بإلٰه لقيام دليل الحدوث فيها، ولأنّ لها مُحْدِثاً أحدثها، ومدبّراً دبّر طلوعَها، وأُفُولها، وانتقالها، ومسيرها، وسائر أحوالها. فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: قال لهم: ﴿هذا ربِّي﴾ في زعمكم، أو: المراد أهذا؟ استهزاء بهم، وإنكاراً عليهم. والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت. والصحيح أنّ هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنّه مُبْطِل، فيحكي قوله كما هو غير متعصّب لمذهبه؛ لأنَّه أَدْعَى إلى الحقِّ، وأَنْجَى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجّة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام.

٧٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ

فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا

يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ نبّه قومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً فهو ضالّ. وإنّما احتجّ عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأنّ الاحتجاج به أظهر، لأنّه انتقال مع خفاء، واحتجاب.

٧٨ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما ذكّره لأنّه أراد: الطالع، أو: لأنّه جعل المبتدأ مثل الخبر؛ لأنّهما شيء واحد معنى، وفيه صيانة الربّ عن شبهة التأنيث. ولهذا قالوا في صفات الله تعالى: علاّم، ولم يقولوا: علاّمة، وإن كان الثاني أبلغ، تفادياً من علامة التأنيث ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال النَّصَفَة أيضاً مع خصومه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله تعالى، والأول أظهر لقوله: ﴿يا قوم إنّي بريء مما تشركون﴾.

٧٩ ـ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلّت هذه المُحدَثات على أنه مُنشئُها ﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: مائلاً عن الأديان كلّها إلى الإسلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من خلقه.

٨٠ ـ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ في توحيد الله تعالى، ونَفْي الشركاء عنه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده ﴿أَتُحاجُوني﴾[1] مدنيّ، وابن ذكوان ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلى التوحيد. وبالياء في الوصل: أبو عمرو. لمّا خوّفوه أنّ معبوداتهم تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قطّ؛ لأنّها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني منها بضر، فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً، وفيما شاء ضراً، لا الأصنام

(١) بتخفيف النون.

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعمله ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميّزوا بين القادر والعاجز.

٨١ ـ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ معبوداتكم، وهي مأمونة الخوف ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بإشراكه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة، إذ الإشراك لا يصحُّ أن يكون عليه حجّة. والمعنى: وما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أيّ: فريقي الموحّدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: فأيّنا، احترازاً من تزكية نفسه. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله:

٨٢ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرْك، عن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ تمّ كلام إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

٨٣ ـ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه من قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ إلى ﴿وهم مهتدون﴾ ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ هو خبر بعد خبر ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ في العلم والحكمة. وبالتنوين: كوفيّ[1]. وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ بالرفع. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأهل.

٨٤ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ لإبراهيم. ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي:

---

(١) أي: ﴿درجاتٍ﴾، وبغير التنوين ﴿درجاتِ﴾.

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ

كلّهم، وانتصب كلاًّ بهدينا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ أي: وهدينا نوحاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لنوح، أو: لإبراهيم، والأوّل أظهر، لأنّ يونس ولوطاً لم يكونا من ذرّيّة إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ والتقدير: وهدينا من ذرّيته هؤلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ونجزي المحسنين جزاءً مثل ذلك. فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف.

٨٥ ـ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ أي: كلّهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وذكر عيسى معهم دليلٌ على أن النسبَ يثبت من قبل الأمّ أيضاً؛ لأنّه جعله من ذريّة نوح ـ عليه السلام ـ وهو لا يتّصل به إلا بالأم. وبذا أجيب الحجّاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبيّ ـ عليه السلام ـ.

٨٦ ـ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ «واللَّيْسع» حيث كان بلامين: حمزة، وعليّ ﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوّة، والرسالة.

٨٧ ـ ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿كلاًّ﴾ أي: وفضّلنا بعض آبائهم ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٨٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دان به هؤلاء المذكورون. ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه نقض قول المعتزلة؛ لأنّهم يقولون: إن الله شاء هداية الخلق كلّهم، لكنّهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ مع فضلهم، وتقدّمهم، وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لبطلت أعمالهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٨٩ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد الجنس ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة، أو:

وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ

فهْم الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب، والحكم، والنبوة، أو: بآيات القرآن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكّة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون، ومَن تابعهم، بدليل قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾، أو: أصحاب النبيّ ﷺ، أو: كلّ مَن آمن به، أو العجم. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفّقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يوكّل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهّده، ويحافظ عليه. والباء في: ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا﴾ صلة كافرين. وفي: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

٩٠ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: الأنبياء الذين مرَّ ذِكْرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول. والمراد بهداهم: طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع، فهي مختلفة. والهاء في ﴿اقتده﴾ للوقف، تسقط في الوصل. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف. ويحذفها حمزة، وعليّ في الوصل. ويختلسها شاميّ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على الوحي، أو: على تبليغ الرسالة، والدعاء إلى التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ جُعْلاً. وفيه دليلٌ على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن، ورواية الحديث لا يجوز ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للجنّ والإنس.

٩١ ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم. وذلك من أعظم رحمته ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. روي أنّ جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف، كانوا يجادلون النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ له: «أليس في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين؟» قال: نعم. قال:

قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا
وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ

«فأنت الحبر السمين». فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء[1]. و﴿حقّ قدره﴾ منصوب نصب المصدر ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من ﴿الكتاب﴾ ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيه نعت رسول الله ﷺ. أي: بعّضوه، وجعلوه قراطيس مقطّعة، وورقات مفرّقة؛ ليستمكنوا ممّا راموا من الإبداء والإخفاء. وبالياء في الثلاثة: مكي، وأبو عمرو ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم، ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب، أي: أنزله الله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ﴿ذرهم﴾ أو: من ﴿خوضهم﴾.

٩٢ ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ على نبينا ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع، والفوائد ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ وبالياء: أبو بكر، أي: الكتاب. وهو معطوف على ما دلّ عليه صفة الكتاب. كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدّمه من الكتب، ولإنذار ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكّة. وسميت أمّ القرى لأنّها سُرَّة الأرض، وقبلة أهل القرى، وأعظمها شأناً، ولأنّ الناس يؤمّونها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يصدّقون بالعاقبة، ويخافونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بهذا الكتاب. فأصلُ الدين: خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصّت الصلاة بالذكر؛ لأنّها علم الإيمان، وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

٩٣ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هو مالك بن الصيف ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٧).

﴿إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾

﴿إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هو مسيلمة الكذّاب ﴿وَمَن قَالَ﴾ في موضع جرّ عطف على ﴿من افترى﴾ أي: وممّن قال ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: سأقول وأملي. هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب الوحي. وقد أملى النبيّ ﷺ عليه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى ﴿خلقاً آخر﴾، فجرى على لسانه: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فقال: «اكتبها فكذلك نزلت»، فشكّ وقال: إن كان محمد صادقاً فقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، وإن كان كاذباً فقد قلتُ كما قال، فارتدّ ولحق بمكّة[١]. أو: النضر بن الحارث، كان يقول: والطاحنات طحناً، فالعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، كأنّه يعارض ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة، فتكون اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شدائده، وسكراته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم. وهذه عبارة عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيس، وإمهال ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أرادوا وقت الإماتة، وما يعذّبون به من شدّة النزع. والهون: الهوان الشديد. وإضافة العذاب إليه، كقولك: رجل سوء. يريد العراقة في الهوان، والتمكّن فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من أنّ له شريكاً، وصاحبة، وولداً. و﴿غير الحق﴾ مفعول ﴿تقولون﴾ أو: وصف لمصدرٍ محذوف، أي: قولاً غير الحقّ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

٩٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب، والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين بلا مال، ولا معين. وهو جمع: فريد، كأسير وأسارى ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ في محل النصب

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٨).

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ

صفة لمصدر جئتمونا، أي: مجيئاً مثلما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التي وُلدتم عليها في الانفراد ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ملّكناكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولم تحتملوا منه نقيراً ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا﴾ في استعبادكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿بينُكم﴾ وصلكم عن الزجاج. والبين: الوصل والهجر، قال:

فو الله لولا البينُ لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبينِ آلف

﴿بينَكم﴾ مدنيّ، وعليّ، وحفص، أي: وقع التقطع بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ وضاع، وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم عند الله.

٩٥ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. أي: فلق الحبّ عن السنبلة، والنواة عن النخلة. والفلق: الشقّ. وعن مجاهد: أراد الشقّين اللذين في النواة، والحنطة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحبّ اليابس ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي. أو: الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. أو: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتجّ اللهُ عليهم بما يشاهدونه من خلقه؛ لأنّهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. وإنما قال ﴿ومخرج الميت﴾ بلفظ اسم الفاعل؛ لأنه معطوفٌ على فالق الحب، لا على الفعل. و﴿يخرج الحيّ من الميّت﴾ موقعه موقع الجملة المبيّنة لقوله: ﴿فالق الحبّ والنوى﴾ لأنَّ فَلْقَ الحبِّ والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحيّ من الميّت؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان. دليله قوله: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ ذلكم المحيي والمميت هو الله؛ الذي تحق له الربوبيّة، لا الأصنام ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عنه، وعن تولّيه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا.

٩٦ ـ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو مصدر سُمّي به الصبح، أي: شاقّ عمود الصبح

وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ

عن سواد الليل، أو: خالق نور النهار ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ﴾(١) كوفيّ؛ لأنّ اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضيّ، فلمّا كان فالق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى ﴿سَكَنٗا﴾ مسكوناً فيه، من قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. أي: ليسكن فيه الخلق عن كدّ المعيشة إلى نوم الغفلة، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدلُّ عليه «جاعل الليل» أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي: جعلهما علمي حسبان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحُسْبان ـ بالضم ـ مصدر حسب، كما أن الحِسْبان ـ بالكسر ـ مصدر حسِب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما، وسخّرهما ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما، وتدويرهما.

٩٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ أي: في ظلمات الليل بالبرّ والبحر، وأضافها إليهما لملابستها لهما. أو: شبّه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ قد بينّا الآيات الدالّة على التوحيد لقوم يعلمون.

٩٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ ﴿فمستقِرّ﴾ ـ بالكسر ـ مكيّ، وبصريّ. فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله. ومَن كسرها كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول. يعني: فلكم مستقرّ في الرحم، ومستودع في الصّلب، أو: مستقرّ فوق الأرض، ومستودع تحتها. أو: فمنكم مستقرّ، ومنكم مستودَع ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ

---

(١) في المخطوط ﴿وجاعل الليل﴾: وهي قراءة سبعية، وهي المناسبة لقوله: ﴿فالق الإصباح﴾.

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وإنما قيل: يعلمون ثَمّ، ويفقهون هنا؛ لأنّ الدلالة ثَمّ أظهر، وهنا أدقّ؛ لأنّ إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدقّ، فكان ذكر الفقه الدالّ على تدقيق النظر أوفق.

٩٩ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نبت كلّ صنف من أصناف النامي، أي: السبب، وهو الماء واحد، والمسببات صنوف مختلفة ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات. ﴿خَضِرًا﴾ أي: شيئاً غضّاً أخضر يقال: أخضر وخَضِر، وهو ما تشعّب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل الذي تراكب حبُّه ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ هو رفع بالابتداء و﴿من النخل﴾ خبره. و﴿من طلعها﴾ بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. وهو جمع قِنو، وهو: العِذْق، نظيره: صنو، وصنوان ﴿دَانِيَةٌ﴾ من المجتني لانحنائها بثقل حملها، أو: لقصر ساقها. وفيه اكتفاء، أي: وغير دانية لطولها كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بالنصب عطفاً على «نبات كلّ شيء» أي: وأخرجنا به جنّات ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: مع النخل وكذا: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ ﴿وجنّات﴾ بالرفع: الأعشى، أي: وثَمّ جنّات من أعناب، أي: مع النخل ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يقال: اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه، والرمان كذلك، يعني: بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في القدر، واللون، والطعم ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفاً، لا ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ ونضجه. أي: انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدّره، ومدبّره، وناقله من حال إلى حال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ثُمُره﴾ وكذا ما بعده: حمزة،

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ

وعليّ، جمع ثمار، فهو جمع الجمع. يقال: ثَمَرة، وثَمَر، وثِمَار، وثُمُرٌ.

١٠٠ ـ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ إن جعلت ﴿لله شركاء﴾ مفعولي جعلوا، كان ﴿الجنّ﴾ بدلاً من شركاء. وإلا كان ﴿شركاء الجنّ﴾ مفعولين قدّم ثانيهما على الأوّل. وفائدة التقديم: استعظام أن يتّخذ لله شريك من كان مَلَكاً، أو جنّياً، أو غير ذلك. والمعنى: أنهم أطاعوا الجنّ فيما سوّلت لهم من شركهم، فجعلوهم شركاء لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلق الجنّ، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟! والجملة حال. أو: وخلق الجاعلين لله شركاء، فكيف يعبدون غيره؟! ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ أي: اختلقوا، يقال: خلق الإفك، وخرقه، واختلقه، واخترقه بمعنى؛ أو: هو من خرق الثوب: إذا شقّه، أي: اشتقّوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير ﴿وَبَنَٰتٍۭ﴾ كقول بعض العرب في الملائكة. ﴿وخرّقوا﴾ بالتشديد للتكثير: مدنيّ، لقوله: ﴿بنين وبنات﴾ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن جهالة. وهو حال من فاعل «خرقوا» أي: جاهلين بما قالوا ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

١٠١ ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقال: بَدُع الشيء فهو بديع. وهو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، يعني: بديع سمواته وأرضه. أو: هو بمعنى المبدع، أي: مبدعها. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. أو: هو فاعل ﴿تعالى﴾ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة ولا صاحبة له؟! أي: إنّ الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ما من شيء إلا وهو خالقه وعالمه، ومن كان كذلك كان غنيّاً عن كلّ شيء، والولد إنّما يطلبه المحتاج.

١٠٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات. وهو

ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ مسبّب عن مضمون الجملة، أي: من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه، ولا تعبدوا مَن دونه مِن بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق، والآجال، رقيب على الأعمال

١٠٣ ـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به. أو أبصار مَن سبق ذكرهم. وتشبُّثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتبّ، لأنَّ المنفي هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك: هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده. وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيلُ إدراكه لا رؤيته، فنزَّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم، ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به، فهكذا هذا. على أن مورد الآية، وهو التمدح، يوجبُ ثبوت الرؤية، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدُّح فيه؛ لأنَّ كلَّ ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدُّح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليلُ ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات، فكانت الآية حجة لنا عليهم، ولو أنعموا النظر فيها لاغتنموا التفصّي[1] عن عهدتها. ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي أنّه معلوم موجود، وإلا فكما يعلم موجوداً بلا كيفيّة وجهة بخلاف كلّ موجود، لِمَ لم يجز أن يرى بلا كيفيّة وجهة بخلاف كلّ مرئي؟. وهذا لأنّ الرؤية تحقّق الشيء بالبصر كما هو، فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها، وإن كان لا في الجهة يرى لا فيها ﴿وَهُوَ﴾ للطف إدراكه ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بدقائق الأمور، ومشكلاتها ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بظواهر الأشياء، وخفيّاتها. وهو من قبيل اللّف والنّشر.

---

(١) «التفصّي»: التخلص منها، والبينونة عنها.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

١٠٤ ـ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصيرة: نور القلب الذي به يستبصر القلب، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر. أي: جاءكم من الوحي، والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحقّ، وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر، وإيّاها نفع ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عنه وضلّ ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه عمي، وإيّاها ضرّ بالعمىٰ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها. إنّما أنا منذر، والله هو الحفيظُ عليكم.

١٠٥ ـ الكاف في: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ في موضع نصب صفة المصدر المحذوف، أي: نصرف الآيات تصريفاً مثل ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ جوابه محذوف، أي: وليقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ نصّرفها معنى ﴿درست﴾ قرأت كتب أهل الكتاب. ﴿دارست﴾ مكيّ، وأبو عمرو، أي: دارست أهل الكتاب. ﴿دَرَسَتْ﴾ شاميّ، أي: قدمت هذه الآية، ومضت كما قالوا أساطير الأولين ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي: القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً؛ أو: الآيات لأنها في معنى القرآن. قيل: اللام الثانية حقيقة، والأولى لام العاقبة والصيرورة، أي: لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست، وهو كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرّة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة، فكذلك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات، كما حصل التبيين فشبّه به، وقيل: ﴿ليقولوا﴾ كما قيل ﴿لِنُبيّنَهُ﴾. وعندنا ليس كذلك لما عرف ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقّ من الباطل.

١٠٦ ـ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا تتبع أهواءهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكّد به إيجاب اتّباع الوحي، لا محل له من الإعراب، أو: حال من ربّك مؤكدة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

١٠٧ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إيمانهم، فالمفعول محذوف. ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ بيّن أنّهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله، ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك، فشاء شركهم، فأشركوا بمشيئته ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مراعياً لأعمالهم، مأخوذاً بإجرامهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمسلّط.

١٠٨ ـ وكان المسلمون يسبّون آلهتهم، فنهوا عنه، لئلا يكون سبّهم سبباً لسب الله بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ منصوب على جواب النهي ﴿عَدْوًۢا﴾ ظلماً، وعدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله، وبما يجب أن يذكر به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الكفار ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]. وهو حجة لنا في الأصلح. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم بما عملوا، ويجزيهم عليه.

١٠٩ ـ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جهد: مصدر وقع موقع الحال، أي: جاهدين في الإتيان بأوكد الأيمان ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قادر عليها لا عندي، فكيف آتيكم بها؟! ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَآ﴾ أنّ الآية المقترحة ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها. يعني: أنا أعلم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تعلمون ذلك. وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنّون مجيئها، فقال الله تعالى: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنّكم لا تدرون ما سبق علمي من أنّهم لا يؤمنون. ﴿إنّها﴾ ـ بالكسر ـ مكيّ، وبصريّ، وأبو بكر، على أنّ

وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ
شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ

الكلام تمّ قبله، أي: وما يشعركم ما يكون منهم. ثمّ أخبرهم بعلمه فيهم، فقال: إنّها إذا جاءت لا يؤمنون ألبتة. ومنهم مَن جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح، كقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. ﴿لا تؤمنون﴾ شاميّ، وحمزة.

١١٠ ـ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحقّ ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ عن رؤية الحقّ عند نزول الآية التي اقترحوها، فلا يؤمنون بها. قيل: هو عطف على ﴿لا يؤمنون﴾ داخل في حكم: ﴿وما يشعركم﴾ أي: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنّا نقلّب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون، ولا يبصرون الحقّ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول آياتنا أوّلاً لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل: وما يشعركم أنّا نذرهم في طغيانهم يعمهون يتحيّرون؟!

١١١ ـ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كما قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما قالوا: فأتوا بآبائنا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاء بصحّة ما بشّرنا به، وأنذرنا. جمع: قبيل، وهو: الكفيل. ﴿قبلاً﴾ مدنيّ، وشاميّ، أي: عياناً. وكلاهما نصب على الحال ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم، فيؤمنوا. وهذا جواب لقول المؤمنين: لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنّ هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة.

١١٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداء من المشركين، جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء أعداء، لما فيه من الابتلاء الذي هو سببُ ظهور الثبات، والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ على البدل من: ﴿عدوّاً﴾؛ أو: على أنّه المفعول الأوّل، و﴿عدوّاً﴾ مفعول ثان

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ؛ لأنّي إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عنّي، وشيطان الإنس يجيئني، فيجرّني إلى المعاصي عياناً. وقال ﷺ: «قرناء السوء شرّ من شياطين الجنّ»[1] ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما زيّنوه من القول، والوسوسة، والإغراء على المعاصي ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذاً على غرّة، وهو المفعول له ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: الإيحاء، يعني: ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنّه امتحن بما يعلم أنه أجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله، فإنّ الله يخزيهم، وينصرك، ويجزيهم.

١١٣ ـ ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفّار. وهي معطوفة على ﴿غروراً﴾ أي: ليغتروا ﴿ولتصغى إليه﴾ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

١١٤ ـ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: قل يا محمد: أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحقّ منّا من المبطل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من الكتاب، أي: مبيّناً فيه الفصل بين الحقّ والباطل والشهادة لي بالصدق، وعليكم بالافتراء. ثم عَضَد الدلالة على أنّ القرآن حقّ بعلم أهل الكتاب أنه حقّ؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقته له ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾ شاميّ، وحفص ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه أيها السامع!

---

(١) انظر الحديث بنحوه في تفسير ابن كثير (٢/ ٢١١) عن أبي ذرّ رضي الله عنه.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

أو: فلا تكوننّ من الممترين في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّه منزل بالحقّ، ولا يَرِبْك جحود أكثرهم، وكفرهم به.

١١٥ ـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ما تكلّم به. (كلمات ربّك) حجازيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. أي: تمّ كل ما أخبر به، وأمر، ونهى، ووعد، وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ في وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه. وانتصبا على التمييز، أو: على الحال ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدِّل شيئاً من ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لإقرار من أقرّ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بإصرار من أصرّ. أو: السميع لما يقولون، العليم بما يضمرون.

١١٦ ـ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكفّار لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنّهم أنّ آبائهم كانوا على الحقّ، فهم يقلّدونهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في أنّ الله حرّم عليهم كذا، وأحل لهم كذا.

١١٧ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم الكفّار والمؤمنين. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام. والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ وموضع الجملة نصب بيعلم المقدّر، لا بأعلم؛ لأن أفعل لا يعمل في الاسم الظاهر النصب، ويعمل الجرّ. وقيل: تقديره: أعلم بمن يضلّ؛ بدليل ظهور الباء بعده في ﴿بالمهتدين﴾.

١١٨ ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ هو مسبّب عن إنكار اتباع المضلّين الذين يحلّون الحرام ويحرّمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنّكم تزعمون أنّكم تعبدون الله، فما قتل الله أحقّ أن تأكلوا ممّا قتلتم أنتم. فقيل للمسلمين: إن كنتم متحقّقين بالإيمان، فكلوا ممّا ذكر اسم

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

الله عليه خاصّة، أي: على ذبحه، دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم، أو: مات حتف أنفه.

١١٩ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ ﴿ما﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء، و﴿لكم﴾ الخبر. أي: وأيّ غرض لكم في ألا تأكلوا؟ ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بيّن لكم. ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ممّا لم يحرّم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] فصّل وحُرِّمَ، كوفيّ غير حفص. وبفتحهما: مدنيّ، وحفص. وبضمهما غيرهم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ممّا حرّم عليكم، فإنه حلال لكم في حال الضرورة، أي: شدة المجاعة إلى أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ ليضلون: كوفيّ ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يَضلّون فيحرّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم، من غير تعلّق بشريعة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين من الحقّ إلى الباطل.

١٢٠ ـ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسرّه، أو: الزنى في الحوانيت، والصديقة في السرّ، أو: الشرك الجليّ والخفيّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون في الدنيا.

١٢١ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح. ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنّ أكله ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قتله الله، وتأكلون مما تذبحون بأيديكم! والآية تحرّم متروك التسمية. وخصّت حالة النسيان بالحديث، أو بجعل الناسي ذاكراً تقديراً ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن من اتّبع غير الله في دينه فقد أشرك به، ومن حقّ المتدين ألا يأكل ممّا لم يذكر اسم

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ﴾

الله عليه؛ لما في الآية من التشديد العظيم. ومن أوّل الآية بالميتة، وبما ذكر غيراسم الله عليه، لقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال: إن الواو في ﴿وإنه لفسق﴾ للحال، لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن، فيكون التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه فسقاً، والفسق مجمل، فبين بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه مُهَلاً لغير الله به، فيكون ما سواه حلالاً بالعمومات المحلّة، منها قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فقد عدل عن ظاهر اللفظ.

١٢٢ ـ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: كافراً فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. ﴿ميّتاً﴾ مدني ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ مستضيئاً به. والمراد به: اليقين ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: صفته ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: خابط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لا يفارقها، ولا يتخلّص منها. وهو حال. قيل: المراد بهما: حمزة وأبو جهل. والأصحُّ: أنّ الآية عامّة لكل من هداه الله، ولكلّ مَن أضلّه الله. فبيّن أنَّ مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي، وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل مَن هو في الظلمات التي لا يتخلّص منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زيّن للمؤمن إيمانه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى كقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالهم.

١٢٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا في مكّة صناديدها ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ صيّرنا ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ ليتجبّروا على الناس فيها، ويعملوا بالمعاصي. واللام على ظاهرها عند أهل السنّة، وليست بلام العاقبة. وخصَّ الأكابر ـ وهم الرؤساء ـ لأنّ ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم. دليلهُ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. ثم سلّى رسوله ﷺ، ووعد له النصرة ﴿وَمَا

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ
نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن
يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا

﴿يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأنّ مكرهم يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّه يحيق بهم ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول أول، والثاني: ﴿في كل قرية﴾، و﴿مجرميها﴾ بدل من ﴿أكابر﴾. أو: الأول: ﴿مجرميها﴾ والثاني: ﴿أكابر﴾، والتقدير: مجرميها أكابر.

١٢٤ ـ ولمّا قال أبو جهل: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف، حتّى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يُوحى إليه. والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه نزل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أي: الأكابر ﴿ءَايَةٌ﴾ معجزة، أو: آية من القرآن تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: نعطى من الآيات مثل ما أُعْطِي الأنبياء. فأعلم الله تعالى: أنّه أعلم بمن يصلح للنبوّة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ مكّيّ، وحفص. ﴿رسالاته﴾ غيرهما ﴿حيث﴾ مفعول به، والعامل محذوف، والتقدير: يعلم موضع رسالته ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ من أكابرها ﴿صَغَارٌ﴾ ذلّ، وهوان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الدارين من القتل، والأسر، وعذاب النار ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ في الدنيا.

١٢٥ ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يوسعه، وينوّر قلبه. قال ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح». قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[1] ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: الله ﴿أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيْقاً﴾ مكّيّ ﴿حَرَجًا﴾ ﴿حَرِجاً﴾ صفة لضيقاً: مدنيّ، وأبو بكر. بالغاً في الضيق

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٢٧). وانظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٣٧). تحقيق: يوسف بديوي.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا

﴿حَرَجاً﴾ غيرهما، وصفاً بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنه كلّف أن يصعد إلى السماء إذا دُعي إلى الإسلام، من: ضيق صدره عنه؛ أو ضاقت عليه الأرض، فطلب مصعداً في السماء. أو: كعازب[1] الرأي، طائر القلب في الهواء. ﴿يصْعَد﴾ مكّيّ ﴿يصّاعد﴾ أبو بكر، وأصله: يتصاعد. الباقون ﴿يصّعد﴾، وأصله: يتصعّد ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب في الآخرة، واللعنة في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة المعاصي.

١٢٦ ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه الذي اقتضته الحكمة، وسُنّته في شرح صدر من أراد هدايته، وجعله ضيّقاً لمن أراد ضلاله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ عادلاً، مطرداً. وهو حال مؤكدة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

١٢٧ ـ ﴿۞ لَهُمْ﴾ أي: لقوم يذّكّرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار الله، يعني: الجنة. أضافها إلى نفسه تعظيماً لها. أو: دار السلامة من كلّ آفة وكدر. أو: السلام: التحيّة. سمّيت دار السلام لقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ محبّهم، أو: ناصرهم على أعدائهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بأعمالهم. أو: متولّيهم بجزاء ما كانوا يعملون. أو: هو وليّنا في الدنيا بتوفيق الأعمال، وفي العقبى بتحقيق الآمال.

١٢٨ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وبالياء حفص[2]. أي: واذكر ﴿يوم

(١) «كعازب الرأي»: الذي لا رأي له.
(٢) في الأصل المخطوط: ويوم نحشرهم، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣١٨/٢).

يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ

نحشرهم﴾. أو: ﴿ويوم نحشرهم﴾ قلنا: ﴿يامعشر الجنّ﴾ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أضللتم منهم كثيراً، وجعلتموهم أتباعكم، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم، واستمعوا إلى وسوستهم ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين؛ حيث دلّوهم على الشهوات، وعلى أسباب التوصّل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم، وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ يعنون: يوم البعث. وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتّباع الهوى، والتكذيب بالبعث، وتحسّر على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ منزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال. والعامل معنى الإضافة، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. فمصبحين حال من هؤلاء، والعامل في الحال معنى الإضافة، إذ معناه: الممازجة والمضامّة. والمثوى ليس بعامل؛ لأنّ المكان لا يعمل في شيء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلّدون في عذاب النار الأبد كلّه ﴿إلا ما شاء الله﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه. ﴿عَلِيمٞ﴾ بأعمالهم فيجزي كلاًّ على وفق عمله.

١٢٩ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ نتبع بعضهم بعضاً في النار، أو: نسلّط بعضهم على بعض، أو: نجعل بعضهم أولياء بعض ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

١٣٠ـ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ عن الضحاك: بعث إلى الجنّ رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ لأنهم بهم آنس. وعليه ظاهر النصّ. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصّة. وإنّما قيل: ﴿رسل

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ
وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ
يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ
وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ

منكم﴾ لأنّه لما جمع الثقلين في الخطاب صحّ ذلك، وإن كان من أحدهما. كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]. أو: رسلهم رسل نبينا. كقوله: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ يقرؤون كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بوجوب الحجة علينا، وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بالرسل.

١٣١ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم. وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ تعليل. أي: الأمر ما قصصنا عليك، لانتفاء كون ربّك مهلك القرى بظلم. على أنّ «أن» مصدرية. ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة. والمعنى: لأنّ الشأن والحديث ﴿لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم﴾ بسبب ظلم أقدموا عليه، أو: ظالماً، على أنّه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبّهوا برسول وكتاب، لكان ظالماً، وهو متعالٍ عنه.

١٣٢ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ منازل ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ من جزاء أعمالهم. وبه استدل أبو يوسف ومحمد ـ رحمهما الله ـ على أنّ للجنّ الثواب بالطاعات؛ لأنّه ذكر عقيب ذكر الثقلين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بساه عنه. وبالتاء: شاميّ(١).

١٣٣ ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن عباده، وعن عبادتهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليف؛ ليعرّضهم للمنافع الدائمة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الظلمة

---

(١) أي: تعملون. انظر الإعراب، للنحاس (١/ ٥٨١).

وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم. وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

١٣٤ ـ ﴿إِنَّ مَا﴾ ما: بمعنى: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ خبر إنّ، أي: لكائن. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين. ردّ لقولهم: من ماتَ فقد فاتَ.

١٣٥ ـ المكانة تكون مصدراً. يقال: مكُن مكانة: إذا تمكّن أبلغ التمكّن، وبمعنى: المكان يقال: مكان، ومكانة، ومقام، ومقامة وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكّنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، واعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أُمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي التي أنا عليها. أي: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإنّي ثابتٌ على الإسلام، وعلى مصابرتكم. وهو أمر تهديد ووعيد، ودليلُه قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: فسوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبة المحمودة. وهذا طريقٌ لطيفٌ في الإنذار [﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكافرون][1]. ﴿مكاناتكم﴾ حيث كان: أبو بكر. ﴿يكون﴾ حمزة، وعليّ. وموضع ﴿من﴾ رفع إذا كان بمعنى أيّ، وعلق عنه فعل العلم، أو: نصب إذا كان بمعنى الذي.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ
بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

١٣٦ ـ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي: وللأصنام نصيباً، فاكتفى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ ﴿بزُعمهم﴾ عليّ. وكذا ما بعده. أي: زعموا أنّه لله، والله لم يأمرهم بذلك، ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قِرَى الضيفان، والتصدّق على المساكين ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها، والإجراء على سدنتها. رُوي أنّهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منهما لآلهتهم. فإذا رأوا ما جعلوا لله زاكياً نامياً، رجعوا فجعلوه للأصنام، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها، وقالوا: إنّ الله غنيّ. وإنّما ذاك لحبّهم آلهتهم وإيثارهم لها. وفي قوله: ﴿مما ذرأ﴾ إشارة إلى أنّ الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنّه هو الذي ذرأه. ثمّ ذمّ صنيعهم بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إيثار آلهتهم على الله، وعملهم على ما لم يشرع لهم. وموضع ﴿ما﴾ رفع، أي: ساء الحكم حكمهم. أو: نصب، أي: ساء حكماً حكمهم.

١٣٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زُيّن لهم تجزئة المال؛ زيّن وأد البنات ﴿قَتْلَ﴾ مفعول زيّن ﴿أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ هو فاعل زيّن. ﴿زُيِّن﴾ بالضم، ﴿قتلُ﴾ بالرفع، ﴿أولادَهم﴾ بالنصب، ﴿شركائِهم﴾ بالجر، شاميّ: على إضافة القتل إلى الشركاء، أي: الشياطين، والفصل بينهما بغير الظرف، وهو المفعول. وتقديره: زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ شركائهم أولادَهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم، ويشوبوه. ودينهم: ما كانوا عليه من دين

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ
حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا
فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً

إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فيه دليلٌ على أنّ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يفترونه من الإفك، أو: وافتراءهم؛ لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم، لا عليك، ولا علينا.

١٣٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام. «فعل» بمعنى «المفعول» كالذبح، والطِّحن. ويستوي في الوصف به المذكّر، والمؤنّث، والواحد، والجمع، لأنَّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات. وكانوا إذا عيّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم، قالوا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء. الزعم: قول بالظنّ يشوبه الكذب ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي البحائر، والسوائب، والحوامي[1] ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالة الذبح، وإنّما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعول له، أو: حال. أي: قسموا أنعامهم: قسم حِجْر، وقسم لا يُركب، وقسم لا يذكر اسم الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وعيد.

١٣٩ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ كانوا يقولون في أجنّة البحائر والسوائب: ما ولد منها حيّاً فهو خالص للذكور، لا يأكل منه الإناث، وما ولد ميّتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وأنّث ﴿خالصة﴾ وهو خبر ﴿ما﴾؛ للحمل على المعنى؛ لأنّ ﴿ما﴾ في معنى الأجنّة. وذكّر ﴿ومحرّم﴾ حملاً على اللفظ. أو: التاء للمبالغة كنسّابة ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: ﴿وإن يكن﴾ ما في بطونها ﴿ميتة﴾. ﴿وإن تكن ميتةٌ﴾. أبو بكر،

---

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٠٣) من سورة المائدة.

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ
الَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ
مَعْرُوشَـٰتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ

أي: إن تكن الأجنّة ميتة ﴿وإن تكن ميتةٌ﴾ شاميّ، على كان التامة. ﴿يكن ميتةٌ﴾ مكّيّ؛ لتقدّم الفعل. وتذكير الضمير في: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ لأنّ الميتة اسم لكلّ ميت ذكر أو أنثى. فكأنّه قيل: وإن يكن ميت فهم شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقادهم.

١٤٠ ـ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَـٰدَهُمْ﴾ كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر. ﴿قتّلوا﴾ مكّيّ، وشاميّ. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفّة أحلامهم، وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم، لا هم ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر، والسوائب، وغيرها ﴿افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ﴾ مفعول له. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصواب.

١٤١ ـ ﴿۞ وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ خلق. ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ مسموكات، مرفوعات ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش. يقال: عَرَشْت الكرم: إذا جعلت له دعائم وسَمْكاً، تعطف عليه القضبان ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ في اللون، والطعم، والحجم، والرّائحة. وهو حال مقدّرة؛ لأن النّخل وقت خروجه لا أُكل فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿أُكُلُهُ﴾ ﴿أُكْله﴾ حجازيّ. وهو: ثمره الذي يُؤكل. والضمير للنخل. والزرع داخل في حكمه؛ لأنّه معطوف عليه، أو: لكلّ واحد ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا﴾ في اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ من ثمر كلّ واحد. وفائدة: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أنّ أوّل وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، ولا يتوهّم أنّه لا يباح إلا إذا أدرك ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ﴾ عشره. وهو حجة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في تعميم

يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ

العشر ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ ﴿حَصاده﴾ بصريّ، وشاميّ، وعاصم. وبكسر الحاء: غيرهم، وهما لغتان ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ بإعطاء الكلّ، وتضييع العيال، وقوله ﴿كلوا﴾ إلى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ اعتراض.

١٤٢ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش للذبح. أو: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، والفرش: الصغار كالفُصلان، والعجاجيل، والغنم؛ لأنها دانية من الأرض، مثل الفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما أحلّ الله لكم منها، ولا تحرّموها كما في الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ طرقه في التحريم والتحليل، كفعل أهل الجاهليّة ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فاتهموه على دينكم.

١٤٣ ـ ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشاً﴾ ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين، يريد: الذكر والأنثى. والواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه سُمِّي كلّ واحدٍ منهما زوجاً، وهما زوجان؛ بدليل قوله: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] ويدلّ عليه قوله: ﴿ثمانية أزواج﴾. ثمّ فسّرها بقوله: ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾. والضأن، والمعز جمع: ضائن وماعز، كتاجر وتَجْر. وفتح عين المعَز: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وهما لغتان. والهمزة في: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار. والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن، والذكر من المعز، وبالأنثيين: الأنثى من الضأن، والأنثى من المعز. والمعنى: إنكار أن يحرّم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا ممّا تحمل الإناث. وذلك: أنّهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها طوراً، وأولادها كيفما كانت ذكوراً، أو إناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله. فأنكر

نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً

ذلك عليهم. وانتصب ﴿آلذكرين﴾ بحرّم، وكذا ﴿أم الأنثيين﴾ أي: أم حرّمَ الأنثيين، وكذا ما في ﴿أمّا اشتملتْ﴾ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدلُّ على تحريم ما حرّمتم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الله حرّمه.

١٤٤ ـ ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أم ما تحمل إناثها. ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ أم منقطعة، أي: بل أكنتم شهداء ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ يعني: أم شاهدتم ربّكم حين أمركم بهذا التحريم. ولمّا كانوا لا يؤمنون برسول الله، وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرّمه، تهكّم بهم في قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالرسل ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين في علمه أنّهم يختمون على الكفر. ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضاً غير أجنبي من المعدود. وذلك أن الله تعالى منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم، وبإباحتها لهم. فالاعتراض بالاحتجاج على من حرّمها يكون تأكيداً للتحليل. والاعتراضات في الكلام لا تُساق إلا للتوكيد.

١٤٥ ـ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في ذلك الوقت، أو: في وحي القرآن؛ لأن وحي السّنة قد حرّم غيره، أو: من الأنعام لأنّ الآية في ردِّ البحيرة وأخواتها. وأمّا الموقوذة، والمتردّية، والنطيحة فمن الميتة. وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنّما يثبت بوحي الله وشرعه، لا بهوى النفس ﴿مُحَرَّمًا﴾ حيواناً حرّم أكله ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ على آكلٍ يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ إلاّ أن يكون الشيء المحرّم ميتة. ﴿أن تكون﴾ مكّي، وشاميّ، وحمزة ﴿ميتةٌ﴾ شاميّ ﴿أَوۡ دَمٗا

أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ

﴿مَّسْفُوحًا﴾ مصبوباً سائلاً. فلا يحرم الدم الذي في اللحم، والكبد، والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ نجس ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على المنصوب قبله. وقوله: ﴿فإنه رجس﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ منصوب المحلّ صفة لـ«فسقاً»، أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله. وسُمِّي بالفسق لتوغله في باب الفسق ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المحرّمات ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطرّ مثله، تارك لمواساته ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه.

١٤٦ ـ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي: ماله أصبع من دابّة، أو طائر. ويدخل فيه الإبل، والنعام ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: حرّمنا عليهم لحم كلّ ذي ظفر وشحمه، وكلّ شيء منه، ولم يحرّم من البقر والغنم إلا الشحوم، وهي الثُّروب، وشحوم الكلى ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السَّحْفة[1] ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو: ما اشتمل على الأمعاء، واحدها: حاوياء، أو: حَوِيّة ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو الأليَة، أو: المخ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ والتقدير: جزيناهم ذلك ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به. وكيف نشكر من سبّب معصيتَهم لتحريم الحلال، ومعصيةَ سالفنا لتحليل الحرام حيث قال: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٤٧ ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما أوحيت إليك من هذا ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ بها يمهل المكذّبين، ولا يُعاجلهم بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عذابه مع

(١) «السحفة»: سَحَفَ الجِلْد: كَشَط عنه الشّعر.

عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ

سعة رحمته ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، فلا تغترّ بسعة رحمته عن خوف نقمته.

١٤٨ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إخبار بما سوف يقولونه ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألا نشرك ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ ولكن شاء، فهذا عذرنا، يعنون: أنّ شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحلّ الله لهم بمشيئته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كتكذيبهم إيّاك كان تكذيب المتقدّمين وتشبّثوا بمثل هذا، فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاء، ولأنّهم جعلوا مشيئته حجّة لهم على أنّهم معذورون به. وهذا مردودٌ، لا الإقرار بالمشيئة. أو: معنى المشيئة هنا: الرضا، كما قال الحسن، أي: رضي الله منّا ومن آبائنا الشرك، والشرك مراد، لكنّه غير مرضي. ألَا ترى أنّه قال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أخبر أنّه لو شاء منهم الهدى لآمن كلّهم، ولكن لم يشأ من الكلّ الإيمان، بل شاء من البعض الإيمان ومن البعض الكفر، فيجب حَمْلُ المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعاً للتناقض ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ حتّى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فتظهروه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكْذبون.

١٤٩ ـ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه، ولا حجة لكم على الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: فلو شاء هدايتكم. وبه تبطل صولة المعتزلة.

١٥٠ ـ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ هاتوا شهداءكم وقرّبوهم. ويستوي في هذه الكلمة الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنّث

ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ
ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وتجمع ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: ما زعموه محرّماً ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به، ولا تصدّقهم؛ لأنّه إذا سلّم لهم، فكأنّه شهد معهم مثل شهادتهم، فكان واحداً منهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن من كذّب بآيات الله فهو متّبع للهوى، إذ لو تبع الدليل لم يكن إلا مصدّقاً بالآيات موحّداً لله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ هم المشركون ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوّون الأصنام.

١٥١ ـ ﴿۞ قُلْ﴾ للذين حرّموا الحرث، والأنعام ﴿تَعَالَوْاْ﴾ هو من الخاصّ الذي صار عامّاً. وأصله: أن يقوله مَن كان في مكانٍ عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر حتّى عمّ ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ الذي حرّمه ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من صلة ﴿حرّم﴾ ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أن مفسّرة لفعل التلاوة، ولا: للنهي ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً. ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ذكر في المحرّمات، وكذا حكم ما بعده من الأوامر ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ من أجل فقر، ومن خشيته، كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنَّ رزق العبيد على مولاهم ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما بينك وبين الخلق. بدل من الفواحش ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما بينك وبين الله ﴿ما ظهر﴾ بدل من ﴿الفواحش﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقصاص، والقتل على الردّة والرجم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: المذكور مفصّلاً أمركم ربُّكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا عظمها عند الله.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ

١٥٢ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن، وهي حِفْظُه، وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أشُدَّه: مبلغ حلمه، فادفعوه إليه. وواحده: شَدّ كفلس وأفلس ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالسويّة، والعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها، ولا تعجز عنه، وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان مما فيه حرج. فأمرَ ببلوغ الوسع، وأن ما وراءه معفوّ عنه ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ فاصدقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له، أو عليه في شهادة، أو غيرها من أهل قرابة القائل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يوم الميثاق، أو: في الأمر والنهي [والوعد والوعيد][1] والنذر واليمين ﴿أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرّ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حيث كان: حمزة، وعليّ، وحفص، على حذف إحدى التاءين. غيرهم بالتشديد، أصله؛ تتذكّرون، فأدغم التاء الثانية في الذال. أي: أمركم به لتتعظوا.

١٥٣ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ ولأنّ هذا صراطي، فهو علة للاتّباع بتقدير اللام. ﴿وأَنْ﴾ بالتخفيف: شاميّ، وأصله: وأنّه، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث ﴿وإنّ﴾ على الابتداء: حمزة، وعليّ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهوديّة، والنصرانية، والمجوسيّة، وسائر البدع والضَّلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فتفرّقكم أيادي سبأ عن صراط الله المستقيم، وهو: دين الإسلام. رُوي أنّ رسول الله ﷺ خطّ خطاً مستوياً، ثمّ قال: «هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتّبعوه» ثمّ خطّ على كلّ

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

جانب ستّة خطوط ممالة، ثمّ قال: «هذه سبل، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه فاجتنبوها» وتلا هذه الآية[1] «ثم يصير كل واحد من الاثني عشر طريقاً ستّة طرق، فتكون اثنين وسبعين». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب. وعن كعب: إنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى. ذكر أوّلاً تعقلون، ثمّ تذكّرون، ثمّ تتّقون؛ لأنهم إذا عقلوا تفكّروا، ثمّ تذكّروا، أي: اتّعظوا فاتّقوا المحارم.

١٥٤ ـ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ أي: ثمّ أُخبركم أنّا آتينا. أو: هو عطف على قل، أي: ثمّ قل آتينا. أو: ثمّ مع الجملة تأتي بمعنى الواو، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦] ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ على من كان محسناً صالحاً يريد جنس المحسنين، دليله قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) أو: أراد به موسى عليه السلام، أي: تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كلّ ما أمر به ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصّلاً لكلّ ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون[2].

١٥٥ ـ ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٣٥و٤٦٥) والدارمي (١/ ٦٧ـ٦٨) والحاكم (٢/ ٣١٨) وابن حبان (٧). بألفاظ متقاربة، ولكن ليس بينها التحديد برقم ستة. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢).

(٢) أي: بالبعث والحساب، وبالرؤية.

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

١٥٦ ـ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ كراهة أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: أهل التوراة وأهل الإنجيل. وهذا دليلٌ على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا علم لنا بشيء من ذلك. ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنّه كنا عن دراستهم غافلين على أنّ الهاء ضمير الشأن. والخطاب لأهل مكّة. والمراد: إثبات الحجّة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ كيلا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا، وكنّا غافلين عمّا فيهما.

١٥٧ ـ ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ كراهة أن تقولوا ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدّة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيّام العرب ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع، والبرهان القاطع. فحذف الشرط، وهو من أحاسن الحذوف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحّتها، وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو: النهاية في النكاية ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم.

١٥٨ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة، وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدها ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿يأتيهم﴾ حمزة، وعليّ[1] ﴿أَوْ

---

(١) وخلف، أيضاً.

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربّك، وهو: العذاب، أو القيامة. وهذا لأنّ الإتيان متشابه، وإتيان أمره منصوص عليه، محكم، فيردّ إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنه ليس بإيمان اختياري، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة «نفساً» ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: إخلاصاً. كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إخلاص المنافق أيضاً، أو توبته. وتقديره: لا ينفع إيمان من لم يؤمن، ولا توبة من لم يتب قبل ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم إحداها.

١٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه، وصاروا فرقاً، كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة. وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة، وهي السواد الأعظم» وفي رواية: «وهي ما أنا عليه وأصحابي»[1]. وقيل: فرّقوا دينهم، فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ﴿فارقوا دينهم﴾ حمزة، وعليّ أي: تركوا ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقاً، كلّ تشيّع إماماً لها ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم، وعن تفرّقهم، أو: من عقابهم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم على ذلك.

١٦٠ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديره: عشر حسنات أمثالها، إلا

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) وابن حبان (٦٢٤٧).

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي
وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ

أنه أقيم صفة الجنس المميزة مقام الموصوف ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص الثواب، وزيادة العقاب.

١٦١ ـ ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ «ربِّي»: أبو عمرو، ومدنيّ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا﴾ نصب على البدل من محلّ ﴿إلى صراط مستقيم﴾ لأنّ معناه: هداني صراطاً، بدليل قوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٠] ﴿قِيَمٗا﴾ ﴿قَيِّماً﴾ فيعل، من: قام، كسيّد من ساد، وهو أبلغ من القائم. ﴿قِيَماً﴾ كوفيّ، وشاميّ، وهو مصدر بمعنى القيام وصف به ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان ﴿حَنِيفٗا﴾ حال من إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بالله، يا معشر قريش.

١٦٢ ـ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي. والناسك: العابد. أو: ذبحي، أو: حجِّي. ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أتيته في حياتي، وأموت عليه من الإيمان، والعمل لصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خالصة لوجهه ﴿محياي ومماتي﴾ بسكون الياء الأول وفتح الثاني: مدنيّ. وبعكسه غيره.

١٦٣ ـ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لأنَّ إسلام كلّ نبيّ متقدم على إسلام أمّته.

١٦٤ ـ ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي: منكر أن أطلب ربّاً غيره. وتقديم المفعول للإشعار بأنه أهمّ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وكلّ من دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبية غيره ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا﴾ جواب عن قولهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: لا تؤخذ نفس آثمة

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٥﴾

بذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الأديان التي فرّقتموها.

١٦٥ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ لأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين فأمّته قد خلفت سائر الأمم، أو: لأن بعضهم يخلف بعضاً، أو: هم خلفاء الله في أرضه يملكونها، ويتصرّفون فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشرف، والرزق، وغير ذلك ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أو: التقدير: إلى درجات، أو: هي واقعة موقع المصدر، كأنه قيل: رفعة بعد رفعة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والغني بالفقير، والمالك بالمملوك؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر نعمته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة؛ لأنّ ما هو آتٍ قريب ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] عن النبيّ ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أوّل الأنعام حين يصبح، وكّل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة»[(١)].

* * *

---

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٠٠) وانظر الدر المنثور (٣/٢٤٦) وفتح القدير (٢/١١٩).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال الزجاج: المختار في تفسيره ما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنا الله أعلمُ، وأُفصِّل.

٢ ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفته. والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شكّ فيه. وسُمِّي الشك: حرجاً؛ لأنّ الشاكّ ضيّق الصدر حرجه، كما أنّ المتيقّن منشرح الصدر، منفسحه. أي: لا تشك في أنّه منزل من الله. أو: ﴿حرج منه﴾ بتبليغه؛ لأنّه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى، ولا ينشط له، فأمّنه الله، ونهاه عن المبالاة بهم. والنهيُ متوجه إلى الحرج. وفيه من البلاغة ما فيه. والفاء للعطف، أي: هذا الكتاب أنزلته إليك، فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك. واللام في: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأنزل. أي: أنزل إليك لإنذارك به. أو: بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم. وكذا إذا أيقن أنّه من عند الله شجّعه اليقين على الإنذار به؛ لأنّ صاحب اليقين جسور، متوكّل على ربّه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب بإضمار فعلها، أي: لتنذر به،. وتذكر تذكيراً. فالذكرى: اسم بمعنى التذكير، أو: الرفع بالعطف على كتاب، أي: هو كتاب، وذكرى للمؤمنين. أو: بأنه خبر مبتدأ

ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ

محذوف، أو: الجر بالعطف على محلّ لتنذر، أي: للإنذار وللذكرى.

٣ ـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: القرآن، والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجنّ والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره. و﴿قليلاً﴾ نصب بتذكّرون، أي: تذكّرون تذكّراً قليلاً. و﴿ما﴾ مزيدة لتوكيد القلّة ﴿تتذكّرون﴾ شاميّ.

٤ ـ ﴿وَكَم﴾ مبتدأ ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تبيين. والخبر ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، أي: أردنا إهلاكها، كقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَجَآءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين، يقال: بات بياتاً حسناً ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ حال معطوفة على بياناً، كأنّه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين، أو: قائلين. وإنّما قيل (هم قائلون) بلا واو، ولا يقال: جاءني زيد هو فارس بغير واو؛ لأنّه لمّا عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. وخصّ هذان الوقتان؛ لأنّهما وقتا الغفلة، فيكون نزول العذاب فيهما أشدّ، وأفظع. وقوم لوط ـ عليه السلام ـ أهلكوا باللّيل وقت السحر، وقوم شعيب ـ عليه السلام ـ وقت القيلولة. وقيل: بياتاً: ليلاً، أي: ليلاً وهم نائمون، أو: نهاراً وهم قائلون.

٥ ـ ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ دعاؤهم، وتضرّعهم ﴿إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ لما جاءهم أوائل العذاب: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك. و﴿دعواهم﴾ اسم كان و﴿أن قالوا﴾ الخبر، ويجوز العكس.

٦ ـ ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ «أرسل» مسند إلى ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾، أي:

وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ

فلنسألنَّ المرسل إليهم، وهم الأمم، عمّا أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

٧ ـ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة، والباطنة، وأقوالهم، وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعمّا وجد منهم. ومعنى السؤال: التوبيخ، والتقريع، والتقرير، إذا فاهوا بألسنتهم، وشهد عليهم أنبياؤهم.

٨ ـ ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها وخفيفها. وهو مبتدأ، وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، فحذفت الجملة، وعوّض عنها التنوين ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: العدل. صفته. ثم قيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفّتان؛ إظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة. وقيل: هو عبارة عن القضاء السويّ، والحكم العادل، والله أعلم بكيفيّته. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع ميزان، أو: موزون. أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات. أو: ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٩ ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هم الكفّار، فإنّه لا إيمانَ لهم ليعتبر معه عمل، فلا يكون في ميزانهم خير، فتخفّ موازينهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون. فالآيات: الحجج. والظلم بها: وضعها في غير موضعها، أي: جحودها، وترك الانقياد لها.

١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو: مكنّاكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. والوجه: تصريح الياء؛ لأنها أصلية، بخلاف صحائف، فالياء فيها زائدة. وعن نافع: أنّه همز، تشبيهاً

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

بصحائف ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

١١ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم ـ عليه السلام ـ طيناً غير مصوّر، ثم صوّرناه بعد ذلك. دليله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم ـ عليه السلام ـ.

١٢ ـ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ﴿ما﴾ رفع، أي: أيّ شيء منعك من السجود؟! و﴿لا﴾ زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]. ومثلها ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الأمر للوجوب. والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وهي: جوهر نورانيّ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وهو ظلمانيّ. وقد أخطأ الخبيث. بل الطين أفضلُ لرزانته، ووقاره، ومنه: الحلم، والحياء، والصبر، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار. وفي النار: الطيش، والحدّة، والترفُّع، وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدّةُ الممالك، والنار عدّة المهالك. والنار مظنّة الخيانة والإفناء، والتراب مئنّة الأمانة والإنماء. والطين يُطفىءُ النّارَ ويتلفها، والنار لا تتلفه. وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى زلّ بفاسدِ من المقاييس. وقول نافي القياس: أوّل من قاس إبليس، قياس، على أنَّ القياس عند مثبته مردودٌ عند وجود النص. وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لـ«ما منعك» أن يقول: منعني كذا. وإنما قال: أنا خير منه؛ لأنه قد استأنف قصّة، وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ـ عليه السلام ـ وبعلّة فضله عليه، فعلم منها الجواب ـ كأنه قال: منعني من السجود فضلي عليه ـ وزيادة عليه، وهي إنكار الأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله؛ إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ

١٣ ـ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السماء؛ لأنه كان فيها، وهي مكانُ المطيعين والمتواضعين. والفاء في ﴿فاهبط﴾ جواب لقوله: ﴿أنا خير منه﴾، أي: إن كنت تتكبّر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصحّ لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من أهل الصَّغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه، يذمّك كلّ إنسان، ويلعنك كلّ لسان لتكبّرك. وبه علم أن الصَّغار لازم للاستكبار.

١٤ ـ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم البعث، وهو: وقت النفخة الأخيرة.

١٥ ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى. وإنما أُجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء. وفيه تقريبٌ لقلوب الأحباب، أي: هذا بِرّي بمن يسبُّني، فكيف بمن يحبّني؟! وإنّما جسّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال، علمه بحلم ذي الجلال.

١٦ ـ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أضللتني، أي: فبسبب إغوائك إيّاي. والباء تتعلّق بفعل القسم المحذوف، تقديره: فبسبب إغوائك أقسم. أو: تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعترضنّ لهم على طريق الإسلام مترصّداً للردّ، متعرّضاً للصدّ، كما يتعرّض العدوّ على الطريق ليقطعه على السابلة. وانتصابه على الظرف؛ كقولك: ضرب زيد الظهر، أي: على الظهر. وعن طاووس: أنّه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل قدَريّ، فقال طاووس: تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال: ربّ بما أغويتني، وهو يقول: أنا أغوي نفسي.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشكّكهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغّبهم في الدنيا. ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات، وهو

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا
مِن

جمع: شمال. يعني ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الأغلب. وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد، من بين يديّ، فيقول: لا تخف فإنّ الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢] ومن خلفي، فيخوّفني الضيعة على مخلّفي، فأقرأ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وعن يميني، فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨] وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة. وقال في الأولين: ﴿من﴾ لابتداء الغاية. وفي الأخيرين: ﴿عن﴾ لأنّ عن تدلّ على الانحراف ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مؤمنين. قاله ظناً فأصاب، لقوله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]؛ أو سمِعَه من الملائكة بإخبار الله تعالى إيّاهم.

١٨ ـ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ معيباً، من: ذأمه إذا ذمّه. والذأم والذمّ: العيب ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً، مبعداً من رحمة الله. واللام في: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطّئة للقسم. وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم، فغلّب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ وقلنا: ﴿يا آدم﴾ بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ اتخذاها مسكناً ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٠ ـ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وسوس: إذا تكلّم كلاماً خفياً، يكرّره وهو غير متئدٍ. ورجل موسوِس بكسر الواو. ولا يقال: موسوَس بالفتح، ولكن موسوَس له وموسوِس إليه. وهو: الذي يلقي إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله. ووسوس إليه: ألقاها إليه ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا

﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. وفيه دليلٌ على أنَّ كشفَ العورة من عظائم الأمور، وأنّه لم يزل مُستقبَحاً في الطباع والعقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة، كما في: «أويصل» تصغير واصل، وأصله: وويصل، فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟ قلت: لأن الثانية مدة، كألف وارى، فكما لم يجب همزها في: واعد، لم يجب في: ووري، وهذا لأنَّ الواوين إذا تحرّكتا ظهر فيهما من الثقل ما لايكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة، وهذا مدركٌ بالضرورة فالتزمُوا إبدالَها في موضع الثقل لا في غيره. وقرأ عبد الله (أوري) بالقلب[1] ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر، وتستغنيان عن الغذاء. وقرىء ﴿مِلِكين﴾ لقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون، ويبقون في الجنة ساكنين.

٢١ ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ وأقسم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه لما كان منه القسم، ومنهما التصديق، فكأنها من اثنين.

٢٢ ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرّهما به من القسم بالله، وإنّما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: من خدعنا بالله انخدعنا له[2] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها. وهي: السنبلة، أو: الكرم. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عورتهما لتهافت اللباس عنهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار، أي: كالظفر بياضاً في غاية اللطف

(١) لم تثبت هذه القراءة عند النحاس.
(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٩٥).

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ
وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

واللين، فبقي عند الأظفار تذكيراً للنعم، وتجديداً للندم ﴿وَطَفِقَا﴾ وجعلا. يقال: طفق يفعل كذا، أي: جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز، ورقة فوق ورقة ليستترا بها، كما تخصف النعل ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله، وتنبيه على الخطأ. وروي أنه قال لآدم ـ عليه السلام ـ: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى، ولكن ما ظننتُ أن أحداً يحلفُ بك كاذباً، قال: فبعزّتي! لأهبطنّك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا بكدّ يمين، وعرق جبين، فأُهبط، وعُلِّمَ صنعة الحديد، وأُمر بالحرث فحرَث، وسقى، وحصد، وداس، وذرّى، وطحن[١]، وعجن، وخبز ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٣ ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه دليلٌ لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائر عندهم مغفورة.

٢٤ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ الخطاب لآدم وحوّاء بلفظ الجمع؛ لأنّ إبليس هبط من قبل، ويحتمل: أنّه هبط إلى السماء، ثمّ هبطوا جميعاً إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال، أي: متعادين، يعاديهما إبليس، ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، أو: موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم ـ عليه السلام ـ وحضرته الوفاة، وأحاطت به الملائكة، فجعلت حوّاء تدور حولهم، فقال لها: خلّي ملائكة ربّي، فإنّما أصابني ما أصابني[٢] فيك، فلما توفّي غسّلته الملائكة

---

(١) مستدرك من المطبوع.

(٢) ما أصابه من وسوسة الشيطان أصابها، ولا وجه لوضع اللوم عليها، وهذه فكرة ظالمة ذهب إليها أهل الكتاب، ولا دليل عليها من الكتاب العزيز أو السنة النبوية.

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي
سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا

بماء وسدر وِتراً، وحنّطته، وكفّنته في وِتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سُنَّتكم بعده.

٢٥ ـ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للثواب والعقاب ﴿تَخْرُجُون﴾ حمزة، وعليّ.

٢٦ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأن أصله من الماء، وهو منها ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم. ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزيّنكم ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ولباس الورع الذي يقي العقاب، وهو مبتدأ، وخبره: الجملة وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. أو: ﴿ذلك﴾ صفة للمبتدأ و﴿خير﴾ خبر المبتدأ، كأنه قيل: ﴿ولباس التقوى﴾ المشار إليه خير. أو: ﴿لباس التقوى﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس التقوى، أي: ستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ذلك خير. وقيل: ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن. ﴿ولباسَ التقوى﴾ مدنيّ، وشاميّ، وعليّ، عطفاً على لباساً وريشاً أي: وأنزلنا عليكم لباسَ التقوى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالّة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآيةُ واردةٌ على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوءات، وخصف الورق عليها إظهاراً للمنّة فيما خلق من اللباس، ولما في العري من الفضيحة، وإشعاراً بأن التستّر من التقوى.

٢٧ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا يخدعنّكم، ولا يضلّنّكم بألا تدخلوا الجنّة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما. والنهي في الظاهر للشيطان. وفي المعنى لبني آدم، أي: لا تتبعوا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الشيطان فيفتنكم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن والحديث ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾ تعليل للنهي، وتحذير من فتنته بأنّه بمنزلة العدوّ المداجي[1]، يكيدكم من حيث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ وذريّته، أو وجنوده من الشياطين. وهو عطف على الضمير في: «يراكم» المؤكد بهو، ولم يعطف عليه؛ لأنّ معمول الفعل هو المستكنّ دون هذا البارز، وإنّما يعطف على ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله الكريم، الستار، الرحيم، الغفّار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

٢٨ ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ ما يبالغ في قبحه من الذنوب، وهو: طوافهم بالبيت عراة وشركهم ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها: فاقتدوا بهم، وبأنّ الله أمرهم بأن يفعلوها؛ حيث أقرّنا عليها؛ إذ لو كرهها لنقلنا عنها. وهما باطلان؛ لأنّ أحدهما تقليد للجهّال، والثاني افتراء على ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ إذ المأمور به لا بدّ أن يكون حسناً، وإن كان فيه على مراتب، على ما عرف في أصول الفقه ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنكار، وتوبيخ.

٢٩ ـ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وبما هو حسن عند كلّ عاقل، فكيف يأمر بالفحشاء؟! ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿و﴾ قل ﴿أقيموا وجوهكم﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود، أو: في كل مكان سجود ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ

---

(١) «المداجي»: المداجاة: المداراة. يقال: داجيته؛ إذا داريته، كأنك ساترته العداوة.

ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟
زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم. احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق. والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم عن أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠ ـ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي: أضلّ ﴿فريقاً﴾ ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ﴾ إنّ الفريق الذين حقّ عليهم الضلالة ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. والآية حجةٌ لنا على الاعتزال في الهداية والإضلال.

٣١ ـ ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ لباس زينتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلّما صلّيتم. وقيل: الزينة: المشط، والطيب. والسنة: أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة؛ لأنّ الصلاة مناجاة الربّ، فيستحبّ التزيّن، والتعطّر، كما يجب التسترّ، والتطهّر ﴿وَكُلُوا۟﴾ من اللحم، والدسم ﴿وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ﴾ بالشروع في الحرام، أو: في مجاوزة الشبع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كُلْ ماشئت، واشربْ ماشئت، والبسْ ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ، ومَخْيَلَة. وكان للرشيد طبيب نصرانيّ حاذق، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له عليّ: قد جمع اللهُ الطبّ كلّه في نصف آية من كتابه، وهو قوله: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾، فقال النصرانيّ: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطبّ. فقال: قد جمع رسولنا الطبّ في ألفاظ يسيرة، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعطِ كلَّ بدنٍ ما عوّدته»[1]. فقال النصرانيّ: ماترك كتابكم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢/ ١٠٠). قال في المقاصد (ص٣٨٩):
لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أوغيره. =

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً.

٣٢ ـ ثم استفهم إنكاراً على محرّم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب، وكلّ ما يتجمّل به ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: أصلها، يعني: القطن من الأرض، والقزّ من الدود ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ والمستلذّات من المآكل والمشارب. وقيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة، وما يخرج من لحمها، وشحمها، ولبنها ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأنّ المشركين شركاؤهم فيها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد، ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم، لينبّه على أنّها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، والكفّار تبع لهم. ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع: نافع، فهي مبتدأ، خبره ﴿للذين آمنوا﴾. و﴿في الحياة الدنيا﴾ ظرف للخبر. أو: ﴿خالصة﴾ خبر ثان، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي خالصة. وغيره نصبها على الحال من الضمير، الذي في الظرف، الذي هو الخبر، أي: هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نميّز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه لا شريك له.

٣٣ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ربّي: حمزة. ﴿الفواحش﴾: ماتفاحش قبحه، أي: تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرّها وعلانيتها ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: شرب الخمر، أو: كلّ ذنب ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ والظلم، والكبر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بالبغي. ومحل ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ـ حجة ـ النصب، كأنّه قال: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك ﴿يُنْزِلْ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصريّ. وفيه تهكّم، إذ

= وانظره في كشف الخفاء (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، والطب النبوي للبغدادي (ص٦٩ و٢٦٢) تحقيق: يوسف بديوي.

وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

لا يجوز أن ينزّل. برهاناً على أن يشرك به غيره ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تتقوّلوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم، وغيره.

٣٤ ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا. وهو وعيد لأهل مكّة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله، كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيّد بساعة، لأنّها أقلّ ما يستعمل في الإمهال.

٣٥ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي: إن الشرطية، ضمّت إليها «ما» مؤكّدة لمعنى الشرط، لأنّ «ما» للشرط، ولذا ألزمت فعلها النون الثقيلة، أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يقرؤون عليكم كتبي. وهو في موضع رفع صفة لرسل. وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلاً[1] ﴿فلا خوفَ﴾ يعقوب.

٣٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ منكم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ﴾ تعظّموا عن الإيمان بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧ ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ممّن أشنع ظلماً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ممّن تقوّل على الله مالم يقله، أو: كذّب ماقاله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت، وأعوانه. و«حتّى» غاية لنيلهم نصيبهم، واستيفائهم له، وهي «حتّى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي: ﴿إذا جاءتهم رسلنا﴾

(١) في المطبوع: (فلا خوفَ) يعقوب. وانظر إتحاف الفضلاء (ص ١٣٤).

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، وهو حال من الرسل، أي: متوفّيهم. و«ما» في: ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ في خطّ المصحف موصولة بأين، وحقّها أن تكتب مفصولة، لأنها موصولة. والمعنى: أين الآلهة الذين تعبدون؟! ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ ليذبّوا عنكم ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنّا، فلا نراهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة، التي هي لتحقيق الخبر.

٣٨ ـ ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار: «ادخلوا» ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من كفّار الجنّ والإنس ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلّق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ شكلها في الدين، أي: التي ضلّت بالاقتداء بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أصله: تداركوا، أي: تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالاً، وسكّنت للإدغام، ثم أدخلت همزة الوصل ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ منزلة، وهي الأتباع، والسفلة ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ منزلة، وهي: القادة، والرؤوس. ومعنى: ﴿لأولاهم﴾ لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربّنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغواية، والإغواء، وللأتباع بالكفر، والاقتداء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكلّ فريق منكم من العذاب. ﴿لا يعلمون﴾: أبو بكر، أي: لا يعلم كلّ فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

٣٩ ـ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنّا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ

﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بكسبكم، وكفركم. وهو من قول القادة للسفلة، ولا وقف على ﴿فضل﴾. أو: من قول الله لهم جميعاً، والوقف على ﴿فضل﴾.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنّة، إذ هي في السماء. أو: لا يصعد لهم عمل صالح، ولا تنزل عليهم البركة. أو: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا، كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء. وبالتاء مع التخفيف: أبو عمرو. وبالياء معه: حمزة، وعليّ ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، أي: لا يدخلون الجنّة أبداً؛ لأنّه علّقه بما لا يكون. والخِياط والمِخْيط: ما يخاط به، وهو الإبرة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذي وصفنا ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين؛ بدلالة التكذيب بآيات اللّه، والاستكبار عنها.

٤١ ـ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية. جمع: غاشية. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

٤٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ طاقتها. والتكليف: إلزام ما فيه كلفة، أي: مشقّة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر الذين و﴿لا نكلّف نفساً إلا وسعها﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٤٣ ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حقد كان بينهم في الدنيا، فلم يبق بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وعن عليّ ـ رضي اللّه عنه ـ: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال من ﴿هم﴾ في

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ

﴿صدورهم﴾ والعامل فيها معنى الإضافة ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم، وهو: الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ﴿ما كنّا﴾ بغير واو شاميّ، على أنها جملة موضّحة للأولى ﴿لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ اللام لتوكيد النفي، أي: وما كان يصحّ أن نكون مهتدين لولا هداية الله. وجواب «لولا» محذوف، دلّ عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان لطفاً لنا، وتنبيهاً على الاهتداء، فاهتدينا. يقولون ذلك سروراً بما نالوا، وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ «أن» مخفّفة من الثقيلة، واسمها محذوف، والجملة بعدها خبرها، تقديره: ونودوا بأنّ تلكم الجنّة. والهاء ضمير الشأن. أو بمعنى أي، كأنه قيل لهم: ﴿تلكم الجنّة﴾ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها، وهو حال من الجنّة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سمّاها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات، كالميراث من الميّت ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً ـ عليه السلام ـ وأهل الجنة والنار وإبليس؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقال نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال أهل الجنّة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦].

٤٤ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ «أن» مخفّفة من الثقيلة، أو مفسّرة. وكذلك: ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾. وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف (كم) لدلالة ﴿وعدنا ربّنا﴾ عليه. وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار، واعترافاً بنعم الله تعالى ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ وبكسر العين حيث كان:

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟
أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

عليّ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ نادى منادٍ، وهو ملك يسمع أهل الجنّة والنار ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿أنّ لعنةَ﴾ مكيّ، وشاميّ، وحمزة، وعليّ.

٤٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثان ليبغون، أي: ويطلبون لها الاعوجاج، والتناقض ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

٤٦ ـ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وبين الجنّة والنار، أو: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ وهو السور المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ على أعراف الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنّة والنار، وهي أعاليه، جمع: عُرْف، استعير من عرف الفرس، وعرف الديك ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين، أو: من آخرهم دخولاً في الجنّة لاستواء حسناتهم وسيّئاتهم، أو: من لم يرض عنه أحد أبويه، أو: أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين: بياض الوجوه ونضارتها، وسيما الكافرين: سواد الوجوه، وزرقة العيون ﴿وَنَادَوْا۟﴾ أي: أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنه سلام، أو: أي سلام. وهو تهنئة منهم لأهل الجنّة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أصحاب الأعراف، ولا محلّ له؛ لأنه استئناف، كأنّ سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف فقيل: ﴿لم يدخلوها﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها. أو: له محلّ، وهو صفة لرجال.

٤٧ ـ ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه: أنّ صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا. ﴿تِلْقَآءَ﴾ ظرف. أي: ناحية ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما فيه من العذاب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله، وفزعوا إلى رحمته ألا يجعلهم معهم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

٤٨ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ المال، أو: كثرتكم واجتماعكم و﴿ما﴾ نافية ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحقّ، وعلى الناس. ثم يقولون لهم:

٤٩ ـ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر، تقديره: ﴿أهؤلاء﴾ هم الذين ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ حلفتم في الدنيا. والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب، وسلمان، ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ جواب ﴿أقسمتم﴾ وهو داخل في صلة الذين، تقديره: أقسمتم عليهم بألا ينالهم الله برحمة، أي: لا يدخلهم الجنّة. يحتقرونهم لفقرهم، فقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين، وعرفوهم بسيماهم، وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

٥٠ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ «أنْ»: مفسرة. وفيه دليل على أنّ الجنّة فوق النار ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة. أو: أريد ﴿أو﴾ ألقوا علينا ﴿مّما رزقكم الله﴾ من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتهـــا تبنـــاً ومـــاء بـــارداً ... ...(1)

أي: وسقيتها. وإنّما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحيّر ينطق بما يفيد؛ وبما لا يفيد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هو تحريم منع، كما في﴿ ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذمّاً. وإن جررته وصفاً للكافرين فلا.

(١) صدر بيت، وعجزه: حتى شتت همالة عيناها.

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم
بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ
يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن
شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٖ

---

٥١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ فحرّموا وأحلوا ما شاؤوا. أو: دينهم: عيدهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ اغترّوا بطول البقاء ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي: كنسيانهم، وجحودهم.

٥٢ ـ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ ميّزنا حلاله، وحرامه، ومواعظه، وقصصه ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ عالمين بكيفيّة تفصيل أحكامه ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ حال من منصوب ﴿فصّلناه﴾ كما أنّ ﴿على علم﴾ حال من مرفوعه ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٥٣ ـ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه من تبيّن صدقه، وظهور صحّة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ تركوه، وأعرضوا عنه ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: تبيّن، وصحّ أنهم جاؤوا بالحقّ، فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ جواب الاستفهام ﴿أَوۡ نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام، كأنّه قيل: فهل لنا من شفعاء، أو هل نردّ؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كقولك ابتداء: هل يضرب زيد؟ أو عطف على تقدير : هل يشفع لنا شافع، أو هل نرد؟ ﴿فَنَعۡمَلَ﴾ جواب الاستفهام أيضاً ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أراد السموات

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾

والأرض وما بينهما. وقد فصّلها في «حم السجدة» أي: من الأحد إلى الجمعة؛ لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً، وللإعلام بالتأنّي في الأمور، ولأنّ لكلّ عمل يوماً، ولأنّ إنشاء شيء بعد شيء أدلّ على عالم مدبّر مريد يصرّفه على اختياره، ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى العرش، وإن كان سبحانه وتعالى مستولياً على جميع المخلوقات؛ لأنّ العرش أعظمها، وأعلاها. وتفسير العرش بالسرير، والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبّهة باطل[1]؛ لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان؛ لأنّ التغير من صفات الأكوان. والمنقول عن الصادق، والحسن، وأبي حنيفة، ومالك ـ رحمهم الله ـ: أنّ الاستواء[1] معلوم، والتكييف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والجحود له كفر، والسؤال عنه بدعة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ﴿يغشّي﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر. أي: يلحق الليل بالنهار، والنهار بالليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ حال من الليل، أي: سريعاً. والطالب: هو الليل، كأنّه لسرعة مضيّه يطلب النهار ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ أي: وخلق الشمس، والقمر، والنجوم ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حال، أي: مذللات ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخّراتٌ﴾: شاميّ. والشمس مبتدأ، والبقية معطوفة عليها، والخبر: ﴿مسخّرات﴾ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هو أمر تكوين. ولمّا ذكر أنّه خلقهنّ مسخّرات بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. أي: هو الذي خلق الأشياء، وله الأمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ كثر خيره، أو: دام برّه. من البركة: النماء، أو من البروك: الثبات، ومنه: البركة ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٥٥ ـ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرّع وخفية. والتضرّع: تفعّل، من: الضراعة، وهي: الذلّ، أي: تذلّلاً وتملّقاً. قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إنّه معكم

---

(١) وهذا هو مذهب السلف في عدم التأويل، وهو أسلم.

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا

أينما كنتم»(١) . عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفاً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في كلّ شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللّهم إني أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ: ﴿إنّه لا يحبّ المعتدين﴾ »(٢).

٥٦ ـ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: بالمعصية بعد الطاعة، أو بالشرك بعد التوحيد، أو: بالظلم بعد العدل ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حالان، أي: خائفين من الردّ، طامعين في الإجابة. أو: من النيران وفي الجنان. أو: من الفراق وفي التلاق. أو: من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية. أو: من العدل وفي الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ذكّر قريب على تأويل الرحمة بالرحم، أو: الترحّم، أو: لأنّه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو: على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، [أو: لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقيّ](٣)، أو: للإضافة إلى المذكّر.

٥٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الرِّيْحَ﴾ مكّيّ، وحمزة، وعليّ ﴿بُشْرًۢا﴾ (نَشْراً) حمزة، وعلي، مصدر نشر. وانتصابه إمّا لأنّ أرسل ونشر متقاربان، فكأنّه قيل: نشرها نشراً. وإما على الحال، أي: منشورات. ﴿بُشُراً﴾ عاصم؛ تخفيف بُشُراً، جمع بشير، لأن الرياح تبشّر بالمطر. (نُشُراً) شاميّ، تخفيف نُشُر،

(١) رواه البخاري (٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤).
(٢) رواه أبو داود (١٤٨٠).
(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

كرُسُل ورسْل، وهو قراءة الباقين، جمع نشور، أي: ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أمام نعمته، وهو: الغيث الذي هو من أجلّ النعم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت. واشتقاق الإقلال من القلّة؛ لأنّ الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء؛ جمع سحابة ﴿سُقْنَٰهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ. ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجل بلد ليس فيه مطر، ولسقيه. ﴿مَيْتٍ﴾ مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالسحاب، أو: بالسوق. وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج، وهو: إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤدّيكم التذكير إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين؛ لأنّ كلّ واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه.

٥٨ ـ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الطّيبة الترب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنّه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنّه واقع في مقابلة ﴿نكداً﴾ ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ صفة للبلد. أي: والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ أي: نباته، فحذف للاكتفاء ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثّر فيه شيء من ذلك، وهو الكافر. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به، على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نردّدها، ونكرّرها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله ـ وهم المؤمنون ـ ليتفكّروا فيها، ويعتبروا بها.

٥٩ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ﴿لقد أرسلنا﴾ ﴿نُوحًا

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجّاراً، وهو نوح بن لَمَك [١] بن مَتُوشَلَخ بن أَخْنوخ، وهو اسم إدريس ـ عليه السلام ـ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ «غيرِه»: عليّ. فالرفع على المحلّ، كأنّه قيل: مالكم إله غيره، فلا تعبدوا معه غيره. والجرّ على اللفظ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، أو: يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

٦٠ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف، والسادة ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّن في ذهاب عن طريق الصواب. والرؤية: رؤية القلب.

٦١ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل ضلال، كما قالوا؛ لأنّ الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنّه قال: ليس بي شيء من الضلال. ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ كونه رسولاً من الله مبلّغاً لرسالته في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى.

٦٢ ـ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة، أو: في المعاني المختلفة من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنظائر. ﴿أُبْلِغُكُم﴾ أبو عمرو. وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول ربّ العالمين ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص، يقال: نصحته، ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إمحاض النصيحة. وحقيقة النصح: إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو: النهاية في صدق العناية ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفاته، يعني: قدرته الباهرة، وشدّة بطشه على أعدائه، وأنّ بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين.

---

(١) في تاريخ الطبري (١/ ١٦٥): لامك.

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

---

٦٣ ـ ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذّبتم وعجبتم؟! ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ من ﴿أن جاءكم﴾ ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ على لسان رجل منكم، أي: من جنسكم. وذلك أنّهم كانوا يتعجّبون من نبوّة نوح ـ عليه السلام ـ ويقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ليحذّركم عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ ولتوجد منكم التقوى، وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

٦٤ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة، وقيل: تسعة: بنوه سام، وحام، ويافث، وستّة ممن آمن به ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يتعلّق بـ: معه، كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق. يقال: أعمى في البصر، وعمٍ في البصيرة.

٦٥ ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا ﴿إلى عاد﴾. وهو عطف على ﴿نوحاً﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب: للواحد منهم. وإنّما جعل واحداً منهم؛ لأنّهم عن رجل منهم أفهم، فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لـ﴿أخاهم﴾. وهو: هود بن شَالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإنّما لم يقل: فقال، كما في قصّة نوح ـ عليه السلام ـ لأنّه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾. وكذلك:

٦٦ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾. وإنّما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأنّ في أشراف قوم هود من آمن به، منهم: مرثد بن

إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى
سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

سعد، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح ـ عليه السلام ـ مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ في خفّة حلم، وسخافة عقل. حيث تهجرُ دينَ قومك إلى دين آخر. وجُعلت السفاهة ظرفاً مجازاً، يعني: أنّه متمكّن فيها، غير منفكّ عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادّعائك الرسالة.

٦٧، ٦٨ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم. وإنما قال هنا: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ لقولهم: ﴿وإنّا لنظنّك من الكاذبين﴾ أي: ليقابل الاسم الاسم.

وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به، من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس، وأسفههم، أدب حسن، وخُلُق عظيم. وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضّون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

٦٩ ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض، أو: في مساكنهم. و﴿إذ﴾ مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ طولاً وامتداداً، فكان أقصرهم ستّين ذراعاً، وأطولهم مئة ذراع. ﴿بصطةً﴾ حجازيّ، وعاصم، وعليّ ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواهما من عطاياه. وواحد الآلاء: إلى، نحو: إنى وآناء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ
فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾

---

٧٠ ـ ومعنى المجيء في: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ أن يكون لهود ـ عليه السلام ـ مكان معتزل عن قومه يتحنّث فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلمّا أوحي إليه جاء قومه يدعوهم ﴿لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشؤوا عليه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنّ العذاب نازل بنا.

٧١ ـ ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ﴾ أي: قد نزل ﴿عَلَيۡكُم﴾ جعل المتوقّع ـ الذي لابد من نزوله ـ بمنزلة الواقع، كقولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسمّيات؛ لأنكم تسمّون الأصنام آلهة، وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ حجّة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك

٧٢ ـ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: من آمن به ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابر: الأصل، أو: الكائن خلف الشيء. وقطع دابرهم: استئصالهم، وتدميرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فائدة: نفي الإيمان عنهم، مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعارُ بأن الهلاك خصّ المكذّبين.

وقصّتهم: أنّ عاداً قد تبسّطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء. فبعث الله إليهم هوداً، فكذّبوه، فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين. وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام، فأوفدوا إليه قَيْل بن عنز، ولُقَيْم بن هزَّال،

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾

ومَرْثَد بن سعد ـ وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام ـ وأهل مكة إذ ذاك العماليق، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيّدهم: معاوية بن بكر، فنزلوا عليه بظاهر مكة. فقال لهم مرثد: لن تُسْقَوْا حتى تؤمنوا بهود. فخلّفوا مرثداً، وخرجوا. فقال قَيْل: اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قَيْلُ! اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم، فاستبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها، حتى ماتوا(١).

٧٣ ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وقرىء ﴿وإلى ثمودٍ﴾ بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر. ومنع الصرف بتأويل القبيلة. وقيل: سمّيت: ثمود لقلّة مائها، من: الثمَد، وهو: الماء القليل. وكانت مساكنهم: الحجر، بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة، شاهدة على صحة نبوّتي. فكأنّه قيل: ما هذه البيّنة؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم؛ لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب، ولارحم ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ حال من الناقة. والعامل معنى الإشارة في هذه، كأنه قيل: أشير إليها ﴿آية﴾. ﴿ولكم﴾ بيان لمن هي له آية، وهي ثمود؛ لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربّها من نبات ربّها، فليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾

---

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبري (١/٢١٩ ـ ٢٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق، وانظر الكشاف (٢/٨٨).

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ

ولاتضربوها، ولاتعقروها، ولاتطردوها إكراماً لآية الله ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧٤ ـ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزّلكم. والمباءة: المنزل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض الحِجْر، بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غرفاً للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء. وبيوتاً حال مقدّرة، نحو: خط هذا الثوب قميصاً؛ إذ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ رُوي أنّ عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلّفوها في الأرض، وعمروا أعماراً طوالاً، فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات. وكانوا في سعة من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فأنذرهم، فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عُشَراء، فصلّى، ودعا ربّه، فتمخّضت تمخّض النتوج بولدها، فخرجت منها ناقة كما شاؤوا، فآمن به جندع ورهط من قومه.

٧٥ ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ ﴿وقال﴾: شاميّ ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بإعادة الجار. وفيه دليل عل أنّ البدلَ حيث جاء كان في تقدير إعادة العامل. والضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ﴿قومه﴾. وهو يدلُّ على أنّ استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، أو: إلى الذين استضعفوا، وهو يدلُّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ

رَبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا
بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ
فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ
لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿رَبِّهِۦ﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وإنّما صار هذا جواباً لهم؛ لأنّهم سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مُسلَّماً، كأنّهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنّما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم: أنّا به مؤمنون.

٧٦ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فوضعوا ﴿آمنتم به﴾ موضع ﴿أرسل به﴾ ردّاً لما جعله المؤمنون معلوماً مُسلّماً.

٧٧ ـ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم، وإن كان العاقر: قدار بن سالف؛ لأنّه كان برضاهم. وكان قدار: أحمر، أزرق، قصيراً، كما كان فرعون كذلك. وقال ﷺ: «يا عليّ! أشقى الأوّلين: عاقر ناقة صالح، وأشقى الآخرين: قاتلك»[1] ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ وتولّوا عنه، واستكبروا. وأمر ربّهم: ما أمر به على لسان صالح ـ عليه السلام ـ من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. أو: شأن ربّهم، وهو دينه ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ في بلادهم، أو: مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين قعوداً. يقال: الناس جثّم، أي: قعود لا حراك بهم، ولا يتكلّمون.

٧٩ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ لمّا عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ عند فراقه إيّاهم. ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الآمرين

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٧) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ١٤ و٢٩٩).

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ

بالهدى لاستحلاء الهوى. والنصيحة: منيحة تدرأ الفضيحة، ولكنّها وخيمة، تورث السخيمة. رُوي: أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام، تصفرّ وجوهكم أوّل يوم، وتحمرّ في الثاني، وتسودّ في الثالث، ويصيبكم العذاب في الرابع. وكان كذلك. ورُوي أنّه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فلمّا علم أنّهم هلكوا رجع بمن معه، فسكنوا ديارهم.

٨٠ ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا ﴿لوطاً﴾. و﴿إذ﴾ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أتفعلون السيّئة المتمادية في القبح؟! ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عملها قبلكم. والباء للتعدية. ومنه قوله ﷺ: «سبقك بها عكّاشة»[1] ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «من» للتبعيض. وهذه جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ ثم وبّخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها.

٨١ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أئنكم ﴿لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾. والهمزة مثلها في ﴿أتأتون﴾ للإنكار ﴿إنّكم﴾ على الإخبار مدنيّ وحفص. يقال: أتى المرأة: إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلاّ مجرد الشهوة، ولا ذمّ أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا من النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي تُوجب ارتكاب القبائح، وهو أنّهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كلّ شيء، فمن ثمّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتّى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

٨٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٣و٤٥٤).

إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ
مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ

لوطاً ومن آمن معه، يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عمّا كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة، ووصفهم بصفة الإسراف؛ الذي هو أصل الشر؛ ولكنّهم جاؤوا بشيء لا يتعلّق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومَن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يدعون الطهارة، ويدّعون فعلنا الخبيث. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عابوهم بما يُتمدَّح به.

٨٣ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ ومن يختص به من ذويه، أو: من المؤمنين ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ من الباقين في العذاب. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. ورُوي أنّها التفتت، فأصابها حجر، فماتت.

٨٤ ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً. قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت حجارة على مسافريهم. وقال أبو عبيدة: «أمطر» في العذاب، و«مطر» في الرحمة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين.

٨٥ ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ وهو اسم قبيلة ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: معجزة وإن لم تُذكر في القرآن ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أتموهما. والمراد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. أو: يكون «الميزان» كالميعاد، بمعنى المصدر ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن. وكانوا يبخسون الناس كلّ شيء في مبايعتهم. و«بخس» يتعدّى إلى مفعولين، وهما: الناس، وأشياءهم. تقول:

وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ

بخست زيداً حقّه، أي: نقصته إيّاه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعد ماأصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء. وإضافته كإضافة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: بل مكركم في الليل والنهار ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الإنسانية، وحسن الأحدوثة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين لي في قولي.

٨٦ ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ بكلّ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بالله. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عشّارين[1] ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: تصفونها للناس بأنّها سبيل معوجّة، غير مستقيمة، لتمنعوهم عن سلوكها. ومحلّ ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال، أي: لاتقعدوا موعدين، وصادّين عن سبيل الله وباغين عوجاً ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿إذ﴾ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله، ووفر عددكم. وقيل: إنّ مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء، فكثروا ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ـ عليهم السلام ـ.

٨٧ ـ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾ فانتظروا. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقّين

---

(١) «عشارين»: جمع عشار، وهو آخذ العُشْر وملتزمه.

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ

على المبطلين، ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو: هو حثّ للمؤمنين على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين، إلى أن يحكم الله بينهم، وينتقم لهم منهم، أو: هو خطاب للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على مايسوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتّى يحكم الله ، فيميز الخبيث من الطيب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّ حكمه حقّ وعدل، لا يخاف فيه الجور.

٨٨ ـ ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم، وإمّا عودكم في الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام. والواو للحال. تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين. قالوا نعم:

٨٩ ـ ثم قال شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وهو قسم، على تقدير: حذف اللام، أي: والله لقد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ خلّصنا الله. فإن قلت: كيف قال شعيب ﴿إن عدنا في ملتكم﴾ والكفر على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ محال؟ قلت: أراد عود قومه، إلا أنّه نظمَ نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك، إجراء لكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما ينبغي لنا، وما يصحّ ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلاّ أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها، إذ الكائنات كلّها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرّها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تميز، أي: هو عالم بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل، وقلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يُثبّتنا على الإيمان، ويوفّقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: احكم. والفتاحة: الحكومة. والقضاء بالحق يفتح الأمر المغلق؛ فلذا سُمّي

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ
يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ

فتحاً، ويُسمِّي أهل عُمان القاضي: فتّاحاً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

٩٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتّباعه، لأنّه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية. وجواب القسم الذي وطّأته اللام في ﴿لئن اتّبعتم﴾ وجواب الشرط، ﴿إنّكم إذاً لخاسرون﴾ فهو سادّ مسدّ الجوابين.

٩١ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

٩٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها. غني بالمكان: أقام ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم: ﴿إنّكم إذاً لخاسرون﴾. وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنّه قيل: الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا، كأن لم يقيموا في دارهم، لأنّ الذين اتّبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه، فهم الرابحون. وفي هذا التكرار مبالغة، واستعظام لتكذيبهم، ولما جرى عليهم.

٩٣ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. اشتد حزنه على قومه، ثمّ أنكر على نفسه، فقال: كيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم؟! أو: أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير ممّا حلّ بكم، فلم تصدّقوني، فكيف آسى عليكم؟!

٩٤ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يقال: لكلّ مدينة قرية. وفيه حذف،

إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ
ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن
يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

أي: فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ بالبؤس، والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضرّ، والمرض لاستكبارهم عن اتّباع نبيّهم. أو: هما نقصان النفس، والمال ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرّعوا، ويتذلّلوا، ويحطّوا أردية الكبر.

٩٥ ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة: الرخاء والسعة والصحّة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا، ونموا في أنفسهم وأموالهم. من قولهم: عفا النبات: إذا كثر. ومنه قوله ﷺ: «وأعفوا اللحى»[(١)] ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضرّاء والسرّاء. وقد مسّ آباءنا نحو ذلك، وما هو بعقوبة الذنب، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

٩٦ ـ واللام في: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ إشارة إلى أهل القرى التي دلّ عليها ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيّ﴾ كأنه قال: ولو أنَّ أهلَ تلك القرى الذين كذّبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدل كفرهم ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ ﴿لفتّحنا﴾ شاميّ ﴿بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أراد: المطر والنبات، أو: لآتيناهم بالخير من كلّ وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بكفرهم، وسوء كسبهم. ويجوز أن تكون اللام للجنس.

٩٧ ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ يريد الكفّار منهم ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتٗا﴾ ليلاً، أي: وقت بيات، يقال: بات بياتاً ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٣) والنسائي (١/ ١٦ و٨/ ١٢٩ و١٨٢).

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ
ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ

٩٨ ـ ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ نهاراً. والضحى في الأصل: ضوء الشمس إذا أشرقت. والفاء والواو في ﴿أفأمن﴾ و﴿أو أمن﴾ حرفا عطف، دخل عليهما همزة الإنكار. والمعطوف عليه ﴿فأخذناهم﴾ بغتة. وقوله ﴿ولو أنّ أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنّما عطفت الأولى بالفاء؛ لأنَّ المعنى فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ ﴿أوْ أَمِنَ﴾: شاميّ، وحجازيّ على العطف بأو. والمعنى: إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلاً، أو ضحى. فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف، وهو ينافي الاستفهام؟ قلت: التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة؛ لأنّه على استئناف جملة بعد جملة ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يشتغلون بما لا يجدي عليهم.

٩٩ ـ ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ ﴾ تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أخذه العبد من حيث لا يشعر. وعن الشبليّ ـ قدّس الله روحه ـ العزيز: مكره بهم: تركه إيّاهم على ما هم عليه. وقالت ابنةُ الربيع بن خثيم لأبيها: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه! إنّ أباك يخافُ البيات. أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ إلا الكافرون؛ الذين خسروا أنفسهم، حتّى صاروا إلى النار.

١٠٠ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ يبيّن ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ «أن لو نشاء» مرفوع بأنّه فاعل ﴿يهد﴾. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو: أنّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين. وإنما عدّى فعل الهداية باللام؛

وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا

لأنه بمعنى التبيين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف، أي: ونحن نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

١٠١ ـ ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في أنّه مبتدأ وخبر وحال. أو: تكون ﴿القرى﴾ صفة ﴿تلك﴾ و﴿نقص﴾ خبراً. والمعنى: تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصّها عليك ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل بالبيّنات ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ بما كذّبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل. أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذّبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين مع تتابع الآيات. واللام لتأكيد النفي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لما علم منهم أنّهم يختارون الثبات على الكفر.

١٠٢ ـ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق. يعني: أنّ أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان. والآية اعتراض. أو: للأمم المذكورين، فإنّهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمننّ، ثم أنجاهم، نكثوا ﴿وَإِن﴾ وإنَّ الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة. والوجود بمعنى العلم، بدليل دخول «أن» المخففة واللام الفارقة، ولا يجوز ذلك إلا في المبتدأ، والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل في قوله ﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾ أو: للأمم ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من وادٍ واحد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. أو: فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن. أو: لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، حيث وضعوا الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين.

١٠٤ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ﴾ يقال لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنّه قال: يا ملك مصر. واسمه: قابوس، أو: الوليد بن مصعب بن الريّان ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك. قال فرعون: كذبت. فقال موسى:

١٠٥ ـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: أنا حقيق على قول الحقّ، أي: واجب على قول الحقّ أن أكون قائله، والقائم به. ﴿حقيقٌ عليّ﴾ نافع، أي: واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق، أي: الصدق. وعلى هذه القراءة تقف على ﴿العالمين﴾ وعلى الأول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول. و«على» بمعنى: الباء كقراءة أبّي، أي: إنّي رسول خليق بألا أقول. أو: يعلّق على بمعنى الفعل في الرسول، أي: إنّي رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على ألا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما يبيّن رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم. وذلك أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ لما توفّي غلب فرعون على نسل الأسباط، واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى ـ عليه السلام ـ وكان بين اليوم الذي دخل ـ عليه السلام ـ مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام. ﴿مَعِي﴾: حفص.

١٠٦ ـ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فائتني بها لتصحّ دعواك، ويثبت صدقك فيها.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

١٠٧ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ «إذا» هذه للمفاجأة، وهي من ظروف المكان بمنزلة ثمّة، وهناك ﴿ثُعْبَانٌ﴾ حيّة عظيمة ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره. رُوي أنّه كان ذكراً فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر[1]. ثم توجّه نحو فرعون فهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك. وحمل على الناس، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتلَ بعضُهم بعضاً. فصاح فرعون: يا موسى! خذه، وأنا أومن بك، فأخذه موسى، فعاد عصا.

١٠٨ ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: فإذا هي بيضاءُ للنظّارة، ولا تكون بيضاءَ للنظّارة إلا إذا كان بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة، يجمع الناس للنظر إليه. رُوي: أنّه أرى فرعون يده، وقال: ما هذه؟ فقال: يدك. ثم أدخلها في جيبه ونزعها، فإذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس. وكان موسى ـ عليه السلام ـ آدم، شديد الأدمة.

١٠٩ ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ عالم بالسحر، ماهر فيه، قد خيّل إلى الناس العصا حيّة والآدم أبيض. وهذا الكلام قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ. وهنا عزي إليهم، فيحتمل أنّه قد قاله هو، وقالوه هم، فحكي قوله ثمّة، وقولهم هنا. أو: قاله ابتداء، فتلقّنه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم.

١١٠ ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون، من: آمرته، فأمرني بكذا: إذا شاورته، فأشار عليك برأي. وهو من كلام فرعون قاله للملأ لمّا قالوا له: ﴿إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم﴾.

---

(١) رحم الله النسفي! كيف قبل مثلَ هذه الرواية الإسرائيلية، وما فيها من المبالغات والخيالات المستحيلة!.

قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ

١١١ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء: عاصم، وحمزة، أي: أخّر، واحبس، أي: أخِّرْ أمره، ولا تعجل. أو: كأنّه همّ بقتله، فقالوا: أخّر قتله، واحبسه، ولا تقتله ليتبيَّن سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين.

١١٢ ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿سحّار﴾: حمزة، وعليّ. أي: يأتوك بكلّ ساحر عليم مثله في المهارة، أو بخير منه.

١١٣ ـ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ يريد: فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الخبر، وإثبات الأجر العظيم. حجازيّ، وحفص. ولم يقل: فقالوا، لأنّه على تقدير سؤال سائل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قالوا إنّ لنا لأجراً﴾ لجعلاً على الغلبة. والتنكير للتعظيم، كأنهم قالوا: لا بدّ لنا من أجر عظيم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

١١٤ ـ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إنّ لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، فتكونون أوّل من يدخل، وآخر من يخرج . وكانوا ثمانين ألفاً، وسبعين ألفاً، أو بضعة وثلاثين ألفاً.

١١٥ ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما معنا. وفيه دلالة على أنّ رغبتهم في أن يلقوا قبله، حيث أكّد ضميرهم المتّصل بالمنفصل، وعرّف الخبر.

١١٦ ـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ـ عليه السلام ـ ﴿أَلْقُواْ﴾ تخييرهم إيّاه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتخاوضوا في الجدال. وقد سوّغ لهم موسى ما رغبوا فيه، ازدراء لشأنهم، وقلّة مبالاة بهم، واعتماداً على أنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أروها بالحيل

وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ

والشعوذة، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. رُوي: أنّهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيّات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنّهم استدعوا رهبتهم بالحيلة ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر، أو: في عين من رآه.

١١٧ ـ ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ «تلقّف»: تبتلع. ﴿تَلْقَفُ﴾ حفص ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، يعني: ما يأفكونه، أي: يقلبونه عن الحقّ إلى الباطل، ويزوّرونه. أو: إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك. رُوي أنها لمّا تلقّفت ملء الوادي من الخشب والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرّقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحر لبقيت حبالنا، وعصيّنا.

١١٨ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فحصل، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر.

١١٩ ـ ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: فرعون، وجنوده، والسحرة ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ وصاروا أذلاء، مبهوتين.

١٢٠ ـ ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ وخرّوا سجّداً لله. كأنّما ألقاهم ملقٍ لشدّة خرورهم، أو: لم يتمالكوا ممّا رأوا، فكأنّهم ألقوا، فكانوا أوّل النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

١٢١ و ١٢٢ ـ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو بدل مما قبله.

١٢٣ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ على الخبر، حفص. وهذا توبيخٌ منه لهم. وبهمزتين، كوفيّ غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والاستبعاد ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ

لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ
فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ إنّ صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الصحراء، لغرضٍ لكم، وهو أن تخرجوا من مصر القبط، وتسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله، ثمّ فصّله بقوله:

١٢٤ ـ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ من كلّ شقّ طرفاً ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أوّل من قطع من خلاف، وصلب.

١٢٥ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فلا نبالي بالموت لا نقلابنا إلى لقاء ربّنا، ورحمته. أو: إنّا جميعاً ـ يعنون: أنفسهم وفرعون ـ ننقلب إلى الله، فيحكم بيننا.

١٢٦ ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وما تعيب منّا إلا الإيمان بآيات الله. أرادوا: وما تعيب منّا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر، وهو الإيمان. ومنه قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ[1]

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصبب صبّاً ذريعاً. والمعنى: هب لنا صبراً واسعاً، وأكثره علينا حتّى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إفراغاً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

١٢٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها، وتغيير دين أهلها؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمئة ألف نفر ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ عطف على ﴿ليفسدوا﴾. قيل: صنع فرعون لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرّباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام، ويقولون:

(١) البيت للنابغة الذبياني. «فلول»: انثلامات في حدّ السيف. «القراع»: المضاربة. «الكتائب»: الجماعات.

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ليقرّبونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيباً للملأ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ﴿سنَقْتُل﴾ حجازيّ. أي: سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أنّا على ما كنّا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولئلا يتوهّم العامّة أنّه هو المولود الذي تحدّث المنجّمون بذهاب ملكنا على يده، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتّباعه.

١٢٨ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون ﴿سنقتّل أبناءهم﴾ تسلية لهم، ووعداً بالنصر عليهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ اللام للعهد، أي: أرض مصر. أو: للجنس، فيتناول أرض مصر تناولاً أوّلياً، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه تمنيته إيّاهم أرض مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأنّ الخاتمة المحمودة للمتّقين منهم ومن القبط. وأخليت هذه الجملة عن الواو، لأنها جملة مستأنفة، بخلاف قوله: ﴿وقال الملأ﴾ لأنّها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾.

١٢٩ ـ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء، وإعادته عليهم بعد ذلك. وذلك اشتكاء من فرعون، واستبطاء لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه. وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه، وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب مايوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، وطلب المنصور زيادة لعمرو، فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية. ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك،

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ
إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

١٣٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ سني القحط، وهنّ سبع سنين. والسنة من الأسماء الغالبة كالدابّة، والنجم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: السنون لأهل البوادي، ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ليتعظوا، فينبّهوا على أنّ ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأنّ الناسَ في حال الشدّة أضرع خدوداً، وأرقّ أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة لم ير مكروهاً في ثلاثمئة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدّة وجع، أو جوع، أو حمّى لما ادّعى الربوبيّة.

١٣١ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الصحة، والخصب ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه التي نستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب، ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ أصله: يتطيّروا، فأدغمت التاء في الطاء، لأنّها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ تشاءموا بهم، وقالوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا. وإنما دخل ﴿إذا﴾ في الحسنة، وعرّفت الحسنة، و﴿إن﴾ في السيئة، ونكرت السيّئة؛ لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأمّا السيّئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ سبب خيرهم، وشرّهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه ومشيئته، والله هو الذي يقدّر مايصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

١٣٢ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أصل ﴿مهما﴾ ماما، فـ«ما» الأولى للجزاء، ضمّت إليها «ما» المزيدة المؤكّدة للجزاء، في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]. إلا أن الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري. وهو في موضع النصب بـ«تأتنا»،

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ

أي: أيّما شيء [تحضرنا تأتنا به](١). و﴿من آية﴾ تبيين لمهما، والضمير في ﴿به﴾ و﴿بها﴾ راجع إلى ﴿مهما﴾، إلا أنّ الأوّل ذكّر على اللفظ، والثاني أنّث على المعنى لأنها في معنى الآية. وإنما سموها آية اعتباراً لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

١٣٣ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ما طاف بهم، وغلبهم من مطر، أو سيل. قيل: طفا الماء فوق حروثهم، وذلك أنّهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، أو: هو الجدريّ، أو الطاعون ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم، وثمارهم، وسقوف بيوتهم، وثيابهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهي الدّبى، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، أو البراغيث، أو كبار القِرْدان ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتّى إذا تكلم الرجل تقع في فيه ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: الرعاف. وقيل: مياههم انقلبت دماً، حتّى إنّ القبطي والإسرائيلي إذا اجتمعا على إناء فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً. وقيل: سال عليهم النيل دماً ﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنّها من آيات الله. أو: مفرّقات، بين كلّ آيتين شهر ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

١٣٤ ـ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير، وهو الدم. أو: العذاب المذكور واحداً بعد واحد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما مصدرية، أي: بعهده عندك، وهو النبوّة. والباء تتعلق بادع، أي: ادع الله لنا متوسلاً

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟

إليه بعهده عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٣٥ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذّبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمّا. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضدّ الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجّة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمّم؛ لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلّة فكرهم فيها.

١٣٧ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثّاً على الصبر، ودالاًّ على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا
بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل
لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنّات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيّدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

وهذا آخر قصّة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من فرعون، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر، وغير ذلك ليسليٍّ رسول الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ ـ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عَبَر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمرّوا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعليّ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافّة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اختلفتم بعد نبيّكم قبل أن يجفّ ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تجفّ أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكده.

١٣٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبرّ الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لإنّ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنّهم هم المعترضون للتبار، وأنّه لا يعدوهم البتّة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحلّ.

١٤٠ ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أغير المستحقّ للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ
مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ ـ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أنجاكم﴾: شامي ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من: سام السلعة، إذا طلبها. وهو استئناف لا محلّ له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ﴿يقْتُلون﴾ نافع ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: في الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ ـ ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ رُوي أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوّك. فأوحى الله إليه: أما علمت أنّ خلوفَ فم الصائم أطيبُ عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيدَ عليها عشرة أيّام من ذي الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقّت له من الوقت، وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد. ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة، وفصّلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص، أي: اختصّ مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة، ولا كيفيّة. وروي أنّه كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وذكر الشيخ في «التأويلات»: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾

وكان اختصاصه باعتبار أنّه أسمعه صوتاً تولّىٰ تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلمّا سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّىٰ لي حتى أراك. ﴿أرْني﴾ مكيّ. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليلٌ لأهل السنّة على جواز الرؤية، فإنّ موسى ـ عليه السلام ـ اعتقد أنّ الله تعالى يُرى حتّى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليلٌ لنا أيضاً، لأنّه لم يقل: لن أُرى ليكون نفياً للجواز. ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنّه ليس بمرئيّ، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه علّق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليقُ الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه. والدليلُ على أنّه ممكن قوله: ﴿جعله دكاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجده؛ لأنه مختار في فعله، ولأنّه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعريّ: إنّه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرئياً.

وبهذه الوجوه يتبيّنُ جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأنّ موسى ـ عليه السلام ـ كان عالماً بأنه لا يُرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ليبيّن الله تعالى أنه ليس بمرئي، باطل. إذ لو كان كما زعموا لقال: أرهم ينظروا إليك، ثمّ يقول له: لن يروني، لأنها لو لم تكن جائزة لما أخّر موسى ـ عليه السلام ـ الردّ عليهم ـ بل كان يردّ عليهم وقت قرع كلامهم سمعه ـ لما فيه من التقرير على الكفر. وهو ـ عليه السلام ـ بعث لتغييره لا لتقريره. ألا ترى أنهم لمّا قالوا له ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ لم يمهلهم، بل ردّ عليهم من ساعته بقوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾؟! ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً. مصدر بمعنى المفعول، كضرب الأمير، والدقّ والدكّ: أخوان. ﴿دكّاء﴾: حمزة، وعليّ. أي: مستوية بالأرض لا أكمة فيها. وناقة دكّاء: لا سنام لها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ حال: أي سقط مغشيّاً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها.

وقال الكعبيّ والأصمّ: معنى قوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأنّي أنظر إليك. ﴿لن تراني﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة. ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فإنّي أظهر له آية، فإن ثبت الجبل لتجلّيها، واستقرّ مكانه، فسوف تثبت لها، وتطيقها، وهذا فاسد؛ لأنّه قال: ﴿أرني أنظر إليك﴾ ولم يقل: إليها، وقال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل: لن ترى آيتي. وكيف يكون معناه: لن ترى آيتي، وقد أراه أعظم الآيات، حيث جعل الجبل دكّاً؟!

١٤٤ ـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك على أهل زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ هي أسفار التوراة. ﴿برسالتي﴾: حجازيّ ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ وبتكليمي إيّاك ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أعطيتك من شرف النبوّة، والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك، فهي من أجلّ النعم.

قيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأُعطي التوراة يوم النحر. ولمّا كان هارون وزيراً، وتابعاً لموسى تخصّص الاصطفاء بموسى ـ عليه السلام ـ.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ

١٤٥ ـ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ الألواح: التوراة. جمع لوح. وكانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وكانت من زمرّد. وقيل: من خشب. نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ في محلّ النصب على أنه مفعول ﴿كتبنا﴾ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدل منه. والمعنى: كتبنا له كلّ شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة، وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلّها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزيز، وعيسى ﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا له: ﴿خذها﴾ عطفاً على ﴿كتبنا﴾. والضمير للألواح، أو: لكلّ شيء؛ لأنه في معنى الأشياء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ وعزيمة، فِعْل أولي العزم من الرسل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، كقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه، وهي مصر، ومنازل عاد وثمود، والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم؛ لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم، فينكّل بكم مثل نكالهم. أو: جهنّم.

١٤٦ ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ﴾ عن فهمها. قال ذو النون ـ قدس الله روحه ـ: أبى الله أن يكرم قلوب البطّالين بمكنون حكمة القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق، ويأنفون عن قبول الحق. وحقيقته: التكلّف للكبرياء التي اختصّت بالباري ـ عزّت قدرته ـ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هو حال، أي: يتكبرون غير محقّين؛ لأنّ التكبر بالحقّ لله وحده ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر، وطريق الهدى ﴿الرَّشَد﴾ حمزة، عليّ، هما كالسُّقْم والسَّقَم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومحل ﴿ذَٰلِكَ﴾: الرفع، أي: ذلك

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا

الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

١٤٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة، ومشاهدتهم أحوالها. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ خبر ﴿والذين﴾ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال بتكذيب الإرسال.

١٤٨ ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطّور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وإنّما نسبت إليهم مع أنّها كانت عواري في أيديهم، لأنّ الإضافة تكون لأدنى ملابسة. وفيه دليلٌ على أنَّ مَن حلف ألا يدخل دار فلان، فدخل داراً استعارها يحنث. على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه دليلٌ على أنّ الاستيلاء على أموال الكفّار يوجب زوال ملكهم عنها. نعم المتّخذ هو السامريّ، ولكنّهم رضوا به، فأسند الفعل[1] إليهم. والحليّ: جمع حَلْي، وهو اسم ما يتحسّن به من الذهب والفضة. ﴿حِلِيِّهِمْ﴾: حمزة، وعليّ للإتباع ﴿عِجْلًا﴾ مفعول اتخذ. ﴿جَسَدًا﴾ بدل منه، أي: بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوت البقر. والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهاً. ثم عجب من عقولهم السخيفة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ حين اتخذوه إلهاً ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يقدر على كلام، ولا على هداية سبيل، حتّى لا يختاروه على مَن لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحقّ بما ركز في العقول من الأدلّة، وبما أنزل في الكتب.

---

(١) مستدرك من المطبوع.

ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً، فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

١٤٩ ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ولمّا اشتدّ ندمهم على عبادة العجل. وأصله: أنّ مِن شأن مَن اشتد ندمه أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأنّ فاه وقع فيها. و﴿سقط﴾ مسند إلى ﴿في أيديهم﴾ وهو من باب الكناية. وقال الزّجاج: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن استحال أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويُرى بالعين ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ وتبيّنوا ضلالهم تبيّناً كأنّهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفرْ لنا﴾: حمزة، وعليّ. وانتصاب ربّنا على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

١٥٠ ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضْبَٰنَ﴾ حال من موسى. ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضاً، أي: حزيناً. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ قمتم مقامي، وكنتم خلفائي ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامريّ وأشياعه، أو: لهارون ومن معه من المؤمنين. ويدلّ عليه قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف: ١٤٢]. والمعنى: ﴿بئسما خلفتموني﴾ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو: حيث لم تكفّوا من عبد غير الله. وفاعل ﴿بئس﴾ مضمر يفسره: ﴿ما خلفتموني﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله ﴿خلفتموني﴾: من بعد ما رأيتم منّي من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، أو: من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفّهم عن عبادة البقرة، حين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ومن حقّ الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو:

وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ

إتياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة. وأصل العجلة: طلب الشيء قبل حينه. وقيل: عجلتم بمعنى تركتم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ ضجراً عند استماعه حديث العجل غضباً لله. وكان في نفسه شديد الغضب. وكان هارون ألين منه جانباً؛ ولذلك كان أحبّ إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسّرت، فرفعت ستّة أسباعها، وبقي سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كلّ شيء، وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه غضباً عليه، حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ عتاباً عليه لا هواناً به. وهو حال من موسى ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ بني الابن مع الأمّ على الفتح كخمسة عشر. وبكسر الميم[1]: حمزة، وعليّ، وشاميّ؛ لأنّ أصله أمّي، فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة. وكان ابن أمّه وأبيه. وإنّما ذكر الأمّ؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأنّ ذكرها أدعى إلى العطف. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي: إنّي لم آل جهداً في كفّهم بالوعظ والإنذار، ولكنّهم استضعفوني، وهمّوا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الذين عبدوا العجل، أي: لا تفعل بي ما هو أمنيتّهم من الاستهانة بي، والإساءة إليّ. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قريناً لهم بغضبك عليّ. فلما اتضح له عذر أخيه قال:

١٥١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ ليرضي أخاه، وينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء. والمعنى: اغفر لي ما فرَط منّي في حقّ أخي، ولأخي إن كان فرّط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

١٥٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما

(١) أي: (ابنَ أمِّ).

وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

أمروا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم، فالغربة تذلّ الأعناق، أو: ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامريّ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨].

١٥٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: السيّئات، أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم، محّاء لما كان منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة. وإنّ مع اسمها وخبرها خبر ﴿الذين﴾ وهذا حكم عام يدخل تحته متّخذو العجل وغيرهم، عظّم جنايتهم أوّلاً، ثم أردفها بعظم رحمته؛ ليعلم: أنّ الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم.

١٥٤ ـ ولمّا كان الغضب لشدّته كأنّه هو الآمر لموسى بما فعل قيل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه: سكن، وقرىء به ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ وفيما نسخ منها، أي: كتب. فعلة بمعنى مفعول؛ كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول، وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

١٥٥ ـ ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه، فحذف الجارّ، وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كلّ سبط ستّة، فبلغوا اثنين وسبعين رجلاً، فقال: ليتخلّف منكم رجلان، فقعد كالب، ويوشع. ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ لاعتضارهم[1] عن عبادة العجل. ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة

---

(١) أي: لامتناعهم. وفي المطبوع: لاعتذارهم.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ
عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ
ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

الشديدة. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل. ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ لقتلي القبطيّ. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهّال منّا، وهم أصحاب العجل. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك. وهو راجعٌ إلى قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: هي تلك الفتنة التي أخبرتني بها. أو: هي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الضلالة. ﴿وَتَهْدِى﴾ بها. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

١٥٦ ـ ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ وأثبت لنا، واقسم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عافية، وحياة طيّبة، وتوفيقاً في الطاعة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنّة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك. وهاد إليه، يهود: إذا رجع، وتاب. والهود: جمع هائد، وهو: التائب. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ﴾ من صفته أنّي ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ اي: لا أعفو عنه. ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أيّ: من صفة رحمتي أنّها واسعة تبلغ كلّ شيء، ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه الرحمة. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمّد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

١٥٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به، وهو القرآن ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ صاحب المعجزات ﴿ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد، وإنصاف العباد ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيّبة؛ كالشّحوم وغيرها، أو: ما طاب في الشريعة ممّا ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلا كسبه من السّحت ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما يستخبث؛ كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به، أو: ما خبث في الحكم؛ كالربا، والرشوة، ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هو الثِّقْل الذي يأصره صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك لثقَله. والمراد: التكاليف الصعبة؛ كقتل النفس في توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة. ﴿آصارهم﴾ شاميّ على الجمع ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هي الأحكام الشاقة، نحو: بتّ القضاء بالقصاص عمداً كان، أو خطأً من غير شرع الدية، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت. وشبهت بالغُلّ للزومها لزوم الغل ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظّموه، أو: منعوه من العدوّ حتى لا يقوى عليه عدوّ. وأصل العزر: المنع، ومنه التعزير؛ لأنّه منع عن معاودة القبيح كالحدّ، فهو المنع ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن. و«مع» متعلّق بـ«اتّبعوا»، أي: واتّبعوا القرآن المنزل مع اتّباع النبيّ، والعمل بسنّته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل خير، والناجون من كلّ شر.

١٥٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بُعِثَ كلّ رسول إلى قومه خاصة، وبعث محمّد ﷺ إلى كافّة الإنس وكافّة الجن ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿إليكم﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محلّ النصب بإضمار أعني، وهو نصب على المدح ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من الصلة وهي ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾. وكذلك ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾. وفي ﴿لا إله إلا هو﴾ بيان للجملة قبلها؛ لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي ﴿يحيي ويميت﴾ بيان لاختصاصه بالإلهيّة، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: الكتب المنزلة ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولم يقل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إنّي رسول الله إليكم﴾ لتجري عليه الصفات التي أُجريت عليه، ولما في الالتفات من مزيّة البلاغة، وليعلم: أنّ الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنّه النبيّ الأميّ؛ الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة، وتفادياً من العصبيّة لنفسه.

١٥٩ ـ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس محقّين، أو بسبب الحقّ الذي هم عليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحقّ يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. قيل: هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمّد ﷺ ليلة المعراج، أو: هم عبد الله بن سلام وأضرابه.

١٦٠ ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيّرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميّزنا بعضهم من بعض ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سِبْط. وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. نعم مميّز ما عدا العشرة مفرد، فكان ينبغي أن يقال اثني عشر سبطاً. لكن المراد: وقطّعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكلّ قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباط موضع قبيلة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من اثنتي عشرة، أي: وقطّعناهم أمماً؛ لأنّ كلّ أسباط كانت أمّة عظيمة، وكلّ واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضرب

فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ
سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ فانفجرت ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ﴾ هو اسم جمع غير تكسير ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وقلنا لهم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرّون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

١٦١ ـ ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر ﴿إذ قيل لهم﴾ ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡ﴾ ﴿تُغفَر لكم﴾: مدنيّ، وشاميّ، ﴿خطيئاتكم﴾ مدنيّ ﴿خطاياكم﴾ أبو عمرو ﴿خطيئتكم﴾ شاميّ ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١٦٢ ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ لا تناقض بين قوله: ﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا منها﴾ في هذه السورة، وبين قوله في سورة البقرة ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ﴾ [البقرة: ٥٨] لوجود الدخول والسّكنى. وسواء قدّموا الحطّة على دخول الباب، أو أخّروها، فهم جامعون بينهما. وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته. وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ موعد بشيئين: بالغفران وبالزيادة. وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنّه استئناف مرتّب على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سنزيد المحسنين﴾. وكذلك

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان. و﴿أرسلنا﴾ و﴿أنزلنا﴾ و﴿يظلمون﴾ و﴿يفسقون﴾ من وادٍ واحدٍ.

١٦٣ ـ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أيلة، أو: مدين. وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ إذ يتجاوزون حدّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. ﴿إذ يعدون﴾ في محلّ الجرّ بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها. كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بيعدون، أو: بدل بعد بدل. ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت، أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، جمع شارع. حال من الحيتان. والسبت: مصدر سبتت اليهود: إذا عظّمت سبتها بترك الصيد، والاشتغال بالتعبّد. والمعنى: ﴿إذ يعدون﴾ في تعظيم هذا اليوم، وكذا قوله: ﴿يوم سبتهم﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدلّ عليه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ و﴿يوم﴾ ظرف ﴿لا تأتيهم﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

١٦٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إذ يعدون﴾ وحكمه كحكمه في الإعراب ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، لآخرين لا يقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنّما قالوا ذلك لعلمهم: أنّ الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله[1]؛ لئلا ننسب في

(١) في القاموس: أبلاه عذراً: أدّاه إليه فقبله.

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ
بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً
خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

النهي عن المنكر إلى التفريط. ﴿معذرةً﴾ حفص على أنّه مفعول له، أي: وعظناهم للمعذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولطمعنا في أن يتّقوا.

١٦٥ ـ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ أي: أهل القرية لمّا تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ ما ذكّرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الراكبين للمنكر. والذين قالوا: لم تعظون من الناجين. فعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً: إذا اشتدّ، فهو بئيس. ﴿بِئْس﴾ شاميّ. ﴿بِيس﴾ مدنيّ. ﴿بَيْئَس﴾ على وزن فيعل: أبو بكر غير حماد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

١٦٦ ـ ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي: جعلناهم قردة، أذلاء، مبعدين. وقيل: ﴿فلمّا عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلمّا نسوا﴾ والعذاب البئيس هو: المسخ. قيل: صار الشبّان قردة، والشيوخ خنازير. وكانوا يعرفون أقاربهم، ويبكون، ولا يتكلّمون. والجمهور على أنّها ماتت بعد ثلاث. وقيل: بقيت، وتناسلت.

١٦٧ ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم. وأجري مجرى فعل القسم، ولذا أُجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتب على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾ من يوليهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث محمّد ﷺ، فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر!! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ للكفّار ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين.

١٦٨ ـ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفرّقناهم فيها، فلا تخلو بلد عن فرقة.

أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو: الذين وراء الصين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطّون عنه، وهم: الفسقة. ومحلّ ﴿دون ذلك﴾ الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، أي: ومنهم ناس منحطّون عن الصلاح ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنعم والنقم، والخصب والجدب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتبهون فيثابون.

١٦٩ ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. والخلْف: بدل السوء، بخلاف الخلَف فهو الصالح ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ حال من الضمير في ﴿ورثوا﴾. والعرض: المتاع. أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد: الدنيا، وما يتمتّع به منها. وهو من الدنوّ، بمعنى القريب؛ لأنّه عاجل قريب. والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام وعلى تحريف الكَلِم. وفي قوله: ﴿هذا الأدنى﴾ تخسيس، وتحقير ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. والفعل مسند إلى الأخذ، أو: إلى الجار والمجرور، أي: ﴿لنا﴾ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون، عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق المذكور في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق. وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وقرؤوا ما في الكتاب. وهو عطف على ﴿ألم يؤخذ عليهم﴾ لأنه تقرير. فكأنّه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا، والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أفلا

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ

يعقلون﴾ أنّه كذلك. وبالتاء: مدنيّ، وحفص.

١٧٠ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ﴾ ﴿يُمْسكون﴾ أبو بكر. والإمساك والتمسيك والتمسّك: الاعتصام، والتعلق بشيء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ خصّ الصلاة مع أنّ التمسّك بالكتاب يشتمل على كلّ عبادة؛ لأنّها عماد الدين، و﴿الذين﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي: إنّا لا نضيع أجرهم. وجاز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتّقون. و﴿إنّا لا نضيع﴾ اعتراض.

١٧١ ـ ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكر إذ قلعناه ورفعناه، كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]. ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ هي كلّ ما أظلّك من سقيفة، أو سحاب ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنّه ساقط عليهم. وذلك أنّهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم ـ وكان فرسخاً في فرسخ ـ وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها، وإلا ليقعنّ عليكم. فلمّا نظروا إلى الجبل خرّ كلّ رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنّا بها العقوبة. وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزم على احتمال مشاقه، وتكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي، ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه.

١٧٢ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ أخذ﴾ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بني آدم﴾. والتقدير: وإذ أخذ ربّك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ هذا من باب التمثيل. ومعنى ذلك: أنّه نصب لهم الأدلة على ربوبيّته ووحدانيّته، وشهدت بها عقولهم التي

أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

ركّبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الهدى والضلالة، فكأنّه أشهدهم على أنفسهم، وقرّرهم، وقال لهم: ﴿ألست بربّكم﴾ وكأنّهم قالوا: بلى أنت ربّنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيّتك ﴿أَن تَقُولُوا﴾ مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلّة الشاهدة على صحّتها العقول كراهة ﴿أن يقولوا﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبّه عليه.

١٧٣ ـ ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ ﴿أو﴾ كراهة ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم؛ لأنّ نصب الأدلّة على التوحيد، وما نبّهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلّة التوحيد منصوبة لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك، وتركهم سنّة لنا.

١٧٤ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ لهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفصّلها.

إلى هذا ذهب المحقّقون من أهل التفسير، منهم الشيخ أبو منصور، والزجّاج، والزمخشريّ. وذهب جمهورُ المفسرين إلى أنّ الله تعالى أخرج ذريّة آدم من ظهر آدم مثل الذرّ، وأخذ عليهم الميثاق أنّه ربّهم بقوله: ﴿ألست بربّكم﴾ فأجابوه بـ: بلى. قالوا: وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أخرج الله من ظهر آدم ذرّيته، وأراه إيّاهم كهيئة الذرّ وأعطاهم من العقل، وقال: هؤلاء ولدك، آخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني. قيل: كان ذلك قبل دخول الجنّة بين مكّة والطائف. وقيل: بعد النزول من الجنّة. وقيل: في الجنّة. والحجّة للأوّلين أنّه قال: ﴿من بني آدم من ظهورهم﴾ ولم يقل: من ظهر آدم، ولأنّا لا نتذكّر ذلك، فأنّى يصير حجّة!

﴿ذرّياتهم﴾ مدني وبصريّ وشاميّ. ﴿أن تقولوا﴾ ﴿أو يقولوا﴾ أبو عمرٍو.

١٧٥ ـ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هو عالم من

﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

علماء بني إسرائيل. وقيل: هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله. ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالّين الكافرين. رُوي أنّ قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى، ومن معه، فأبى. فلم يزالوا به حتّى فعل، وكان عنده اسم الله الأعظم.

١٧٦ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إيثار الدنيا ولذّاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أي: تزجره، وتطرده ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود ﴿يَلْهَث﴾ والمعنى: فصفته التي هي مثل في الخسّة والضعة كصفة الكلب في أخسّ أحواله وأذلّها، وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه، أي: شدّ عليه، وهيج، فطرد، أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه. وذلك: أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرّك، أما الكلب فيلهث في الحالين. فكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنّه أخلد إلى الأرض فحططناه، ووضعنا منزلته. فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حطّ. ومحلّ الجملة الشرطيّة: النصب على الحال، كأنّه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلّة لاهثاً في الحالين. وقيل: لمّا دعا بلعم على موسى خرج لسانه، فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب. وقيل: معناه: هو ضالّ: وُعِظ أو تُرِك. وعن عطاء: من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح إن طرد، أو ترك ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشّروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا

١٧٧ ـ ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: مثل القوم، فحذف المضاف. وفاعل ساء مضمر، أي: ساء المثل مثلاً. وانتصاب مثلاً على التمييز ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على كذّبوا، فيدخل في حيّز الصلة، أي: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم. أو: منقطع عن الصلة، أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب. وتقديم المفعول به للاختصاص، أي: وخصّوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّ إلى غيرها.

١٧٨ ـ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يضلله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [حمل على المعنى][1] ولو كان الهدى من الله البيانَ ـ كما قالت المعتزلة ـ لاستوى الكافر والمؤمن، إذ البيان ثابت في حق الفريقين. فدلّ أنه من الله تعالى التوفيق، والعصمة، والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

١٧٩ ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هم الكفّار من الفريقين، المعرضون عن تدبّر آيات الله. والله تعالى علم منهم اختيار الكفر، فشاء منهم الكفر، وخلق فيهم ذلك، وجعل مصيرهم جهنّم لذلك. ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لأنّه إنّما خلق منهم للعبادة من علم أنّه يعبده، وأمّا من علم أنّه يكفر به فإنّما خلقه لما علم أنه يكون منه. فالحاصل: أن من علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة. ومَن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك. وكم من عامّ يُراد به الخصوص! وقول المعتزلة بأنّ هذه لام العاقبة، أي: لمّا كان عاقبتهم جهنّم جعل كأنّهم خلقوا لها، فراراً عن إرادة المعاصي، عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقّ، ولا يتفكّرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

﴿ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الوعظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار، والاستماع للتفكّر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنّهم كابروا العقول، وعاندوا الرسول، وارتكبوا الفضول. فالأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارّها، وهم لا يعلمون مضارّهم حيث اختاروا النار. وكيف يستوي المكلّف المأمور والمُخْلَى المعذور؟! فالآدمي روحانيّ، شهوانيّ، سماويّ، أرضيّ، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

١٨٠ ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء، لأنّها تدلّ على معان حسنة. فمنها: ما يستحقّه بحقائقه؛ كالقديم قبل كلّ شيء، والباقي بعد كلّ شيء، والقادر على كلّ شيء، والعالم بكلّ شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء. ومنها: ما تستحسنه الأنفس لآثارها؛ كالغفور، والرحيم، والشكور، والحليم. ومنها: ما يوجب التخلّق به؛ كالفضل، والعفو. ومنها: ما يوجب مراقبة الأحوال؛ كالسميع، والبصير، والمقتدر. ومنها: ما يوجب الإجلال؛ كالعظيم، والجبّار، والمتكبّر ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فسمّوه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحقّ والصواب فيها، فيسمّونه بغير الأسماء الحسنى. وذلك أن يسمّوه بما لا يجوز عليه، نحو أن يقولوا: يا سخيّ، يا رفيق، لأنّه لم يسمّ نفسه بذلك. ومن الإلحاد تسميته بالجسم، والجوهر، والعقل، والعلّة. ﴿يَلْحَدون﴾ حمزة. لحد وألحد: مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

١٨١ ـ ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للجنّة، لأنه في مقابلة ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم﴾ ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم. قيل: هم العلماء والدعاة إلى الدّين. وفيه دلالةٌ على[1] أن إجماعَ كلّ عصر حجّة.

(١) مستدرك من المطبوع.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ

١٨٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم ﴾ سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ﴿ مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغيّ، فكلّما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً، وجدّدوا معصية، فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانّين: أن مواترة النعم أُثْرة من الله تعالى وتقريب، وإنّما هو خذلان منه وتبعيد. وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة [﴿ مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ما يراد بهم][(١)].

١٨٣ ـ ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡ ﴾ عطف على ﴿سنستدرجهم﴾ وهو غير داخل في حكم السين. أي: أمهلهم ﴿ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أخذي شديد. سمّاه: كيداً، لأنّه شبيه بالكيد من حيث إنّه في الظاهر إحسان، وفي الحقيقة خذلان.

١٨٤ ـ ولمّا نسبوا النبيّ ﷺ إلى الجنون نزل: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ محمّد ﷺ. و﴿ما﴾ نافية بعد وقف. أي: أو لم يتفكّروا في قولهم؟! ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ منذر من الله، موضح إنذاره.

١٨٥ ـ ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ ﴾ نظر استدلال ﴿ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الملكوت: الملك العظيم ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ﴿ وَأَنۡ عَسَىٰٓ ﴾ ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة. وأصله: وأنّه عسى. والضمير ضمير الشأن. وهو في موضع الجرّ بالعطف على ملكوت. والمعنى: أولم ينظروا في أنّ الشأن والحديث عسى ﴿ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ ﴾ ولعلّهم يموتون عمّا قريب فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحقّ،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ
ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا

وما ينجبيهم قبل مفاجأة الأجل، وحلول العقاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وهو متعلّق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم. كأنّه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب؛ فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟! وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا؟!

١٨٦ ـ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾أي: يضلله الله ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وبالياء: عراقيّ. وبالجزم: حمزة وعليّ عطفاً على محلّ ﴿فلا هادي له﴾، كأنّه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد، ﴿ويذرهم﴾ والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذرهم. الباقون: بالنون ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون.

١٨٧ ـ ولما سألت اليهود، أو قريش عن الساعة: متى تكون؟ نزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا. وسمّيت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو: لسرعة حسابها، أو: لأنّها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أَيَّانَ﴾ متى، واشتقاقه من أيّ، فعلان منه، لأن معناه: أي وقت؟ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ إرساؤها، مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال. أو: وقت إرسائها، أي: إثباتها، والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاصّ ـ وهو وقت الموت ـ لذلك ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظْهِر أمرها، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلّ من أهلها من الملائكة والثقلين أهمّه شأن الساعة، ويتمنّى أن يتجلّى له علمها، وشقّ عليه خفاؤها، وثقل عليه. أو: ثقلت فيها، لأنّ أهلها يخافون شدائدها، وأهوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة منكم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ كأنّك عالم بها. وحقيقته: كأنّك بليغٌ في السؤال عنها؛ لأنّ مَن بالغ في المسألة عن الشيء، والتنقير عنه استحكم علمه فيها. وأصل

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

هذا التركيب المبالغة، ومنه: إحفاء الشارب. أو: ﴿عنها﴾ متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنّك حفيّ، أي: عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكرّر يسألونك، وإنما علمها عند الله للتأكيد، ولزيادة كأنّك حفيّ عنها. وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم: محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه المختصّ بالعلم بها.

١٨٨ ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو إظهار للعبوديّة، وبراءة عمّا يختصّ بالربوبيّة من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي، والدفع عني ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير، واجتناب السوء والمضارّ، حتّى لا يمسّني شيء منها، ولم أكن غالباً مرّة، ومغلوباً أخرى في الحروب. وقيل: الغيب: الأجل، والخير: العمل، والسوء: الوجل. وقيل: ﴿لاستكثرت﴾ لأعددت من الخصب للجدب. والسوء: الفقر. وقد ردّ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أن أعلم الغيب. واللام في: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلّق بالنذير والبشير؛ لأنّ النذارة والبشارة إنّما ينفعان فيهم. أو: بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف، أي: ﴿إلا نذير﴾ للكافرين ﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾.

١٨٩ ـ ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حوّاء خلقها من جسد آدم، من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن ويميل، لأنّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبّة نفسه لكونه بضعة منه. وذكّر ﴿ليسكن﴾ بعد ما أنّث في قوله: ﴿واحدة وخلق منها زوجها﴾ ذهاباً إلى معنى

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

النفس؛ ليبيّن أنّ المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خفّ عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعضُ الحبالى من حملهنّ من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده، من غير إخداج[1] ولا إزلاق. أو: ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ يعني: النطفة ﴿فمرت به﴾ فقامت به، وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ حان وقتُ ثِقَل حملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحوّاء ربهما، ومالك أمرهما، الذي هو الحقيق بأن يُدعى، ويُلتجأ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه، أو: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك. والضمير في ﴿آتيتنا﴾ و﴿لنكوننّ﴾ لهما، ولكلّ من يتناسل من ذريّتهما.

١٩٠ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذلك: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما. دليله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزّى، وعبد مناف، وعبد شمس، ونحو ذلك مكان: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم. أو: يكون الخطاب لقريش؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصيّ، أي: هو الذي خلقكم من نفس واحدة: قصيّ. وجعل من جنسها زوجها عربيّة قرشيّة ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سمّيا أولادهما الأربعة بـ: عبد مناف، وعبد العزّى، وعبد قصيّ، وعبد الدار. والضمير في ﴿أيشركون﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ﴿شِرْكاً﴾: مدنيّ، وأبو بكر، أي: ذوي شرك، وهم الشركاء.

(١) من غير إخداج: من غير نقص.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَا

١٩١ ـ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أجريت الأصنام مجرى أولي العلم بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إيّاها إلهاً. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء، وهم يخلقون؛ لأنّ الله خالقهم. أو: الضمير في ﴿وهم يخلقون﴾ للعابدين، أي: أيشركون ما لا يخلق شيئاً، وهم مخلوقو الله، فليعبدوا خالقهم. أو: للعابدين والمعبودين، وجمعهم كأولي العلم، تغليباً للعابدين.

١٩٢ـ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، كالكسر، وغيره. بل عبدتهم الذين يدفعون عنهم.

١٩٣ ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى ما هو هدى ورشاد، أو: إلى أن يهدوكم، أي: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير، والهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿لا يتْبَعوكم﴾: نافع ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم: في أنّه لا فلاح معهم، ولا يجيبونكم. والعدول عن الجملة الفعليّة إلى الاسميّة لرؤوس الآي.

١٩٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم، وتسمّونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع، أو: دفع ضرّ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهم آلهة. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم، فقال:

١٩٥ ـ ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يتناولون

أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ
فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فلم تعبدون ما هو دونكم؟! ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالياء يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فإنّي لا أبالي بكم. وكانوا قد خوّفوه آلهتم، فأمر أن يخاطبهم بذلك. وبالياء: يعقوب.

١٩٦ - ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ﴾ ناصري عليكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أوحي إلي، وأعزّني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ومن سنّته أن ينصر الصالحين من عباده، ولا يخذلهم.

١٩٧ - ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

١٩٨ - ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنّهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرئي.

١٩٩ - ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ هو ضدّ الجهد، أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشقّ؛ حتّى لا ينفروا؛ كقوله ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»(١) ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالمعروف، والجميل من الأفعال، أو: كلّ خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عليهم. وفسّرها جبريل عليه السلام

(١) رواه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤).

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ
يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

بقوله: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمّن ظلمك»[1]. وعن الصادق: أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

٢٠٠ ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وإما ينخسنّك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ولا تطعه. والنزغ: النخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه. أو: أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: إنّ لي شيطاناً يعتريني ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

٢٠١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿طَيْفٌ﴾: مكيّ، وبصريّ وعليّ، أي: لَمّة منه. مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً. وعن أبي عمرو: هما واحد، وهي: الوسوسة. وهذا تأكيدٌ لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ عادة المتّقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمر الله به، ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فأبصروا السداد، ودفعوا وسوسته. وحقيقته: أن يفرّوا منه إلى الله، فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

٢٠٢ ـ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس، فإنّ الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾، أي: يكونون مدداً لهم فيه، ويعضدونهم ﴿يُمِدُّونَهم﴾ من الإمداد: مدنيّ ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثمّ لا يمسكون عن إغوائهم حتّى يصرّوا، ولا يرجعوا. وجاز أن يُراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلّق به إلى الجاهلين. والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتّقوا. وإنّما جمع الضمير في ﴿إخوانهم﴾ والشيطان مفرد؛ لأنّ المراد به الجنس.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٥).

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا
بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ
مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٣ ـ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها. أي: اختلقتها كما اختلقت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصّركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢٠٤ ـ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وجمهور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على أنه في استماع المؤتمّ. وقيل: في استماع الخطبة. وقيل: فيهما، وهو الأصحّ.

٢٠٥ ـ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عامّ في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرّعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلّماً كلاماً دون الجهر؛ لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكّر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين. وقيل: المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر. ومعنى: ﴿بالغدوّ﴾ بأوقات الغدوّ، وهي: الغُدوات. والآصال: جمع أُصُل. والأصل جمع أصيل، وهو: العشيّ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه.

٢٠٦ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة، لا مكاناً ومنزلاً، يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظّمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزّهونه عمّا لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ ويختصّونه بالعبادة لا يشركون به غيره. والله أعلم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

---

١ ـ ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النفل: الغنيمة؛ لأنّها من فضل الله، وعطائه. والأنفال: الغنائم. ولقد وقع اختلافٌ بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله: كيف نقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصّة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول: أنّ حكمها مختصٌّ بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الآمر في قسمتها مفوّضاً إلى رأي أحد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أحوال بينكم. يعني: ما بينكم من الأحوال حتّى تكون أحوالُ ألفة، ومحبّة، واتّفاق. وقال الزّجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم. والبين: الوصل. أي: فاتّقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به. قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله ﷺ، فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم، وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إنّما الكاملو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيّباً من جلاله، وعزّه، وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة؛ لأنّ تظاهر الأدلّة أقوى للمدلول عليه، وأثبت لقدمه. أو: زادتهم إيماناً بتلك الآيات؛ لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون، ولا يفوّضون أمورهم إلى غير ربّهم، لا يخشون، ولا يرجون إلا إيّاه.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل، والإخلاص، والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة، والصدقة.

٤ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقّاً. أو: هو مصدر مؤكّد للجملة التي هي: ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ كقولك: هو عبد الله حقّاً، أي: حقّ ذلك حقّاً. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: أنَّ رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنّة، والنار، والبعث، والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إنّما المؤمنون...﴾ الآية؛ فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟! وعن الثوريّ: من زعم أنّه مؤمن بالله حقّاً، ثمّ لم يشهد أنّه من أهل الجنّة فقد آمن بنصف الآية. أي: كما لا يقطع بأنّه من أهل ثواب المؤمنين حقّاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقّاً. وبهذا يتشبّث من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لا يقول ذلك. وقال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. فقال له: هلاّ اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وعن إبراهيم التيميّ: قل أنا مؤمن حقّاً، فإن صدقت أثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشدّ من كذبك. وعن ابن عباس

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

ـ رضي الله عنهما ـ: من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقّاً. وقد احتجّ عبد الله على أحمد فقال: ايش اسمك؟ فقال: أحمد. فقال: أتقول أنا أحمد حقّاً، أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقّاً. فقال: حيث سمّاك والدك لا تستثني، وقد سمّاك الله في القرآن مؤمناً تستثني؟! ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيّئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ضافٍ عن كدّ الاكتساب، وخوف الحساب.

٥ ـ الكاف في: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في محلّ النصب، على أنّه صفة لمصدر الفعل المقدّر. والتقدير: قل الأنفال استقرّت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل إخراج ربك إيّاك من بيتك، وهم كارهون ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنّها مهاجره ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إخراجاً ملتبساً بالحكمة، والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موضع الحال. أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك: أنّ عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان، فأخبر جبريل النبيّ ﷺ، فأخبر أصحابه، فأعجبهم تلقّي العير لكثرة الخير، وقلّة القوم. فلمّا خرجوا علمت قريش بذلك، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّة، وهو النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقيل له: إنّ العير أخذت طريقَ الساحل، ونجت. فأبى، وسار بمن معه إلى بدر. وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة. ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريشاً. فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال: «العير أحبّ إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ. فتغيّر وجهُ رسول الله ﷺ، ثمّ ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير، ودع العدوّ. فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾

فقال: انظر أمرك فامض، فوالله! لو سرتَ إلى عدن أَبْيَنَ[١] ما تخلّف عنك رجلٌ من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: امضِ لما أمرك الله، فإنّا معك حيث أحببتَ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، ما دامت عين منّا تَطرِف. فضحك رسولُ الله ﷺ. وقال سعد بن معاذ: امضِ يا رسول الله! لما أردت، فو الذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحد. فسِرْ بنا على بركة الله. ففرح رسولُ الله ﷺ، ونشّطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإنّ الله وعدني أحدى الطائفتين. والله! لكأنّي الآن أنظرُ إلى مصارع القوم»[٢]. وكانت الكراهةُ من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يحتملُ أنّهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، ويحتملُ أن يكونوا مخلصين، وأن يكون ذلك كراهة طبع، لأنّهم غير متأهّبين له.

٦ ـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ الحقّ الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ: تلقّي النفير لإيثارهم عليه تلقّي العير ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنّهم ينصرون. وجدالهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاّ قلت لنا لنستعدّ. وذلك لكراهتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ شبّه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يُعْتَل[٣] إلى القتل، ويُساق على الصّغار إلى الموت، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشكّ فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنّهم كانوا رجّالة، وما كان فيهم إلا فارسان.

٧ ـ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ «إذ»: منصوب باذكر، و﴿إِحۡدَى﴾

(١) «أبين»: اسم رجل نُسِب إليه عدن، فقيل: عدن أبين.
(٢) القصة في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١ـ ٣٣).
(٣) «يُعتل»: يُجذب جذباً عنيفاً.

أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم

مفعول ثان ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إحدى الطائفتين﴾ وهما: العير، والنفير. والتقدير: وإذ يعدكم الله أنّ إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: العير. وذات الشوكة: ذات السلاح. والشوكة كانت في النفير لعددهم وعُدّتهم، أي: تتمنّون أن تكون لكم العير، لأنّها الطائفة التي لا سلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: يثبّته، ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قليب بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم. والدابر: الآخر، فاعل، من: دبر؛ إذا أدبر. وقطع الدابر: عبارة عن الاستئصال. يعني: أنّكم تريدون الفائدة العاجلة، وسَفْساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، ونصرة الحق، وعلوّ الكلمة، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوّتهم بضعفكم، وأعزّكم، وأذلّهم.

٨ ـ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلّق بيقطع. أو: بمحذوف تقديره: ليحقّ الحقّ ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ فعل ذلك. والمقدّر متأخّر ليفيد الاختصاص، أي: ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. وليس هذا بتكرار؛ لأنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين، وهذا بيانٌ لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

٩ ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: متعلق بقوله: ﴿ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل﴾ واستغاثتهم أنّهم لمّا علموا أنّه لا بدّ من القتال طفقوا يدعون الله، يقولون: أي ربّنا! انصرنا على عدوّك! يا غياث المستغيثين أغثنا! وهي طلب الغوث، وهو: التخليص من المكروه ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب. وأصل ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾: بأنّي ممدّكم، فحذف الجار، وسلّط عليه «استجاب»

بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً
مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن

فنصب محلّه ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿مُرْدَفِينَ﴾ مدنيّ. غيره بكسر الدال. فالكسر على أنّهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنّه أردف كلّ ملك ملكاً آخر. يقال: ردفه: إذا تبعه، وأردفته إيّاه: إذا أتبعته.

١٠ ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: الإمداد الذي دلّ عليه ﴿ممدّكم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: أنّكم استغثتم، وتضرّعتم لقلّتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإنّ الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو: ﴿وما النصر﴾ من الملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إلا من عند الله﴾ والمنصور مَن نصره الله.

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر. فقيل: نزل جبريل ـ عليه السلام ـ في خمسمئة ملك على الميمنة، وفيها: أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وميكائيل في خمسمئة على الميسرة وفيها: عليّ ـ رضي الله عنه ـ في صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض، قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم، فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود: مِن أين كان يأتينا الضربُ ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة، قال: فهم غلبونا لا أنتم. وقيل: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثّرون السواد، ويثبّتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

١١ ـ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثان من: ﴿إذ يعدكم﴾. أو: منصوب بالنصر، أو: بإضمار اذكر. ﴿يُغْشِيكُم﴾ مدنيّ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ النوم، والفاعل هو الله على القراءتين ﴿يغْشاكم النُّعاسُ﴾ مكيّ، وأبو عمرو ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له. أي: إذ تنعّسون أمنة، بمعنى: أمناً، أي: لأمنكم. أو: مصدر، أي: فأمنتم أمنة. فالنوم يزيحُ الرعب، ويريح النفس ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لها، أي: أمنة حاصلة لكم من الله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّيّ، وبصريّ. وبالتشديد غيرهم ﴿عَلَيْكُم مِّن

ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ بالماء من الحدث، والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش، أو: الجنابة من الاحتلام؛ لأنّه من الشيطان. وقد وسوس إليهم: أن لا نصرةَ مع الجنابة ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي: بالماء. إذ الأقدام كانت تسوخُ في الرمل. أو: بالربط؛ لأنّ القلب إذا تمكّن فيه الصبر يثبّت القدم في مواطن القتال.

١٢ ـ ﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل ثالث من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: منصوب بـ«يثبّت» ﴿رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشرى. كان المَلَكُ يسيرُ أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإنّ الله ناصركم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف. و﴿الرعُب﴾ شاميّ، وعليّ ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أمر للمؤمنين، أو للملائكة. وفيه دليلٌ على أنهم قاتلوا ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالي الأعناق؛ التي هي المذابح تطييراً للرؤوس، أو: أراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، يعني: ضرب الهام ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ هي الأصابع، يريدُ: الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشَّوَى[1]؛ لأنّ الضربَ إمّا أن يقع على مقتل، أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

١٣ و ١٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب، والقتل، والعقاب العاجل. وهو مبتدأ، خبره: ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. أي: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقّتهم، أي: مخالفتهم. وهي مشتقّة من الشقّ؛ لأنّ كلا المتعاديين في شقّ خلاف شقّ صاحبه. وكذا المعاداة والمخاصمة؛ لأنّ هذا في

---

(١) «الشوى»: أطراف الجسم.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا
تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ
فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ

عدْوَة وخُصْم، أي: جانب، وذاك في عدوة وخصم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والكاف في ﴿ذلك﴾ لخطاب الرسول، أو لكلّ أحد. وفي ﴿ذلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات. ومحلّه: الرفع على ﴿ذلكم﴾ العقاب، أو: العقاب. ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ والواو في: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بمعنى مع. أي: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة. فوضع الظاهر موضع الضمير.

١٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ حال من ﴿الذين كفروا﴾. والزحف: الجيش الذي يُرى لكثرته كأنّه يزحف، أي: يدبّ دبيباً، من زحف الصبي: إذا دبّ على استه قليلاً قليلاً. سُمِّي بالمصدر ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين. أي: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير، وأنتم قليل، فلا تفرّوا، فضلاً أن تدانوهم في العدد، أو تساووهم، أو: حال من المؤمنين، أو: من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

١٦ ـ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلاً ﴿لِّقِتَالٍ﴾ هو الكرّ بعد الفرّ، يخيّل عدوّه أنّه منهزم، ثمّ يعطف عليه، وهو من خدع الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضماً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وهما حالان من ضمير الفاعل في ﴿يولّهم﴾ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ووزن متحيّز متفيعل لا متفعّل؛ لأنّه من حاز يحوز، فبناء متفعّل منه متحوّز.

١٧ ـ ولمّا كسروا أهل مكّة، وقتلوا، وأسروا، وكان القاتل منهم يقول تفاخراً: قتلت وأسرت، قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكنّ

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

الله قتلهم﴾. ولمّا قال جبريل للنبيّ ﷺ: خذ قبضة من ترابٍ فارمهم بها، فرمى بها في وجوههم، قال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا، قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾[1] يا محمّد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعني: أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنّك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنّها كانت رمية الله حيث أثّرت ذلك الأثر العظيم. وفي الآية بيانُ أنَّ فعلَ العبد مضافٌ إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً، لا كما تقول الجبريّة والمعتزلة؛ لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إذ رميت﴾ ثمّ نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله: ﴿ولكنّ الله رمى﴾، ﴿ولكنِ اللهُ قتلهم﴾ ﴿ولكنِ اللهُ رَمى﴾ بتخفيف ﴿لكن﴾ شاميّ، وحمزة، وعليّ ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيهم ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ عطاء جميلاً. والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعل إلا لذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

١٨ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن. ومحلّه الرفع، أي: المراد ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ذلكم﴾. أي: المراد إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ﴾ شاميّ، وكوفيّ غير حفص ﴿مُوهِنُ كيدِ﴾ حفص. ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ﴾ غيرهم.

١٩ ـ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم. وهو خطابٌ لأهل مكّة لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللّهم إن كان محمّد على حقّ فانصره، وإن كنّا على الحقّ فانصرنا. وقيل: ﴿إن تستفتحوا﴾ خطاب للمؤمنين، و﴿إن تنتهوا﴾ للكافرين ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٩ / ٢٠٥).

وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ
ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾

وأسلم ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لمحاربته ﴿نَعُدۡ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ﴾ جمعكم ﴿شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ عدداً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. أي: ولأنّ الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك. وبالكسر غيرهم. ويؤيده قراءة عبد الله «والله مع المؤمنين».

٢٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ عن رسول الله ﷺ؛ لأنّ المعنى: أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ولأنَّ طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. أو: يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولّوا عن هذا الأمر وأمثاله. وأصله: ولا تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعونه. أو ﴿ولا تتولّوا﴾ عن رسول الله ﷺ، ولا تخالفوه ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي: تصدّقون؛ لأنكم مؤمنون، لستم كالصمّ المكذّبين من الكفرة.

٢١ ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أي: ادّعوا السماع، وهم المنافقون، وأهل الكتاب ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدّقين، فكأنّهم غير سامعين. والمعنى: أنّكم تصدّقون بالقرآن، والنبوّة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور، من قسمة الغنائم وغيرها، أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال:

٢٢ ـ ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: إنّ شرّ من يدبّ على وجه الأرض البهائم وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحقّ لا يعقلونه. جعلهم من جنس البهائم، ثمّ جعلهم شرّها؛ لأنّهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل.

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

٢٣ ـ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصمّ البكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقاً، ورغبة ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتّى يسمعوا سماع المصدّقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟﴾ عنه. أي: ولو أسمعهم، وصدّقوا، لا رتدوا بعد ذلك، ولم يستقيموا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

٢٤ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحّد الضمير أيضاً، كما وحّده فيما قبله؛ لأنّ استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته. والمراد بالاستجابة: الطاعة، والامتثال، وبالدعوة: البعث، والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة، كما أنّ الجهل موت، قال الشاعر:

لا تُعْجِبَنَّ الجهولَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وثوبُه كَفَنُ

أو لمجاهدة الكفّار؛ لأنّهم لو رفضوها لغلبوهم، وقتلوهم. أو: للشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: يميته، فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي: التمكّن من إخلاص القلب. فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله. أو: بينه وبين ما تمنّاه بقلبه من طول الحياة، فيفسخ عزائمه ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنّكم إليه تحشرون، فيثيبكم على حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة.

٢٥ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ عذاباً ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ هو جواب للأمر، أي: إنْ أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصّة، ولكنّها تعمّكم. وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؛ لأنّ فيه معنى النهي، كما إذا قلت: انزل عن الدابّة لا تطرحك، وجاز: لا تطرحنّك. ﴿ومن﴾ في ﴿منكم﴾ للتبعيض ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ
فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ
أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا

٢٦ ـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ مفعول به لا ظرف، أي: واذكروا وقت كونكم أقلّة أذلّة ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لأنّ الناس كانوا لهم أعداء مضادّين ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ بمظاهرة الأنصار، وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم، ولم تحلّ لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

٢٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تعطّلوا فرائضه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بألا تستنّوا به ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ جزم عطف على ﴿لا تخونوا﴾ أي: ولا تخونوا ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم بألا تحفظوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك، ووباله. أو: ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنّكم تخونون. يعني: أنّ الخيانة توجد منكم عن تعمّد، لا عن سهو. أو: وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن، وقبح القبيح. ومعنى الخون: النقص، كما أنّ معنى الوفاء: التمام. ومنه: تخونه: إذا انتقصه. ثمّ استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنّك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

٢٨ ـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة، وهي: الإثم، والعذاب، أو: محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك، وتزهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الولد.

٢٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصراً، لأنّه يفرق بين الحق وبين الكفر، بإذلال حزبه؛ والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم، ويبثّ صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: سطع الفرقان،

وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

أي: طلع الفجر، أو مخرجاً من الشبهات، وشرحاً للصدور، أو: تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: الصغائر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، أي: الكبائر ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على عباده.

٣٠ ـ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمّا فتحَ عليه ذكّره مكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم، واستيلائه عليهم. والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك. وذلك: أنّ قريشاً لما أسلمت الأنصار فَرِقوا[1] أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد دخلت مكّة، فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا منّي رأياً ونصحاً. فقال أبو البَخْتَرِيّ: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدّوا وثاقه، وتسدّوا بابه غير كوّة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتتربّصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي! يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلّصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي! يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: أنا أرى أن تأخذوا من كلّ بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم. فإذا طلبوا العقل عقلناه، واسترحنا. فقال اللعين: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً! فتفرّقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ﷺ، وأمره ألا يبيت في مضجعه، وأذن له الله في الهجرة، فأمر عليّاً، فنام في مضجعه، وقال له: «اتّشح ببردتي، فإنّه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وباتوا مترصّدين. فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه،

---

(١) «الفرق»: الخوف.

﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

فأبصروا علياً، فبهتوا، وخيّب الله سعيهم، واقتفوا أثره، فأبطل الله مكرهم[1] ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك، ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعدّ لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره، وأبلغ تأثيراً.

٣١ ـ كان ﷺ يقرأ القرآن، ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته، فقال النضر بن الحارث: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم، وأحاديث العجم، فنزل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا صلف منهم، ووقاحة؛ لأنهم دُعُوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، فلم يأتوا به.

٣٢ ـ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ ﴿هذا﴾ اسم كان. و﴿هو﴾ فصل. و﴿الحق﴾ خبر كان. روي: أنّ النضر لمّا قال: (إن هذا إلا أساطير الأوّلين) قال له النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ويلك هذا كلام الله». فرفع النضر رأسه إلى السماء، وقال: ﴿إن كان هذا هو الحقّ من عندك﴾ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إن كان القرآن هو الحقّ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم. فقتل يوم بدر صبراً. وعن معاوية: أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك! حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحقّ: ﴿إن كان هذا هو

(١) قال ابن حجر: القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي. (حاشية الكشاف ٢ / ٢١٥).

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ

الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقّ فاهدنا له!

٣٣ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفي. والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم؛ لأنّك بعثت رحمة للعالمين وسنّته ألا يعذّب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيّهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنّهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو في موضع الحال. ومعناه: نفي الاستغفار عنهم. أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذّبهم. أو: معناه: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم؛ ممّن تخلّف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

٣٤ ـ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم، وهو معذّبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذّبهم الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذّبون وحالهم: أنّهم يصدّون عن المسجد الحرام، كما صدّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية. وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصدّ. وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصدّ من نشاء، وندخل من نشاء. فقيل: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ وما استحقّوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين. وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. كأنّه استثنى من كان يعلم وهو يعاند. أو: أراد بالأكثر الجميع؛ كما يُراد بالقلّة العدم.

٣٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيراً كصوت المُكّاء، وهو طائر مليح الصوت. وهو فعال، من: مكا يمكو: إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقاً، تفعلة من الصدى. وذلك أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم

فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ
بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن
يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

مشبّكون بين أصابعهم، يصفرون فيها، ويصفّقون. وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم.

٣٦ ـ ونزل في المطعمين يوم بدر. وكانوا اثني عشر رجلاً، وكلّهم من قريش. وكان يطعم كلّ واحد منهم كلّ يوم عشر جزر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتّباع محمّد ﷺ، وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثمّ تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكأنّ ذاتها تصير ندماً، وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر. وهو من دلائل النبوّة؛ لأنه أخبر عنه قبل وقوعه، فكان كما أخبر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأنّ منهم من أسلم، وحسن إسلامه.

٣٧ ـ واللام في: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفّار ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق الطيّب من المؤمنين. متعلّقة بيحشرون، ﴿لِيُمَيِّزَ﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم، وأموالهم.

٣٨ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: أبي سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عمّا هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله، بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لقتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى.

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ
وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

أو: معناه: أنّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر، وأسلموا، غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي. وبه احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ في أنّ المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

٣٩ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلى ألا يوجد فيهم شرك قطّ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كلّ دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر، وأسلموا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يثيبهم على إسلامهم.

٤٠ ـ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم، ومعينكم، فثقوا بولايته، ونصرته ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولّاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره، والمخصوص بالمدح محذوف.

٤١ ـ ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ «ما» بمعنى الذي. ولا يجوز أن يكتب إلا مفصولاً إذ لو كتب موصولاً، لوجب أن تكون ما كافّة. وغنمتم صلته. والعائد محذوف، والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانه. قيل: حتّى الخيط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والفاء إنّما دخلت لما في «الذي» من معنى المجازاة. وأنّ وما عملت فيه في موضع رفع على أنّه خبر مبتدأ، تقديره: فالحكم: أنّ لله خمسه ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني عبد المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل ـ استحقوه حينئذ بالنصرة لقصّة عثمان وجبير بن مطعم ـ وثلاثة أسهم لليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأمّا بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى. وإنّما يعطون لفقرهم، ولا يعطى أغنياؤهم. فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه كان

إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ

على ستّة: لله والرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتّى قبض. فأجرى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخمس على ثلاثة، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء ـ رضي الله عنهم ـ ومعنى لله وللرسول: لرسول الله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فاعملوا به، وارضوا بهذه القسمة. فالإيمان يُوجِب الرضا بالحكم، والعمل بالعلم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بالله﴾ أي: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ وبالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد: ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ. وهو بدل من يوم الفرقان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير. كما فعل بكم يوم بدر.

٤٢ ـ ﴿إِذْ أَنتُم﴾ بدل من يوم الفرقان. أو: التقدير: اذكروا ﴿إذ أنتم﴾ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾ شطّ الوادي. وبالكسر[1] فيهما: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ القربى إلى جهة المدينة، تأنيث الأدنى ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البعدى عن المدينة، تأنيث الأقصى. وكلتاهما فعلى من بنات الواو. والقياس قلب الواو ياء، كالعليا تأنيث الأعلى. وأمّا القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي: العير، وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ نصب على الظرف، أي: مكاناً أسفل من مكانكم. يعني: في أسفل الوادي بثلاثة أميال، وهو مرفوع المحلّ لأنّه خبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكّة، وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ لخالف بعضكم بعضاً. فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبّطهم ما في قلوبهم من تهيّب رسول الله ﷺ والمسلمين. فلم يتّفق لكم من التلاقي ما وفّقه

(١) أي: (بالعِدْوَةِ).

وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ

الله، وسبّب له ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته. أو: اللام تتعلق بمحذوف، أي: ليقضي الله أمراً كان ينبغي أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: القضاء يحتمل الحكم، أي: ليحكم ما علم أنه يكون كائناً، أو ليتمّ أمراً كان قد أراده ـ وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة ـ وهو عزّ الإسلام وأهله، وذلّ الكفر وحزبه. ويتعلق بـ«يقضي» ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿حَيِيَ﴾ نافع، وأبو عمرو. فالإدغام لالتقاء المثلين، والإظهار؛ لأنّ حركة الثاني غير لازمة؛ لأنّك تقول في المستقبل: يحيا، والإدغام أكثر. استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبهة؛ حتّى لا يبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنّه دين الحقّ؛ الذي يجب الدخول فيه، والتمسّك به. وذلك أنّ وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها، ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين، وأنّ العير كانت أسفل منهم، مع أنهم قد علموا ذلك كلّه مشاهدة؛ ليعلم الخلق: أنّ النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب، بل بالله تعالى، وذلك: أنّ العدوة القصوى؛ التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار[1] تسوخ فيها الأرجل، ولا يُمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكان العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم وعدّتهم، وقلّة المسلمين، وضعفهم. ثمّ كان ما كان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

٤٣ ـ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ نصب بإضمار اذكر. أو: هو متعلق بقوله:

---

(١) «الخبار»: ما لان من الأرض واسترخى.

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

﴿لسميع عليم﴾ أي: يعلم المصالح، إذ يقلّلهم في عينك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾. أي: في رؤياك. وذلك أنّ الله تعالى أراه إيّاهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوّهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم، وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أمر القتال، وتردّدتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم، وأنعم بالسلامة من الفشل، والتنازع، والاختلاف ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة، والجبن، والصبر، والجزع.

٤٤ ـ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان، أي: يبصّركم إيّاهم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو نصب على الحال. وإنّما قلّلهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به، فيزداد يقينهم، ويجدّوا، ويثبتوا. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لقد قلّلوا في أعيننا، حتّى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وكانوا ألفاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتّى قال قائل منهم: إنّما هم أكلة جزور. قيل: قد قلّلهم في أعينهم قبل اللقاء، ثمّ كثّرهم فيما بعده؛ ليجترئوا عليهم قلّة مبالاة بهم، ثمّ تفجأهم الكثرة فيبهتوا، ويهابوا. ويجوز أن يبصروا الكثير قليلاً، بأن يستر الله بعضهم بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّون به الكثير، كما أحدث في أعين الحُول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إنّ الأحول يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد، فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟! ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

٤٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفّار.

فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا
تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ

وترك وصفها؛ لأنّ المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفّار. واللقاء: اسم غالب للقتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم، ولا تفرّوا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم! ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم، من النصرة والمثوبة، وفيه إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربّه أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون همّاً؛ وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزّعة عن غيره.

٤٦ ـ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالجهاد، والثبات مع العدوّ، وغيرهما ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فتجبنوا. وهو منصوب بإضمار أن، ويدلّ عليه: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم. يقال: هبّت رياح فلان: إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره. شبّهت في نفوذ أمرها، وتمشيته بالريح وهبوبها. وقيل: لم يكن نصر قطّ إلا بريح يبعثها الله. وفي الحديث: «نُصِرتُ بالصبا، وأُهلكتْ عاد بالدبور»[(١)] ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في القتال مع العدّو وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: معينهم، وحافظهم.

٤٧ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ هم أهل مكّة حين نفروا لحماية العير، فأتاهم رسولُ أبي سفيان: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتّى نقدم بدراً، ونشرب بها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها العرب! فذلك بطرهم. ورياؤهم الناس: بإطعامهم. فوافوها فَسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين، طربين، مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكآبة، والحزن من خشية الله،

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ
ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ
ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

مخلصين أعمالهم لله. والبطر: أن تشغله كثرةُ النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم. وهو وعيد.

٤٨ ـ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ واذكر ﴿إذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ، ووسوس إليهم: أنّهم لا يغلبون. و﴿غالب﴾ مبنيّ، نحو: لا رجل. و﴿لكم﴾ في موضع رفع خبر ﴿لا﴾ تقديره: لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: مجير لكم. أوهمهم أنّ طاعةَ الشيطان ممّا يجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فلمّا تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هارباً ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: رجعت عما ضمنت لكم من الأمان. رُوي: أن إبليس تمثّل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، في جند من الشيطان، معه راية، فلمّا رأى الملائكة تنزل نكص، فقال له الحارث بن هشام: أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكة. وانهزموا. فلمّا بلغوا مكّة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتّى بلغتني هزيمتكم. فلمّا أسلموا علموا أنه الشيطان ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: عقوبته ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٤٩ ـ اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين، أو: أريد: والذين هم على حرف، ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون: أنّ المسلمين اغترّوا بدينهم، فخرجوا وهم ثلاثمئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يسلّط القليل الضعيف على الكثير القويّ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٥٠ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو عاينت وشاهدت، لأنّ «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلوا ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ظهورهم واستاههم إذا أدبروا. أو: وجوههم عند الإقدام، وأدبارهم عند الانهزام. وقيل: في ﴿يتوفى﴾ ضمير الله تعالى ﴿والملائكة﴾ مرفوعة بالابتداء ﴿ويضربون﴾ خبر. والأول الوجه. لأنّ الكفّار لا يستحقُّون أن يكون الله متوفّيهم بلا واسطة. دليلهُ قراءة ابن عامر ﴿تَتَوَفَّى﴾ بالتاء ﴿وَذُوقُوا۟﴾ يقولون لهم: ﴿ذوقوا﴾ معطوف على ﴿يضربون﴾ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: مقدّمة عذاب النار. أو: ﴿ذوقوا عذاب﴾ الآخرة بشارة لهم به. أو: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لرأيت أمراً فظيعاً.

٥١ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: كسبت، وهو ردّ على الجبريّة. وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة و﴿ذلك﴾ رفع بالابتداء و﴿بما قدّمت﴾ خبره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأنّ الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ لأن تعذيب الكفّار من العدل. وقيل: «ظلّام» للتكثير لأجل العبيد، أو: لنفي أنواع الظلم.

٥٢ ـ الكاف في: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه، أي: داوموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش، أو: من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا۟﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمعنى: جروا على عادتهم في التكذيب، فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ

---

٥٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب، أو: الانتقام ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بسبب: أنّ الله لم يصحّ في حكمته أن يغيّر نعمته عند قوم حتّى يغيروا ما بهم من الحال. نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكّة حال مرضيّة فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن كما تغيّر الحال المرضيّة إلى المسخوطة، تغيّر الحال المسخوطة إلى أسخط منها. وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه، وسعوا في إراقة دمه، غيّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغيّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذّبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

٥٤ ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد، أو: لأنّ في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بيّن أنّ ذلك هو الإهلاك، والاستئصال ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم، وجحود الحقّ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلّهم من غرقى القبط، وقتلى قريش ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، والمعاصي.

٥٥ ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصرّوا على الكفر فلا يتوقّع منهم الإيمان.

٥٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين كفروا﴾، أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا. وجعلهم شرّ الدوابّ؛ لأنّ شر الناس الكفّار، وشرّ الكفّار المصرّون، وشرّ المصرّين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ في

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم

كلّ معاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار، والنار.

٥٧ ـ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ فإمّا تصادفنّهم، وتظفرنّ بهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ففرّق عن محاربتك، ومناصبتك بقتلهم شرّ قتلة، والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتّى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتباراً بهم، واتّعاظاً بحالهم. وقال الزجّاج: افعل بهم ما تفرّق به جمعهم، وتطرد به من عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلّ المشرّدين من ورائهم يتّعظون.

٥٨ ـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نكثاً بأمارات تلوحُ لك ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد. وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم، أي: حاصلين على استواء في العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الناقضين للعهود.

٥٩ ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين: شاميّ، وحمزة، ويزيد، وحفص. وبالتاء وفتح السين: أبو بكر. وبالتاء وكسر السين: غيرهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فاتوا، وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنّهم لا يفوتون، ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. ﴿أنّهم﴾: شاميّ. أي: لأنّهم. وكلّ واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، غير أنّ المكسورة على طريقة الاستئناف، والمفتوحة تعليل صريح. فمن قرأ بالتاء فـ ﴿الذين كفروا﴾ مفعول أوّل، والثاني ﴿سبقوا﴾. ومن قرأ بالياء فـ﴿الذين كفروا﴾ فاعل و﴿سبقوا﴾ مفعول، تقديره: أن سبقوا، فحذف أن. وأن مخففة من الثقيلة ، أي: أنّهم سبقوا، فسدّ مسدّ المفعولين. أو: يكون الفاعل مضمراً، أي: ولا يحسبن محمّد الكافرين سابقين. ومن ادّعى تفرّد حمزة بالقراءة ففيه نظر، لما بيّناه من عدم تفرّده بها. وعن الزهريّ: أنّها نزلت فيمن أفلت من فلّ المشركين.

٦٠ ـ ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد، أو لجميع الكفار

مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كلّ ما يتقوّى به في الحرب من عُدَدِها. وفي الحديث: «ألا إنّ القوة الرمي»[١] قالها ثلاثاً على المنبر. وقيل: هي الحصون ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هو: اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله أو: هو جمع: ربيط، كفصيل وفصال. وخصّ الخيل من بين ما يتقوّى به، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: أهل مكّة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ غيرهم. وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل فارس، أو كفرة الجنّ. وفي الحديث: «إنّ الشيطانَ لا يقرب صاحب فرس، ولا داراً فيها فرس عتيق»[٢]. ورُوي: أنّ صهيل الخيل يرهب الجنّ. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفّر عليكم جزاؤه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في الجزاء، بل تُعطون على التمام.

٦١ ـ ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟﴾ مالوا. جنح له، وإليه: مال ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح. وبكسر السين: أبو بكر. وهو مؤنّث تأنيث ضدّها، وهو الحرب ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإنّ الله كافيك، وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

٦٢ ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يمكروا، ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ قوّاك ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً، أو بالأنصار.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧) ومسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣).
(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٢٣٢).

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن

---

٦٣ ـ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب الأوس والخزرج بعد تعاديهم مئة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال، لم يقدر عليه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضله ورحمته، وجمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ، وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يخدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر من يتبعونك.

٦٤ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو بمعنى مع، وما بعد منصوب. والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً. ويجوز أن يكون في محلّ الرفع، أي: كفاك الله، وكفاك المؤمنون. قيل: أسلم مع النبيّ ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وستّ نسوة، ثمّ أسلم عمر، فنزلت.

٦٥ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: المبالغة في الحثّ على الأمر، من الحرض، وهو: أن ينهكه المرض حتّى يشفى على الموت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه عِدَةٌ من الله وبشارة بأنّ الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفّار، بعون الله، وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنّ الكفّار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب، وطلب ثواب، كالبهائم، فيقل ثباتهم، ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، بخلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو النصر من الله. قيل: كان عليهم ألا يفروا، ويثبت الواحد للعشرة. ثمّ ثقل عليهم ذلك، فنسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله:

٦٦ ـ ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ضَعفاً حمزة وعاصم ﴿فَإِن

يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا

يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ بالياء فيها، كوفي، وافقه البصري في الأولى، والمراد الضعف في البدن ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرّتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أنّ الحال مع القلّة والكثرة لاتتفاوت؛ إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المئتين والمئة الألف. وكذلك بين مقاومة المئة والمئتين والألف الألفين.

٦٧ ـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صحّ له، ولا استقام ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ ﴿أن تكون﴾ بصريّ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه من: الثخانة، هي: الغلظ والكثافة. يعني: حتّى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزّ الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثمّ الأسر بعد ذلك. رُوي: أنّ رسول الله ﷺ أُتي بسبعين أسيراً، فيهم العبّاس عمّه وعقيل، فاستشار النبيّ ﷺ أبا بكر فيهم، فقال: قومك وأهلك استبقهم لعلّ الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوّي بها أصحابك. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كذّبوك، وأخرجوك، فقدّمهم، واضرب أعناقهم، فإنّ هؤلاء أئمّة الكفر، وإنّ الله أغناك عن الفداء. مكّن علياً من عقيل، وحمزة من العبّاس، ومكنّي من فلان ـ لنسيب له ـ فلنضرب أعناقهم. فقال ﷺ: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]». ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدّتهم». فقالوا: بل نأخذ الفداء. فاستشهدوا بأحد. فلمّا أخذوا الفداء نزلت الآية[1]: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ متاعها. يعني: الفداء، سمّاه عرضاً لقلّة بقائه، وسرعة فنائه

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠ / ٤٢).

وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: ما هو سبب الجنّة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ في عتاب الأولياء.

٦٨ ـ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ ألا يعذّب أحداً على العمل بالاجتهاد. وكان هذا اجتهاداً منهم؛ لأنّهم نظروا في أنّ استبقاءهم ربّما كان سبباً في إسلامهم، وأنّ فداءهم يُتَقوّى به على الجهاد، وخفي عليهم: أنّ قتلهم أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، أو: ما كتب الله في اللوح ألا يعذب أهل بدر، أو: ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار. وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد، فيكون حجّة على منكري القياس. ﴿كتاب﴾ مبتدأ و﴿من الله﴾ صفته، أي: لولا كتاب ثابت من الله. و﴿سبق﴾ صفة أخرى له. وخبر المبتدأ محذوف، أي: لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود. و﴿سبق﴾ لا يجوز أن يكون خبراً، لأنّ «لولا» لا يظهر خبرها أبداً ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم، وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجدْ بكاءً تباكيت. فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» ـ لشجرة قريبة منه[1] ـ ورُوي: أنّه ﷺ قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» لقوله: كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ[2].

٦٩ ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوي: أنّهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدّوا أيديهم إليها فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنّه من جملة الغنائم. والفاء للتسبيب، والسبب محذوف، ومعناه: قد أحللت لكم الغنائم ﴿فكلوا﴾ ﴿حَلَٰلًا﴾ مطلقاً

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣١) ومسلم (١٧٦٣) (٥٨).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٤٤).

طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

عن العتاب والعقاب. من: حلّ العقال. وهو نصب على الحال من المغنوم، أو: صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً ﴿طَيِّبًا﴾ لذيذاً هنيئاً، أو: حلالاً بالشرع، طيّباً بالطبع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تقدموا على الشيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

٧٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ في مَلَكتكم، كأنّ أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿من الأُسارى﴾ أبو عمرو، جمع: أسرى ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان، وصحّة نيّة ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، إمّا أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو: يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ رُوي: أنّه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضّأ لصلاة الظهر، وما صلّى حتّى فرّقه، وأمر العبّاس أن يأخذ منه، فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ منّي، وأرجو المغفرة. وكان له عشرون عبداً، وإنّ أدناهم ليتّجر في عشرين ألفاً، وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقةٍ من الآخر(١).

٧١ ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالرّدة، أو: منع ما ضمَّنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كفرهم به، ونقض ما أخذ على كلّ عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك منهم، أي: أظفرك بهم، كما رأيتم يوم بدر، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمآل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر في الحال.

٧٢ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من مكّة حبّاً لله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/٤٩).

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: آووهم إلى ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. وهم الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولّى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة، دون ذوي القرابات، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقيل: أراد به النصرة والمعاونة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ من مكّة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ من تولّيهم في الميراث ﴿وِلاَيَتِهم﴾: حمزة. وقيل: هما واحد ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممّن آمن وهاجر. ولمّا أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة فريضة، فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة، دلّ على أنّ صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: من أسلم ولم يهاجر ﴿فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: إن وقع بينهم وبين الكفّار قتال، وطلبوا معونة، فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فإنّه لا يجوز لكم نصركم عليهم؛ لأنّهم لا يبتدئون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدّي حدّ الشرع.

٧٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم. ومعناه: نهي المسلمين عن موالاة الكفّار، وموارثتهم، وإيجاب مباعدتهم، ومصارمتهم، وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولّي بعضهم بعضاً، حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفّار كلا قرابة، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تحصل فتنة في الأرض ،

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

ومفسدة عظيمة، لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً.

٧٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنّهم صدقوا إيمانهم، وحقّقوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن، ومفارقة الأهل، والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا؛ لأجل الدين والعقبى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لامنّة فيه، ولا تنغيص. ولا تكرار: لأنّ هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضيلاً وترغيباً ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وأولو القرابات أولى بالتوارث. وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنّصرة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقسمته، أو: في اللوح، أو: في القرآن. وهو آية المواريث. وهو دليلٌ لنا على توريث ذوي الأرحام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه . قسم الناس أربعة أقسام: قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

. . . .

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدمدمة؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق، أي: تبرىء منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكّلهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال: فعن عليّ وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: أنّ بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان. وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية، قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفّي رسول الله ﷺ، ولم يُبيِّن لنا أين نضعها. وكانت قصّتها تشبه قصّة الأنفال؛ لأنّ فيها ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود؛ فلذلك قرنت بينهما. وكانتا تدعيان: القرينتين. وتعدّان السابعة من الطوال، وهي سبع. وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، نزلت في القتال. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾

١ ـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿براءة﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «من» لابتداء الغاية، متعلِّقٌ بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. أي: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم، كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان. أو: مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ كقولك: رجل من بني تميم في الدار. والمعنى: أنّ الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذٌ إليهم.

٢ ـ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا في الأرض كيف شئتم. والسيح: السير على مهل. رُوي: أنّهم عاهدوا المشركين من أهل مكّة وغيرهم من العرب، فمكثوا إلا ناساً منهم، وهم بنو ضمرة، وبنو كنانة. فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا، لا يتعرّض لهم. وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكّة سنة ثمان. وكان الأميرُ فيها عتّاب بن أَسِيد. وأمّر رسول الله ﷺ أبا بكر على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليّاً راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم. فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدّي عنّي إلا رجل منّي» فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلمّا كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس! إني رسولُ رسولِ الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين، أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنّة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمّ إلى كلّ ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ! أبلغ ابن عمّك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنّه

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ

ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف[1]. والأشهر الأربعة: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، أو عشرون من ذي الحجة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من ربيع الآخر. وكانت حرماً؛ لأنهم أومنوا فيها، وحرم قتلهم وقتالهم، أو: على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها. والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم، وأنّ ذلك قد نسخ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مذلّهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

٣ ـ ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع ﴿براءة﴾ على الوجهين. ثمّ الجملة معطوفة على مثلها. والأذان بمعنى الإيذان، وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والفرق بين الجملة الأولى والثانية: أنّ الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنّما عُلِّقت البراءة بالذين عُوهِدوا من المشركين، وعلّق الأذان بالناس؛ لأنّ البراءة مختصّة بالمعاهدين والناكثين منهم. وأمّا الأذان فعام لجميع الناس؛ من عاهد، ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين، ومن لم ينكث ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم عرفة، لأنّ الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج، أو: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحجّ من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحجّ بالأكبر، لأنّ العمرة تُسمَّى: الحجّ الأصغر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: بأن الله، حذفت صلة الأذان تخفيفاً ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطف على المنويّ في ﴿بريء﴾، أو: على الابتداء، وحذف الخبر، أي: ورسوله بريء. وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إنّ، والجرّ على الجوار، أو: على القسم، كقولك: لعمرك. وحكي: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء. فلبّبه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابيّ قراءته، فعندها أمر عمر بتعلّم العربية ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوبة

(١) قال ابن حجر: هذا ملفّق من مواضع. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٤٣).

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو: تبتم على التولّي والإعراض عن الإسلام ﴿فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غير سابقين الله، ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم.

٤ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والمعنى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ فقولوا لهم: سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد، أو: وفوا بالعهد ولم ينقضوه. وقرىء ﴿لم ينقضوكم﴾ أي: عهدكم، وهو أليق. لكن المشهورة أبلغ؛ لأنّه في مقابلة التمام ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدوّاً ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأدّوه إليهم تاماً كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدّتهم. والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الموفي كالغادر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أنّ قضيّة التقوى ألا يسوّى بين الفريقين، فاتّقوا الله في ذلك.

٥ ـ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ مضى، أو خرج ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم، وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حلّ أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ: الأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ وقيّدوهم. وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كلّ ممرّ ومجتاز ترصدونهم به. وانتصابه على الظرف ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فأطلقوا عنهم بعد الأسر

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ
عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧

والحصر، أو: فكفوا عنهم، ولا تتعرّضوا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الكفر والغدر بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ برفع القتل قبل الأداء بالالتزام.

٦ ـ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ «أحدٌ» مرتفع بفعل شرط مضمر يفسّره الظاهر، أي: وإن استجارك أحد استجارك. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبّره، ويطّلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثمّ قاتله إن شئت. وفيه دليلٌ على أنّ المستأمنَ لا يُؤذَى، وليس له الإقامة في دارنا، ويُمكَّن من العود ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر بالإجارة في قوله: ﴿فأجره﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنّهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام، وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتّى يسمعوا، أو يفهموا الحق.

٧ ـ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾ «كيف» استفهام في معنى الاستنكار، أي: مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا في ذلك، ولا تحدّثوا به نفوسكم، ولا تفكّروا في قتلهم. ثمّ استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة، وبني ضمرة، فتربّصوا أمرهم، ولا تقاتلوهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ ولم يظهر منهم نكث، أي: فما أقاموا على وفاء العهد ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ على الوفاء. و«ما» شرطية، أي: فإن ﴿استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أنّ التربّص بهم من أعمال المتّقين.

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

٨ ـ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد. وحذف الفعل لكونه معلوماً، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنّهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ أي: يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾ لا يراعوا حلفاً، ولا قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان، والوفاء بالعهد. وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان، والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون العهد، أو متمرّدون في الكفر، لا مروءة تمنعهم عن الكذب، ولا شمائل تردعهم عن النكث، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما.

٩ ـ ﴿اشْتَرَوْا﴾ استبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو: اتّباع الأهواء والشهوات ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه، وصرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس الصنيع صنيعهم.

١٠ ـ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ «ولا» تكرار، لأنّ الأوّل على الخصوص حيث قال: ﴿فيكم﴾، والثاني على العموم، لأنه قال: ﴿في مؤمن﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم، والشرارة.

١١ ـ ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم؛ على حذف المبتدأ ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون فيتفكّرون فيها. وهذا اعتراضٌ، كأنّه قيل: وإنّ من تأمّل تفصيلها، فهو العالم تحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

١٢ ـ ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا العهود المؤكّدة بالأيمان ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ وعابوه ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم. فوضع ﴿أئمة الكفر﴾ موضع ضمير «هم» وهم[1] رؤساء الشرك، أو زعماء قريش الذين همّوا بإخراج الرسول. وقالوا: إذا طعن الذمّي في دين الإسلام طعناً ظاهراً جاز قتله، لأن العهد معقود معه على ألا يطعن. فإذا طعن فقد نكث عهده، وخرج من الذمّة. ﴿أئمّة﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ. الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة. أصلها: أأممة، لأنها جمع إمام؛ كعماد وأعمدة، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة، وأدغمت في الميم الأخرى. فمن حقّق الهمزتين أخرجهما على الأصل، ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ وإنّما أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ لأنّه أراد أيمانهم التي أظهروها، ثمّ قال: ﴿لا أيمان لهم﴾ على الحقيقة . وهو دليلٌ لنا على أنّ يمين الكافر لا تكون يميناً. ومعناه عند الشافعي ـ رحمه الله ـ أنهم لا يوفون بها، لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث. ﴿لا إيمان﴾: شاميّ، أي: لا إسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلّق بـ ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ وما بينهما اعتراض، أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عمّا هم عليه بعد ما وجد منهم من العظائم. وهذا من غاية كرمه على المسيء.

١٣ ـ ثمّ حرّض على القتال فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكّة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالقتال، والبادىء أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم؟! ونجّهم بترك مقاتلتهم، وحثهم عليها. ثمّ وصفهم بما يوجب الحث عليها من نكث العهد، وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب

(١) من المطبوع.

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ
أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ
وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ توبيخ على الخشية منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ بأن تخشوه، فقاتلوا أعداءه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاخشوه، أي: إنّ قضيّة الإيمان الكامل ألاّ يخشى المؤمن إلا ربّه، ولا يبالي بمن سواه.

١٤ ـ ولمّا وبّخهم الله على ترك القتال جرّد لهم الأمر به بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾، ووعدهم النصر ليثبّت قلوبهم، ويصحّح نيّاتهم بقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسراً ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يغلّبكم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم. وهم خزاعة عيبة[1] رسول الله ﷺ.

١٥ ـ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه. وقد حصّل الله هذه المواعيد كلّها، فكان دليلاً على صحّة نبوّته ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ابتداء كلام، وإخبار بأنّ بعض أهل مكّة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلم ناس منهم؛ كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو. وهي تردّ على المعتزلة قولهم إنّ الله تعالى شاء أن يتوب على جميع الكفرة، لكنهم لا يتوبون باختيارهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون، كما يعلم ما قد كان ﴿حَكِيمٌ﴾ في قبول التوبة.

١٦ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ ﴿أم﴾. منقطعة، والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان، أي: لا تتركون على ما أنتم عليه حتّى يتبيّن الخلّص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة من الذين يضادّون رسول الله ﷺ والمؤمنين. ولمّا: معناها التوقّع. وقد دلّت على أنّ تبيّن ذلك

---

(١) «عيبة الرجل»: موضع سرّه.

وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

متوقّع كائن، وأنّ الذين لم يخلصوا دينهم لله يميّز بينهم وبين المخلصين. ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على ﴿جاهدوا﴾ داخل في حيّز الصلة. كأنّه قيل: ولمّا يعلم المجاهدين منكم والمخلصين، غير المتّخذين وليجة من دون الله. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كقولك: ما علم الله منّي ما قيل فيّ، تريد: ما وجد ذلك منّي. والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة، ولا براءة من المشركين ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خير أو شرّ، فيجازيكم عليه.

١٧ ـ ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ما صحّ لهم، وما استقام ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: (مَسْجِدَ الله) مكيّ، وبصريّ. يعني: المسجد الحرام. وإنّما جمع في القراءة بالجمع، لأنّه قبلة المساجد، وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأنّ كلّ بقعة منه مسجد. أو: أريد جنس المساجد. وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام، الذي هو صدر الجنس، وهو آكد؛ إذ طريقه طريق الكناية، كما تقول: فلان لا يقرأ كتب الله، فإنّه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام. وهو حال من الواو في ﴿يعمروا﴾. والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادّين عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

١٨ ـ ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عمارتها: رمّ ما استرمّ منها، وقمّها، وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وصيانتها ممّا لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، لأنها بنيت للعبادة والذكر. ومن الذكر: درس العلم ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول، لاقترانهما في الأذان، والإقامة، وكلمة الشهادة، وغيرها. أو: دلّ عليه بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾. وفي

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تنبيه على الإخلاص. والمراد: الخشية في أبواب الدين، بألا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقّع مخوف؛ إذ المؤمن قد يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألا يخشاها. وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم، لأنّ عسى كلمة إطماع. والمعنى: إنّما تستقيم عمارة هؤلاء، وتكون معتدّاً بها عند الله دون سواهم.

١٩ ـ ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ السقاية والعمارة مصدران من: سقى، وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بدّ من مضاف محذوف، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقيل: المصدر بمعنى الفاعل، يصدقه قراءة ابن الزبير: (سُقَاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام). والمعنى: إنكار أن يشبّه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يُسوّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، لأنّهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما. نزلت جواباً لقول العبّاس حين أُسر، فطفق عليّ ـ رضي الله عنه ـ يوبّخه بقتال رسول الله ﷺ، وقطيعة الرحم: تذكر مساوينا وتدع محاسننا؟ فقيل: أولكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد، ونسقي الحاجّ، ونفكّ العاني. وقيل: افتخر العبّاس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعليّ ـ رضي الله عنه ـ بالإسلام والجهاد. فصّدق الله تعالى علياً.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ من أهل السقاية، والعمارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ لا أنتم المختصون بالفوز دونهم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

---

٢١ ـ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ ﴿يَبْشُرهم﴾: حمزة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾ تنكير المبشّر به لوقوعه وراء صفة الواصف، وتعريف المعرّف ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

٢٢ ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا ينقطع.

٢٣ ـ لمّا أمر الله النبيّ ﷺ بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه، ولأخيه، ولقرابته: إنّا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ويعجبه، ومنهم من تتعلّق به زوجته أو ولده، فيقول: تدعنا بلا شيء فنضيع! فيجلس معهم، ويدع الهجرة. فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: آثروه، واختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي: ومن يتولّ الكافرين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢٤ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقاربكم. (وعشيراتكم): أبو بكر ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وهو عذاب عاجل، أو عقاب آجل، أو فتح مكّة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والآية تنعي على الناس مما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحبّ له دينه على الآباء، والأبناء، والأموال، والحظوظ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

٢٥ ـ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوقعة بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكّة. وقيل: إنّ المواطن التي نصر الله فيها النبيّ ﷺ والمؤمنين ثمانون موطناً. ومواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكروا ﴿يوم حنين﴾ ﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف. فلمّا التقوا قال رجلٌ من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلّة! فساءت رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يوم﴾ ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلّهم[1] مكّة، وبقي رسول الله ﷺ وحده، وهو ثابت في مركزه، ليس معه إلا عمّه العبّاس آخذاً بلجام دابّته، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه آخذاً بركابه. فقال للعبّاس: «صح بالناس» ـ وكان صيّتاً ـ فنادى: يا أصحاب الشجرة! فاجتمعوا وهم يقولون: لبّيك لبّيك. ونزلت الملائكة عليهم الثياب البياض على خيول بلق[2]. فأخذ رسول الله ﷺ كفّاً من تراب فرماهم به. ثمّ قال: «انهزموا وربّ الكعبة». فانهزموا[3]. وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان». وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «ما» مصدرية. والباء بمعنى مع، أي: مع رُحْبها. وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بثياب السفر، أي: متلبساً بها. والمعنى: لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم، فكأنّها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ثمّ انهزمتم.

(١) «فلّهم»: الفلّ: الكتيبة المنهزمة.
(٢) «بلق»: البَلَق: سواد وبياض في اللون.
(٣) رواه مسلم (١٧٧٥) (٧٧).

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ رحمته التي سكنوا بها، وأمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، أو خمسة آلاف، أو ستّة عشر ألفاً ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل، والأسر، وسبي النساء، والذراري ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ بستر كفر العدوّ بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ بنصر الوليّ بعد الانهزام.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجس. وهو مصدر، يقال: نَجِس نَجَساً، وقَذِر قَذَراً، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنّهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو: جعلوا كأنّهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فلا يحجّوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليّة ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة، حين أُمِّر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على الموسم. [ويكون المراد من نهي القربان: النهي عن الحجّ والعمرة][1]. وهو مذهبنا. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ يمنعون عن المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره. وقيل: نهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين عن الحجّ، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق، والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من الغنائم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حجيج

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا
بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

الإسلام ﴿إن شَآءَ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق آمالكم. أو ﴿عليم﴾ بمصالح العباد، ﴿حكيم﴾ فيما حكم، وأراد.

٢٩ ـ نزل في أهل الكتاب: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لأنّ اليهود مثنّية والنصارى مثلّثة ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، حيث يزعمون: أن لا أَكْل في الجنّة ولا شُرب ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنهم لا يحرّمون ما حرّم في الكتاب والسنّة، أو: لا يعلمون بما في التوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحقّ. يقال: فلان يدين بكذا: إذا اتّخذه دينه، ومعتقده ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بيان لـ«الذين» قبله. وأمّا المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية. وكذا: الترك، والهنود، وغيرهما، بخلاف مشركي العرب، لما روى الزهريّ: أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام صالَحَ عبدةَ الأوثان على الجزية إلا مَن كان مِن العرب[١]. ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها. وسمّيت جزية لأنّها ممّا يجب على أهلها أن يجزوه، أي: يقضوه، أو: هي جزاء على الكفر على التمهيل في تذليل ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن يد مواتية غير ممتنعة لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد. ولذا قالوا: أعطى بيده: إذا انقاد. وقالوا: نزع يده عن الطاعة. أو: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصَّغار، والذّل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويُسلِّمها وهو قائم والمتسلّم جالس، وأن يتلتل[٢] تلتلة، ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية ياذميّ، وإن

---

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٦٣).

(٢) «يتلتل»: يزعزع ويزلزل.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

كان يؤدِّيها، ويزخ[1] في قفاه. وتسقط بالإسلام.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ كلّهم، أو بعضهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾. وعزير: اسم أعجميّ. ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه. ومن نوّن ـ وهم: عاصم، وعليّ ـ فقد جعله عربياً ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: قول لا يعضده برهان، ولا يستند إلى بيان. فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ عن معنى تحته، كالألفاظ المهملة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ لا بدّ فيه من حذف مضاف، تقديره: يضاهي قولهم قولهم. ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، يعني: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنّه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزيز ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم. ﴿يضاهئون﴾ عاصم. وأصل المضاهاة: المشابهة. والأكثر ترك الهمز[2]. واشتقاقه من قولهم: امرأة ضهياء، وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض. كذا قاله الزجّاج ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هم أحقّاء بأن يقال لهم هذا. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحقّ بعد قيام البرهان.

٣١ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي: أهل الكتابين ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ نسّاكهم ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في

---

(١) «يُزَخ»: يُدْفع ويُرمى به.

(٢) أي: «يضاهون» وهي قراءة: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، ونافع، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب.

وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ
يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ

تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم، ونواهيهم ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿أحبارهم﴾، أي: اتخذوه ربّاً، حيث جعلوه ابن الله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ يجوز الوقف عليه، لأن ما بعده يصلح ابتداء، ويصلح وصفاً لـ: ﴿واحداً﴾ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن الإشراك.

٣٢ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مثّل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمّد ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثّ في الآفاق، يريد الله أن يزيده، ويبلّغه الغاية القصوى من الإشراق، ليطفئه بنفخه. أجرى ﴿ويأبى الله﴾ مجرى: لا يريد الله. ولذا وقع في مقابلة ﴿يريدون﴾. وإلا فلا يقال: كرهت، أو أبغضت إلا زيداً.

٣٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على أهل الأديان كلّهم. أو: ليظهر دين الحقّ على كلّ دين ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

٣٤ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ استعار الأكل للأخذ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: بالرشا في الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سفلتهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾. يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على

وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم: أخذ الرشا، وكنز الأموال، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد: المسلمون الكانزون غير المنفقين. ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً. وعن النبي ﷺ: «ما أدّي زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكّى فلم يزكّ فهو كنز وإن كان ظاهراً»(١). ولقد كان كثيرٌ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة يقتنون الأموال، ويتصرّفون فيها، وما عابهم أحدٌ ممن أعرض عن القنية، لأن الإعراضَ اختيارٌ للأفضل، والاقتناء مباحٌ لا يذمّ صاحبه ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى المعنى، لأنّ كلَّ واحدٍ منهما دنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]. أو: أريد به الكنوز والأموال. أو: معناه: ولا ينفقونها والذهب. كما أنّ معنى قوله:

... . فإنّي وقيّارٌ بها لغريب(٢)

أي: وقيّار كذلك. وخصّا بالذكر من بين سائر الأموال، لأنهما قانون التموّل، وأثمان الأشياء. وذكر كنزهما دليل على ما سواهما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣٥ ـ ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أنّ النار تحمى عليها، أي: توقد. وإنّما ذكّر الفعل، لأنّه مسند إلى الجارّ والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: ﴿يحمى﴾ لانتقال الإسناد عن النار إلى ﴿عليها﴾ كما تقول: رفعت القصّة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصّة قلت: رفع إلى الأمير ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وخصّت هذه الأعضاء، لأنّهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمّهم وإياه مجلس ازورّوا عنه،

(١) رواه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد (٣/ ٦٤).
(٢) عجز بيت لضابىء بن الحارث البرجمي، وصدره: فمن يك أمسى بالمدينة رحله.

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ
عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟
ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ

وتولّوا بأركانهم، وولّوه ظهورهم. أو: معناه: يكوون على الجهات الأربع: مقاديمهم، ومآخيرهم، وجنوبهم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضرّ به أنفسكم، وهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو: بال كونكم كانزين.

٣٦ ـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة. والمراد: بيان: أنّ أحكام الشرع تُبتنى على الشهور القمريّة المحسوبة بالأهلة دون الشمسيّة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما أثبته، وأوجبه من حكمته، أو: في اللوح. ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة للقعود عن القتال، وذو الحجة للحجّ، والمحرّم لتحريم القتال فيه. وواحد فرد، وهو رجب لترجيب العرب إياه، أي: لتعظيمه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الدين المستقيم، لا ما يفعله أهل الجاهلية. يعني: أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم، ودين إبراهيم وإسماعيل. وكانت العرب تمسّكت به، فكانوا يعظّمونها، ويحرّمون القتال فيها، حتّى أحدثت النسيء، فغيّروا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ﴾ في الحرُم، أو في الاثني عشر ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصي ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ حال من الفاعل، أو المفعول ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ جميعاً ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصر لهم. حثّهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

٣٧ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ بالهمزة مصدر نسأه: إذا أخّره، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك: أنّهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون، شقّ عليهم ترك المحاربة، فيحلّونه، ويحرّمون

زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ

مكانه شهراً آخر، حتّى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرّمون من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي: هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم ﴿يُضَلُّ﴾ كوفيّ، غير أبي بكر ﴿بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالنسيء. والضمير في: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ للنسيء، أي: إذا أحلّوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرّموه في العام القابل ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها. وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين. واللام تتعلّق بـ﴿يحلّونه﴾ ﴿ويحرّمونه﴾ أو بـ﴿يحرمونه﴾ فحسب، وهو الظاهر ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ﴿فيحلّوا﴾ بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ﴿ما حرّم الله﴾ من القتال، أو: من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ زيّن لهم الشيطان ذلك، فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حال اختيارهم الثبات على الباطل.

٣٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟﴾ اخرجوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تثاقلتم، وهو أصله، إلا أنّ التاء أدغمت في التاء فصارت ثاء ساكنة، فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن، أي: تباطأتم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ضمّن معنى الميل والإخلاد فعدّي بإلى، أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقّ السفر ومتاعبه. أو: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في غزوة تبوك، استنفروا في وقت عسرة، وقحط، وقيظ مع بعد الشقّة، وكثرة العدوّ، فشقّ عليهم ذلك. وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها، إلا في غزوة تبوك ليستعدّ الناس تمام العدّة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا
تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا
تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ

﴿ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٣٩ ـ ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾ سخط عظيم على المتثاقلين، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنّه يهلكهم، ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم، وأطوع، وأنّه غنيّ عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً. وقيل: الضمير في: ﴿ولا تضروه﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام، لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس، وأن ينصره. ووعده كائن لا محالة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من التبديل، والتعذيب، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

٤٠ ـ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد. فدلّ بقوله: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أنّه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أسند الإخراج إلى الكفّار، لأنّهم حين همّوا بإخراجه أذن الله له في الخروج، فكأنّهم أخرجوه ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أحد اثنين، كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]. وهما: رسول الله، وأبو بكر. وانتصابه على الحال ﴿إِذۡ هُمَا﴾ بدل من ﴿إذ أخرجه﴾ ﴿فِي ٱلۡغَارِ﴾ هو نقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمنى مكّة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾ بدل ثان ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصرة، والحفظ. قيل: طلع المشركون فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال: إن تُصَب اليوم ذَهَبَ دينُ الله! فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما»[1].

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ =

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾
ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ

وقيل: لمّا دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه[1]. وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم أعم أبصارهم!»[2] فجعلوا يتردّدون حول الغار، ولا يفطنون، قد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصّحابة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها، وعلم: أنّهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبيّ ﷺ، أو على أبي بكر، لأنه كان يخاف، وكان عليه الصلاة والسلام ساكن القلب ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، أو: أيّده بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: دعوتهم إلى الكفر ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾ فصل ﴿ٱلۡعُلۡيَا﴾ ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب: يعقوب، بالعطف. والرفع على الاستئناف أوجه، إذ هي كانت، ولم تزل عالية ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعزّ بنصره أهل كلمته ﴿حَكِيمٌ﴾ يذلّ أهل الشرك بحكمته.

٤١ ـ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ في النفور لنشاطكم له ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو: خفافاً لقلّة عيالكم، وثقالاً لكثرتها، أو: خفافاً من السلاح، وثقالاً منه، أو: ركباناً ومشاة، أو: شباباً وشيوخاً، أو: مهازيل وسماناً، أو: صحاحاً ومراضاً ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال، والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ الجهاد ﴿خَيۡرٞ

= قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر! ما ظنّك باثنين الله ثالثهما». (حاشية الكشاف ٢ / ٢٧٢).

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٧٤١) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٥٣).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٧٢).

لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن
بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ
أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ
لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿لَكُمْ﴾ من تركه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كون ذلك خيراً فبادروا إليه.

٤٢ ـ ونزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ هو ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البرّ والفاجر. أي: لو كان ما دعوا إليه مغنماً ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً. والقاصد والقصد: المعتدل ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ المسافة الشاطّة الشّاقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ من دلائل النبوّة، لأنّه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر. و﴿بالله﴾ متعلّق بـ﴿سيحلفون﴾، أو: هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين، أي: ﴿سيحلفون﴾ يعني: المتخلّفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون: ﴿بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾. أو: ﴿سيحلفون بالله﴾ يقولون: ﴿لو استطعنا﴾. وقوله: ﴿لخرجنا﴾ سدّ مسدّ جوابي القسم، و«لو» جميعاً. ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان، كأنّهم تمارضوا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل من ﴿سيحلفون﴾ أو: حال منه، أي: مهلكين. والمعنى: أنّهم يهلكونها بالحلف الكاذب، أو حال من ﴿لخرجنا﴾ أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقّة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

٤٣ ـ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الزلّة، لأنّ العفو رادف لها. وهو من لطف العتاب، بتصدير العفو في الخطاب. وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام، حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلّوا لك بعللهم، وهلاّ استأنيت بالإذن؟! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يتبيّن لك الصادق في العذر من الكاذب فيه.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

وقيل: شيئان فعلهما رسول الله ﷺ، ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من الأسارى، فعاتبه الله. وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام، لأنّه عليه الصلاة والسلام إنّما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنّما عوتب مع أنّ له ذلك لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

٤٤ ـ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ عِدَةٌ لهم بأجزل الثواب.

٤٥ ـ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ يعني: المنافقين. وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّوا في دينهم، واضطربوا في عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيّرون، لأنّ التردّد ديدن المتحير، كما أنّ الثبات ديدن المتبصِّر.

٤٦ ـ ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾ أهبة، لأنّهم كانوا مياسير. ولمّا كان ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم للخروج. نهوضهم للخروج، كأنّه قيل: ما خرجوا، ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكسّلهم، وضعّف رغبتهم في الانبعاث. والتثبيط: التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قاله الرسول ﷺ غضباً عليهم، أو: قاله الشيطان بالوسوسة ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ هو ذمّ لهم، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمنى، الذين شأنهم القعود في البيوت.

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ

٤٧ ـ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فساداً وشرّاً. والاستثناء متّصل؛ لأنّ المعنى ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً. والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور. وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء، فكان استثناء متّصلاً؛ لأن الخبال بعضه ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب، والنمائم، وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعاً: إذا أسرع. وأوضعته أنا. والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم. والمراد: الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من الماشي. وخطّ في المصحف ﴿ولاأوضعوا﴾ بزيادة الألف، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخطّ العربي. والخطّ العربيّ اخترع قريباً من نزول القرآن. وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى. ونحوه: ﴿أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ حال من الضمير في: ﴿أوضعوا﴾ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نيّاتكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمّامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالمنافقين.

٤٨ ـ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بصدّ الناس، أو: بأن يفتكوا به عليه الصلاة والسلام ليلة العقبة، أو بالرجوع يوم أحد ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبّروا لك الحيل والمكائد، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو تأييدك، ونصرك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وغلب دينه، وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: على رغم منهم.

٤٩ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة ـ وهي الإثم ـ بألا تأذن لي، فإنّي إن تخلفت بغير إذنك أثمت. أو: لا تلقني في

أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن
تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا
مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا
هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ
إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ
بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

الهلكة، فإنّي إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجدّ بن قيس المنافق: قد علمت الأنصار أنّي مُستهتر بالنساء، فلا تفتنّي ببنات [بني][1] الأصفر، يعني: نساء الروم، ولكنّي أعينك بمالي، فاتركني ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ يعني: أنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلّف ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآن؛ لأنّ أسبابَ الإحاطة معهم. أو: هي تحيط بهم يوم القيامة.

٥٠ ـ ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر، وغنيمة.

﴿تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة، وشدّة في بعضها، نحو ما جرى يوم أحد ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ الذي نحن متّسمون به من الحذر، والتيقظ، والعمل بالحزم ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ عن مقام التحدّث بذلك إلى أهاليهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

٥١ ـ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: قضى من خير، أو شرّ ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: الذي يتولّانا، ونتولّاه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين ألّا يتوكّلوا على غير الله.

٥٢ ـ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما النصرة، والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين، إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد، وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ بنا ما ذكرنا

---

(١) سقطت من الأصل والمطبوع.

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ماهو عاقبتكم.

٥٣ ـ ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟﴾ في وجوه البرّ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعين، أو مكرهين نصب على الحال. ﴿كُرْهاً﴾: حمزة، وعليّ. وهو أمر في معنى الخبر. ومعناه ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وقوله:

أَسِيئي بنا أو أَحْسِني لا ملومةً ... لـديـنـا ولا مقليّـة إن تقلّـت[١]

أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أو أحسنت. وقد جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً. ومعنى عدم القبول: أنّه ﷺ يردّها عليهم، ولا يقبلها، أو: لا يثيبها الله. وقوله: ﴿طوعاً﴾ أي: من غير إلزام من الله ورسوله. و﴿كرهاً﴾ أي: ملزمين. وسمي الإلزام إكراهاً لأنّهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعليل لردّ إنفاقهم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ متمرّدين، عاتين.

٥٤ ـ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ «أنهم»: فاعل منع. و﴿هم﴾ و﴿أن تقبل﴾ مفعولاه. أي: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلان ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ لأنّهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى. وصفهم بالطوع في قوله: ﴿طوعاً﴾ وسلبه عنهم هاهنا، لأنّ المراد بطوعهم: أنّهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ، أو من رؤسائهم. وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

٥٥ ـ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الإعجاب بالشيء: أن تسرّ به سرور راض به، متعجّب من حسنه. والمعنى:

(١) البيت لكثيّر عزّة.

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ
وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟
مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإنّ الله إنّما أعطاهم ما أعطاهم ليعذّبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له، أو بنهب أموالهم، وسبي أولادهم، أو بجمعها، وحفظها، وحبّها، والبخل بها، والخوف عليها. وكلّ هذا عذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة. ودلّت الآيةُ على بطلان القول بالأصلح، لأنّه أخبر: أنّ إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر، وعلى إرادة الله تعالى المعاصي؛ لأنّ إرادة العذاب بإرادة ما يعذّب عليه. وكذا إرادة الإماتة على الكفر.

٥٦ ـ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تَقِيّة.

٥٧ ـ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصّنين، من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أو غيراناً ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أو نفقاً يندسّون فيه. وهو مفتعل من الدخول ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء. من: الفرس الجموح.

٥٨ ـ ﴿وَمِنْهُم﴾ من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات، ويطعن عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ «إذا»: للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط. وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، وما فيه صلاح أهله، لأنّه عليه الصلاة والسلام استعطف قلوب أهل مكّة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

٥٩ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: ﴿ولو أنهم رضوا﴾ لكان خيراً لهم. والمعنى: ﴿ولو أنّهم رضوا﴾ ما أصابهم به الرسول من الغنيمة، وطابت به نفوسهم، وإن قلّ نصيبهم ﴿وقالوا﴾ كفانا فضل الله وصنعه، و﴿حسبنا﴾ ما قسم لنا، سيرزقنا غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنّا إلى الله﴾ في أن يغنمنا فضله ﴿لراغبون﴾. ثم بيّن مواضعها التي توضع فيها، فقال:

٦٠ ـ ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة، أي: هي مختّصة بهم، لا تتجاوز إلى غيرهم، كأنّه قيل: إنّما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنّما الخلافة لقريش، تريد: لا تتعدّاهم، ولا تكون لغيرهم. فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلّها، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا. وعن حذيفة و ابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنّهم قالوا: في أيّ صنف منها وضعتها أجزأك. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ لا بدّ من صرفها إلى الأصناف. وهو المرويّ عن عكرمة. ثمّ: الفقير: الذي لا يسأل، لأنّ عنده ما يكفيه للحال. والمسكين: الذي يسأل، لأنّه لا يجد شيئاً، فهو أضعف حالاً منه. وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ على العكس ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم السعاة الذين يقبضونها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ على الإسلام، أشراف من العرب، كان رسول الله ﷺ يتألّفهم على أن يسلموا، وقوم منهم أسلموا، فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ هم المكاتبون يعانون منها ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين ركبتهم الديون ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقراء الغزاة، أو: الحجيج المنقطع بهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. وعدل عن اللام إلى ﴿في﴾ في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ﴾

ممن سبق ذكره، لأنّ في للوعاء، فنبّه على أنهم أحقّاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنّة لها. وتكرير ﴿في﴾ في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، ليدلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصّة دون غيرهم، على أنّهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً بأنّهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها، وما سلطهم على التكلّم فيها ولمز قاسمها. وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأنّ الله أعزّ الإسلام، وأغنى عنهم. والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاصّ يرتفع، وينتهي بذهاب ذلك المعنى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في معنى المصدر المؤكد، لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة. ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة.

٦١ ـ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الأذن: الرجل الذي يصدّق كلّ ما يسمع، ويقبل قول كلّ أحد. سُمِّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن. قصدوا به المذمّة، وأنّه من أهل سلامة القلوب والغرّة. ففسّره الله تعالى بما هو مدح له، وثناء عليه، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ كقولك: رجل صدق، تريد: الجودة والصلاح، كأنّه قيل: نَعَمْ هو أذن، ولكن نِعْمَ الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحقّ، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك. ثمَّ فسّر كونه أذن خير بأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدّق بالله لما قام عنده من الأدلّة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقبل من المؤمنين الخلّص من المهاجرين والأنصار. وعدّى فعل الإيمان بالباء إلى الله، لأنّه قصد به التصديق بالله الذي هو ضدّ الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنّه قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلّم لهم ما يقولونه، ويصدّقه لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] كيف ينبو عن الباء؟! ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالعطف على

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ
يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ
الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي
قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أذن﴾. ﴿ورحمةٍ﴾: حمزة، عطف على ﴿خير﴾ أي: هو أذن خير، وأذن رحمة لا يسمع غيرهما، ولا يقبله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: ﴿و﴾ هو ﴿رحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي: أظهروا الإيمان أيّها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفعل بكم مايفعل بالمشركين. أو: هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ويشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين.

٦٢ ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلّمون بالمطاعن، أو يتخلّفون عن الجهاد، ثمّ يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكّدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم. فقيل لهم: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحّد الضمير، لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله، فكانا في حكم شيء واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني. أو: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

٦٣ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ﴾ أنّ الأمر والشأن ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يجاوز الحدّ بالخلاف. وهي مفاعلة، من: الحدّ، كالمشاقّة من الشقّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ على حذف الخبر، أي: فحقّ أنّ له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

٦٤ ـ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليحذر المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ «تنزِل» بالتخفيف: مكيّ، وبصريّ ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق. والضمائر للمنافقين، لأنّ السورة إذا نزلت في معناهم؛ فهي نازلة عليهم، دليله ﴿قل استهزؤوا﴾. أو: الأوّلان للمؤمنين، والثالث للمنافقين. وصحّ ذلك؛ لأنّ المعنى يقود إليه ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ
كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ
مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ

ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم. وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم، وفي استهزائهم بالإسلام وأهله، حتّى قال بعضهم: وددتُ أني قدّمت فجلدت مئة وأنّه لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

٦٥ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله نبيّه على ذلك. فقال: «احبسوا عليّ الركب» فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فقالوا: يانبيّ الله، لا والله ما كنّا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكن كنّا في شيء ممّا يخوض فيه الركب ليقصّر بعضنا على بعض السفر، أي: ﴿ولئن سألتهم﴾ وقلت لهم: لم قلتم ذلك؛ لقالوا: ﴿إنّما كنّا نخوض ونلعب﴾[1] ﴿قُلْ﴾ يامحمّد: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لم يعبأ باعتذارهم، لأنّهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنّهم معترفون باستهزائهم، وبأنّه موجود فيهم، حتّى وبّخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير. وذلك إنّما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء.

٦٦ ـ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنّها لا تنفعكم بعد ظهور سرّكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبتهم، وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مُصرّين على النفاق، غير تائبين منه ﴿إن يُعفَ﴾ ﴿تُعَذَّب طائفةٌ﴾ غير عاصم.

٦٧ ـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلاثمئة، والنساء

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥٥).

بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ
وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ
فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ

المنافقات مئة وسبعين ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: كأنّهم نفس واحدة. وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾. وصفهم بما يدلّ على مضادّة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ بالكفر، والعصيان ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عن الطاعة، والإيمان ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ شحّاً بالمبارّ، والصدقات، والإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾ فتركهم من رحمته، وفضله. ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق، الذي هو التمرّد في الكفر، والانسلاخ عن كلّ خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلمّ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش، الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمّهم.

٦٨ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلود فيها ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسۡبُهُمۡ﴾ فيه دلالة على عظم عذابهم، وأنّه بحيث لا يزاد عليه ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب، وجعلهم مذمومين، ملحقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ دائم معهم في العاجل، لا ينفكّون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

٦٩ ـ الكاف في: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ محلّها رفع، أي: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو: نصب على

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

فعلتم، مثل فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم، أي: تلذّذوا بملاذ الدنيا. والخلاق: النصيب، مشتقّ من الخلق، وهو: التقدير، أي: ما خلق للإنسان، بمعنى: قدّر من خير ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ كالفوج الذي خاضوا، أو: كالخوض الذي خاضوه. والخوض: الدخول في الباطل واللهو. وإنما قدّم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾، وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ مغن عنه، ليذمّ الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، ثمّ يشبّه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ ثمّ ذكر نبأ من قبلهم فقال:

٧٠ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو بدل من ﴿الذين﴾ ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم هم قوم شعيب ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ مدائن قوم لوط، وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشرّ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صحّ منه أن يظلمهم بإهلاكهم، لأنّه حكيم، فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، وتكذيب الرسل.

٧١ ـ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر، والتراحم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك، والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

ٱللَّهُۗ﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في: سأنتقم منك يوماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كلّ شيء، قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٞ﴾ واضع كلاًّ موضعه.

٧٢ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ يطيب فيها العيش. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ هو عَلَمٌ بدليل قوله ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١]. وقد عرفت أنّ الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمل. وهي مدينة في الجنّة ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وشيء من رضوان الله ﴿أَكۡبَرُ﴾ من ذلك كلّه، لأنّ رضاه سببُ كلّ فوز، وسعادة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماوعد، أو: إلى الرضوان ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً.

٧٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجّة ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم. وكلّ من وُقفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجّة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنّم.

٧٤ ـ أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلّفين، فيسمع من معه منهم، منهم: الجلاس بن سويد، فقال: والله! لئن كان ما يقول محمّد حقاً لإخواننا الذين خلّفناهم، وهم سادتنا، فنحن شرّ من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنّ محمّداً صادق، وأنت شرّ من الحمار! وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستحضر، فحلف بالله ماقال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيّك تصديق

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ

الصادق، وتكذيب الكاذب[١]، فنزل: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾[٢] يعني: إنّ كان ما يقول محمّد حقاً فنحن شرّ من الحمير، أو: هي استهزاؤهم. فقال الجلاس: يارسول الله! والله لقد قلته، وصدق عامر، فتاب الجلاس، وحسنت توبته ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام. وفيه دلالةٌ على أنّ الإيمان والإسلام واحد، لأنه قال: ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من قتل محمّد ﷺ، أو: قتل عامر لردّه على الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوّجوا ابن أبيّ وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ وما أنكروا، وما عابوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم. وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى[٣] ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ عن النفاق ﴿يَكُ﴾ الثواب ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ يصرّوا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالقتل، والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من العذاب.

٧٥ ـ ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ روي أنّ ثعلبة بن حاطب قال: يارسول الله! ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال عليه الصلاة والسلام: «ياثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه». فراجعه وقال: والذي بعثك بالحقّ! لئن رزقني مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه. فدعا له. فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود، حتّى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجمعة والجماعة. فسأل عنه

(١) في الأصل المخطوط: تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وهو خطأ.
(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٩١).
(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٢٩٢).

لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ

رسول الله ﷺ، فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد. فقال «ياويح ثعلبة!». فبعث رسول الله ﷺ مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة، فقال: ماهذه إلّا جزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه: «ياويح ثعلبة!» مرّتين. فنزلت. فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل الترابَ على رأسه، فقُبِضَ رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فلم يقبلها. وجاء بها إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان ـ رضي الله عنه[1] ـ ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرجنّ الصدقة. والأصل: لنتصدقنّ. ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بإخراج الصدقة.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أعطاهم الله المال، ونالوا مناهم ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ منعوا حقّ الله، ولم يفوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مصرّون على الإعراض.

٧٧ ـ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخل نفاقاً متمكّناً في قلوبهم، لأنّه كان سبباً فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: جزاء فعلهم، وهو يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق، والصلاح، وكونهم كاذبين. ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق.

٧٨ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ يعني: المنافقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسرّوه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٩٠) وفي إسناده ضعفاء لا يُحتج بحديثهم.

وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

من المطاعن في الدين، وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

٧٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلّه النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ على البدل من الضمير في ﴿سرّهم ونجواهم﴾ ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعيبون المطّوّعين المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ متعلّق بيلمزون. روي: أنّ رسول الله ﷺ حثّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربّي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي. فقال عليه الصلاة والسلام: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»[1] فبارك الله له حتّى صُولحت تماضر امرأته عن ربع الثّمن على ثمانين ألفاً. وتصدّق عاصم بمئة وسق من تمر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على ﴿المطّوّعين﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم. وعن نافع: ﴿جَهْدَهم﴾ وهما واحد. وقيل: الجُهد: الطاقة، والجَهد: المشقة. وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال: بتّ ليلتي أجرّ بالجرير[2] على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأمّا صاع أبي عقيل، فالله غنيّ عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزؤون ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم. وهو خبر غير دعاء. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٨٠ ـ ولمّا سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه في مرضه، نزل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ . وقد مرَّ أنّ هذا الأمر في معنى الخبر، كأنّه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم

---

(١) رواه البزار كما في: كشف الأستار (٢٢١٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ٣٢).

(٢) «الجرير»: حبل البعير.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ
ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّۗ

للتكثير، وليس على التحديد والغاية. إذ لو استغفر لهم مدّة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنّهم كفّار، والله لا يغفر لمن كفر به. والمعنى: وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم. وقد وردت الأخبار بذكر السبعين، وكلّها تدلّ على الكثرة، لا على التحديد والغاية. ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد: أنّ العدد قليل وكثير؛ فالقليل مادون الثلاث، والكثير الثلاث فما فوقها، وأدنى الكثير الثلاث، وليس لأقصاه غاية. والعدد أيضاً نوعان: شفع ووتر. وأوّل الأشفاع اثنان، وأوّل الأوتار ثلاثة. والواحد ليس بعدد، والسبعة أوّل الجمع الكثير من النوعين، لأنّ فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب، لأنّ ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة، كقولك: اثنا عشر، وثلاثة عشر إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرّتين، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات، وكذلك إلى مئة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه، وكمال الحساب والكثرة منه، فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كلّ وجه، ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليأس من المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا غفران للكافرين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر، والطغيان.

٨١ ـ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسول الله ﷺ، فأذن لهم، وخلّفهم بالمدينة في غزوة تبوك. أو: الذين خلّفهم كسلهم، ونفاقهم، والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مخالفة له. وهو مفعول له، أو حال، أي: قعدوا لمخالفته، أو: مخالفين له ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يفعلوا مافعله المؤمنون من بذل أموالهم، وأرواحهم في سبيل الله. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان، وداعي الإيقان ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قالوا

لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟

إليه بعهده عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٣٥ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذّبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمّا. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضدّ الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجّة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمّم؛ لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلّة فكرهم فيها.

١٣٧ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثّاً على الصبر، ودالاًّ على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنّات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيّدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

وهذا آخر قصّة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من فرعون، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر، وغير ذلك ليسليٍّ رسول الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ ـ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عَبَر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمرّوا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعليّ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافّة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اختلفتم بعد نبيّكم قبل أن يجفّ ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تجفّ أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكده.

١٣٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبرّ الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لإنّ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنّهم هم المعترضون للتبار، وأنّه لا يعدوهم البتّة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحلّ.

١٤٠ ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أغير المستحقّ للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ
مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ ـ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أنجاكم﴾: شامي ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من: سام السلعة، إذا طلبها. وهو استئناف لا محلّ له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ﴿يقْتُلون﴾ نافع ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: في الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ ـ ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ رُوي أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوّك. فأوحى الله إليه: أما علمت أنّ خلوفَ فم الصائم أطيبُ عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيدَ عليها عشرة أيّام من ذي الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقّت له من الوقت، وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد. ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة، وفصّلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص، أي: اختصّ مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة، ولا كيفيّة. وروي أنّه كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وذكر الشيخ في «التأويلات»: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ

وكان اختصاصه باعتبار أنّه أسمعه صوتاً تولّىٰ تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلمّا سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّىٰ لي حتى أراك. ﴿أرْني﴾ مكيّ. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليلٌ لأهل السنّة على جواز الرؤية، فإنّ موسى ـ عليه السلام ـ اعتقد أنّ الله تعالى يُرى حتّى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليلٌ لنا أيضاً، لأنّه لم يقل: لن أُرى ليكون نفياً للجواز. ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنّه ليس بمرئيّ، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه علّق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليقُ الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه. والدليلُ على أنّه ممكن قوله: ﴿جعله دكاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجده؛ لأنه مختار في فعله، ولأنّه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعريّ: إنّه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرئياً.

وبهذه الوجوه يتبيّنُ جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأنّ موسى ـ عليه السلام ـ كان عالماً بأنه لا يُرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟
عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا
يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

كلّ سرّ وعلانية ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك.

٩٥ ـ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾ لتتركوهم، ولا توبّخوهم ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ تعليل لترك معاتبتهم، أي: أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم، ولا تصلحهم، لأنّهم أرجاس، لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ومصيرهم النار، يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلّفوا عتابهم ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: يجزون جزاء كسبهم.

٩٦ ـ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ﴾ أي: غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم؛ لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ أي: فإنّ رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وإنّما قيل ذلك لئلا يتوهّم: أنّ رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم.

٩٧ ـ ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ أهل البدو ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من أهل الحضر، لجفائهم، وقسوتهم، وبُعْدهم عن العلم والعلماء ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ ﴾ وأحقّ بألا يعلموا ﴿ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني: حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»[1] يعني: الأكرة، لأنّهم يفدّون، أي: يصيحون في حروثهم. والفديد: الصياح. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في إمهالهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٠٢) ومسلم (٥١). والفَدَّادُون: الذين تعلو أصواتُهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم فدّاد.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: يتصدّق ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً؛ لأنّه لا ينفق إلا تقيّة من المسلمين ورياء، لا لوجه الله، وابتغاء المثوبة عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: دوائر الزمان، وتبدّل الأحوال بدور الأيّام، لتذهب غلبتكم عليه، فيتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدور المصائب والحروب، التي يتوقعون وقوعها في المسلمين ﴿السُّوء﴾: مكيّ، وأبو عمرو. وهو العذاب. والسَّوء ـ بالفتح ـ ذمّ للدائرة، كقولك: رجل سَوء، في مقابلة قولك: رجل صدقٍ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجّهت عليهم الصدقة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٩٩ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في الجهاد، والصدقات ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أسباباً للقربة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾. وهي مفعول ثان ليتّخذ ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: دعاءه، لأنّه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»[1] ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي: النفقة، أو: صلوات الرسول ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ﴿قُرُبَةٌ﴾: نافع. وهذا شهادة من الله للمتصدّق بصحّة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه، على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه، والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر، وتمكّنه. وكذلك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: جنّته، وما في السين من تحقيق الوعد. وما أدلّ هذا الكلام على رضا الله عن المتصدّقين! وأنّ الصدقة منه بمكان إذا خلصت النيّةُ من صاحبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخلّ. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقلّ.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٥٣) والبخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨).

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ

١٠٠ ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة لهم ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ تبيين لهم. وهم الذين صلّوا إلى القبلتين، أو: الذين شهدوا بدراً، أو بيعة الرضوان ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ عطف على المهاجرين، أي: ومن الأنصار. وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ من المهاجرين والأنصار، فكانوا سائر الصحابة. وقيل: هم الذين اتّبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. والخبر: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية، والدنيويّة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ عطف على ﴿رضي﴾ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿مِنْ تَحْتِها﴾: مكيّ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٠١ ـ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يعني: حول بلدتكم، وهي المدينة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار. وكانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ، الذي هو: ﴿ممن حولكم﴾. والمبتدأ ﴿منافقون﴾. ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدّرت: ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: تمهّروا فيه، على أنّ ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف. وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره. ودلّ على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، أي: يخفون عليك مع فطنتك، وصدق فراستك لفرط تنوّقهم[1] في تحامي ما يشكّك في أمرهم. ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطّلع على سرّهم غيره، لأنّهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾

(١) «تنوقهم»: أي: تأنقهم.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾

هما: القتل، وعذاب القبر، أو: الفضيحة، وعذاب القبر، أو: أخذ الصدقات من أموالهم، ونهك أبدانهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب النار.

١٠٢ ـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: قوم آخرون سوى المذكورين ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلّفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنّهم بئس ما فعلوا نادمين. وكانوا عشرة: فسبعة منهم لمّا بلغهم ما نزل في المتخلّفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتين ـ وكانت عادته كلّما قدم من سفر ـ فرآهم موثّقين، فسأل عنهم، فذكروا له: أنّهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتّى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّهم، فقال: «وأنا أقسم ألا أحلّهم حتّى اؤمر فيهم». فنزلت، فأطلقهم، فقالوا: يارسول الله! هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك فتصدّق بها، وطهّرنا. فقال: «ماأُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً». فنزل: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾[1] ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ خروجاً إلى الجهاد ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ تخلفاً عنه. أو: التوبة: والإثم. وهو من قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً، أي: شاة بدرهم. فالواو بمعنى الباء، لأن الواو للجمع، والباء للإلصاق، فيتناسبان. أو: المعنى: خلط كلّ واحد منهما بالآخر، فكلّ واحد منهما مخلوط ومخلوط به، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كلّ واحد منهما بصاحبه، بخلاف قولك: خلطت الماء باللبن، لأنّك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنّك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يذكر توبتهم، لأنّه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليلٌ على التوبة.

١٠٣ ـ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ كفّارة لذنوبهم. وقيل: هي الزكاة

(١) قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه. (حاشية الكشاف ٢/٣٠٧).

﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾

﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ عن الذنوب، وهو صفة لصدقة. والتاء للخطاب، أو لغيبة المؤنّث. والتاء في: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ للخطاب لا محالة ﴿بِهَا﴾ بالصدقة. والتزكية مبالغة في التطهير، وزيادة فيه، أو: بمعنى الإنماء، والبركة في المال ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم، وترحّم. والسنّة أن يدعو المصدّق[1] لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ صَلَواتك كوفيّ غير أبي بكر. قيل: الصلاة أكثر من الصلوات، لأنّها للجنس ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ يسكنون إليه، وتطمئن قلوبهم بأنّ الله قد تاب عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، أو: سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرط منهم.

١٠٤ ـ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ المراد: المتوب عليهم، أي: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم، وتقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحّت ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقبلها إذا صدرت عن خلوص النية. وهو للتخصيص، أي: أنّ ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنّما الله هو الذي يقبل التوبة، ويردّها، فاقصدوه بها، ووجّهوها إليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير قبول التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة.

١٠٥ ـ ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: فإنّ عملكم لا يخفى، خيراً كان أو شراً، على الله وعباده، كما رأيتم، وتبيّن لكم. أو: غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة. فقد رُوي: أنّه لمّا تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذينَ تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلّمون، ولا يجالسون، [فما لهم][2]؟ فنزلت. وقوله تعالى: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار، والذهول عن التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾

(١) «المصدّق»: اسم فاعل، وهو الذي يأخذ الصدقات.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾

مايغيب عن الناس ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبئة تذكير، ومجازاة عليه.

١٠٦ ـ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بغير همز: مدنيّ، وكوفيّ غير أبي بكر. ﴿مُرْجَؤون﴾ غيرهم، من أرجيته، وأرجأته: إذا أخّرته. ومنه المرجئة، أي: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصرّوا، ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا. وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. والضابط: مكة. تخلفوا عن غزوة تبوك. وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إرجائهم. و «إمّا» للشكّ. وهو راجعٌ إلى العباد، أي: خافوا عليهم العذاب، وارجوا لهم الرحمة. ورُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه إلا يسلّموا عليهم، ولا يكلّموهم، ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شدّ أنفسهم على السواري، وإظهار الجزع والغمّ، فلمّا علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله، وأخلصوا نيّاتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله[١].

١٠٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ تقديره ﴿و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا﴾ ﴿الـذيـن﴾ بغير واو: مـدنـيّ، وشـامـيّ. وهـو مبتـدأ، خبره محذوف، أي: جازيناهم. روي: أنّ بني عمرو بن عوف لمّا بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلّى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف[٢]، وقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله يصلّي فيه، ويصلّي فيه

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٠٩).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ =

ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ

أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ـ وهو الذي قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ـ فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، ونحن نحبّ أن تصلّي لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلّينا فيه». فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عديّ وغيرهما: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، وأحرقوه» فَفُعِل، وأمر أن يتّخذ مكانه كُناسة تلقى فيها الجيف والقُمامة. ومات أبو عامر بالشام ﴿ضِرَارًا﴾ مفعول له، وكذا ما بعده، أي: مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم كانوا يصلّون مجتمعين في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرّقوا عنه، وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ﴾ إعداداً لأجل من ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو الراهب، أعدّوه له ليُصلّيَ فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ. وقيل: كلّ مسجد بني مباهاة، أو رياء، أو سمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بـ«حارب»، أي: من قبل بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، وهي الصّلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلّين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم.

١٠٨ ـ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ اللام للابتداء، و﴿أُسِّسَ﴾ نعت له. وهو مسجد قباء، أسّسه رسول الله ﷺ، وصلى

= فإن مسجد قباء كان قد أُسِّس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبُني مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٠٩).

مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

فيه أيام مقامه بقباء[١]، أو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده. قيل: القياس فيه «مذ» لأنّه لابتداء الغاية في الزمان، و«من» لابتداء الغاية في المكان. والجواب: أن «من» عامّ في الزمان والمكان ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصلياً ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قيل: لمّا نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتّى وقفوا على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكت القوم. ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله! إنهم لمؤمنون، وأنا معهم. فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء».؟ قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم. قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون أنتم وربّ الكعبة». فجلس، ثم قال: «يا معشر الأنصار! إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» قالوا: يا رسول الله! نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبيُّ ﷺ: ﴿رجال يحبّون أن يتطهروا﴾[٢]. قيل: هو عامّ في التطهّر عن النجاسات كلّها. وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه حرص المحبّ للشيء. ومعنى محبّة الله إيّاهم: أنّه يرضى عنهم، ويحسن إليهم كما يفعل المحبّ بمحبوبه.

١٠٩ ـ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وضع أساس ما يبنيه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا سؤال تقرير، وجوابه مسكوت عنه لوضوحه. والمعنى: ﴿أفمن أسّس﴾ بنيان دينه على قاعدة محكمة، وهي: تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم مَن﴾ أسّسه على قاعدة هي أضعف

(١) في المطبوع: وهي يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس. وخرج يوم الجمعة.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، وكأنه ملفّق من حديثين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١١).

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

القواعد، وهو الباطل والنفاق؛ الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثبات، والاستمساك. وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنّه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. والشفا: الحرف، والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفّر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر، وهو المتصدّع؛ الذي أشفى على التهدّم، والسقوط، ووزنه فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف. وألفه ليس بألف فاعل. وإنّما هي عينه. وأصله: هور، فقلبت ألفاً لتحرّكها، وانفتاح ما قبلها. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل، وكنه أمره. ﴿أفمن أُسِّس بُنيانُه﴾ ﴿أمَّن أُسِّس بُنيانُه﴾: شاميّ، ونافع. ﴿جُرْفٍ﴾: شاميّ، وحمزة، ويحيى. ﴿هار﴾ بالإمالة: أبو عمرو، وحمزة في رواية، ويحيى ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاح به الباطل في نار جهنم. ولما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، رشّح المجاز، فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليتصوّر أن المبطل كأنّه أسّس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنّم، فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها، قال جابر: رأيت الدخان يخرجُ من مسجد الضرار حين انهار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لا يوفّقهم للخير، عقوبةً لهم على نفاقهم.

١١٠ ـ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شكّ ونفاق زائد على شكّهم ونفاقهم، لما غاظهم من ذلك، وعظم عليهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: شاميّ، وحمزة، وحفص، أي: تتقطع. غيرهم ﴿تُقطَّع﴾ أي: إلا أن تُقَطَّع قلوبهم قِطَعاً، وتفرّق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه. وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها، متمكّنة. ثمّ يجوز أن يكون ذكر التقطّع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها، وما هو كائن منه بقتلهم، أو: في القبور، أو: في النار. أو: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطّع بها قلوبهم ندماً، وأسفاً على تفريطهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾

١١١ ـ ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مثّل الله إثابتهم بالجنّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله، بالشراء. ورُوي: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها. ومرّ برسول الله ﷺ أعرابيٌّ وهو يقرؤها، فقال: بيع والله مربح، لا نقيله، ولا نستقيله. فخرج إلى الغزو، واستشهد[1] ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان محلّ التسليم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: تارة يقتلون العدو، وطوراً يقتلهم العدوّ ﴿فيُقتَلون ويَقْتُلون﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر، أي: وعدهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صفته، أخبر بأنّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، قد أثبته ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾. وهو دليلٌ على أنّ أهل كلّ ملّة أمروا بالقتال، ووعدوا عليه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لأنّ إخلافَ الميعاد قبيح، لا يقدم عليه الكريم منّا، فكيف بأكرم الأكرمين؟! ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه، وأبلغ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فافرحوا غاية الفرح، فإنّكم تبيعون فانياً بباق ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنّة، فلا تبيعوها إلا بها.

١١٢ ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين. أو: هو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾، أي: الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي هكذا بلا سند، عن البصري مرسلاً، لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١٣).

ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن
مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

الشرك، وتبرّؤوا من النفاق ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ على نعمة الإسلام ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ: «سياحةُ أمّتي الصيام»[1]، أو: طلبة العلم لأنّهم يسيحون في الأرض، يطلبونه في مظانّه، أو: السائرون في الأرض للاعتبار ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، والمعرفة، والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك، والمعاصي. ودخلت الواو للإشعار بأنّ السبعة عقد تامّ، أو: للتضادّ بين الأمر، والنهي، كما في قوله: ﴿ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، أو: معالم الشرع ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتّصفين بهذه الصفات.

١١٣ ـ همّ عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لأبي طالب، فنزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ أي: ما صحّ له الاستغفار في حكم الله، وحكمته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنّهم ماتوا على الشرك. ثمّ ذكر عذر إبراهيم، فقال:

١١٤ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: وعد أبوه إيّاه أن يسلم، أو: هو وعد أباه أن يستغفر، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] دليله قراءة الحسن ﴿وعدها أباه﴾. ومعنى استغفاره: سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو: سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهة الوحي ﴿لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ﴾ أنّ أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) رواه ابن جرير موقوفاً عن عائشة. (الدر المنثور٤ /٢٩٧). ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «السائحون هم الصائمون». المصدر السابق.

لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا
يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ هو المتأوّه شفقاً وفرقاً. ومعناه: أنّه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطّف على أبيه الكافر ﴿حَلِيمٌ﴾ هو الصبور على البلاء، الصفوح عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه، وهو يقول: لأرجمنّك.

١١٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما أمر الله باتقّائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين، وغيره مما نهى عنه، وبيّن أنه محظور، لا يؤاخذ به عباده؛ الذين هداهم للإسلام، ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره، وعلمهم بأنّه واجب الامتثال. وأما قبل العلم والبيان فلا. وهذا بيانٌ لعذر مَن خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين. والمراد بما يتّقون ما يجب اتّقاؤه للنهي، فأمّا ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١٧ ـ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلّف عنه، كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فيه بعث للمؤمنين على التوبة، وأنّه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتّى النبيّ ﷺ والمهاجرين والأنصار ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في غزوة تبوك. ومعناه: في وقتها. والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق. وكانوا في عسرة من الظَّهْرِ يعتقب العشرة على بعيرٍ واحد، ومن الزاد تزوّدوا التمر المدوّد، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة[1]، وبلغت بهم الشدّة

(١) «الإهالة الزنخة»: الدهن المنتن.

مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ
وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ
لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩

حتى اقتسم التمرة اثنان، وربّما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء، ومن الماء حتى نحروا الإبل، وعصروا كرشها وشربوه، وفي شدّة زمان من حمارّة القيظ[١]، ومن الجدب والقحط ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾[٢] عن الثبات على الإيمان، أو: عن اتّباع الرسول في تلك الغزوة، والخروج معه. وفي ﴿كاد﴾ ضمير الشأن، والجملة بعده في موضع النصب، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثله أي: ليس الشأن خلق الله مثله. ﴿يزيغ﴾ حمزة، وحفص ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

١١٨ ـ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي: ﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة﴾[٣] وهو عطف على النبيّ ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الغزو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ برُحْبها، أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنّهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً، وجزعاً ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنّها خرجت من فرط الوحشة والغمّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن أبي بكر الورّاق أنّه قال: التوبة النصوح: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

١١٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم دون

---

(١) «حمارة القيظ»: شدّة حرّه.

(٢) أثبت المصنف في الأصل ﴿تزيغ﴾ وهي قراءة: الكسائي، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٤٩).

(٣) وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ﴾

المنافقين، أو: مع الذين لم يتخلّفوا، أو: مع الذين صدقوا في دين الله نيّة، وقولاً، وعملاً. والآية تدل على أنّ الإجماع حجّة؛ لأنّه أمر بالكون مع الصادقين، فلزم قبول قولهم.

١٢٠ ـ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ المراد بهذا النفي: النهي. وخصّ هؤلاء بالذكر ـ وإن استوى كلّ الناس في ذلك ـ لقربهم منه، ولا يخفى عليهم خروجه ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟﴾ ولا أن يضنّوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ عما يصيب نفسه، أي: لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضرّاء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كلّ شديدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهي عن التخلّف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهاد ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ ولايدوسون مكاناً من أمكنة الكفّار بجوافر خيولهم، وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم، ويضيّق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ولا يصيبون منهم إصابة بقتل، أو أسر، أو جرح، أو كسر، أو هزيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: لكلّ روعة سبعون ألف حسنة. يقال: نال منه: إذا رزأه، ونقصه. وهو عامّ في كل ما يسؤوهم. وفيه دليلٌ على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، وقعود، ومشي، وكلام، وغير ذلك، وعلى أنّ المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأنّ وط ديارهم مما يغيظهم. وقد أسهم النبيّ ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد تقضّي الحرب[1]. والموطىء: إما مصدر كالمورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا. (حاشية الكشاف ٢/ ٣٢٢).

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾
۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

فمعنى ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: يغيظهم وطؤه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أنهم محسنون، والله لا يبطل ثوابهم.

١٢١ ـ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم. وهو: كلّ منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل وهو في الأصل فاعل، من: ودى: إذا سال. ومنه: الودي. وقد شاع الاستعمال بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ذلك من الإنفاق، وقطع الوادي ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بكتب، أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كلّ واحد جزاء أحسن عمل كان لهم، فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم.

١٢٢ ـ ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: أن نفير الكافّة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فحين لم يكن نفير الكافّة فهلاّ نفر ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: من كلّ جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم، يكفونهم النّفير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلّفوا الفقاهة فيه، ويتجشّموا المشاقّ في تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مرمى همّتهم في التفقّه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراض الخسيسة من: التصدّر، والترؤّس، والتشبّه بالظلمة في المراكب والملابس ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه. وقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك، بعد ما أنزل في المتخلّفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن التفقّه في الدين. فأمروا أن ينفر من كلّ فرقة منهم طائفة إلى الجهاد، ويبقى سائرهم يتفقّهون، حتّى لا ينقطعوا عن التفقّه الذي هو الجهاد الأكبر؛ إذ الجهاد بالحِجاج أعظم أثراً من الجهاد

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

بالنّضال. والضمير في ﴿ليتفقهوا﴾ للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم. ﴿ولينذروا قومهم﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، بما حصّلوا في أيّام غيبتهم من العلوم. وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقّه.

١٢٣ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يقربون منكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾. القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. وقد حارب النبيّ ﷺ قومه، ثمّ غيرهم من عرب الحجاز، ثمّ الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره. وهكذا المفروض على أهل كلّ ناحية أن يقاتلوا من وليهم ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدّة وعنفاً في المقال، قبل القتال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة، والغلبة.

١٢٤ ـ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ﴿ما﴾ صلة مؤكّدة ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَـٰنًا﴾ إنكاراً، واستهزاء بالمؤمنين. وأيّكم: مرفوع بالابتداء. وقيل:

١٢٥ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، ونفاق. فهو فساد يحتاجُ إلى علاج، كالفساد في البدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً مضموماً إلى كفرهم ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت.

١٢٦ ـ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين. وبالتاء: حمزة، خطاب للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالقحط، والمرض، وغيرهما ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لايعتبرون. أو:

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بالجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿لايتوبون﴾ بما يرون من دولة الإسلام، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ بما يقع بهم من الاصطدام[1].

١٢٧ ـ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي، وسخرية به، قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرف، فإنا لانصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض: ﴿هل يراكم من أحد﴾ إن قمتم من حضرته ﷺ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرة النبيّ ﷺ مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن فهم القرآن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبّرون حتى يفقهوا.

١٢٨ ـ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ محمدﷺ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، ومن نسبكم، عربيّ، قرشيّ مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه شاقّ ـ لكونه بعضاً منكم ـ عنتكم، ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللهﷺ.

١٢٩ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وناصبوك ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فاستعن بالله، وفوّض إليه أمورك، فهو كافيك معرّتهم، وناصرك عليهم ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوّضت أمري إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ هو أعظم خلق الله، خلق مطافاً لأهل السماء، وقبلة للدعاء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالجر. وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعزّ. عن أبيّ: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ . . . الآية.

---

(١) في الأصل المخطوط: الاستلام، والمثبت من المطبوع.

فهرس الآيات

(٤) سورة النساء

(٧) سورة الأعراف

(٩) سورة التوبة

* * *